"رواية مثيرة أول الأمر، ثم مخيفة، ثم رائعة، ثم... لا بأس أيها القارئ العزيز: إقرأ على مسؤوليتك الخاصة!"

مؤلف رواية "امرأة في النافذة" أ. ج. فين

رواية

الهامس

أليكس نورث

ترجمة الحارث النبهان



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(الهامس)

ل «أليكس نورث»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق:

«Secret Wishs»


منشورات
الرمل

إلى لين وزاك

جيك

لديَّ الكثير مما أريد قوله لك، لكن كلًّا منا يجد صعوبة في الحديث مع الآخر، أليس كذلك؟

هذا ما يجعلني أتحدّث إليك كتابة.

أتذكّر عندما أتينا بك إلى البيت أول مرة من المستشفى، أنا وريبيكا. كانت ليلة مظلمة. وكان الثلج يتساقط. أبدًا لم أقد السيارة بهذا الحذر كلّه طيلة حياتي. كان عمرك يومين فقط، وكنت مثبتًا بالأحزمة في مهدك الصغير على المقعد الخلفي. أما ريبيكا فكانت تغفو نعسة إلى جانبك. كنت أنظر في المرآة من حين لآخر حتى أطمئن إلى أنك في أمان.

لأنني... ألا تعرف السبب؟ لأنني كنت خائفًا إلى أقصى حدّ. لقد عشت طفلًا وحيدًا لم يألف الأطفال الرضّع على الإطلاق. لكن، ها أنا الآن هنا... لقد صرت مسؤولًا عن طفلي أنا. كنت صغيرًا إلى حد لا يصدق؛ وكنت ضعيفًا جدًّا. وأما أنا فكنت غير مستعدٍّ على الإطلاق؛ كنت غير مستعدٍّ إلى درجة جعلتني أرى سماحهم لي بأخذك من المستشفى أمرًا مضحكًا. لم نكن متفقين معًا... أنا وأنت... منذ لحظة البداية نفسها. كانت ريبيكا تحملك بطريقة طبيعية سهلة كما لو أنها وُلِدت لك، لا العكس؛ بينما كان ينتابني شعور غريب، وكنت أخاف هذا الثقل الهشّ بين ذراعيَّ ولا أستطيع فهم ما تريده عندما تبكي. لم أستطع فهمك على الإطلاق.

ثم... لم يتغيّر هذا أبدًا.

عندما كبرت قليلًا، قالت لي ريبيكا إن تشابهنا هو السبب في عدم توافقنا؛ لكني لم أعرف إن كان ما قالته صحيحًا. آمل ألا يكون صحيحًا!... فلطالما كنت آمل أن يكون نصيبك أفضل من هذا.

لكن، وبصرف النظر عن كل شيء، نحن غير قادرين على تبادل الحديث. هذا يعني أنه لا بد لي من محاولة كتابة كل ما أريد قوله لك. عليَّ أن أكتب لك الحقيقة عن كل ما حدث في فيذربانك.

مستر نايت. والصبي الذي في الأرض. والفراشات. والبنت الصغيرة ذات الفستان الغريب.

والهامس أيضًا، بطبيعة الحال.

لن يكون هذا سهلًا؛ وعليَّ أن أستهلّ الكتابة باعتذار. فعلى مر السنين، كنت أقول لك، مرّات كثيرة، إن ما من شيء يدعو إلى الخوف. كنت أقول لك إن الوحوش لا وجود لها.

يؤسفني أنني كذبت عليك!

الجزء الأوّل

جولي

1

أسوأ كوابيس الأبوين هو إقدام شخص غريب على اختطاف طفلهما. لكنَّ حدوث هذا أمر غير معتاد أبدًا، من الناحية الإحصائية. عادة ما يكون الأطفال معرَّضين للحدِّ الأقصى من مخاطر الإساءة والأذى من قبل فرد من أفراد الأسرة، خلف الأبواب المغلقة. صحيح أن العالم الخارجي قد يبدو مخيفًا، لكن الحقيقة هي أن الغرباء أشخاص محترمون، في أكثرهم، في حين يكون البيت أخطر الأماكن على الإطلاق.

كان الرجل الذي يلاحق خلسة نيل سبنسر ذا الأعوام الستة مدركًا هذا الأمر تمام الإدراك.

كان يتحرّك بخطًى هادئة، فيمشي في مسار يوازي مسار نيل، لكن خلف صف من الشجيرات. كان يراقب الصبي مراقبة دائمة. كانت مشية نيل بطيئة؛ ولم يكن مدركًا الخطر المحدق به. يسير ويركل الأرض المغبرة من حين لآخر فترتفع موجة صغيرة من ضباب طبشوري أبيض من حول حذائه الرياضي. كان الرجل الذي يسير بخطوات أشد حذرًا بكثير قادرًا على سماع خبطة قدم نيل في كل مرة. لكنه لم يكن يصدر أي صوت على الإطلاق.

كان مساء دافئًا. ظلّت أشعة الشمس طيلة اليوم تلفح الأرض بعنف من غير شيء يحجبها؛ لكن الساعة بلغت السادسة فصارت السماء سديمًا. انخفضت الحرارة، واكتسب الهواء مسحة ذهبية. كانت أمسية من تلك الأماسي التي يمكن أن تجلس فيها في الشرفة أمام البيت، وقد ترتشف نبيذًا باردًا أبيض وتنظر إلى غروب الشمس من غير أن تفكّر في إخراج معطف قبل أن يخيم الظلام ويفوت وقت التفكير في ذلك.

حتى الأرض البور كانت جميلة في ذلك الضياء الكهرماني الذي يغسلها. كانت تلك رقعة من أرض فيها شجيرات صغيرة، وكانت محاذية لقرية فيذربانك من جهة واحدة؛ وأما إلى الجهة الأخرى من القرية فكان هناك مقلع حجارة قديم غير مستخدم. كان أكثر تلك الأرض المتموّجة أرضًا جافّة ميتة على الرغم من نمو أجمات كثيفة هنا وهناك منحت المنطقة منظرًا أشبه بالمتاهة. كان أطفال القرية يلعبون هنا بعض الأحيان مع أن هذه المنطقة لم تكن آمنة تمامًا. فعلى مر السنين، وقع كثير منهم تحت إغراء النزول إلى المقلع حيث كانت حوافّه شديدة الانحدار سهلة التفتت والتهاوي. وضع مجلس القرية سياجًا وعلامات تحذيرية، لكن الرأي العام المحلّي يرى أن عليه فعل ما هو أكثر من ذلك. لقد كان الأطفال قادرين على إيجاد طرق لتجاوز ذلك السياج!

وكانوا معتادين تجاهل الإشارات التحذيرية.

كان الرجل يعرف الكثير عن نيل سبنسر. لقد درس الصبي وأسرته دراسةً متأنيةً مثلما يدرس المرء مشروعًا. كان أداء الصبي في المدرسة ضعيفًا من الناحيتين التعليمية والاجتماعية. وكان

متأخرًا كثيرًا عن رفاقه في الكتابة والقراءة والرياضيات. كان القسم الأكبر من ملابسه موروثًا عن أولاد أكبر منه. وأما سلوكه، فيبدو أكبر من عمره بعض الشيء... لقد بدأ يبدي غضبه واستياءه من العالم منذ الآن. لن تمر إلا سنين معدودة قبل أن يعتبره الناس متنمِّرًا مثيرًا للمشكلات؛ وأما الآن فقد كان لا يزال صغيرًا إلى الحد الذي يجعلهم يصفحون عن سلوكه الميّال إلى التخريب. كانوا يقولون: «إنه لا يقصد هذا. هذه ليست غلطته». لم يبلغ بعد تلك النقطة التي يعتبر فيها مسؤولًا وحده عن أفعاله. وهكذا كان الناس مضطرين إلى النظر في اتجاه آخر.

وقد نظر ذلك الرجل أيضًا. لم تكن رؤية الأمر صعبة. كان نيل قد أمضى هذا اليوم في بيت أبيه. أبوه وأمه منفصلان؛ وهذا ما اعتبره الرجل أمرًا حسنًا. فكلٌّ منهما مدمن على الكحول. وكل منهما يلعب هذا الدور بدرجات مختلفة. وكلٌّ منهما يجد الحياة أسهل كثيرًا عندما يكون الابن في بيت الآخر. وكل منهما يجد صعوبة في إشغاله وتسليته عندما يكون عنده. وعلى وجه العموم، كان نيل متروكًا لكي يشغل نفسه بنفسه ويدافع عن نفسه بنفسه، ومن الواضح أن هذا كان يفسِّر جزءًا كبيرًا من القسوة التي رأى الرجل تناميها عند الصبي. كان نيل كأنه شيء مضاف إلى حياة أبويه. ومن المؤكّد أنه لم يكن يحظى بالحب.

في تلك الليلة -لم تكن تلك أول مرة- كان والد نيل ثملًا إلى درجة لا تسمح له بقيادة السيارة لأخذه إلى بيت أمه. ومن الواضح أنه كان أكثر كسلًا من أن يرافقه سيرًا على الإقدام. كان الصبي قد قارب السابعة من العمر، وقد أمضى النهار كلّه وحيدًا من غير أية مشكلة... من المرجح أن أباه كان يفكّر هكذا. والآن، نيل يسير منفردًا في طريقه إلى بيت أمه.

لم تكن لديه بعد أية فكرة عن أنه سيذهب إلى بيت مختلف كثيرًا.

كان الرجل يفكّر في الغرفة التي أعدّها، وحاول كبت الحماسة التي أحسّها.

توقّف نيل في منتصف الطريق عبر الأرض البور.

توقّف الرجل على مقربة منه، ثم راح يسترق النظر عبر الأغصان محاولًا رؤية ما اجتذب انتباه الصبي.

جهاز تلفزيون كان مرميًا عند واحدة من الأجمات. وشاشته الفضية ناتئة إلى الخارج، لكنها سليمة. وقف الرجل ينظر إلى نيل الذي لكز الجهاز بقدمه لكزة استطلاعية، لكنه كان أثقل من أن تحرّكه تلك اللكزة. لا بد أن ذلك الشيء قد بدا للصبي جسمًا آتيًا من زمن آخر، فقد كانت فيه فتحات للتهوية وأزرار ومفاتيح أسفل جانب الشاشة؛ ومؤخّرته بحجم طبل. على الجانب الآخر من الدرب، كانت هناك بضعة حجارة متناثرة. وقف الرجل ينظر مسحورًا إلى نيل الذي سار إلى الحجارة فالتقط واحدًا منها وقذف به زجاج الشاشة بكل عزمه.

صوت اصطدام قوي. جاء الصوت مرتفعًا في ذلك المكان الهادئ. لم يتشظَّ الزجاج، لكن الحجر مر عبره مخلِّفًا فيه ثقبًا مشرشر الحواف. كأنه أثر طلقة رصاص. التقط نيل حجرًا آخر وكرر المحاولة، لكنه أخطأ الشاشة. التقط حجرًا ثالثًا؛ ظهر ثقب جديد.

بدا أن هذه اللعبة أعجبته. كان الرجل قادرًا على فهم سبب هذا التدمير العَرَضي شديد الشبه بالعدوانية المتزايدة التي يظهرها الصبي في المدرسة. كان ذلك محاولة من أجل إحداث أثر في عالم يبدو له غير منتبه أبدًا إلى وجوده فيه. تخريب نابع من رغبته في أن يُرى... في أن يُلاحَظ... في أن يُحَبّ.

كان هذا كل ما يريده أي طفل، كل ما يريده في أعماق نفسه.

صار قلب الرجل يخفق سريعًا في تلك اللحظات. آلمه قلبه لتلك الفكرة. تقدّم صامتًا فخرج من الأجمات ووقف خلف الصبي، ثم همس باسمه.

2

نيل. نيل. نيل.

تحرّك المحقق بِيتْ ويليس حذرًا في الأرض البور مصغيًا إلى أصوات عناصر الشرطة من حوله يصيحون باسم الصبي المفقود. كانت صيحاتهم تتكرّر بعد فواصل متّفق عليها. وبين الصيحات، كان صمت مطلق يسود المكان. رفع بِيتْ رأسه ونظر متخيلًا تلك الأصوات تتماوج في الظلمة هناك وتختفي في سماء الليل، تختفي مثلما اختفى نيل سبنسر من على تلك الأرض التي تحتها.

راحت أشعة مصباحه المحمول تمسح الأرض المغبرَّة بحركة مخروطية، وكان ينظر إلى موضع قدميه ويبحث أيضًا عن أي أثر يشير إلى الصبي. بنطلون رياضي أزرق، وسروال داخلي، وتي شيرت عليه شعار لعبة ماين-كرافت، وحذاء رياضي أسود، وحقيبة عسكرية الطراز، وزجاجة ماء. لقد جاء الإشعار باختفاء الصبي لحظة جلس لتناول طعام العشاء الذي تعب في تحضيره. كان تفكيره في الطبق الذي بقي منتظرًا على طاولته، وبدأ يبرد من غير أن يمسّه أحد، يجعل معدته تقرقع غاضبة.

لكنَّ صبيًا صغيرًا قد ضاع، ولا بد من العثور عليه.

كان عناصر الشرطة الآخرون غير ظاهرين في الظلام، لكنه يرى أنوار مصابيحهم وهم يبحثون في أنحاء المنطقة. نظر بيت إلى ساعته: الثامنة وثلاث وخمسون دقيقة ليلًا. كاد الليل ينتهي؛ وعلى الرغم من أن الطقس كان حارًّا بعد الظهيرة، إلا أن درجة الحرارة قد انخفضت خلال الساعتين الأخيرتين. جعله هواء الليل البارد يرتجف. لقد خرج مسرعًا من بيته فنسي معطفه، والقميص الذي عليه لا يكاد يحميه من البرد. عظام قديمة أيضًا!... لقد كان في السادسة والخمسين، بعد كل حساب... لكنّها لم تكن ليلة مناسبة لوجود أيُّ شخص في الخارج، خاصة إن كان وحيدًا. إن الصبي، على الأرجح!

نيل. نيل. نيل.

أضاف صوته إلى بقية الأصوات: «نيل».

لا شيء!

الساعات الثماني والأربعون التي تعقب اختفاء إنسان هي الساعات الأكثر أهمية. جرى الإبلاغ عن فقدان الصبي في الساعة السابعة وتسعٍ وثلاثين دقيقة من ذلك المساء، أي بعد نحو ساعة ونصف الساعة من مغادرته بيت والده. كانَ ينبغي أن يصل إلى البيت في حدود السادسة وعشرين دقيقة، لكن التنسيق بين الأبوين في ما يخصّ ضبط توقيت عودته كان ضعيفًا، فلم يعرف أحد

باختفاء نيل إلا بعد أن اتصلت والدته بزوجها السابق. وعند وصول الشرطة إلى المكان في السابعة والدقيقة الحادية والخمسين مساء، كانت الظلال قد استطالت كثيرًا، وكانت أول ساعتين من فترة الثماني والأربعين ساعة قد أوشكتا على الانقضاء. والآن، كادت تنقضي ثلاث ساعات.

كان بيتْ على علم بأن الأطفال المفقودين سرعان ما يُعثر عليهم وتتم إعادتهم سالمين إلى أسرهم في الغالبية العظمى من تلك الحالات. وتنقسم تلك الحالات إلى خمس فئات متمايزة: المطرودون، والهاربون، والحوادث أو الحظ السيئ، وحالات الاختطاف ضمن الأسرة، وحالات الاختطاف من خارج الأسرة. كان قانون الاحتمالات يقول لبيتْ في هذه اللحظة إن اختفاء نيل سبنسر سيكون حادثًا من نوع ما، وإنهم سيعثرون على الصبي سريعًا. لكن ما حدث هو أن قلبه كان يقول له عكس ذلك كلما مشى أكثر في تلك البرية. إحساس غير مريح كان يحوم من حول قلبه. ولكن... إنه يشعر هكذا دائمًا كلما ضاع طفل. هذا لا يعني أي شيء. ليست أكثر من ذكريات سيّئة عمرها عشرون عامًا تطفو الآن إلى السطح وتأتي معها بهذا الشعور السيئ.

مرّ شعاع مصباحه على شيء فضّي.

توقّف بيتْ على الفور، ثم وجّه المصباح إلى ذلك الشيء. رأى جهاز تلفزيون قديمًا مرميًا أسفل إحدى الشجيرات. كانت شاشته مكسورة في عدة مواضع كما لو أن أحدًا قد استخدمها هدفًا للتمرّن على الرمي. وقف يحدّق فيها لحظة.

«هل وجدت شيئًا؟».

صوت صاح مخاطبًا إياه، لكنه لم يعرف صاحبه.

صاح مجيبًا: «لا».

بلغ آخر تلك الأرض البور لحظة بلغها بقية رفاقه. لم يسفر بحثهم عن شيء. بعد أن تركوا الظلمة النسبية خلفهم، أحسّ بيتْ كما لو أن نور مصابيح الشارع الأبيض قد بعث في نفسه إحساسًا بالغثيان. كان في الهواء طنين حياة هادئ ليس موجودًا في صمت تلك الأرض المقفرة.

بعد بضع لحظات، عندما لم يجد شيئًا آخر يفعله، استدار على أعقابه وعاد إلى حيث كان.

لم يكن واثقًا تمام الثقة من وجهة سيره، لكنه وجد نفسه سائرًا صوب حافة تلك الأرض في اتجاه المقلع القديم الواقع هناك. كان التواجد في ذلك المكان خطيرًا وقت الظلام، فمشى في اتجاه مجموعة أنوار المصابيح حيث كان فريق البحث في المقلع موشكًا على بدء عمله. بينما كان بقية عناصر الشرطة يشقّون طريقهم على امتداد الحافة ويصوّبون أنوار مصابيحهم الكاشفة إلى الأسفل، إلى الحوافّ المنحدرة، وينادون باسم نيل، كان الواقفون هنا ينظرون في الخرائط ويستعدّون لنزول الدرب الصّعب المؤدّي إلى الأسفل. رفع اثنان رأسيهما ونظرا إليه عندما اقترب.

عرفه واحد منهما: «سيدي، لم أكن أعرف أنك في الخدمة هذه الليلة».

«لست في الخدمة».

رفع بيتْ أسلاك السور وعبر من تحتها حتى ينضم إليهم. يجب أن يكون الآن أكثر احترازًا في اختيار موضع خطواته... «إنني من سكان القرية».

«نعم، يا سيدي». بدا الشك في صوت الشرطي.

لم يكن أمرًا معتادًا أن يأتي مفتّش شرطة للمشاركة في عمل مزعج ظاهريًا كهذا العمل. كانت المفتّشة أماندا بيك تنسّق سير التحقيق الذي بدأ انطلاقًا من دائرة الشرطة. وأما الفريق الموجود هنا، فكان مؤلّفًا في أكثره من عناصر الشرطة العاديين.

أدرك بيتْ أنه أقدم من أي واحد منهم؛ لكنه لم يكن هذه الليلة إلا فردًا ضمن مجموعة. هناك طفل ضائع، وهذا يعني أنه لا بد من العثور على ذلك الطفل. لعل هذا الشرطي أصغر سنًا من أن يتذكّر ما حدث مع فرانك كارتر قبل عشرين سنة. وأصغر سنًا من أن يستطيع إدراك أن ما من شيء مفاجئ في رؤية بيتْ ويليس وقد خرج للمشاركة في البحث في ظروف من هذا النوع.

«انتبه إلى خطواتك يا سيدي. الأرض هنا غير ثابتة تمامًا».

«إنني بخير».

من الواضح أن ذلك الشرطي كان صغير السن إلى الحد الكافي لجعله يعتبره رجلًا عجوزًا. يمكن افتراض أنه لم يصادف بيتْ أبدًا في الصالة الرياضية في قسم الشرطة، تلك الصالة التي يزورها صباح كل يوم قبل ذهابه إلى العمل. على الرغم من فارق السن بينهما، إلا أن بيتْ كان مستعدًّا للمراهنة بأنه قادر على أن يفوق ذلك الشاب أداء على كل آلة في تلك الصالة. فهو ينتبه إلى كل شيء. كانت مراقبة كل شيء -بما في ذلك مراقبة نفسه- طبيعة ثانية فيه.

«حسنًا يا سيدي، إننا موشكون على التوجّه إلى الأسفل. إنني أحرص على تنسيق الحركة فحسب».

«أنا لست المسؤول هنا». أشار بيتْ بضوء مصباحه إلى الدرب المنحدر ومسح به الأرض الخشنة. لم تخترق أشعة المصباح إلا مسافة قصيرة من ذلك الظلام. لم يكن أسفل المقلع إلا ثقبًا كبيرًا أسود... «أنت لست مسؤولًا أمامي، بل أمام مفتشة الشرطة بيك».

«نعم يا سيدي».

واصل بيتْ النظر إلى الأسفل مفكّرًا في نيل سبنسر. لقد جرى تحديد المسارات التي من المحتمل أن يكون الصبي قد سلكها. وقد فتشوا الشوارع. اتصَلوا بالقسم الأكبر من أصدقائه. لكن ذلك لم يفض إلى شيء. ثم إن رقعة الأرض البور تلك كانت خالية. إذا كان اختفاء الصبي ناتجًا عن حادث أو عن سوء حظ ما، فإن المقلع هو المكان الوحيد الباقي الذي قد يكون من المعقول العثور عليه فيه.

لكنه أحسّ بأن ذلك العالم الأسود في الأسفل كان خاليًا تمامًا.

لم يكن قادرًا على اعتبار نفسه واثقًا من ذلك -لم يكن قادرًا من الناحية العقلية-. لكن غريزته كانت تقول له إنهم لن يعثروا على نيل سبنسر هناك.

بل... ربما لن يعثروا عليه أبدًا.

3

سألت الفتاة الصغيرة: «هل تتذكّر ما قلته لك؟».

كان جيك يتذكّر، لكنه، في تلك اللحظة، كان يبذل كل ما في وسعه حتى يتجاهلها. كان الأطفال الآخرون في نادي 567 في الخارج جميعًا؛ إنهم يلعبون في الشمس. وكان يسمع صيحاتهم وصوت اصطدام كرة القدم بالأسفلت. كانت الكرة تصطدم بجدار المبنى من حين لآخر. أما هو، فظلّ جالسًا في الداخل يعمل على لوحة يرسمها. يفضّل كثيرًا أن يُترك وحده حتى ينجزها.

لم يكن ذلك لأنه لا يحب اللعب مع الفتاة الصغيرة. هو يحبّ اللعب معها، بالطبع. ففي معظم الأحيان، كانت هي الوحيدة التي ترغب في اللعب معه. وعادة ما يكون شديد السعادة برؤيتها. لكن تصرّفاتها اليوم لا توحي بأية رغبة في اللعب. الواقع أنها كانت شديدة الجدية فلم يعجبه ذلك.

«ألا تتذكّر؟».

«أظنّني أتذكّر».

«قلها إذًا».

نظر إليها، ثم وضع قلمه وتنهَّد. كانت مرتدية فستانًا ذا خطوط متقاطعة باللونين الأبيض والأزرق، كعادتها دائمًا. وكان قادرًا على رؤية أثر السحجة على ركبتها التي بدت كما لو أنها لن تُشفى أبدًا. كان شعر كل فتاة هنا مرتّبًا، أنيقًا، مقصوصًا على مستوى الكتفين، أو مربوطًا ربطة محكمة إلى الخلف، لكن شعر تلك الفتاة الصغيرة كان مبعثرًا، مزاحًا كلّه إلى أحد الجانبين. وكان يبدو عليه أنه لم يعرف الفرشاة منذ زمن بعيد.

كان واضحًا من التعبير الذي ارتسم على وجهها الآن أنها لن تستسلم، فكرّر ما قالته له... «إذًا تركت الباب نصف مفتوح...».

لو لم يتذكّر تلك الكلمات أبدًا، لما كان الأمر مفاجئًا حقاً لأنه لم يبذل أي جهد خاص لجعلها تبقى في ذهنه. لكنه تذكّرها، لسبب ما. هناك شيء ما بشأن الإيقاع. يسمع أحيانًا أغنية على شبكة CBBC فتظلّ تدور وتدور في رأسه عدّة ساعات. كان أبوه يدعو هذا الأمر «دودة الأذن»؛ وهذا ما جعل جيك يتخيّل الأصوات تحفر في رأسه وتزحف داخل عقله.

أنهى الجملة فأومأت الفتاة برأسها راضية. تناول جيك قلمه من جديد.

سألها: «لكن، ما معنى هذا؟».

جعّدت أنفها وقالت: «إنه تحذير. حسنًا، تحذير إلى حد ما. كان الأطفال يقولون هذا عندما كنت صغيرة».

«فهمت، لكن ما معناه؟». قالت: «ليس أكثر من نصيحة جيدة. إن في العالم الكثير من الأشخاص السيّئين، مثلما تعرف، والكثير من الأشياء السيّئة. لذلك من الأفضل أن يتذكّر المرء هذا».

تجهّم وجه جيك، ثم عاد إلى الرسم من جديد. ناس سيئون. لقد كان في النادي ولد أكبر منه قليلًا، اسمه كارل، وكان جيك يعتبره شخصًا سيّئًا. في الأسبوع الماضي، حصره كارل في الزاوية بينما كان يبني قلعة من قطع الليغو، ثم وقف على مقربة شديدة منه وصار ينظر إليه من الأعلى كأنه ظلّ كبير.

«ما السبب الذي يجعل أباك هو الذي يأتي دائمًا لكي يأخذك من هنا؟». طرح كارل عليه هذا السؤال على الرغم من أنه يعرف الإجابة... «هل السبب هو أن أمّك ميتة؟». لم يجبه جيك بشيء.

«كيف كان شكلها عندما عثرت عليها ميتة؟».

ومن جديد، لم يجبه جيك بشيء. لم يكن يفكّر أبدًا كيف كان الأمر عندما عثر على أمّه في ذلك اليوم؛ ولم يكن يتذكّره إلا في كوابيسه. كان ذلك يجعل تنفّسه غريبًا، مضطربًا. لكن الشيء الذي لم يستطع الفرار منه أبدًا كان معرفته بأنها لم تعد موجودة.

ذكّره هذا بشيء حدث منذ زمن بعيد عندما نظر من خلف باب المطبخ فرآها تقطع ثمرة فلفل حمراء كبيرة إلى نصفين، ثم تنتزع ما في داخلها.

«مرحبًا، أيها الصبي الجميل».

كان هذا ما قالته له عندما رأته. هكذا كانت تدعوه دائمًا. كان ما يحسّه في داخله عندما يتذكّر أنها ميتة شبيهًا بصوت ثمرة الفلفل عندما قطعتها أمه نصفين... شبيهًا بصوت شيء يتمزّق مصدرًا صوت انفجار خافتًا، تاركًا محلّه فراغًا. «أحبّ رؤيتك تبكي مثلما يبكي طفل صغير». قال كارل هذا، ثم سار مبتعدًا كما لو أن جيك لا وجود له.

لم يكن تخيّل العالم مليئًا بأشخاص من هذا النوع شيئًا لطيفًا؛ كما أن جيك لم يكن راغبًا في تصديق هذا. كان الآن يرسم دوائر على الورقة التي أمامه. حقول طاقة من حول أشخاص صغار كالعصيّ يتقاتلون هناك.

«هل أنت بخير، يا جيك؟».

رفع رأسه. كانت تلك شارون، واحدة من النساء الكبيرات اللواتي تعملن في نادي 567. كانت تغسل الأطباق في الناحية الأخرى من الغرفة، لكنها أتت إليه وانحنت فوقه داسّة كفّيها بين

ركبتيها.

قال لها: «مرحبًا».

«هذه لوحة جميلة».

«لكنها لم تنتهِ بعد».

«وماذا ستكون عندما تنتهي؟».

فكّر كيف يمكن أن يشرح لها المعركة التي كان يرسمها -معركة تتقاتل فيها الأطراف كلّها، مع الخطوط التي بينهم والخربشات على المهزومين- لكن ذلك كان صعبًا عليه.

قال لها: «إنها معركة فحسب».

«هل أنت واثق من أنك غير راغب في الخروج واللعب مع بقية الأطفال؟ إنه يوم جميل حقًّا».

«لا أريد. شكرًا».

نظرت من حولها: «لدينا مقدار احتياطي من الكريم الواقي من الشمس. وأظنّ أن لدينا أيضًا قبّعة في مكان ما».

«أريد متابعة الرّسم».

انتصبت شارون واقفة من جديد وتنهّدت لنفسها بهدوء، لكنَّ تعبيرًا لطيفًا ارتسم على وجهها. كانت قلقة عليه! صحيح أن ما من شيء يدعوها إلى القلق، لكنه رأى أن ذلك لطف منها، نوعًا ما. كان جيك قادرًا دائمًا على معرفة متى يكون الناس قلقين عليه. غالبًا ما يكون أبوه قلقًا، إلا في تلك الأوقات عندما يفقد صبره معه. كان يصيح به أحيانًا، ويقول أشياء من قبيل «هذا فقط لأنني أريدك أن تتحدّث معي، وأريد أن أعرف ما تفكّر فيه وما تشعر به». كان ذلك مخيفًا عندما يحدث لأن جيك يشعر كما لو أنه يخيّب أمل أبيه ويجعله حزينًا. لكنه لا يعرف كيف يصير مختلفًا عمّا هو عليه.

دوائر ودوائر -حقل طاقة آخر، وخطوط متداخلة-، أو، لعل ذلك كان بوابة ما! بوابة يستطيع ذلك الشخص الصغير في الداخل أن يختفي فيها فيخرج من المعركة ويذهب بعيدًا، يذهب إلى مكان أفضل. أدار جيك قلم الرصاص وبدأ يمحو، بعناية وانتباه، الشخص الذي كان هناك.

هاك! أنت الآن في أمان... حيثما كنت.

ذات مرّة، بعد أن فقد أبوه أعصابه، وجد جيك رسالة على سريره. رأى على السرير صورة كان لا بد له من الاعتراف بأنها جميلة جدًا: صورتهما مبتسمَيْن معًا! وتحت الصورة، كتب أبوه الكلمات التالية:

إنني آسف! أريدك أن تتذكّر، حتى عندما نتشاجر، أنّ كُلًا منا يحبّ الآخر كثيرًا.

لقد وضع جيك تلك الرسالة ضمن «رزمة الأشياء الخاصّة» إلى جانب كل ما كان لديه من أشياء مهمّة يحب الاحتفاظ بها.

تحقّق منها الآن. كانت «الرزمة» أمامه على الطاولة، إلى جانب ورقة الرسم تمامًا.

قالت له الفتاة الصغيرة: «سوف تنتقل عمّا قريب إلى بيت جديد».

«هل سأنتقل حقًا؟».

«ذهب أبوك اليوم إلى المصرف».

«أعرف هذا، لكنّه يقول إنه غير واثق من حدوث الأمر. قد لا يوافقون على إعطائه ذلك الشيء الذي يريده».

قالت الفتاة بصبر: «إنه القرض العقاري. لكنهم سيعطونه ذلك القرض».

«وكيف تعرفين أنهم سيعطونه القرض؟».

«إنه كاتب شهير، أليس هذا صحيحًا؟ إنه ماهرٌ في اختلاق الأشياء». نظرت إلى اللوحة التي كان يرسمها، ثم ابتسمت لنفسها... «مثلك تمامًا».

تساءل جيك في نفسه عن تلك الابتسامة. كانت ابتسامة غريبة... كما لو أنها سعيدة، لكنها حزينة على شيء ما. عندما فكّر في الأمر، وجد أن هذا ما يحسّه هو أيضًا تجاه الانتقال إلى بيت جديد. لم يعد يحب حالة الأمور في البيت؛ وكان يعرف أنها تجعل أباه يشعر بالبؤس أيضًا. إلا أنه يظلّ يشعر بأن الانتقال إلى بيت آخر شيء قد لا يجدر بهما فعله، حتى وإن كان هو من عثر على ذلك البيت الجديد في آيباد والده عندما كانا يبحثان معًا.

قال لها: «سوف أراك بعد أن ننتقل... ألن أراك؟».

«ستراني بالطبع. أنت تعرف أنك سوف تراني». لكن الفتاة انحنت صوبه في تلك اللحظة وقالت بنبرة أكثر إلحاحًا: «على الرغم من ذلك، ومهما حدث، تذكّر ما قلته لك. إنه مهمّ. عليك أن تعدني بذلك يا جيك». «أعِدك، لكن ما معنى ذلك الكلام؟».

مرّت لحظة ظنّ فيها أنها موشكة على تفسير الكلام له، لكنّ صوت الجرس انطلق في الناحية الأخرى من الغرفة.

همست له: «تأخّر الوقت. لقد جاء أبوك».

4

عندما وصلتُ، بدا لي أن القسم الأكبر من الأطفال كانوا يلعبون خارج نادي 567. بدأت أسمع خليطًا من الضحكات بعد أن أُوقفت السيارة. بدوا لي كلّهم في غاية السعادة -أمر عادي تماما- وراحت عيناي تتنقّلان بينهم، لوهلة، تبحثان عن جيك، آملتين أن تعثرا عليه بينهم.

لكن ابني، بالطبع، لم يكن هناك.

وجدته جالسًا في الداخل، ظهره في اتجاهي. كان منكبًا على شيء يرسمه. انكسر قلبي قليلًا عندما رأيته. كان جيك صغير الحجم بالمقارنة مع سنه. وجعلته وضعية جلوسه في تلك اللحظة يبدو أكثر ضآلة وأكثر هشاشة من أيّ وقت آخر. كان كما لو أنه يحاول الاختفاء في الرسم الذي أمامه.

فمن عساه يستطيع لومه؟ كنت أعرف أنه يكره هذا المكان، على الرغم من أنه لم يكن يعترض أبدًا على القدوم إليه، ولم يبدِ تذمّره منه بعد ذلك. لكني أحسست كما لو أنه خيار آخر عندي. مرّت مناسبات كثيرة لا يمكن احتمالها منذ أن ماتت ريبيكا: عندما أخذْته أوّل مرّة لحلاقة شعره؛ وعندما اشتريت ثيابه المدرسية؛ وعندما كانت أصابعي تتعثّر وهي تغلّف هدايا عيد الميلاد التي جلبتها له لأنني لم أكن أرى جيّدًا من خلال دموعي. قائمة لا نهاية لها. لكنّ العطلات المدرسية... لسبب لا أعرفه... كانت أصعب شيء على الإطلاق. فبقدر ما أحبّ جيك، كنت أجد من المستحيل أن أظلّ جالسًا معه طيلة اليوم، في كل يوم. كنت أحسّ كما لو أنه لم يبق مني ما يكفي لملء تلك الساعات كلها. ومع أنني كنت أكره نفسي لفشلي في أن أكون الأب الذي يحتاجه جيك، فقد كانت الحقيقة أنني، بعض الأحيان، كنت في حاجة إلى شيء من الوقت لنفسي. كنت في حاجة إلى ذلك الوقت حتى أنسى الهوّة التي بيننا... حتى أتناسى صعوبة التلاؤم المتزايدة... حتى أكون قادرًا على الانهيار والبكاء بعض الوقت عارفًا أنه لن يدخل الغرفة ويجدني على تلك الصورة.

«مرحبًا، يا صاحبي».

وضعت يدي على كتفه. لم يرفع رأسه لينظر إليّ.

«مرحبًا، يا بابا».

«ماذا كنتَ تفعل؟».

«لا شيء».

اهتزازة من كتفه لا تكاد تُحَسّ تحت يدي. بدا كما لو أن جسده لا يكاد يكون موجودًا هناك، كما لو أنه أكثر خفّة ورقّة حتّى من نسيج التي شيرت الذي كان يرتديه.

«لعبت قليلًا مع أحدهم».

قلت له: «أحدهم!».

«إنها فتاة».

«هذا شيء لطيف»... انحنيت فوقه ونظرت إلى الورقة التي يرسم عليها... «وأرى هنا أنك ترسم أيضًا».

«هل يعجبك هذا؟».

«بالطبع إنه يعجبي، يعجبي كثيرًا».

حقيقة الأمر أنه لم تكن لدي أيّة فكرة عمّا رأيته في ذلك الرسم -معركة من نوع ما- على الرغم من استحالة التمييز بين الطرفين أو معرفة ما كان جاريًا في تلك المعركة. لا يرسم جيك أي شيء ثابت، إلا في حالات نادرة جدًّا. تكون رسومه حيّة، كأنها صور متحرّكة على الورقة بحيث تكون النتيجة النهائية أشبه بفيلم تستطيع رؤية مشاهده كلّها في لحظة واحدة، تراها مرصوفة واحدًا فوق الآخر.

إلا أنه كان مبدعًا... وكان هذا يعجبني. إنها واحدة من أوجه التشابه بيننا: صلة موجودة بيننا. أقول هذا على الرغم من حقيقة أنني لم أكد أكتب كلمة واحدة منذ عشرة شهور، منذ أن ماتت ريبيكا.

«هل سننتقل إلى البيت الجديد، يا بابا؟».

«سننتقل».

«إذًا، هل يعني أن ذلك الشخص الذي في المصرف قد اقتنع بكلامك؟».

«فلنقل إنني كنت مبدعًا على نحو مقنع عندما حدّثته عن حالتي المالية التي تمر بوضع حرج».

«ما معنى ‘وضع حرج’؟».

كان مفاجئًا لي، تقريبًا، أنه لا يعرف معنى هذا. لقد قرّرنا، منذ زمن بعيد، أنا وريبيكا، أن نتحدّث مع جيك كأننا نتحدّث مع شخص كبير. وكنا نشرح له معنى أية كلمة لا يعرفها. كان يتشرّب ذلك كلّه، وكثيرًا ما يخرج بنتيجة غريبة آخر الأمر. لكني لم أكن راغبًا في شرح هذا التعبير له في تلك اللحظة.

قلت له: معناه أن هناك شيئًا نهتم به، أنا وذلك الشخص الذي في المصرف، لكنه لا يهمك أنت» «متى سنذهب إلى ذلك البيت؟».

«في أقرب وقت ممكن».

«وكيف سنأخذ معنا كل شيء؟».

«سوف نستأجر سيارة نقل...». فكّرت في المال فوجدت نفسي أقاوم شيئًا من الهلع... «أو، ربما نكتفي باستخدام السيارة -نضع فيها الأشياء حتى تمتلئ، ونقوم بعدة رحلات-. قد لا نتمكّن من أخذ كل شيء معنا، لكني سأنظر في ألعابك وأرى ما تحبّ الاحتفاظ به من بينها».

«أحب أن أحتفظ بها كلّها».

«سنرى، أليس كذلك؟ لا أريد أن أجعلك تتخلّى عن أي شيء لا تريد التخلّي عنه. لكنّ قسمًا كبيرًا منها صار الآن أصغر كثيرًا من عمرك. قد يحبّ صبي صغير آخر أن يلعب بتلك الألعاب».

لم يجبني بشيء. قد تكون تلك الألعاب أصغر من سنّه كثيرًا، لكن لكل لعبة منها عنده ذكرى مرتبطة بها. كانت ريبيكا، على الدوام، أفضل مني في كل ما يتعلّق بجيك، بما في ذلك اللعب معه. لا أزال تخيّل صورتها راكعة على الأرض وأصابعها تتحرّك هنا وهناك. كان لديها صبر جميل، لا نهاية له... تصبر عليه بكل الطرق التي أجد صعوبة في فعل ما يشبهها. كانت ألعابه أشياء لمستها ريبيكا. كلما كانت اللعبة أكثر قدمًا، كان عليها قدر أكبر من أثر أصابعها. تراكم غير مرئي لحضورها في حياته.

«مثلما قلت لك، لن أجعلك تتخلّى عن أي شيء لا تريد التخلّي عنه».

ذكّرني هذا بـ«رزمة» الأشياء الخاصّة التي عنده. كانت هنا، على الطاولة، إلى جانب ورقة الرسم... مغلّفٌ جلديٌّ مهترئٌ في مثل حجم كتاب كبير. كان له سحّاب ممتد على ثلاثة من جوانبه. ليست لدي أية فكرة عمّا كانه ذلك الشيء في حياته السابقة. بدا لي شبيهًا بمصنّف كبير من غير صفحات فيه. لكنْ، الرب وحده يعرف ما الذي كان يجعل ريبيكا تمتلك واحدًا من تلك المصنّفات.

جلست أستعرض بعض أشيائها بعد شهور معدودة من موتها. كانت زوجتي من النوع الذي يحبّ جمع الأشياء، لكنها كانت جامعة أشياء عمليّة؛ وكان قسم كبير من ممتلكاتها الكبيرة مخزونًا في صناديق مرصوفة في مرأب السيارة. في يوم من الأيام، أدخلت عددًا من تلك الصناديق إلى البيت ورحت أنظر في محتوياتها. كانت في تلك الصناديق أشياء من طفولتها، أشياء لا علاقة لها أبدًا بحياتنا معًا. بدا لي أن ذلك يمكن أن يجعل الأمر أكثر سهولة، لكنه لم يجعله أكثر سهولة! الطفولة زمن سعيد (أو ينبغي أن تكون زمنًا سعيدًا)، لكنّي كنت أعرف أن هذه الأشياء خليّة البال، هذه الأشياء الواعدة، كانت لها نهاية غير سعيدة. بدأت أبكي. كان جيك قد دخل الغرفة ووضع يده على كتفي، ثم طوّقني بذراعيه الصغيرتين عندما رأى أنني لم أستجب له على الفور. وبعد ذلك، جلسنا ننظر معًا إلى بعضٍ من تلك الأشياء، فعثر فيها على ما سوف يصير «الرّزمة» وسألني إن كان يستطيع أخذه. قلت له إنه يستطيع ذلك، بالطبع. يمكنه أن يأخذ أي شيء يريده.

كانت «الرزمة» فارغة في ذلك الوقت، لكنّه بدأ يملأها. كانت بعض الأشياء التي فيها مأخوذة من حوائج ريبيكا. كانت فيها رسائل وصور وحليّ صغيرة. كان فيها رسوم له، أو أشياء يعتبرها مهمة. كانت تلك الرزمة لا تفارقه إلا نادرًا، كأنه ساحرةٌ تأخذ ضروريات عملها معها أينما ذهبت. وفي ما عدا بضعة أشياء، لم أكن أعرف ما في تلك الرزمة. ما كان لي أنظر فيها حتى إن استطعت ذلك. إنها أشياؤه الخاصّة، أشياؤه هو، وهو صاحب الحقّ الوحيد فيها.

قلت له: «هيا، يا صاحبي! فلنأخذ أشياءك ونخرج من هنا».

طوى ورقة الرسم. وناولني إياها حتى أحملها له. مهما يكن معنى تلك اللوحة التي رسمها، فمن الواضح أنه لم يكن يراها مهمة إلى درجة تستوجب وضعها في الرزمة. حمل رزمته بنفسه وسار بها، فعبر الغرفة في اتجاه الباب حيث كانت زجاجة الماء الخاصّة به معلّقة بالخطاف. ضغطت على الزر الأخضر حتّى أفتح الباب، ثم التفت إلى الخلف. كانت شارون منشغلة بغسيل الأطباق.

سألت جيك: «ألا تريد أن تودّعها؟».

استدار في عتبة الباب وبدا عليه الحزن لحظة. كنت أتوقّع أن يودّع شارون، لكنه لوّح بيده باتجاه الطاولة الخالية التي كان جالسًا إليها عند وصولي. صاح كأنه يخاطب تلك الطاولة: «إلى اللقاء. أعدك بأنني لن أنسى».

وقبل أن أفلح في قول أي شيء، اجتاز باب الغرفة خارجًا من تحت ذراعي.

5

كنت قد ذهبت بنفسي لإحضار جيك من المدرسة يوم ماتت ريبيكا.

كان مفترضًا أن يكون بعد ظهر ذلك اليوم وقتًا للكتابة. وعندما سألتني ريبيكا إن كنت أستطيع الذهاب بدلًا منها لجلب جيك، كان الانزعاج ردة فعلي الأولية. لم يبق على موعد تسليم الكتاب الذي أعمل عليه غير شهور قليلة. أمضيت ذلك اليوم في حالة عجز بائس عن الكتابة، وكنت في ذلك الوقت آمل في حصول معجزة في آخر لحظة. لكن ريبيكا بدت لي شاحبة مرتجفة، فكان لا بد لي من الذهاب.

وفي طريق العودة، بذلت أقصى ما أستطيعه لكي أسأل جيك عن نهاره، لكنّي لم أظفر بأيّة نتيجة على الإطلاق. كان ذلك أمرًا مألوفًا تمامًا. فإما أنه غير قادر على التذكّر، أو أنه غير راغب في الكلام. وكالمعتاد، بدا لي الأمر كما لو أنه يفضل الاستجابة لريبيكا؛ وهذا ما جعلني، لاقترانه بعجزي المستمرّ عن الكتابة، أشعر بالقلق وقلّة الأمان أكثر من أيّ وقت آخر. وصلنا إلى البيت، فخرج من السيارة بلمح البصر. هل يستطيع أن يذهب لرؤية ماما؟ قلت له إنه يستطيع. وكنت واثقًا من أنها ستفرح لهذا... «لكنها ليست على ما يرام، فكن لطيفًا معها وتذكّر أن تخلع حذاءك. أنت تعرف أنها لا تحب الفوضى».

بعد ذلك، تلكّأت عند السيارة قليلًا، وتعمّدت إطالة الوقت لأنني كنت حزينًا منزعجًا لشدّة فشلي. دخلت البيت ببطء، ووضعت الأشياء التي اشتريتها في المطبخ -لاحظت أن ابني لم يخلع حذاءه ويتركه هناك مثلما طلبت منه- هذا لأنه لا يصغي إلى ما أقوله له. كان البيت صامتًا. افترضت أن ريبيكا مستلقية في الطابق العلوي، وأن جيك قد صعد إليها لرؤيتها، وأن كل شيء كان على ما يرام. وأن الجميع بخير.

إلا أنا!

عندما دخلت غرفة المعيشة آخر الأمر، رأيت جيك واقفًا في آخرها عند الباب المفضي إلى السلم. كان مطرِقًا برأسه ينظر إلى شيء على الأرض لم أستطع رؤيته. كان ساكنًا أمامه، كأنه منوَّمٌ بفعل ما كان ينظر إليه. وبينما سرت في اتجاهه بخطوات بطيئة، لاحظت أنه لم يكن ساكنًا سكونًا تامًا. لقد كان يرتعد. ثم رأيت ريبيكا. راقدة عند أسفل السلم.

صار كل شيء فارغًا بعد ذلك. أعرف أنني أبعدت جيك، وأعرف أنني اتصلت وطلبت سيارة الإسعاف. أعرف أنني فعلت كل ما يجب فعله، لكنني لا أستطيع تذكّر كلّ تلك الأشياء.

وأسوأ ما في الأمر أنني كنت متأكّدًا من أن جيك يتذكّر كل شيء على الرغم من أنه لم يقبل أبدًا أن يتحدّث معي عن ذلك.

بعد عشرة شهور، دخلنا معًا مطبخًا كان كل سطح فيه مغطًى بصحون وفناجين؛ وكانت المساحات الصغيرة المرئية على طاولة المطبخ وسخة عليها بقع وفتات خبز متكسّر. في الغرفة الأمامية، كانت الألعاب منتشرة على الأرضية العارية، وبدت مبعثرة، منسيّة. فبعد كل ما قلته عن تصنيف الألعاب قبل انتقالنا، بدا لي كما لو أننا قد استعرضنا مقتنياتنا كلّها وأخذنا ما أردناه منها، ثم تركنا البقية مبعثرة كما لو أنها قمامة. لقد مرّت الآن شهور كان فيها فوق هذا البيت ظلّ دائمٍ، ظلٌّ يزداد قتامة من غير انقطاع مثل نهار سائر إلى نهايته. كان إحساسي كما لو أن بيتنا قد بدأ يتهاوى ويتفكّك عندما ماتت ريبيكا. لكن... لقد كانت دائمًا قلب هذا البيت.

«هل تعطيني ورقة الرسم، يا بابا؟».

كان جيك قد ركع على ركبتيه وبدأ يجمع أقلامه الملوّنة من حيث تدحرجت هذا الصباح.

«ما الكلمة السحرية؟».

«من فضلك».

«صحيح... سأعطيك إياها، بالطبع...». وضعتها على الأرض إلى جانبه... «ما رأيك في سندويتش باللحم؟».

«هل يمكن أن آكل حلوى بدلًا منه؟».

«ستأكلها بعده».

«لا بأس».

أزحت الأشياء المتناثرة فأخليت مساحة على طاولة المطبخ ودهنت شريحتَي خبز بالزبدة ثم وضعت بينهما ثلاث شرائح من اللحم. قطعت السندويتش إلى أربعة أجزاء. لا بد من محاولة تجاوز هذا الاكتئاب. خطوة. وبعدها خطوة. وبعدها تابع السير.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في ما جرى في نادي 567. جيك يلوّح بيده مودّعًا طاولة خاوية. على ما أذكر، كان لابني دائمًا أصدقاء خياليون من نوع ما. لقد كان دائمًا طفلًا يحبّ الوحدة. كان فيه شيء مغلق، منطوٍ على نفسه... شيء بدا كما لو أنه يدفع بقية الأطفال إلى الابتعاد عنه. في الأيام الطيّبة، كنت قادرًا على التظاهر بأن هذا ناتج عن كونه سعيدًا، راضيًا عن نفسه، وكنت أقول في نفسي إن هذا جيّد. وأما في معظم الأوقات، فقد كان هذا يقلقني.

لماذا لا يستطيع جيك أن يكون مثل الأطفال الآخرين؟

لماذا لا يستطيع أن يكون طبيعيًّا أكثر؟

كانت تلك فكرة بشعة -كنت أعرف هذا- لكنّي لم أفكر هكذا إلا لشدة رغبتي في حمايته. من الممكن أن يكون العالم قاسيًا عندما يكون المرء شخصًا هادئًا محبًّا للوحدة مثل ابني. لم أكن

أريده أن يمر بما مررت به عندما كنت في سنّه.

على الرغم من هذا، كان أصدقاؤه الخياليون يظهرون على استحياء -حتى الآن- أحاديث صغيرة يجريها مع نفسه أحيانًا. لكني لم أكن واثقًا من ارتياحي لهذا التطوّر. لم أكن أشك أبدًا في أن الفتاة الصغيرة التي كان يتحدّث معها طيلة النهار لم تكن موجودة إلا في رأسه. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يقرّ فيها علنًا، بشيء من هذا النوع، ويتحدّث مع شخص ما أمام الآخرين. أخافني هذا قليلًا.

لم تكن لدى ريبيكّا أيّة مخاوف. «إنه بخير، ليس عليك إلا أن تدعه يكون هو نفسه».

وبما أنها تعرف عن معظم الأشياء أكثر مما أعرف، فقد كنت ألتزم دائمًا بفعل ما تقوله لي. وأما الآن؟ أتساءل الآن إن كان جيك في حاجة إلى مساعدة حقيقية.

أو... لعلّه يحاول أن يكون هو نفسه!

كان ذلك واحدًا آخر من تلك الأشياء الطاغية التي لا بد لي من تدبّرها؛ لكنّي لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك. لم أكن أعرف الشيء الصحيح الذي ينبغي أن أفعله، ولا كيف أكون أبًا جيّدًا له. يا إلهي... أتمنى لو أن ريبيكا لا تزال هنا.

اشتقت إليك.

لكن تلك الفكرة ستجعل دموعي تنهمر. أوقفتها عند حدّها، وحملت الطبق الذي وضعت فيه سندويتش جيك. عندما فعلت ذلك، سمعت صوته يتكلّم بهدوء في الغرفة.

قال: «نعم...». ثم أضاف، كما لو أنه يردّ على شيء لم أستطع سماعه... «نعم، أعرف».

سرَت رعدة في جسدي.

سرت بخطوات هادئة حتى بلغت الباب، لكني لم أعبره. وقفت هناك فحسب... وقفت مصغيًا. لم أستطع رؤية جيك، لكن أشعة الشمس القادمة عبر النافذة في الناحية الأخرى من الغرفة كانت ترسم ظلّه على الأريكة: ظل مختلف الشكل لا يستطيع المرء التعرف فيه على صورة إنسان. لكنه كان يتحرّك بلطف كما لو أنه يهزّ جسمه إلى الأمام والخلف وهو جاثٍ على ركبتيه.

«أتذكّر».

مرّت بضع ثوانٍ من الصمت لم أكن أسمع فيها غير دقّات قلبي. أدركت أنني قد حبست أنفاسي. عندما تكلّم من جديد، كان صوته أكثر ارتفاعًا. بدا في صوته انزعاج.

«لا أريد أن أقولها».

عند تلك اللحظة، خطوت داخلًا الغرفة.

مرت لحظة لم أكن متأكدًا فيها مما سأراه، لكن جيك كان جاثيًا على الأرض حيث تركته تمامًا. الاختلاف الوحيد هو أنه كان مديرًا رأسه ينظر إلى شيء ما وقد أهمل ورقة الرسم. تتبّعت نظرته. لم يكن هناك أحد، بالطبع؛ لكنه بدا شديد الاستغراق في النظر إلى الحيّز الفارغ. كان مستغرقًا في النظر إلى حد يجعل من السهل على المرء تخيّل وجود حضور ما في الهواء.

قلت بصوت منخفض: «جيك».

لم ينظر إلي.

«مع من تتكلم؟».

«لا أحد».

«لكني سمعتك تتكلّم».

«لا أحد».

ثم استدار صوبي قليلًا ومدّ يده إلى قلمه فالتقطه وعاد يرسم من جديد. خطوت خطوة أخرى في اتجاهه.

«هل يمكنك أن تضع القلم من يدك وتجيبني على سؤالي؟ من فضلك».

«لماذا؟».

«لأن الأمر مهم».

«لم أكن أتحدّث مع أحد».

«فما رأيك في أن تضع القلم من يدك لأنني قلت لك ذلك؟».

لكنه تابع الرسم. كانت يده الآن تتحرّك بسرعة محمومة أكثر من ذي قبل. وكان القلم يرسم دوائر يائسة من حول الأشخاص الصغار في الصورة.

تحوّل إحباطي إلى غضب. كثيرًا ما أحسّ كما لو أن جيك مسألة لا أستطيع حلّها، فأكره نفسي لأنني عديم الفائدة ولأنني عديم الحول إلى هذا الحدّ. وفي الوقت نفسه، أضيق ذرعًا به لأنه لا يعطيني أي شيء يصلح أن يكون دليلًا لي. لا يلاقيني أبدًا في منتصف الطريق. كنت أريد مساعدته؛ وكنت أريد التأكد من أنه بخير. لم يبدُ لي أبدًا أنني قادر على فعل ذلك وحدي.

أدركت أنني أشد قبضتي على الطبق الذي أحمله.

«سندويتشك صار جاهزًا».

وضعت الطبق على الأريكة ولم أنتظر لأرى إن كان سيتوقّف عن الرسم أم لا. بدلًا من ذلك، عدت سريعًا إلى المطبخ واستندت إلى طاولته وأغمضت عينيَّ. لسبب ما، كان قلبي ينبض عنيفًا.

رحت أفكر في ريبيكا. اشتقت إليك كثيرًا. ليتك كنت هنا. أتمنّى وجودك لأسباب كثيرة؛ وأما في هذه اللحظة، فلأنني أظنّني لا أستطيع فعل هذا.

بدأت أبكي. لا يهمّني هذا. لم يأتِ جيك، لأنه يرسم الآن، أو لأنه يأكل سندويتشه، وسوف يستمر في هذا بعض الوقت. ولماذا يأتي طالما لا وجود هنا لأحد غيري؟ إذًا، لا بأس في البكاء. وأما ابني فيمكنه أن يواصل قليلًا حديثه مع أشخاص لا وجود لهم. أستطيع البكاء إذا بقيت هادئًا مثله.

اشتقت إليك.

في تلك الليلة، حملت جيك إلى سريره، كما هي العادة. هكذا كان الأمر منذ موت ريبيكا. يرفض النظر إلى المكان الذي رأى فيه جثتها، فيتمسّك بي، ويحبس أنفاسه، ويدفن وجهه في كتفي. في كل صباح، وفي كل ليلة، وكلما كان في حاجة إلى الذهاب إلى المرحاض. كنت أفهم السبب، لكنّه بدأ يصير ثقيلًا عليّ... ثقيلًا لأكثر من سبب.

آمل أن يتغيّر هذا قريبًا.

بعد أن نام جيك، عدت إلى الطابق السفلي، وجلست على الأريكة مع الآيباد وكأس نبيذ. بدأت أُحمّل معلومات بيتنا الجديد. جعلني النظر إلى الصورة في موقع الإنترنت مضطّربًا، لكن على مستوى آخر.

يمكنني القول إن جيك هو من اختار هذا البيت. لم أكن قادرًا على رؤية جاذبيته أول الأمر. كان بيتًا صغيرًا مستقلًّا... بيت قديم من طابقين يوحي مظهره المتداعي بكوخ عتيق. لكن، كان فيه شيء غريب قليلًا. بدت مواضع النوافذ فيه غريبة بعض الشيء، فكان صعبًا أن يتخيّل المرء توزيعه الداخلي. ثم إن زاوية مَيَلان السقف كانت غريبة أيضًا... بدت واجهة البيت كأنها منحرفة تنظر بفضول، بل حتى بشيء من الغضب. إلا أنه كان يبعث في نفسي إحساسًا أكثر عمومية -تنميل في مؤخرة رأسي. عندما نظرت إليه أول مرة، جعلني هذا البيت متوتّرًا.

إلا أن جيك أحبّه وأصرّ عليه لحظة رآه أوّل مرّة. كان في هذا البيت شيء سحره تمامًا؛ سحره إلى حد جعله يرفض النظر إلى أي بيت آخر.

عندما رافقني لرؤية البيت أول مرّة، بدا لي كما لو أن ذلك البيت قد نوّمه مغناطيسيًا. لم أكن قد اقتنعت بعد. كان بيتًا لا بأس بحجمه من الداخل، لكنه كان وسخًا أيضًا. رأيت فيه خزائن وكراسي يكسوها الغبار، وحزَمًا من صحف عتيقة، وصناديق من الورق المقوّى، وفراشًا في الغرفة الاحتياطية في الطابق السفلي. اعتذرت مالكته، وهي سيدة تجاوزت أواسط العمر اسمها السيدة شيرينغ. قالت إن تلك الأشياء تخصّ الشخص الذي كان مستأجرًا عندها. وقالت إنها لن تكون موجودة عندما يصير البيت لنا.

لكن جيك كان مصرًّا على رأيه، فاتّفقت مع مالكة البيت على الذهاب لرؤيته مرّة ثانية. لقد ذهبت وحدي هذه المرّة. كان ذلك عندما بدأت أرى البيت بعينين مختلفتين. صحيح أنه يبدو قديمًا، لكن ذلك يعطيه نوعًا من سحر غريب. وما أحسسته في البداية مظهرًا غاضبًا، صار الآن يبدو لي شيئًا أشبه بالتعب... كما لو أن أحدًا قد جرح ذلك البيت في الماضي فصار عليك أن تبذل جهدًا حتى تكسب ثقته.

إن له شخصيّة، على ما أعتقد!

على الرغم من هذا، كانت فكرة الانتقال تخيفني. وفي حقيقة الأمر، كان جزءٌ مني بعد ظهر ذلك اليوم يأمل في أن يكتشف مدير المصرف أمر أنصاف الحقائق التي قلتها له عن حالتي المالية فيرفض طلب قرض شراء البيت من غير تردّد. إلا أنني أحسست بالارتياح في تلك اللحظة! نظرت من حولي في غرفة البيت الأمامية فرأيت البقايا المغبرة المهملة المتروكة من حياة كنا نعيشها؛ وكان واضحًا أنّ أيًّا منا لا يستطيع الاستمرار على تلك الحال. علينا أن نخرج من هذا المكان وإن تكن الصعوبات التي تنتظرنا كبيرة. ومهما تكن المشقة التي تنتظرني على امتداد الشهور القادمة، فإن طفلي في حاجة إلى هذا. كلانا في حاجة إلى هذا.

لا بد لنا من بداية جديدة. ولا بد لجيك من مكان لا يجد نفسه فيه محتاجًا إلى من يحمله صعودًا ونزولًا على ذلك السلّم. إنه في حاجة إلى مكان يستطيع فيه أن يجد لنفسه أصدقاء موجودين خارج رأسه. وأنا في حاجة إلى مكان لا أرى في كل زاوية من زواياه أشباحًا تصنعها مخيلتي. أنظر الآن إلى البيت مرة أخرى فأقول في نفسي إنه يناسبنا، أنا وجيك، يناسبنا على نحو غريب. رأيته مكانًا غريبًا -غريبًا مثلنا- يجد صعوبة في التأقلم مع محيطه. ورأيت أننا سنكون منسجمين معًا. بل إن اسم القرية نفسه كان اسمًا دافئًا مريحًا.

... فيذربانك!

تبدو لي القرية مكانًا سنعيش فيه آمنين.

6

على غرار بيت ويليس، كانت مفتّشة الشرطة أماندا بيك تدرك تمام الإدراك أهمية الساعات الثماني والأربعين الأولى. لقد طلبت من فريقها أن يمضي الساعات الاثنتي عشرة التالية في تحرّي الطرق التي يحتمل أن يكون نيل سبنسر قد سلكها، فضلًا عن التحدّث مع أفراد العائلة وبدء إنشاء ملف للصبي المفقود. حصلت على صور له. وتحرّت القصّص المختلفة. ثم عُقد مؤتمر صحافي في التاسعة من صباح اليوم التالي، وأُعطيت وسائل الإعلام وصفًا لنيل ولملابسه. كان والدا نيل جالسَيْن صامتَيْن إلى يمين أماندا ويسارها بينما كانت تدلي بمناشداتها وتشجّع الشهود على الإدلاء بشهاداتهم. كانت آلات التصوير تتنقّل بين الأشخاص الثلاثة. بذلت أماندا قصارى جهدها لتجاهل المصورين. لكنها كانت ترى كيف ظلّ والدا نيل منتبهَين إلى كلٍّ واحد منهم، وكيف كانا يجفلان قليلًا كلما التقطت لهما صورة كما لو أن المصورين يطعنونهما.

قالت أماندا مخاطبة الجالسين في تلك الغرفة: «إننا ندعو الناس إلى تفقّد أيّة سقائف أو حظائر أو أكواخ أو مواقف سيارات ضمن ممتلكاتهم». حافظت أماندا على كل شيء هادئًا قليل الجلبة... إلى أقصى حدٍّ ممكن. كانت تهدئة مخاوف الناس هدفها الأول في تلك للحظة، إلى جانب تحديد مكان نيل سبنسر... صحيح أنها ما كانت قادرة على الجزم بأن نيل ليس مختطَفًا، لكنها كانت قادرة -على أقل تقدير- على جعل موضع تركيز التحرّيات الجارية في تلك اللحظة واضحًا للجميع.

قالت: «إن التفسير الأكثر ترجيحًا هو أن يكون حادث من الحوادث قد وقع لنيل. وعلى الرغم من أنه مفقود منذ خمس عشرة ساعة، فإننا متمسّكون أشد التمسك بالأمل في العثور عليه بخير وعافية... نريد العثور عليه قريبًا».

لكنها لم تكن واثقة تلك الثقة كلّها في قرارة نفسها.

* * *

كان من بين الأشياء التي فعلتها أماندا في غرفة العمليات بعد انتهاء المؤتمر الصحافي إعداد قائمة بحفنة من أصحاب السوابق في الاعتداءات الجنسية في تلك المنطقة حتى يجري استدعاؤهم بهدوء، ثم استجوابهم على نحو أكثر علنية في ما بعد.

جرت توسعة منطقة ذلك البحث في ذلك اليوم. تم سبر مقطع من القناة (احتمال مستبعد)؛ وبدأت عملية واسعة لسؤال الناس من بيت لآخر. جرى تحليل ما سجّلته كاميرات المراقبة. لقد درست أماندا بنفسها ما صوّرته تلك الكاميرات. كانت بداية مسار نيل ظاهرة في التصوير، لكن أثره اختفى قبل أن يبلغ منطقة الأرض البور، ولم يظهر من جديد في أي مكان بعد انتهاء تلك المنطقة. لقد اختفى الصبي الصغير في مكان ما بين هاتين النقطتين.

كانت مرهقة، فراحت تدلّك وجهها لتعيد إليه شيئًا من الحياة. فتّش عناصر الشرطة منطقة الأرض البور مرة أخرى؛ لكن ذلك كان في ضوء النهار هذه المرة. واستمر البحث في المقلع.

لم يظهر أي أثر لنيل سبنسر حتى الآن.

إلا أنه ظهر بشكل آخر، وازداد ظهوره مع تقدم ساعات النهار. ظهرت صوره في الأخبار، وكان أكثرها ظهورًا تلك الصورة التي يظهر فيها نيل مبتسمًا ابتسامة خجولًا وهو مرتدٍ قميص كرة القدم -واحدة من الصور القليلة لدى والديه التي يظهر فيها سعيدًا-. وظهرت في التقارير الإخبارية خرائط بسيطة عليها دوائر حمراء في المواقع الأساسية، إضافة إلى مسارات محتملة بخطوط صفراء منقّطة.

بثت الأخبار أيضًا مقاطع من المؤتمر الصحافي. تابعتها أماندا على التابليت في سريرها عندما عادت إلى بيتها ذلك المساء. وعلى الرغم من ظهور والدَي نيل في تلك المقاطع أكثر تعاسة مما أحسّته أثناء المؤتمر الصحافي، فقد كان يبدو عليهما الآن شيء من الإحساس بالذنب. إن لم يكونا قد أحسَّا بالذنب حتى الآن، فسرعان ما سيحسّان به... سوف يجعلهم الناس يحسّون بالذنب! في اجتماعها مع أعضاء فريقها مساء ذلك اليوم -كان لدى كثيرين منهم أطفال- نبّهتم أماندا إلى ضرورة التعامل الحسّاس الحذر مع أم نيل وأبيه على الرغم من أن الظّروف المحيطة باختفائه لا تزال غير مؤكّدة. كان من الواضح تمامًا أنهما ليسا أبوين مثاليين. لكن أماندا لم تشكّ أبدًا في تورّط مباشر لأي منهما في اختفاء الصبي. لقد وجدت في سجل الأب عددًا من الجُنح البسيطة السِّكر، والشغب، وتحذير من أنه ميال إلى القتال لكن ذلك كلّه لم يكنْ شيئًا من شأنه أن يوحي بالخطر. كان سجل الأم نظيفًا. وأهم من هذا وذاك ما ظهر عليهما من تأثّر حقيقي بما حدث. بل إنهما لم يتبادلا أيّة اتهامات، ولم يحمِّل أحدهما الآخر أيّة مسؤولية، على الرغم من صعوبة تخيّل ذلك.

كان كل منهما راغبًا في عودة الصبي.

نامت أماندا نومًا مضطربًا، ثم عادت إلى مكتبها في وقت مبكر من الصباح. خلال ستة وثلاثين ساعة انقضت (لم يكن إلا عدد محدود منها وقت استراحة)، ظلت أماندا جالسة في مكتبها تفكّر في الفئات الخمس من حالات اختفاء الأطفال، فتجد نفسها مرغمة، أكثر فأكثر، على التوصّل إلى نتيجة غير مريحة. لم تكن تعتقد بأن والدَي نيل قد هجراه أو تخلّصا منه بطريقة من الطرق. وإذا كان قد وقع له حادث أثناء عودته إلى البيت، فمن المفترض أن يكون قد تم العثور عليه الآن. بدا اختطافه من قبل فرد آخر من أفراد العائلة أمرًا بعيد الاحتمال. وعلى الرغم من أن احتمال هربه من البيت لم يكن احتمالًا مستحيلًا، فقد رفضت أماندا الاقتناع بأن صبيًا في السادسة من العمر، من غير مال ولا طعام، يمكن أن يراوغها هذه المدّة كلّها.

حدّقت في صورة نيل سبنسر على الجدار مفكّرة في السيناريو الكابوسي.

... اختطاف من قبل شخص غريب عن العائلة.

من شأن الجمهور أن ينظر إلى الأمر، بشكل عام، على أنه اختطاف على يد شخص غريب، لكن الدقّة كانت مهمّة. نادرًا ما يختطف أطفال من هذه الفئة من قبل أشخاص لا يعرفونهم أبدًا. فالحالة الأكثر ظهورًا هي أن يصادفهم ويغريهم أشخاصٌ موجودون على هامش حياتهم. وهكذا، فقد تغيّر موضع تركيز التحرّيات بفعل الخيوط التي تشكّلت خلال جزء من اليوم المنصرم فتقدّمت إلى الواجهة. أصدقاء العائلة. عائلات أولئك الأصدقاء. بل حتى ضرورة إلقاء نظرة أكثر تدقيقًا على المعتدين المعروفين. تصفّح الإنترنت في البيت. عادت أماندا إلى مشاهدة مقاطع كاميرات المراقبة المتوفّرة، وبدأت تدرسها من زاوية مختلفة فتركّز على المعتدين المحتملين الذين قد يظهرون في الخلفية، لا على الفريسة نفسها

جرى استجواب والدَي نيل مرة أخرى.

سألتهما أماندا: «هل عبّر ابنكما عن أي قلق أو مخاوف من اهتمام غير مرغوب فيه من قبل أشخاص بالغين آخرين؟ وهل ذكر لكما أن أحدًا حاول التقرّب منه؟».

بدا على والد نيل إحساس بالصدمة إزاء تلك الفكرة: «لا! لو حدث هذا لفعلت شيئًا بالتأكيد، أليس كذلك؟ ثم... ألا تظنّين أنني كنت سأذكره لك بنفسي قبل أن تسأليني عنه؟».

ابتسمت أماندا له ابتسامة مهذّبة.

قالت أم نيل: «لا!»... لكنها قالتها بقدر أقل من الجزم.

وعندما ألحّت عليها أماندا، قالت المرأة إنها تتذكّر شيئًا في حقيقة الأمر. لم يخطر في بالها أن تبلغ عنه في ذلك الوقت، بل لم يخطر في بالها أن تبلغ عنه حتى عندما اختفى نيل؛ وذلك لأنه كان أمرًا غريبًا جدًّا، غبيًّا جدًّا. ثم، على أيّة حال، فقد كانت نصف نائمة في ذلك الوقت، فهي لا تكاد تتذكّر الأمر أصلًا.

ومن جديد، ابتسمت أماندا ابتسامة مهذّبة وهي تقاوم رغبتها في الانقضاض على تلك المرأة وقطع رأسها.

بعد عشر دقائق، صعدت إلى المكتب في الطابق الثاني، مكتب مديرها، كبير مفتشي الشرطة كولين لايونز. لعل الإرهاق هو ما جعلها مضطرّة إلى بذل جهد حتى تمنع ساقيها من الارتجاف... أو، لعله التوتّر. بدا لايونز نفسه كما لو أنه يعاني ألمًا. كان يتابع التحقيق متابعة وثيقة ويفهم تمامًا، مثل أماندا، الوضع الذي صار مرجّحًا أنهم يواجهونه. على الرغم من ذلك، لم يكن هذا التطوّر الأخير أمرًا يحب سماعه.

قال لها لايونز بصوت هادئ: «لا يجوز أن تعرف وسائل الإعلام شيئًا عن هذا الأمر».

«بالتأكيد، يا سيدي».

نظر إليها فجأة وقد بدا عليه إحساس بالخطر: «وماذا عن الأم؟ هل قلت لها ألا تقول شيئًا في العلن؟... أي شيء على الإطلاق؟».

«قلت لها، يا سيدي».

بالتأكيد، قلت لها، يا سيدي!

لكنّ أماندا كانت تشكّ في ضرورة ذلك. لقد كانت نبرة بعض ما ورد في التغطية الصحافية اتهاميّة منذ الآن، وكانت الاتهامات قد بدأت توجّه إلى والدَي نيل من غير حاجة إلى تقديم أي سبب إضافي لها.

قال لها لايونز: «جيّد. هذا لأن... يا إلهي...».

«أعرف، يا سيدي».

أسند ظهره إلى كرسيه وأغمض عينيه بضع ثوانٍ وراح يستنشق أنفاسًا عميقة: «هل تعرفين القضية؟».

رفعت أماندا كتفيها. يعرف الجميع تلك القضية. لكن هذا شيء مختلف عن معرفتها على النحو الذي يعنيه. قالت له: «لا أعرف كل شيء».

فتح لايونز عينيه وظلّ جالسًا في كرسيه ينظر إلى السقف. قال لها: «هذا يعني أنك ستكونين في حاجة إلى شيء من المساعدة».

انقبض قلب أماندا قليلًا عندما سمعت ذلك. لقد بذلت أقصى ما تستطيعه من جهد خلال هذين اليومين المنقضيين، فلم تستسغ فكرة مشاركة أي شخص آخر التوصّل إلى حلٍّ هذه القضية. لكنَّ سببًا آخر كان هناك أيضًا: إنه شبح شخص تعرف من يكون.

فرانك كارتر.

الهامس. الآن، ستصير تهدئة مخاوف الناس أكثر صعوبة. بل ستصير أمرًا مستحيلًا إن تسرّبت هذه المعلومة الجديدة. عليهم أن يكونوا في غاية الحرص.

«نعم، يا سيدي».

رفع لايونز سماعة الهاتف الموجود على طاولة مكتبه.

هكذا صار المحقّق بيتْ ويليس مشاركًا في التحقيق من جديد مع اقتراب انقضاء الأربع والعشرين ساعة الحاسمة بعد اختفاء نيل سبنسر.

7

لا يعني هذا أنه كان راغبًا في المشاركة! كانت فلسفة بِيتْ بسيطة إلى حدٍّ ما؛ وقد صارت مزروعة فيه بعد مرور تلك السنوات الكثيرة فغدت الآن سلوكًا عفويًّا أكثر من كونها نتيجة تفكير واعٍ: قاعدة صارت حياته مبنية عليها.

يعرف الشيطان كيف يجد عملًا للأيدي العاطلة. وتعرف الأفكار السيّئة كيف تعثر على رؤوس فارغة تستوطنها.

لذا، كان بيتْ حريصًا على إبقاء يديه وذهنه في حالة انشغال دائم. كان الانضباط والتنظيم أمرين مهمّين لديه؛ وعندما لم يسفر البحث في الأرض البور عن أيّة نتائج، أمضى الشطر الأعظم من الساعات الأربع والعشرين الماضية في فعل ما كان يفعله دائمًا... في فعله بالضبط.

لقد كان في صالة الألعاب الرياضية في مركز الشرطة منذ ساعة مبكرة من ذلك الصباح: تمرينات رفع الأثقال إلى الأعلى، وإلى الجانبين، وإلى الخلف. كان يعمل على جزء مختلف من جسمه كل يوم. ولم تكن تلك مسألة هواية أو اهتمام بالصحة، بقدر ما كان التركيز والعزلة الملازمان لأداء التمرينات الرياضية أُلْهِية مريحة له. فبعد ثلاثة أرباع الساعة، كثيرًا ما تصيبه الدهشة عندما يكتشف أن ذهنه قد صار فارغًا، في معظمه، على نحو مريح. في ذلك الصباح، أفلح في عدم التفكير إطلاقًا في نيل سبنسر. وبعد ذلك، أمضى الشطر الأكبر من نهاره في مكتبه في الطابق العلوي حيث كانت كمية من القضايا الصغيرة مكدّسة على مكتبه، فوفّرت له ما يلزمه من انشغال ذهن. لو كان رجلًا أصغر سنًا، وأكثر اندفاعًا، لكان من المرجَّح أن يتوق إلى قدر من الإثارة أكبر مما توفّره تلك الجرائم التي يعمل عليها. وأما اليوم، فقد قدَّر كثيرًا السكينة التي يمكن العثور عليها في هذه التوافه المضجرة. لم تكن الإثارة أمرًا نادرًا فحسب في عمل الشرطة، بل هي من الأمور السيّئة أيضًا... فهي تعني عادة أن ضررًا قد أصاب حياة واحد من الناس. كان تمنّي الإثارة أشبه بتمنّي أذيّة شخصٍ ما؛ وكان بيتْ قد نال أكثر من كفايته من الأمرين معًا. صار الآن يجد راحة في قضايا سرقة السيارات والسرقات الصغيرة من المتاجر، وفي حضور جلسات المحاكم التي تتناول جُنَحًا وجرائم صغيرة لا حصر لها. يتحدّث الناس عن أن كلَّ شيء هادئ في المدينة؛ إلا أنها قد لا تكون هادئة كل الهدوء... لكن الأمر لا يصل حد التهاوي أيضًا.

صحيح أنه لم يكن على علاقة مباشرة بتحقيق نيل سبنسر، لكن تجنّبه تجنّبًا تامًّا كان أمرًا مستحيلًا أيضًا. إن فقدان صبي صغير يلقي ظلالًا ضخمة، وسرعان ما يصير أبرز قضية في مركز الشرطة. كان يسمع عناصر الشرطة يتحدّثون عنه في الممرّات: أين يمكن أن يكون؛ وما الذي يمكن أن يكون قد حدث له؛ وبالطبع... حديث عن والديه أيضًا. كان الحديث عن الوالدين تخمينات يتناقلونها بصوتٍ منخفضٍ، فالإدارة تنهى عنها؛ إلا أنه ظلّ يسمعها على أيّة حال قِلة

المسؤولية عند ترك صبي صغير يعود إلى البيت وحيدًا. تذكّر حديثًا مماثلًا جرى منذ عشرين عامًا، فأسرع الخطى لأنه ما كان الآن مستعدًّا لسماع ذلك الكلام بأكثر مما كان مستعدًا آنذاك.

قبيل الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، كان جالسًا بهدوء خلف طاولة مكتبه يفكّر في ما سيفعله ذلك المساء. كان يعيش وحده؛ ونادرًا ما يخالط الناس. وهكذا، فقد اعتاد أن يمضي الوقت مع كتب الطبخ فيعدّ لنفسه وجبات متقَنة، ثم يتناول طعامه وحيدًا جالسًا إلى الطاولة. وبعد ذلك، يتابع فيلمًا أو يقرأ كتابًا.

والطقس المعتاد، بطبيعة الحال! الزجاجة، والصورة.

جمع أشياءه استعدادًا للمغادرة مع أن الوقت لا يزال مبكرًا بعض الشيء، لكنه أدرك أن نبضه في تسارع. عاوده ذلك الكابوس في الليلة الماضية، عاوده أول مرّة منذ شهور كثيرة: جين كارتر تهمس له في الهاتف «عليك أن تسرع». على الرغم منه، كان الهرب التام من نيل سبنسر أمرًا مستحيلًا. وهذا ما كان يعني أن تصير الأفكار والذكريات القاتمة أكثر قربًا إلى السطح مما يريد. وهكذا، فقد ارتدى سترته، ثم لم يشعر بدهشة كبيرة عندما رُن الهاتف على طاولته. من المستحيل أن يكون متأكّدًا تمامًا، لكنه أدرك الأمر على نحو ما.

ارتعشت يده قليلًا عندما رفعت سماعة الهاتف.

جاءه صوت كولين لايونز: «يسرني أنني أدركتك قبل انصرافك. أريد أن أكلمك قليلًا في مكتبي».

تأكّدت شكوكه فور دخوله مكتب كولين لايونز. لم يفصح لايونز عن شيء عبر الهاتف، لكنَّ المحقّقة أماندا بيك كانت موجودة أيضًا... كانت جالسة إلى طاولة المكتب القريبة من الباب مديرة ظهرها إليه. لم تكن الآن تتولّى التحقيق إلا في قضية واحدة؛ وهذا يعني أن هناك سببًا وحيدًا لاستدعائه.

حاول المحافظة على هدوئه وهو يغلق الباب. حاول خاصّة ألا يفكر في المشهد الذي كان في انتظاره عندما تمكّن من زيارة بيت فرانك كارتر قبل عشرين عامًا مضت.

ابتسم له لايونز ابتسامة عريضة. كانت له ابتسامة قادرة على إنارة الغرفة كلّها.

«أشكرك على مجيئك. اجلس من فضلك».

جلس بيتْ إلى جانب المحقّقة بيك: «أشكرك. مرحبًا يا أماندا».

أومأت أماندا برأسها مجيبة على تحيّته ومنحته ابتسامة سريعة لم تكد تنير وجهها -ابتسامة باهتة جدًّا إذا ما قورنت بابتسامة لايونز. لم يكن بيت يعرفها معرفة حسنة. إنها تصغره بعشرين عامًا؛ لكنها بدت الآن أكبر من سنّها. كانت مستنفَدة القوى على نحو واضح تمامًا. قال في نفسه إنها متوتّرة الأعصاب أيضًا. لعلّها قلقة من أن تضعُف صلاحياتها في هذا الأمر، ومن أن تُسحب

القضية منها. كان يسمع عنها أنها امرأة طموحة. وكان في وسعه أن يريح بالها من هذه الناحية. صحيح أن لايونز لن يتردّد في إبعادها عن التحقيق إذا وجد الأمر مناسبًا، لكنه لن يحيله أبدًا إلى بيتْ بدلًا منها.

كانا من جيل واحد نسبيًا، هو ولايونز؛ إلا أن بيتْ التحق بمركز الشرطة قبله بسنة واحدة، على الرغم من تفاوت رتبتيهما الآن. ثم إن سيرته المهنية كانت حافلة بإنجازات أكثر من إنجازات لايونز. في عالم مختلف، كان من شأنهما، أن يتبادلا موضعَي جلوسهما الحاليين... بل ربما كان يجب أن يحدث ذلك. لكن لايونز كان طموحًا على الدوام، في حين كانت بيتْ مدركًا أن الترقية تأتي معها بكثير من الدراما ومن المنازعات، فلم يجد في نفسه رغبةً في مزيد من تسلّق السلّم الوظيفي. يعرف بيتْ أن هذا يضايق لايونز دائمًا. فعندما يسعى المرء خلف شيء ما بالشِدّة التي سعى بها لايونز، لا يكون هناك شيء أكثر إزعاجًا من وجود شخص كان يمكنه مساعدته على تحقيق ذلك بسهولة أكبر لو أنه أراده.

قال لايونز: «أنت على علم بالتحقيق الجاري باختفاء نيل سبنسر».

«صحيح، لقد شاركت في تفتيش الأراضي البور في الليلة الأولى».

حدّق لايونز فيه لحظة؛ ولعله رأى في ذلك انتقادًا له.

أضاف بيت قائلًا: «بيتي قريب من ذلك المكان».

لكن لايونز يعيش في ذلك الحي أيضًا، ولم يخرج مع من خرجوا لتفتيش الشوارع في تلك الليلة. إلا أن لايونز أومأ برأسه بعد ثانية واحدة، كان يعرف أن لدى بيت أسبابًا تحمله على الاهتمام بأية قضية من قضايا الأطفال الضائعين.

«وهل أنت مطّلع على التطوّرات التي جرت منذ ذلك الوقت؟».

نعم إنني مطّلع على أنه لا وجود لأيّة تطوّرات. لكن من شأن قول هذه العبارة أن يظهر كما لو أنه انتقاد للمحقّقة بيك... انتقاد لا تستحقّه. فعلى الرغم من قلّة ما شاهده، كان يعرف أنها تدير التحقيق إدارة حسنة، وأنها تفعل كلَّ ما يمكنها فعله. والأهم من هذا أنها أمرت عناصرها بعدم توجيه أي انتقاد إلى والدَي الصبي. لقد أعجبه ذلك.

قال: «أعرف أن نيل لا يزال مفقودًا على الرغم من تكثيف البحث والتحرّي».

«وما هي نظريّتك؟».

«لم أتابع التحقيق متابعة وثيقة إلى الحدِّ الكافي لأن تكون لديَّ نظرية».

بدت الدهشة على لايونز عندما سمع هذا: «ألا تتابع التحقيق؟ أظنك قلت إنك خرجت تبحث عن الفتى في الليلة الأولى!».

«كان ذلك عندما ظننت أننا سنعثر عليه».

«ألا تظن الآن أننا سنعثر عليه؟».

«لست أدري. آمل أن نعثر عليه».

«بالنظر إلى ماضيك، ظننت أنك ستحرص على متابعة هذه القضية!».

ها هو أول ذكر للأمر، ها هي الإلماحة الأولى!

«لعل ذلك الماضي سببٌ يجعلني أمتنع عن متابعة الأمر».

«صحيح، أستطيع فهم هذا. كان وقتًا عصيبًا لنا جميعًا».

بدت نبرة صوت لايونز متعاطفة، لكن بيت كان يعرف أن هذا منبع آخر من منابع النفور بينهما. كان بيت هو من توصّل إلى حل أكبر قضية شهدتها المنطقة خلال خمسين عامًا مضت. لكن لايونز هو من انتهى به الأمر إلى تولّي القيادة. من ناحيتين مختلفتين، كان التحقيق الجاري الآن غير مريح لكل منهما.

وكان لايونز هو من جعل تلك الدوامة تصل إلى منتهاها عندما قال: «أفهم أيضًا أنك الشخص الوحيد الذي سيقبل فرانك كارتر الحديث معه».

ها هو الأمر!

لقد مر زمن غير قليل منذ أن سمع بيتْ ذلك الاسم يقال بصوت مرتفع، ولعله كان حريًّا بسماعه أن يجعله يجفل الآن. لم يجفل... إلا أن ذكر كارتر جعل إحساسًا زاحفًا داخله يصعد إلى السطح. فرانك كارتر. الرجل الذي اختطف خمسة صبية صغار في فيذربانك وقتلهم منذ عشرين عامًا. إنه الرجل الذي تمكّن بيتْ آخر الأمر من الإمساك به. كان الاسم وحده كافيًا لأن يوقظ في نفسه ذعرًا جعله يشعر دائمًا بأن من غير الجائز قول هذا الاسم بصوت مسموع. كأنه لعنة قادرة على جعل وحش يسير في أعقابك.

وأسوأ من ذلك كان الاسم الذي أطلقته عليه الصحف: الهامس. كان ذلك قائمًا على فكرة أن كارتر كان يستميل ضحاياه ويجعلهم أصدقاء له (أطفالٌ ضعفاء مهمَلون) قبل أن يختطفهم. كان يتحدث معهم بهدوء في الليل من تحت نوافذهم. وكان ذلك اسمًا مستعارًا لم يسمح بيتْ لنفسه أبدًا بأن يستخدمه. صار عليه الآن أن يقاوم رغبة جامحة في الخروج من الغرفة.

«أنت هو الشخص الوحيد الذي سيقبل أن يكلّمه». «نعم».

قال لايونز: «ولماذا تظنّ بأنك الشخص الوحيد؟».

«لأنه يستمتع بتعذيبي».

«في شأن ماذا؟»

«في شأن الأشياء التي فعلها في ذلك الوقت. الأشياء التي لم أستطع اكتشافها أبدًا».

«ألا يخبرك عنها أبدًا؟».

«لا».

«فلماذا تجشّم نفسك عناء الحديث معه؟».

تنهّد بيت. كان هذا سؤالًا طرحه على نفسه مرّات كثيرة على مرّ السنين. كان يخشى تلك المقابلات؛ وكان عليه دائمًا أن يكبت القشعريرة التي يحسّها كلّما جلس في غرفة المقابلات الخاصّة في السجن منتظرًا قدوم كارتر. وبعد ذلك، كان يحسّ نفسه محطّمًا، ويستمرّ ذلك الإحساس أسابيع كثيرة، بعض الأحيان. كانت تمرّ به أيام يرتجف فيها ارتجافًا لا يستطيع السيطرة عليه، وأمسيات تصير فيها مقاومة الشرب أكثر صعوبة. وفي الليل، كان كارتر يأتيه في أحلامه -ظلٌّ مهولٌ مخيفٌ يجعله يستيقظ من نومه صارخًا-. كان كلّ لقاء مع ذلك الرجل يُلحق به مزيدًا من الضرر.

لكنه ظلّ يفعل ذلك... ظلّ يذهب لرؤيته.

أجاب محترسًا: «أظنني آمل أن يخونه لسانه في يوم من الأيام فيفصح عن شيء مهم من غير أن يقصد ذلك».

«هل تعني شيئًا من قبيل المكان الذي دفن فيه الصبي سميث؟».

«أجل».

«... وأن يقول شيئًا عن شريكه؟».

لم يجبه بيتْ بشيء.

وذلك لأن... ها هو الأمر من جديد.

منذ عشرين عامًا، تمكّنوا من العثور على جثث أربعة من الصبية المفقودين في بيت فرانك كارتر. لكن جثّة الضحيّة الخامسة، توني سميث، لم تُكتشف أبدًا. لم يكن أحدٌ يشكّ على الإطلاق في أن كارتر مسؤول عن قتل الخمسة جميعًا؛ ثم إنه لم ينكر ذلك أبدًا. لكن من الصحيح أيضًا أن هناك بعض نقاط الخلل الواضحة في القضية. ما كان هناك شيء قادر على تبرئة الرجل: مجرّد خيوط صغيرة ظلّت سائبة فتركت التحقيق في حالة مهلهلة مضطربة. قُدِّر أن توقيت حدوث واحدة من حالات الاختطاف كان واقعًا ضمن فترة بعينها؛ لكن كارتر كان لديه دليل على وجوده في مكان آخر خلال معظم تلك الفترة. لم يكن ذلك مما يجعل من المستحيل عليه أن يختطف الصبي؛ إلا أنه قلّل من ذلك الاحتمال، على نحوٍ ما. وكانت هناك شهادات وصفت (على

الرغم من كونها غير جازمة) شخصًا مختلفًا في بعض الحالات. كانت الأدلة التي عثر عليها في بيت كارتر دامغة. وكانت لديهم شهادات شديدة المتانة والموثوقية. لكن الشكّ في أن كارتر قد أقدّم على ارتكاب تلك الجرائم من غير شريك ظلّ باقيًا على الدوام.

لم يكن بيتْ واثقًا إن كان يشارك الناس هذا الشك أم لا، وقد كان يبذل قصارى جهده -معظم الوقت- لكي يتجاهل ذلك الاحتمال. لكن من الواضح أن هذا سبب وجوده هنا. وعلى غرار أي رعب لا بد من مواجهته، كان من الأفضل جرّه إلى الضوء والانتهاء منه. وهكذا قرّر تجاهل سؤال مديره والدخول في الموضوع مباشرة.

«هل أستطيع سؤالك عن المقصود من هذا، يا سيدي؟».

تردّد لايونز.

«ما سنناقشه هنا لا يجوز الآن أن يعرف به أحد خارج هذه الغرفة، هل هذا واضح؟».

«بالطبع».

«توحي تسجيلات كاميرات المراقبة التي لدينا بأن نيل سبنسر لم يذهب في اتجاه منطقة الأرض البور، لكنه اختفى في مكان قريب منها. لم يسفر البحث عن أي شيء حتى الآن. وقد تحقّقنا من كل موقع يحتمل أن يكون قد ذهب إليه مصادفة. إنه ليس مع أحد من أصدقائه أو أقاربه. ومن الطبيعي أن نجد أنفسنا مضطرين إلى التفكير في الاحتمالات الأخرى. قولي ما لديك أيتها المحقّقة بيك».

عادت الحياة إلى أماندا الجالسة إلى جانب بيت. وعندما تكلّمت بدت في صوتها نبرة دفاعية بعض الشيء.

«من الواضح أننا فكّرنا في تلك الاحتمالات الأخرى منذ البداية. لقد أجرينا تحرياتنا من بيت إلى بيت. وتحدّثنا مع المرشحين المعتادين. لكن هذا لم يوصلنا بعد إلى أي شيء».

لا بد أن في الأمر ما يتجاوز هذا، هكذا قال بيت في نفسه، لكنه سألها: «ولكن...؟».

أخذت أماندا بيك نفسًا عميقًا: «لكنّي تحدّثت مع والدَيه من جديد. تحدّثت إليهما منذ ساعة فقط. كنت أبحث عن أي شيء قد يكون فاتني، عن أي نوع من الخيوط. لقد قالت لي أمه شيئًا. لم تذكر ذلك الشيء من قبل لأنها ظنّته سخيفًا».

«وما هو؟».

طرح عليها هذا السؤال على الرّغم من أنه كان يعرف الإجابة. لعلّه لم يكن يعرف الصيغة التي ستتخذها تلك الإجابة تحديدًا، لكنه ليس بعيدًا عنها. خلال ذلك اللقاء، بدأت عناصر كابوس جديد تتجمّع معًا فتشكّل صورة موحّدة.

صبي صغير مفقود.

فرانك كارتر.

شريك له.

والآن، أضافت أماندا بيك الجزء الأخير من الصورة.

«منذ بضعة أسابيع، أيقظ نيل أمّه في منتصف الليل. قال لها إنه شاهد وحشًا تحت نافذته. كانت الستائر مفتوحة، مما يوحي بأنه كان ينظر إلى الخارج حقًّا، لكنها لم ترَ أحدًا هنا...».

توقّفت أماندا لحظة.

«قال إنه كان يهمس له بأشياء».

الجزءالثاني

أيلول

8

كان جيك متحمّسًا عندما استلمنا المفاتيح من وكيل العقارات في فيذربانك؛ أما أنا فلم أشعر إلا بالقلق ونحن ذاهبان بالسيارة إلى بيتنا الجديد. ماذا لو كان البيت غير ما أتذكّره عندما ذهبت لرؤيته؟ وماذا لو دخلت الآن فكرهت المكان... بل أسوأ من هذا... ماذا لو كرهه جيك؟

سيكون هذا كلّه عبثًا من غير طائل.

«كفّ عن ركل المقعد من الخلف، يا جيك».

توقّفت ضربات قدميه على المقعد من خلفي، لكنها لم تلبث أن عادت من جديد. تنهّدت وأنا أنعطف بالسيارة. لكن... لقد كان متحمِّسًا مستثارًا؛ وهذا حدث نادر بحدِّ ذاته. قرّرت أن أتجاهل الأمر. على الأقل، واحد منا يشعر بشيء من السعادة.

كان ذلك اليوم جميلًا. وإذا وضعنا توتر أعصابي جانبًا، فقد كان من المستحيل إنكار كون فيذربانك مكانًا جميلًا تحت ضياء شمس أواخر الصيف. كانت تلك ضاحية لا تبعد إلا خمسة أميال عن قلب المدينة الصاخب، لكن المكان هنا بدا لي أشبه بمنطقة ريفية. في الأسفل، عند النهر، على أطراف القرية الجنوبية، رأيت أكواخًا وطرقًا مرصوفة بالحجارة. وإلى الشمال قليلًا، على مسافة من صف واحد من المتاجر، كانت هناك شوارع منحدرة فيها بيوت حجرية جميلة، وكانت الأشجار تحفّ بأكثر تلك الشوارع من الجانبين... أوراقها كثيفة خضراء من فوقنا. كانت نافذة السيارة مفتوحة؛ وفاح الهواء من حولنا برائحة العشب المجزوز؛ وسمعت صوت موسيقى، ورأيت أطفالًا يلعبون. بدا كل شيء هنا مسالمًا، هادئًا بدا دافئًا بطيئًا مثل صباح متكاسل.

بلغنا شارعنا الجديد الذي كان شارعًا سكنيًّا هادئًا يمتدّ حقل كبير على أحد جانبيه. مزيد من الأشجار عند حوافّ الحقل، وأشعة الشمس تخترق الأوراق وتغسل العشب بنورها. حاولت تخيّل جيك في هذا المكان جاريًا هنا وهناك، منطلقًا من بيتنا وقميصه ذو الكمَّيْن القصيرين يلمع في الشمس. تخيلته لا يزال سعيدًا مثلما هو سعيد الآن.

بيتنا!

لقد وصلنا.

توقّفت في المدخل الخاص بالسيارة. بطبيعة الحال، كان شكل البيت لا يزال على حاله، لكنّه بدا لي كما لو أنه يحدّق في العالم بطريقة مختلفة. عندما رأيته أول مرة، أحسست كما لو أنه يصدّني ويخيفني بل كما لو أنه خطير، تقريبًا. وأما في المرة الثانية، فقد رأيت أن له شخصية خاصّة. والآن... للحظة واحدة فقط... ذكّرني ترتيب النوافذ العتيق بمظهر وجه مضروب،

ارتفعت إحدى عينيه إلى الأعلى قليلًا فوق وجنة عليها كدمة كبيرة... جمجمة مصابة معوجّة. هززت رأسي فتبعثرت تلك الصورة واختفت. لكن إحساسًا بالشؤم ظل باقيًا.

قلت بصوت هادئ: «هيا بنا».

خرجنا من السيارة. كان النهار ساكنًا، هادئًا. ما من نسمة تحرّك الهواء الدافئ حتى لكأننا في غلاف من الصمت. لكن العالم كان يهمهم بأصوات منخفضة عندما اقتربنا من البيت؛ وأحسست كما لو أن النوافذ تنظر إلينا، أو لعله شيء خلف زجاجها، شيء لا أراه. أدرت المفتاح في القفل، وفتحت الباب، فانداح الهواء الراكد خارجًا. مرّت لحظة كانت رائحة ذلك الهواء فيها موحية بأن البيت مغلق منذ زمن أطول كثيرًا من الحقيقة. كانت كأنها رائحة شيء ظلّ متروكًا في الشمس بعض الوقت. ثم استطعت تمييز عبق مواد التنظيف في ذلك الهواء.

تجوّلت في المنزل مع جيك نفتح الأبواب والخزائن ونجرّب المصابيح فننيرها ونطفئها ونفتح الستائر ونغلقها. كان صدى خطواتنا يتردّد في المكان. وأما غير ذلك الصدى، فقد كان الصمت مطلقًا. مع سيرنا من غرفة إلى أخرى، لم أستطع أن أنفض عني ذلك الإحساس بأننا لسنا وحيدين. إحساس كما لو أن شخصًا آخر كان موجودًا معنا، لكنه مختفٍ عن الأنظار... إحساس بأنني، إن التفتّ في اللحظة المناسبة، أستطيع رؤية وجهٍ يسترق النظر إلينا من خلف الباب. كان هذا إحساسًا سخيفًا، غير عقلاني، لكنه كان موجودًا؛ لم ينجُ جيك من ذلك الإحساس! كان متحمّسًا، يتحرّك سريعًا من غرفة إلى أخرى؛ لكني كنت ألتقط -من حين لآخر- لمحة حيرة على وجهه كما لو أنه يتوقّع العثور على شيء، لكنه لم يجده.

«هل هذه غرفتي، يا بابا؟».

كانت الغرفة التي ستصير غرفة جيك واقعة في الطابق الأول، مرتفعة عن مستوى الأرض في الخارج مما جعل نافذتها أصغر من بقية النوافذ. إنها تلك العين التي رأيتها تنظر إلى الحقل من فوق الوجنة المصابة.

عبثت أصابعي بشعره: «صحيح. هل تعجبك؟».

لم يجبني، فخفضت رأسي ونظرت إليه متوتّرًا. كان يتلفّت من حوله غارقًا في أفكاره.

قلت: «جيك!».

رفع رأسه ونظر إليّ. قال: «هل صار هذا البيت لنا حقًّا؟».

أجبته: «أجل. إنه لنا».

عندها، احتضن جيك ساقيّ. كان ذلك مفاجئًا إلى حد جعلني أكاد أفقد توازني. كان كما لو أنني جعلته يرى أفضل هدية رآها في حياته، وكما لو أنه خائف من احتمال ألّا يستطيع الاحتفاظ بها. جلست القرفصاء حتى أعانقه جيّدًا. كانت الراحة التي أحسستها شديدة الوضوح... وفجأة، صار

ذلك كل ما يهمّني. لقد كان ابني سعيدًا بوجوده هنا. وقد فعلت شيئًا حسنًا من أجله. لا أهمية لأي شيء غير هذا. نظرت من فوق كتفه صوب الباب المفتوح، صوب الأرضية التي من خلفه. حتى إن كنت لا أزال أحسّ كما لو أن هناك شيئًا مختبئًا خلف الزاوية، فأنا أعرف أن هذا من فعل مخيلتي وحدها.

سوف نكون آمنَيْن هنا.

سوف نكون سعيدَيْن.

وقد كنا كذلك حقًّا... طيلة الأسبوع الأول!

* * *

في تلك اللحظة، كنت واقفًا أمام رفوف الكتب التي ركّبتها قبل قليل؛ وكنت معجبًا بصنعتي. لم أكن يومًا شديد المهارة في الأشغال اليدوية، لكنّي كنت أعرف أن هذا أمر تحبّ ريبيكا أن أفعله. تخيّلتها الآن ملتصقة بي من الخلف وقد أسندت صفحة وجهها إلى ظهري وطوّقت صدري بذراعيها. تبتسم لنفسها. «هل رأيت؟ أنت قادر على فعل هذا». صحيح أن ذلك كان إحساسًا صغيرًا بطعم النجاح، لكنه إحساسٌ لم آلفه في الآونة الأخيرة... لقد أعجبني!

لولا أنني -بالطبع- لا أزال وحيدًا.

بدأت أضع الكتب على الرفوف.

... لأن هذا كان شيئًا آخر من الأشياء التي تريد ريبيكا فعلها. ومع أن انتقالنا إلى هذا البيت الجديد كان انتقالًا لي ولجيك فقط، فقد كنت لا أزال راغبًا في الاحتفاء بما تريده ريبيكا. لقد قالت لي مرة: «عليك دائمًا أن تتولّى إخراج الكتب وترتيبها. هذا نوع من التأقلم مع المكان الجديد». كانت سعادتها بالقراءة تفوق سعادتها بأي شيء آخر. وكانت لنا أمسيات دافئة راضية كثيرة نجلس فيها متكوّمين على طرفَيْ الأريكة: أنا أكتب على كمبيوتري المحمول بأفضل ما أستطيعه، وهي غارقة في رواية تلو أخرى. وعلى مرّ السنين، تراكمت لدينا مئات الكتب التي بدأت الآن إخراجها وترتيبها ووضع كل واحد منها -بعناية- في مكانه.

ثم يأتي الأمر إلى ما يخصّني. كانت الرفوف التي إلى جانب طاولة الكمبيوتر الخاصة بي محجوزة من أجل نسخ من رواياتي الأربع، إلى جانب ترجماتها المختلفة إلى لغات أخرى. كنت أحسّ بأن عرضها هكذا أمر فيه شيء من التظاهر. لكن ريبيكا كانت فخورة بي، وكانت تصرّ دائمًا على وضعها على تلك الرفوف. إذًا... كانت هذه إيماءة أخرى من أجلها، مثلما كانت الأماكن الفارغة التي تركتها على الرفوف من أجل الروايات التي لم أكتبها بعد، لكنني سأكتبها.

ألقيت على الكمبيوتر نظرة قلق سريعة. ففيما عدا تشغيله للتأكّد من حسن عمل الإنترنت، لم أكد أشتغل شيئًا عليه خلال الأسبوع الأخير. لم أكتب شيئًا منذ سنة كاملة. كان هذا أمرًا آخر يجب أن يتغيّر. بداية جديدة...

سمعت صوت طقطقة!

كان الصوت آتيًا من فوقي؛ صوت خطوة واحدة. رفعت رأسي ناظرًا إلى الأعلى. كانت غرفة جيك فوقي مباشرة؛ لكني تركته يلعب في غرفة الجلوس الأمامية بينما كنت منهمكًا في تركيب رفوف الكتب، ثم في وضع الكتب عليها. سرت في اتجاه الباب ونظرت إلى السلم. لم أر أحدًا في الفسحة. والواقع أن البيت كلّه كان ساكنًا هادئًا في تلك اللحظة، كما لو أنه خالٍ من أيّة حركة على الإطلاق. رنين الصمت في أذنيَّ.

صحت في اتجاه الأعلى: «جيك!»

صمت.

«جيك!».

«بابا».

كدت أقفز في مكاني. أتاني صوته من الغرفة الأمامية، إلى جانبي تمامًا. اقتربت من الغرفة الأمامية وأنا لا أزال مستمرًا في النظر إلى فسحة السلم. ألقيت نظرة في الغرفة. رأيت ابني جاثمًا على الأرض مديرًا ظهره لي. كان يرسم شيئًا.

سألته: «هل أنت على ما يرام؟».

«نعم. لماذا؟».

«أسأل فحسب».

عدت أدراجي، ثم نظرت إلى فسحة السلم من جديد. نظرت إليها عدّة ثوانٍ. لا يزال كل شيء هادئًا هناك، لكنّ إحساسًا باحتمال غريب صار الآن موجودًا في المكان. أحسست مرة أخرى كما لو أن هناك شخصًا واقفًا حيث لا أستطيع رؤيته. هذا ما كان أمرًا سخيفًا، بالطبع، لأنه لا يمكن أن يدخل أحد من باب البيت من غير أن ألاحظه. البيوت تطقطق أحيانًا. ولا بد من بعض الوقت قبل الاعتياد على أصواتها، هذا كل ما في الأمر.

ومع ذلك...

صعدت السلم بحذر وببطء. كانت خطواتي هادئة، ويدي اليسرى مرفوعة إلى الأعلى، مستعدّة للتصدي لأي شيء يمكن أن يقفز في اتجاهي آتيًا من تلك الناحية. بلغت أعلى السلم. وبالطبع، كانت الفسحة خالية. عندما دخلت غرفة جيك، وجدتها خالية أيضًا. كان شعاع مثلث من ضياء شمس بعد الظهيرة ممتدًا عبر النافذة؛ ورأيت حبيبات الغبار الضئيلة معلّقة في الهواء... لم يشوّشها شيء.

مجرّد بيت عتيق يطقطق قليلًا.

عدت إلى الأسفل بثقة أكبر شاعرًا بسخافة ظنوني؛ لكني كنت أكثر ارتياحًا مما أحبّ الإقرار به. وفي الأسفل، كان عليَّ أن أمر بكومة رسائل بريدية موضوعة على درجتي السلم السفليتين. كانت رسائل كثيرة. الوثائق المعتادة التي لا بد من مجيئها عندما يستقرّ المرء في بيت جديد؛ ومعها كمّية كبيرة من النشرات الإعلانية لمطاعم محلّية وتوافه بريدية أخرى. لكنّي وجدت أيضًا ثلاث رسائل حقيقيّة موجّهة إلى شخص اسمه دومينيك بارنيت. كان مطبوعًا على الرسائل الثلاث كلّها خاص أو إلى العنوان المقصود فقط.

تذكّرت أن المالكة السابقة لهذا البيت، السيدة شيرينغ، قد ظلّت تؤجّره سنين كثيرة. ومن غير تفكير، فتحت واحدة من تلك الرسائل. وجدت فيها حسابًا تفصيليًا من شركة مختصّة لتحصيل الديون. غار قلبي. كائنًا من يكن دومينيك بارنيت هذا، فهو مَدين للشركة بأكثر من ألف باوند من الرسوم المتأخّرة المترتّبة على عقد للهاتف الخليوي. فتحت بقية الرسائل، فكانت كلّها متماثلة: إشعارات من أجل ديون غير مسدَّدة. نظرت إلى التفاصيل متجهّم الوجه. لم تكن مبالغ كبيرة؛ لكن نبرة تلك الرسائل كانت تهديدية. قلت في نفسي إنها ليست مشكلة يستحيل تجاوزها -ستكون بضع مكالمات هاتفية كافية لترتيب الأمور- لكن هدفي من تغيير البيت كان العثور على نقطة بداية جديدة، من أجل جيك، ومن أجلي. لم أكن أتوقّع بأن تأتي بمجموعة جديدة من المشكلات التي لا بدّ لي من التغلّب عليها.

«بابا!».

ظهر جيك بباب الغرفة الأمامية، إلى جانبي. كانت في إحدى يديه «رزمة الأشياء الخاصة»، وفي اليد الأخرى قطعة ورق.

«هل يمكنني الصعود واللعب في الأعلى؟».

فكّرت في صوت الطقطقة الذي سمعته، فوددت لحظة أن أمنعه من الصعود. ولكن... هذا أمر سخيف. لا أحد في الأعلى؛ ثم إنها غرفته. من حقّه أن يلعب في غرفته. وفي الوقت نفسه، لم يرَ كل منا الآخر كثيرًا في ذلك اليوم... أشعرتني رغبته في الاختفاء في غرفته الآن بشيء من العزلة.

قلت له: «أظنّ أنك تستطيع. هل يمكنني أولًا أن أرى ما رسمته؟».

تردّد جيك: «لماذا؟».

«لأنني مهتمٌّ به. لأنني أحبُّ أن أراه».

لأنني أحاول أن أكون قريبًا منك، يا جيك!

«إنه أمر خاصّ».

كان هذا من حقّه. وقد كان جزءٌ مني راغبًا في احترام ذلك الحق. لكني لم أستسغ احتفاظه بأسراره بعيدًا عنّي. أعرف أنه يخفي عني رزمة أشيائه الخاصّة، لكنني أحسست بأنه، إذا لم يتركني

أرى رسومه الآن، فإن هذا يعني أن المسافة بيننا تزداد.

بدأت أقول: «جيك...».

«أوه، لا بأس».

دفع بالورقة في اتجاهي. صرت متردّدًا في أخذها بعد أن غدت متاحة لي.

لكني أخذتها من يده.

لم يكن جيك ماهرًا في رسم مشاهد واقعية، إذ كان يفضّل عليها معاركه الدورانية المتداخلة؛ لكنه حاول أن يكون واقعيًا في هذه المرة. كان الرسم خشنًا، لكن من الواضح أنه محاولة لرسم بيتنا من الخارج اعتمادًا على ما يتذكّره من الصّورة الأصليّة التي اجتذبت انتباهه عندما رآها على الإنترنت. لقد استطاع أن يلتقط جيدًا الملمح الغريب للبيت. كانت خطوطه المعوجّة الطفوليّة تجعل البيت ممطوطًا غريب الشكل، وتجعل النوافذ متطاولة، بحيث صار مظهر البيت أكثر شبهًا من أي وقت مضى بوجهٍ بشريٍّ مشوّهٍ. بدا لي كما لو أن باب البيت فم يتثاءب.

لكن الطابق العلوي هو ما اجتذب انتباهي. لقد رسمني في نافذته اليمنى. رسمني وحدي في غرفتي. وفي الجهة اليسرى، كان ظاهرًا في غرفته، وكانت النافذة هنا كبيرة إلى حدٍّ يسمح بظهور جسده كلّه. ابتسامة على وجهه، وظل من قلم التلوين على بنطلون الجينز والقميص اللذين يرتديهما الآن.

وإلى جانبه، رسم جيك شخصًا آخر. فتاة صغيرة ذات شعر أسود مُزاحٌ إلى جانب رأسها بحركة تكاد تكون حانقة. كانت على فستانها بقعٌ من لونٍ أزرق، وأما بقيته، فقد تركها بيضاء.

سحجات حمراء صغيرة على ركبتيها.

وابتسامة على شكل خطٍّ متكسّرٍ على وجهها.

9

بعد حمام جيك في ذلك المساء، جلست إلى جانب سريره حتى يقرأ كل منا للآخر. كان قارئًا جيّدًا. وكنا في تلك اللحظة نقرأ كتاب «قوّة الثلاثة» لديانا واين جونز. كان ذلك واحدًا من كتبي المفضّلة في طفولتي. وقد اخترته من غير تفكير. لم أنتبه إلى المفارقة المخيفة في عنوانه إلا في وقت لاحق(1).

وعندما انتهينا من الفصل المخصّص لذلك اليوم، وضعت الكتاب مع بقيّة كتبه. قلت له: «تعال أحتضنك».

انزلق من تحت أغطيته من غير أن يقول أيّة كلمة وجلس جانبيًا فوق ركبتي وطوقني بذراعيه. استمتعت بتلك المعانقة أطول وقت ممكن، ثم عاد إلى فراشه.

«أحبّك يا جيك».

«حتى عندما نختلف ونتجادل».

«بالطبع! عندما نتجادل خاصّة. تلك أهم اللحظات». ذكّرني هذا بالصورة التي رسمها لي. كنت أعرف أنه قد احتفظ بها. ألقيت نظرة على «رزمة الأشياء الخاصّة». لقد وضعها تحت سريره بحيث يستطيع أن يمد ذراعه الصغيرة في الليل فيلمسها. لكن ذلك جعلني أفكّر في الصورة التي رسمها عصر هذا اليوم. لم يكن مسرورًا بأن يجعلني أراها؛ وهكذا لم أسأله عنها في ذلك الوقت. وأما الآن، في الضوء الناعم الدافئ في غرفته، فقد بدا لي أنني قادر على سؤاله.

قلت له: «لقد رسمت اليوم صورة جيّدة لبيتنا».

«شكرًا يا بابا».

«لكن لديّ فضول لمعرفة شيء فيها. من هي تلك الفتاة الصغيرة الظاهرة في النافذة إلى جانبك؟».

عضّ على شفته ولم يجبني.

قلت له بلطف: «لا بأس. يمكنك أن تخبرني».

ومن جديد، لم يجبني بشيء. كان واضحًا أن الفتاة الصغيرة التي في الصورة مهما تكن الفتاة الحقيقية التي عناها بها- هي السبب الذي جعله غير راغب اليوم في أن أرى ما رسمه. وهو غير راغب في الحديث عنها الآن. لكن، لماذا؟

خطرت الإجابة في ذهني بعد ثانية واحدة من ذلك.

«هل هي الفتاة الصغيرة التي رأيتها في نادي 567».

تردّد قليلًا، ثم أومأ برأسه.

اعتدلت في جلستي محاولًا إخفاء ما شعرت به من إحباط، بل حتى من خيبة أمل. كان كل شيء قد بدا على أحسن ما يرام خلال الأسبوع الأخير. لقد كان جيك سعيدًا هنا، وبدا أنه يتأقلم جيّدًا مع المكان الجديد. وقد كنت متفائلًا، بشيء من الحذر. لكن من الواضح أن صديقته المتخيَّلة قد لحقت بنا إلى هنا. جعلتني تلك الفكرة أرتعش قليلًا فكرة أننا تركناها خلفنا في البيت القديم، لكنّها تمكّنت من شق طريقها ببطء واجتياز تلك الأميال الفاصلة حتى تجدنا.

قلت: «ألا تزال تتحدّث معها».

هز جيك رأسه نفيًا.

«إنها ليست هنا».

كان واضحًا من ردة فعله أنه يريد وجودها. ومن جديد، أحسست قدرًا من الضيق. ليس أمرًا صحّيًا بالنسبة إليه أن تظلّ أفكاره مثبتة على شخص غير موجود، وفي الوقت نفسه، بدا لي جيك في هذه اللحظة حزينًا وحيدًا إلى حد جعلني أكاد أشعر بالذنب لأنني حرمته من صديقته. آلمني أيضًا -كما يؤلمني دائمًا أن وجودي معه ليس كافيًا له.

قلت بنبرة حذرة: «لا بأس. ستبدأ الذهاب إلى المدرسة منذ الغد. وأنا واثق من أنه سيصير لك هنا كثير من الأصدقاء الجدد. وإلى أن يصير لك أصدقاء، فأنا موجود معك. نحن هنا معًا، بيت جديد، بداية جديدة».

«هل المكان آمن هنا؟».

آمن؟... لماذا يسألني هذا السؤال؟: «نعم، إنه آمن، بالطبع».

«وهل الباب مقفل؟».

«إنه مقفل».

خرجت تلك الكذبة -الكذبة البيضاء- تلقائيًا من فمي. لم يكن الباب مقفلًا. ولا أظن حتى إنني وضعت السلسلة. لكن فيذربانك قرية هادئة. ثم إننا لا نزال في أول الليل، وأنوار البيت مضاءة كلّها. لن يكون أحد صفيقًا إلى حدّ فتح الباب من غير استئذان.

لكن جيك بدا مذعورًا إلى حدٍّ جعلني أدرك فجأة أن هناك مسافة كبيرة بيننا وبين باب البيت. ألم يكن صوت الماء أثناء استحمامه كافيًا لإخفاء أي صوت آخر فلا أسمعه إذا تسلّل أي شخص إلى البيت وقتها.

«ليس عليك أن تقلق من هذه الناحية». بذلت كل جهدي حتى تبدو نبرة صوتي قاطعة... «لن أسمح بأن يحدث لك أي شيء. لماذا أنت قلق هكذا؟».

قال: «يجب أن تغلق الأبواب».

«ماذا تعني بهذا؟».

«عليك أن تقفلها دائمًا».

«جيك...».

«إذا تركت أحد الأبواب نصف مفتوح، فسرعان ما تسمع صوت الهمس».

سرت قشعريرة في جسدي. بدا لي جيك مذعورًا. وبالتأكيد، لم تكن تلك العبارة شيئًا يمكن أن يختلقه من عنده.

قلت له: «ما معنى هذا؟».

«لست أدري».

«أين سمعت هذا الكلام؟».

لم يجبني. لكني أدركت سريعًا أنني لست في حاجة إلى إجابته.

«أهي الفتاة الصغيرة؟».

أومأ برأسه، فهززت رأسي نفيًا. كنت مرتبكًا. لا يمكن أن يكون جيك قد سمع هذا الكلام الغريب من شخص غير موجود. هل يعني هذا أنني كنت مخطئًا في شأن نادي 567، وأن الفتاة الصغيرة شخص حقيقي. ألا يمكن أن يكون جيك قد أشار إليها مودّعًا من غير أن يدرك أنها قد خرجت قبل ذلك؟ لكنه كان وحده عند الطاولة لحظة وصولي. لا بد أنها جملة سمعها من أولئك الأطفال الذين كانوا يحاولون إخافته. كان واضحًا من تعبير وجهه الآن أن محاولاتهم قد نجحت.

«أنت في أمانٍ تامٍّ، يا جيك. وأنا أعدك بهذا».

«لكني لست مسؤولًا عن الباب».

قلت: «لا، أنا مسؤول عنه. هذا يعني أن ما من شيء يجب أن يجعلك تقلق. لا يهمني ما يقوله لك أيٌّ كان. عليك أن تصغي لما أقوله لك أنا. لن أسمح بأن يحدث لك أي شيء أبدًا».

كان مصغيًا إلي -على الأقل- لكني لم أكن واثقًا من اقتناعه بكلامي.

«أعدك بهذا. هل تعرف السبب الذي يجعلني لا أسمح بأن يحدث لك أي شيء؟ لأنني أحبّك. أحبّك كثيرًا. حتى عندما نختلف».

جعلت هذه الكلمات ابتسامة صغيرة جدًّا تظهر على وجهه.

سألته: «هل تصدّقني؟».

أومأ برأسه وقد بدا عليه الآن شيء من الاطمئنان.

داعبت شعره قليلًا، ثم نهضت: «جيّد. هذه هي الحقيقة. تصبح على خير، يا حبيبي».

«تصبح على خير، يا بابا».

«سوف أعود وأتفقدك بعد خمس دقائق».

أطفأت النور عند خروجي من الغرفة، ثم نزلت السلّم بخطوات هادئة إلى أقصى حد استطعته. وبدلًا من الجلوس على الأريكة مثلما كنت راغبًا في فعله، توقّفت عند باب البيت.

إذا تركت الباب نصف مفتوح، فسرعان ما تسمع صوت الهمس.

هراء! هراء بالطبع، مهما يكن مصدر هذا الكلام. لكن تلك الكلمات ظلّت تشغل بالي. مثلما أقلقتني فكرة أن الفتاة الصغيرة قد لحقت بنا إلى هذا المكان، لم أكن قادرًا الآن على أن أخلّص ذهني من تصورها جالسة إلى جواره، وقد أزاحت شعرها جانبًا وارتسمت ابتسامة غريبة على وجهها، وهي تهمس في أذنه بأشياء مخيفة.

وضعت سلسلة الباب من أجل الليل.

10

أمضى المحقّق بيتْ ويليس عطلة نهاية الأسبوع على مسافة أميال من فيذربانك سائرًا عبر الريف القريب يمرّر عصاه عبر مجموعات عشوائية من النباتات القصيرة. كان يتفّقد حوافّ الدروب. ومن حين لآخر، عندما تكون الحقول فارغة، كان يقفز من فوق الأسيجة ويفتش بين النباتات النامية هناك. كان من الممكن لأي شخص يراقبه أن يراه متسكّعًا؛ وحقيقة الأمر أنه كان يعتبر نفسه كذلك. ففي هذه الأيام، كان يفكّر عمدًا في هذه الرحلات الاستطلاعية باعتبارها نزهات في البرّية، أو باعتبارها طريقة من الطرق التي يلجأ إليها رجل متقدّم في السن لكي يملأ أوقاته. لقد مضت الآن عشرون سنة، بعد كل حساب. لكنّ جزءًا منه لا يزال في حالة تركيز. بدلًا من تشرُّب جمال العالم من حوله، كان يفتّش الأرض باستمرار باحثًا عن قطع عظام وعن مزق قماش... بنطلون رياضي أزرق. وقميص بولو أسود صغيرًا.

لسبب ما، كانت الملابس هي ما يتذكّره دائمًا.

مهما حاول بيتْ عدم التفكير في الأمر، فهو لن ينسى ذلك اليوم الذي رأى فيه ذلك المشهد المخيف داخل بيت فرانك كارتر. وعندما عاد إلى مركز الشرطة بعد ذلك، كان لا يزال في حالة فزع بعد تلك التجربة. أحسّ، على الأقل، بشيء من الراحة فور تجاوزه الباب المنزلق. لقد قُتل أربعة أطفال صغار. ومع أن كارتر كان لا يزال طليقًا في تلك اللحظة، فإن الوحش صار له اسم أخيرًا اسم حقيقي، وليس ذلك الاسم الذي اخترعته له الصحف. لن يستطيع ذلك الوغد زيادة عدد ضحاياه عن أربعة.

في تلك اللحظة، كاد يصدّق أن الأمر شارف على الانتهاء.

لكنه رأى ميريندا وألان سميث جالسَيْن في ردهة الاستقبال في مركز الشرطة. لا يزال حتى الآن قادرًا على استعادة صورتهما بكل وضوح. كان ألانيرتدي بدلته، ويجلس منتصب الظهر وهو يحدّق في الفراغ وقد ضمّ كفّيه على شكل قلب على ركبتيه. كانت يدا ميريندا مدسوستين بين ساقيها، وتتكئ على زوجها، مريحة رأسها على كتفه وقد تدلّى شعرها البني الطويل على صدره. كان ذلك قبيل المساء، لكنهما كانا يبدوان مرهقَيْن كأنهما شخصان ارتحلا مسافة طويلة وجلسا يحاولان النوم هنا، لكن من غير نجاح.

كان ابنهما توني قد اختفى.

عشرون سنة مضت منذ ذلك المساء؛ ولا يزال توني مفقودًا.

ظل فرانك كارتر هاربًا يومًا ونصف يوم قبل أن يقبضوا عليه آخر الأمر. كانت شاحنته الصغيرة متوقّفة على طريق ريفي في نقطة تبعد نحو مئة ميل عن فيذربانك. وكانوا قد عثروا على

أدلة واضحة تشير إلى أن توني سميث كان محتجَزًا في تلك الشاحنة؛ لكنهم لم يجدوا أثرًا لجثة الصبي. وعلى الرغم من اعتراف كارتر بأنه قتل توني، فقد رفض الكشف عن مكان جثته.

شهدت الأسابيع التي تلت ذلك بحثًا مكثّفًا على امتداد عدد كبير من المسالك التي يحتمل أن يكون كارتر قد اتخذها. لكن حملات البحث تلك لم تفض إلى أية نتيجة. شارك بيتْ في عدد غير قليل منها. ثم تضاءل عدد حملات البحث على مر الزمن إلى أن صار بيتْ، بعد مضيّ عشرين سنة، الشخص الوحيد المستمرّ في البحث. بل إن ميريندا وألان سميث انتقلا من القرية. صارا يعيشان الآن بعيدًا عن فيذربانك. لو كان توني حيًّا اليوم، لكان عمره سبعةً وعشرين عامًا. كان بيتْ يعرف أن ابنة ميريندا وألان، كلير، التي ولدت في السنوات المضطربة التي أعقبت ذلك، قد بلغت السادسة عشرة منذ وقت وجيز. لم يلقَ بأي لوم على الزوجين سميث لأنهما أعادا بناء حياتهما بعد جريمة قتل ابنهما؛ لكن الحقيقة التي بقيت هي أنه لم يستطع التخلّي عن الأمر ونسيانه.

والآن... صبي صغير مفقود!

صبيّ صغير لا بد من العثور عليه وإعادته إلى البيت.

* * *

مع وصول سيارته إلى فيذربانك، بدا له مظهر البيوت التي مرّ بها مريحًا. كانت نوافذها منارة في الظلمة، فتخيّل سماع ضحكات صغيرة وأحاديث تجري خلف تلك النوافذ.

الناس معًا، مثلما ينبغي أن يكونوا.

عند ذلك، أحسّ بقدرٍ من الوحدة، لكن المرء قادر على العثور على المسرّة حيثما بحث عنها، حتى في حياة متوحِّدة مثل حياته. كانت أشجار ضخمة تحف بالطريق من الجانبين؛ أوراقها ضائعة في الظلمة إلا حيث يمسّها ضوء مصابيح الشارع فتلقي فيه انفجارات صفراء خضراء متداخلة، تتداخل وتتماوج في النسيم العليل. كانت فيذربانك هادئة جدًا، وادعة جدًّا، لا يكاد المرء يصدّق أنها كانت في يوم من الأيام مسرحًا لتلك الحوادث الفظيعة التي قام بها فرانك كارتر.

كانت ورقة ملصقة على عمود الإنارة في آخر شارعه (واحدة من ملصقات «مفقود») الكثيرة التي وضعتها عائلة نيل سبنسر خلال الأسابيع الماضية. كانت على الملصق صور للصبي ومعلومات عن شكل ملابسه وألوانها، ومناشدة لكل من شاهد شيئًا لكي يدلي بما لديه من معلومات. كان كلٌّ من الصورة والنصّ المكتوب قد صارا باهتين تحت سياط شمس الصيف التي لا تعرف الرحمة، فذكّره مروره بها بالزهور الذابلة المتغضّنة الباقية في موقع حادث سير قديم. كان الصبي الصغير الذي اختفى قد بدأ يختفي مرة ثانية.

مرّ قرابة شهرين منذ اختفاء نيل سبنسر. وعلى الرغم من كل ما أنفق على التحرّيات من موارد، ومن عناء للقلوب وللأرواح أيضًا، فإن الشرطة لا تعرف الآن أكثر من تلك المعلومات التي كانت تعرفها مساء اختفائه، إلا قليلًا. وبقدر ما كان بيتْ يعرف، فقد قامت أماندا بيك بكل شيء على

نحو صحيح. والواقع أن مما يدعو إلى الثقة في حسن أدائها هو أن مديرها لايونز (رجل حريص على سمعته المهنيّة أشدّ الحرص) قد وقف إلى جانبها وتركها مسؤولة عن تلك القضيّة. عندما مرّ بيتْ بأماندا في مركز الشرطة آخر مرّة بدت له شديدة الإرهاق، فجعله ذلك يتساءل ما إذا كان ذلك المظهر عقوبة في حد ذاته.

تمنّى لو كان قادرًا على إخبارها بأن الأمر سيصير أكثر سهولة.

بعد استدعائه إلى مكتب المدير لايونز، تحدّث بيت مع أماندا عن تفاصيل التحقيق كلّها، لكن مشاركته في القضية ظلت سطحية. كان لديه ذلك الإحساس المألوف بالذعر عندما تقدّم بطلب لزيارة فرانك كارتر في سجنه. لقد تخيل ذلك الوحش الذي يتعامل معه دائمًا كأنه لعبة يلعب بها. وكعادته دائمًا، تساءل إن كان يستطيع أن يفعل ذلك تساءل إن كانت تلك المقابلة هذه المرة ستثبت أخيرًا أنها أكثر مما يطيق. لكن لم يكن هناك داعٍ لخوفه. ذلك لأن طلبه مقابلة كارتر والحديث معه قد لاقى الرفض للمرة الأولى التي يستطيع تذكرها. الظاهر أن ذلك الذي يدعونه «الهامس» قد قرّر البقاء صامتًا.

كان بيتْ قد زاره مرّات كثيرة قبل ذلك. وكان الآن مستعدًّا للذهاب إليه من جديد. مع هذا، لا يمكنه إنكار شعوره بالارتياح لرفض طلبه. ومع ذلك الشعور أتى شعور آخر بالذنب والخجل -بالطبع- لكنّه أقنع نفسه بأن هذه المشاعر لا محلّ لها. كان جلوسه قبالة فرانك كارتر تعذيبًا له. كان أمرًا سيئًا لصحته. وبما أنّ الصلة الوحيدة كانت ما ذكرت والدة نيل أنها رأته وسمعته عند نافذة غرفته، فما من سبب للظنّ بأن ذلك الحديث سيكون نافعًا بأي شكل من الأشكال. كان الإحساس بالراحة هو الاستجابة الصحيحة.

وصل إلى البيت، وألقى بمفاتيحه على طاولة الطعام، وبدأ يفكّر في الوجبة التي سيعدّها لنفسه، وفي البرامج التلفزيونية التي سيشاهدها حتى يملأ الساعات الباقية حتى موعد نومه. وفي الغد، سيذهب إلى الصالة الرياضية، ثم يعمل على أوراقه... أعمال إدارية. حياته تمضي في مسارها المعتاد.

لكن، قبل ذلك كلّه، أدى بيتْ طقسه المتكرّر.

فتح خزانة المطبخ الصغيرة، وأخرج زجاجة الفودكا التي يحتفظ بها هناك. أدارها بين يديه مستمتعًا بوزنها، متحسّسًا سماكة زجاجها. هناك طبقة واقية قوية بينه وبين السائل الحريري الذي في داخلها. لقد مضى زمن طويل منذ أن فتح زجاجة مثل هذه، لكنه لا يزال يتذكّر الفرقعة الخفيفة المريحة التي سيسمعها إن أدار سدادة الزجاجة وفتح ختمها.

أخرج الصورة من الدُّرْج. ثم جلس إلى طاولة الطعام ووضع الزجاجة والصورة أمامه، وطرح على نفسه ذلك السؤال.

هل أريد أن أفعل هذا؟

كان الدافع إلى الشرب يأتي ويذهب على مر السنين، لكنه كان دائم الحضور -إلى حدٍّ ما-. وكانت هناك أشياء واضحة كثيرة قادرة على تحريكه؛ لكنْ، هناك أوقات يبدو له فيها أن ذلك الدافع يتحرّك عشوائيًا كما لو أنه يسير وفق برنامجٍ غريبٍ خاصٍّ به. غالبًا ما تكون هذه الزجاجة ميتة عاجزة مثل جهاز هاتف فرغت شحنته؛ لكنه يرى فيها بعض الأحيان ألقًا والتماعًا. في هذه اللحظة، كان الدافع أقوى من أيّة مرّة يستطيع تذكّرها. والواقع أن الزجاجة كانت تتحدّث معه خلال الشهرين الأخيرين بصوت لا ينفك يصير أقوى فأقوى.

كانت الآن تقول له: أنت لا تفعل إلا تأجيل ما لا مناص منه.

فلماذا تجعل نفسك تعاني هكذا؟

زجاجة ملأى كان هذا مهمًّا. إن صبَّ الشراب من زجاجة نصف فارغة أقلّ راحة للنفس من فتح زجاجة جديدة مختومة. تكمن الراحة في معرفة أن لديك ما يكفي!

شدّت أصابعه على ختم الزجاجة، برفق، كان يغوي نفسه. مزيد من الضغط فينكسر الختم، وتصير الزجاجة مفتوحة.

من الممكن أن تستسلم.

سيجعلك هذا تحسّ بأنك لا قيمة لك، لكننا نعرف كلانا أن تلك هي حقيقتك.

هذا الصوت قادر على أن يكون قاسيًا بقدر ما هو قادر على أن يكون ودودًا. يستطيع أن يصير هذا أو ذاك، بكل سهولة.

أنت لا قيمة لك. أنت لا نفع لك.

فافتح الزجاجة إذًا.

وكما يحدث في مرّات كثيرة جدًّا، كان الصوت صوت أبيه. لقد مات العجوز منذ زمن بعيد، منذ أكثر من أربعين عامًا. لكن بيتْ لا يزال قادرًا على تخيّل صورته: رجل بدين جالسٌ مسترخيًا على كرسيٍّ مهلهل ذي مسندين في غرفة البيت الأمامية المغبرة، وعلى وجهه نظرة ازدراء. ما كان شيءٌ مما يمكن أن يفعله بيتْ كافيًا في نظره. وكانت عبارتا أبيه «لا قيمة لك» و«لا نفع لك» عبارتين تعلّمهما بيتْ باكرًا وظلّ يسمعهما كثيرًا.

فهم بعد مرور زمن أن أباه كان رجلًا صغيرًا محبَطًا من كل شيء في حياته، وأن ابنه كان «كيس ملاكمة» مناسبًا يستطيع من خلاله أن ينفّس عن إحباطاته. لكن ذلك الفهم أتى متأخِّرًا. ففي ذلك الوقت، كان ذهنه قد امتصّ الرسالة فصارت جزءًا من تركيبته. كان يعرف من الناحية الموضوعية أن هذا غير صحيح، وأنه ليس شخصًا فاشلًا لا قيمة له. لكنه ظل يحس بأن كلام أبيه صحيح. صارت اللعبة مكشوفة، لكنها ظلّت مقنعة له.

أمسك بصورة سالي. كانت صورة مرّت عليها سنين كثيرة، فخبت ألوانها مع الزمن، كما لو أن الورق يحاول امتصاص الصورة المطبوعة عليه، والعودة إلى حالته الأصليّة عندما كان خاليًا من أي شيء. كانا، هما الاثنان، سعيدَيْن في تلك الصورة؛ وكان وجهاهما متلاصقين معًا. صورة ملتقطة في يوم صيفي. بدت سالي ممتلئة فرحًا، مبتسمة في الشّمس، في حين كان بيتْ مضيِّقًا عينيه في الضوء... مبتسمًا أيضًا.

هذا ما ستخسره إذا شربت.

هذا ما يجعل الأمر كلّه غير صحيح.

ظلّ جالسًا بضع دقائق، يتنفّس تنفّسًا بطيئًا، ثم أعاد الزجاجة والصورة وبدأ إعداد عشائه. كان سهلًا عليه فهم السبب الذي جعل ذلك الدافع أشدّ قوة خلال الأسبوعين الأخيرين. ولهذا فإن انتهاء مشاركته في القضية إلى لا شيء بعدما رفض كارتر لقاءه كان أمرًا حسنًا. قال في نفسه: دع ذلك الدافع يتوهّج في ضوء الحوادث الأخيرة. دعه يعيش لحظته!... ثم، دعه يموت.

11

كنت أجد صعوبة في النوم ليلًا... كما يحدث لي دائمًا. في زمان مضى، وكلما صدر لي كتاب جديد، كنت أذهب إلى اللقاءات، بل حتى كنت أذهب -من حين لآخر- للتّوقيع على نسخٍ من كتابي. كنت أذهب وحدي أكثر الأحيان، ثم أستلقي بعدها مستيقظًا في غرفة فندق غريبة، وأشتاق إلى أسرتي. ودائمًا، كنت أجد صعوبة في النوم عندما لا تكون ريبيكا إلى جانبي.

لكن الأمر بات أكثر صعوبة الآن بعد أن صار مستحيلًا أن تكون إلى جانبي. في ما مضى، كنت أمد ذراعي إلى الناحية الباردة من سرير الفندق فأكون قادرًا على الأقل، على تخيّلها تفعل الشيء نفسه في البيت. كان كلٌّ منا قادرًا على الإحساس بطيف الآخر إلى جانبه. بعد موتها، صرت أمد ذراعي إلى الناحية الباردة من الفراش فلا أشعر بشيء غير الخواء البارد على ملاءة السرير المستوية. ظننت أن بيتًا جديدًا وسريرًا جديدًا يمكن أن يغيّرا شيئًا من هذا، لكنهما لم يغيّرا شيئًا. عندما كنت أمد ذراعي في بيتنا القديم، كنت أعرف على الأقل، أن ريبيكا كانت هناك في ما مضى. وهكذا بقيت صاحيًا زمنًا طويلًا، مشتاقًا إليها. حتى لو كان تغيير البيت قرارًا صحيحًا، فقد صرت مدركًا أن مسافة أكبر صارت تفصلني عن ريبيكا، مسافة أكبر من أي وقت مضى. كان تركها هناك أمرًا فظيعًا. ظللت أتخيّل روحها في بيتنا القديم، أتخيّلها تنظر من النافذة وتتساءل أين ذهبت أسرتها.

هذا ما ذكّرني بصديقة جيك التي يتخيّلها. الفتاة الصغيرة التي رسمها. فعلت ما أستطيعه حتى أخلي ذهني من تلك الصورة، وركّزت بدلًا منها على هدوء فيذربانك وسلامها. كان العالم خارج ستائر غرفتي هادئًا، ساكنًا. وكانت البيوت المحيطة بي غارقة في سكينة تامّة.

هذا ما أتاح لي أن أغفو، بعد وقت، على الأقل.

صوت تحطّم زجاج.

أمّي تصرخ.

رجل يصيح.

«بابا».

استيقظت من ذلك الكابوس مجفلًا، مشوّشًا، وأدركت إدراكًا غائمًا أن جيك كان يناديني وأن عليَّ أن أفعل شيئًا.

صحت: «انتظر».

تحرّك ظلّ عند آخر سريري فقفز قلبي من مكانه. جلست سريعًا.

يا إلهي!

«جيك، أهذا أنت؟».

تحرّك الظلّ نفسه من مكانه فصار إلى جانبي. مرّت لحظة لم أكن فيها مقتنعًا بأنه هو، لم أكن مقتنعًا أبدًا، ثم صار قريبًا مني فتعرفت في الظل على شكل شعره. لكني لم أستطع رؤية وجهه. كان غائمًا تمامًا في ظلمة الغرفة.

«ماذا تفعل هنا، يا صديقي؟». لا يزال قلبي ينبض سريعًا نتيجة ما يحدث الآن، ونتيجة بقايا الكابوس الذي استيقَظت منه... «لم يحِن وقت الاستيقاظ بعد. لا يزال بعيدًا».

«هل أستطيع الليلة أن أنام هنا، معك؟».

«ماذا؟».

لم يفعل هذا أبدًا من قبل. والحقيقة أننا، أنا وريبيكا، ظللنا متمسّكَين بموقف صارم تجاه هذا الأمر في المناسبات القليلة التي طرحه فيها. كنا نرى أن التنازل مرّة سيكون بداية منحدر زلق.

«نحن لا نفعل هذا يا جيك. أنت تعرف».

«من فضلك».

أدركت أنه يتعمّد الكلام بصوت منخفض كما لو أن هناك شخصًا في غرفة أخرى كما لو أن هناك شخصًا لا يريده أن يسمعنا.

قلت له: «ما الأمر؟».

«سمعت صوتًا».

«صوت؟».

«هناك وحش تحت نافذتي».

جلست في السرير صامتًا، متذكّرًا ما قاله لي وقت ذهابه إلى نومه. لكن الأمر كان متعلّقًا بباب البيت. ثم... لا يمكن أبدًا أن يكون هناك شخص تحت نافذته في الليل. إن غرفتينا في الطابق الثاني!

«لقد كنت تحلم، يا صديقي».

هز رأسه في الظلمة، وقال: «لقد أيقظني ذلك الصوت. اقتربت من النافذة فصار أكثر ارتفاعًا. أردت أن أزيح الستائر، لكن خوفي الشديد منعني».

قلت في نفسي: لو أزحت الستائر لرأيت الحقل المظلم إلى الناحية الأخرى من الطريق... هذا كل شيء. لكنه بدا لي جادًّا كلّ الجدّ، فلم أستطع أن أقول له ذلك.

خرجت من السرير، وقلت له: «لا بأس إذًا. لا بأس... فلنذهب ونتحقّق من الأمر».

«لا تذهب، يا بابا».

«أنا لا أخشى الوحوش، يا جيك».

تبعني إلى الممر حيث أضأت المصباح في أعلى السلم. دخلنا غرفته، لكني تركت مصباحها من غير إنارة، واقتربت من النافذة.

«ماذا لو كان هناك شيء ما؟».

أجبته: «لا يوجد شيء».

«لكن، ماذا لو كان هناك شيء؟».

«عندها، سأتدبر أمره».

«هل ستسدّد إلى وجهه لكمة؟».

«بالتأكيد! ما من شيء هنا».

لكن إحساسي بالثقة والاطمئنان لم يكن كما بدا صوتي. أحسست شؤمًا في تلك الستارة المغلقة. أصغيت لحظة، لكني لم أسمع شيئًا. كان مستحيلًا أن يكون هناك أي شخص.

جذبت الستارة ففتحتها.

لا شيء. لم أر إلا زاوية مائلة من الممر والحديقة، ثم الطريق الخالي من خلف الحديقة، ثم الظلمة: امتداد ظليل من مساحة الحقل، ذاهبٌ حتى البعيد. كان انعكاس داكن لصورة وجهي ينظر إليّ من الزجاج كما لو أنه ينظر في داخل الغرفة. لكني لم أر شيئًا آخر. بدا العالم كلّه نائمًا، مسالمًا، تمامًا مثلما لم أكن أنا.

بذلت أقصى الجهد حتى تبدو نبرة صوتي صابرة: «هل رأيت؟ ما من أحد هناك».

«لكنه كان هناك».

أغلقت الستائر، وركعت أمامه.

«جيك، من الممكن أحيانًا أن تبدو الأحلام حقيقية تمامًا، لكنها ليست حقيقية. كيف يمكن لأي شخص أن يكون تحت نافذتك على الرغم من أنها مرتفعة في الخارج هذا الارتفاع كلّه».

«من الممكن أن يكون قد تسلّق الأنبوب».

أردت أن أجيبه، لكنّي لم ألبث أن تخيّلت شكل جدار البيت من الخارج. لقد كان أنبوب تصريف مياه المطر إلى جانب نافذته تمامًا. مرّت بذهني فكرة سخيفة. إذا أغلقت باب البيت، وأقفلته، ووضعت سلسلته حتى لا يدخل الوحش، فما الخيار المتبقّي لديه غير تسلّق الأنبوب حتى يصل إلى النافذة؟

سخف!

«لم يكن هناك أحد تحت نافذتك، يا جيك».

«هل أستطيع النوم معك هذه الليلة، يا بابا... أرجوك؟».

تنهّدت في نفسي. من الواضح أنه لن ينام الآن وحده في هذه الغرفة؛ إما أن يكون الوقت مبكرًا على مجادلته في هذا، أو أنه متأخّر جدًّا. لم أستطع معرفة الإجابة. من الأسهل الآن أن أستسلم.

«لا بأس. لكن، ليلة واحدة فقط. ولا يجوز أن تتقلّب في السرير فتوقظني».

«شكرًا، يا بابا». حمل رزمة أشيائه الخاصّة، وسار خلفي في الممر... «أعدك بألا أزعجك أبدًا».

«هذا ما تقوله! لكن، ماذا لو سرقت الأغطية كلّها؟».

«لن أفعل هذا أيضًا».

أطفأت مصباح الممر، ثم استلقينا في السرير. استلقى جيك في الناحية التي يفترض أن تكون ناحية ريبيكا من الفراش.

قال لي: «بابا، هل كنت ترى كابوسًا قبل ذلك؟».

صوت تحطّم زجاج.

أمّي تصرخ؟

رجل يصرخ.

قلت له: «صحيح. أظنّه كان كابوسًا».

«ماذا كان محتواه؟».

كان الحلم نفسه قد خبا قليلًا الآن، لكنه كان ذكرى بقدر ما كان كابوسًا. كنت طفلًا، وكنت سائرًا في اتجاه الممر المفضي إلى المطبخ الصغير في البيت الذي ترعرعت فيه. في الحلم، كان ذلك في ساعة متأخّرة؛ وقد أيقظتني أصوات آتية من الطابق السفلي. كنت قد بقيت راقدًا في السرير، وقد جذبت الأغطية إلى ما فوق رأسي، وجثم على قلبي خوف ثقيل. كنت أحاول التظاهر بأن كل شيء على ما يرام على الرّغم من معرفتي بأن الأمر ليس كذلك. وفي آخر المطاف، نزلت

السلم بهدوء على أطراف أصابعي لا لأنني أردت أن أرى ما يحدث هناك، بل لأنني كنت مشدودًا إلى معرفته على نحو لا أدركه... كنت أشعر بأنني صغير، مذعور، عاجز.

أتذكّر أنّني سرت في الممرّ المظلم باتجاه المطبخ المُنار، وكنت أسمع الأصوات أتيةً من هناك. كان صوت أمّي غاضبًا، لكنه منخفض، كما لو أنها تظنني لا أزال نائمًا. لقد كانت تحاول تجنيبي رؤية هذا. لكن صوت الرجل كان مرتفعًا، غير مبالٍ. كان صوتاهما متداخلين، فضاعت الكلمات ولم أفهمها. لم أستطع تمييز ما يقوله أيٌّ منهما؛ لكني أدركت أنه كلامٌ قبيحٌ، وأن الأمر في تصاعد... أحسست بأنه يسير متسارعًا في اتجاه شيء بشع.

فتحت باب المطبخ.

سمعت صوتًا في اللحظة التي كان فيها وجه الرجل محمرًّا وقد شوّهه الغضب والكره؛ ورأيته يقذف أمي بالكأس، بأقصى قوّته. رأيتها تجفل وتحاول الابتعاد، لكنها تأخّرت. سمعت صراخها.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها أبي.

لقد مرّ زمن طويل على ذلك، لكن تلك اللحظة لا تزال تطفو إلى السطح من حين لآخر... لا تزال قادرة على شقّ طريقها خارجة من تحت التراب.

قلت لجيك: «إنها أشياء خاصّة بالكبار. ربما أخبرك بها ذات يوم. لكنه كان مجرّد حلم، لا أكثر. كل شيء على ما يرام. لقد كانت النهاية سعيدة».

«ماذا حدث في النهاية؟».

«حسنًا... أنت ما أتى في نهاية الأمر؟». «أنا؟».

داعبت شعره: «نعم. ثم ذهبت لتنام».

أغمضت عينيّ، ورقدنا صامتَيْن زمنًا طويلًا ظننت معه أنه قد عاد إلى النوم. وفي لحظة ما، مددت يدي جانبًا ووضعت كفّي برفق فوق أغطيته كأنني أطمئن نفسي إلى أنه لا يزال موجودًا هناك... لا نزال معًا، نحن الاثنان... أسرتي الصغيرة، المجروحة.

قال جيك بصوت خافت: «يهمس».

«ماذا؟».

«يهمس».

بدا لي صوته بعيدًا جدًّا إلى حدٍّ جعلني أظنّه يحلم.

«لقد كان يهمس تحت نافذتي».

12

«عليك أن تسرع».

في الحلم، كانت جين كارتر تهمس لبيتْ في الهاتف. كان صوتها منخفضًا، ملحًّا، كما لو أن ما تقوله كان أكثر الأشياء إثارة للذعر في العالم كلّه.

لكنها كانت تفعل ذلك، على أيّة حال... لقد فعلته أخيرًا!

كان بيتْ جالسًا خلف طاولة مكتبه؛ وكانت ضربات قلبه صاخبة في صدره. لقد تحدّث مع زوجة فرانك كارتر مرّات كثيرة خلال مجرى التحقيق. كان يأتي إلى مكان عملها، أو يجد نفسه -مصادفة- سائرًا إلى جانبها على رصيف مزدحم. لكنه كان دائم الحرص على عدم الظهور إلى جانبها في أي مكان يمكن أن يراهما فيه أحد، فيسمع زوجها بالأمر كما لو أنه يقوم بمحاولات خفيّة لجعلها جاسوسة. كان يعرف أن هذا ليس بعيدًا عن الحقيقة. كانت جين هي من شهد بأن زوجها كان موجودًا في مكان آخر وقت وقوع الجريمة. لقد دافعت عنه. لكن، كان واضحًا لبيتْ من لقائه بها أنها خائفة من فرانك (رأى أن لخوفها سببًا وجيهًا)، فبذل جهدًا كبيرًا حتى يجعلها تبتعد عن ذلك الخوف وتغيّر موقفها: حتى يقنعها بأن الحديث معه أمرٌ آمنٌ. كان يريد أن يجعلها تتراجع عن شهادتها وتقول لهم الحقيقة عن زوجها: «تكلّمي معي يا جين. سوف أحرص على ألّا يتمكّن فرانك من إيقاع أي أذى بك وبابنك بعد الآن».

لقد بدا له الآن أنها ستفعل ذلك. لقد تجمّع في قلب جين كارتر، على مرّ السنين، خوفٌ، يجعلها -حتى الآن- تحرص على عدم الاتصال به إلا عندما يكون ذلك الوغد خارج البيت. ومع ذلك، لا تستطيع أن تكلّمه إلّاهمسًا. كان بيتْ يعرف أن الجرأة ليست هي انتفاء الخوف. الجرأة تستلزم خوفًا. لذلك، وعلى الرغم من فرط حماسته (حتى عندما صار يحسّ بأنه قد صار موشكًا على حلّ القضية)، فقد ظلّ مقرًّا بجرأة هذا الاتصال.

همست له: «سوف أتركك تدخل، لكن عليك أن تسرع. لا أعرف كم يمكن أن يطول غيابه عن البيت».

في الواقع الحقيقي، لن يعود فرانك كارتر إلى بيته أبدًا. فخلال ساعة واحدة، سيمتلئ البيت برجال الشرطة ومحقّقي الطّب الجنائي، وسيبدأ البحث عن فرانك كارتر والشاحنة الصغيرة التي يقودها. ذهب بيتْ مسرعًا بعد اتصالها به. لم تستغرق رحلته إلى بيتها أكثر من عشر دقائق. لكنها كانت أطول عشر دقائق في حياته كلّها. وعلى الرغم من وجود قوّة للتدخّل ولمساعدته عند الحاجة، فقد أحسَّ برهبة وخوف عندما وصل إلى البيت كما لو أنه شخص في حكاية خيالية يذهب إلى بيت يمكن أن يعود إليه الوحش في أيّة لحظة.

وفي داخل البيت، وقف ينظر إلى يدَيّ جين كارتر المرتعشتَين وهي تفتح قفل الباب المؤدّي إلى الغرفة الملحقة بالبيت بالمفتاح الذي سرقته من زوجها. كان البيت كلّه ساكنًا؛ لكنه أحسّ كما لو أن ظلًّا يحوم فوقهما.

انفتح القفل.

«تراجعا إلى الخلف الآن، من فضلكما... كلاكما».

كانت جين كارتر واقفة في وسط المطبخ، وقد اختبأ ابنها خلف ساقيها، عندما فتح بيتْ الباب بيده التي وضع فيها قفازًا.

لا!

في تلك اللحظة نفسها، شم تلك الرّائحة الحارّة، رائحة اللحم المتعفِّن. أضاء مصباحه الكاشف فتبدّت له الصور. ظهرت له واحدة بعد أخرى، ظهرت في تعاقب سريع: المشاهد، والأحاسيس، منارة كما لو أنها تظهر في لقطات سينمائية سريعة.

لا!

ليس بعد!

ولوهلة، رفع رأسه إلى الأعلى ونقل دائرة نور المصباح الكاشف إلى الجدران بدلًا من مكانها الأول. كانت الجدران مطليّة بالأبيض، لكن كارتر قد زيّنها فرسم في أسفلها أوراق أعشاب فجة، ومن فوقها فراشات مرفرفة كأنما رسمتها يد طفل. وعلى مقربة من السقف، رأى شيئًا مشوّهًا أصفر يحاكي الشمس. رسم كارتر على تلك الشمس وجهًا؛ وكانت عينا الوجه السوداوين الميتتين تنظران إلى الأسفل، إلى أرض الغرفة.

تتبّع بيتْ نظرة العينين، وخفض شعاع مصباحه.

صار التنفّس صعبًا.

إنه يبحث عن أولئك الأطفال منذ ثلاثة شهور. صحيح أنه كان يتوقع نتيجة كهذه، لكنه لم يتخلَّ عن الأمل أبدًا. وأما الآن، فها هم أمامه، مستلقين في هذه الظلمة الدافئة الكثيفة. بدت له الأجساد الأربعة حقيقية وغير حقيقية في وقت واحد. كأنها دمى شبيهة بالواقع ترقد الآن ساكنة، محطّمة. كانت ملابسها سليمة باستثناء قمصانها المرفوعة إلى الأعلى لتغطية وجوهها.

لعلّ أسوأ ما في ذلك الكابوس أنه قد صار مألوفًا، على توالي السنين، فلم يعد قادرًا على تعكير نومه. كانت الساعة المنبِّهة هي ما أيقظه في الصباح التالي.

ظلّ مستلقيًا في فراشه بضع ثوانٍ محاولًا الحفاظ على هدوئه. كانت محاولة تجاهل الذكرى أشبه بمحاربة الضباب، لكنه راح يذكّر نفسه بأن تلك الكوابيس ناتجة عن حوادث مضت

وانقضت، وبأنها ذكريات ستخبو وتختفي مع الزمن. أوقف رنين الساعة المنبّهة.

قال في نفسه: الصالة الرياضية ثم العمل في المكتب. الإدارة. الروتين اليومي.

استحمَّ، ثم ارتدى ملابسه وأعد حقيبة المستلزمات الرياضية. وعندما نزل إلى الأسفل ليصنع لنفسه قهوة وإفطارًا خفيفًا، كان تأثير الحلم قد تراجع فاستعاد سيطرة أكبر على تفكيره. لقد أصاب حياته انقطاع وجيز -هذا كل ما حدث-! أمر قابل للفهم تمامًا أن يكون نبش التراب من جديد قد حرر بعض الأشباح المؤذية الحبيسة هناك؛ لكنها ستختفي عمّا قريب. ومن جديد، سوف يضعف ذلك الدافع إلى الشرب. ستعود الحياة إلى طبيعتها المعتادة.

لم ير الضوء الأحمر الوامض على هاتفه الخليوي إلا عندما حمل طعامه وذهب به إلى الغرفة الأمامية. لقد فاتته مكالمة. لديه رسالة صوتية يجب أن يستمع إليها.

ضغط المفتاح، واستمع إلى الرسالة وهو يمضغ طعامه ببطء. أرغم نفسه على ابتلاع ما في فمه. تقلّص بلعومه. بعد مرور شهرين كاملين، وافق فرانك كارتر على رؤيته.

13

قلت: «أريد فقط أن تقف عند الجدار. إلى اليمين قليلًا. لا، إلى يميني. تحرك قليلًا أيضًا. نعم، هكذا. ابتسم الآن».

كان ذلك أول أيام جيك في مدرسته الجديدة. وكان ترقبي تلك المناسبة يجعلني أكثر منه توترًا. كم مرة يمكن أن يفتح المرء درجًا من الأدراج لكي يتأكد من أن الملابس جاهزة؟ هل وضعت اسمه على كل شيء؟ أين وضعت حقيبة كتبه؟ وأين وضعت زجاجة الماء؟ أشياء كثيرة لا بد من الاهتمام بها. أردت أن يكون كل شيء يخصّه على أحسن حال.

«هل أستطيع أن أتحرك، يا بابا؟». «انتظر لحظة».

رفعت هاتفي أمامي بينما كان جيك واقفًا أمام الجدار الخالي الوحيد في غرفته. كان مرتديًا ملابسه المدرسية الجديدة: بنطلونًا رماديًّا، وقميصًا أبيض، وكنزة زرقاء كلها جديدة، وكلّها نظيفة... بالطبع! رقعة تحمل اسمه على كل شيء يخصّه. كانت ابتسامته عذبة، مستحية. بدا كبيرًا في ملابسه المدرسية، لكنه ظلّ صغير الحجم، ضعيفًا.

ضغطت على الشاشة مرتين. «انتهينا».

«هل أستطيع رؤيتها؟».

«بالطبع، تستطيع رؤيتها».

ركعت على الأرض، فانحنى فوق كتفي وراح ينظر إلى الصورتين اللتين التقطتهما.

«يبدو شكلي حسنًا». بدت عليه الدهشة.

قلت له: «تبدو كأنك شخص ذاهب إلى عمله».

وقد كان كذلك حقًّا. حاولت الاستمتاع بتلك اللحظة على الرغم من أن حزنًا كان يخالطها لأن ريبيكا كان ينبغي أن تكون معنا أيضًا. وكما يفعل أكثر الآباء والأمهات، كنا نلتقط -أنا وهي- صورًا في اليوم الأول من كل سنة جديدة لجيك في المدرسة؛ لكنّي غيّرت هاتفي، ولم أدرك ما يعنيه ذلك إلا في وقت سابق من هذا الأسبوع. لقد اختفت صوري كلّها، ضاعت إلى الأبد. وأسوأ من هذا أن هاتف ريبيكا كان لا يزال عندي، لكني غير قادر على الدخول إليه، على الرغم من معرفتي أن الصوّر موجودة فيه. ظللت دقيقة كاملة أنظر محبَطًا إلى هاتفها القديم مواجهًا حقيقة الوضع الصعبة: لقد رحلت ريبيكا. وهذا يعني أن تلك الذكريات قد رحلت أيضًا.

حاولت القول لنفسي إن هذا غير مهمٍّ، وإنه ليس أكثر من مزحة ثقيلة أخرى من نتائج خسارتي إياها -بل هو أمر بسيط ضمن الإطار العام للأمور-. لكن ذلك آلمني. بدا كما لو أنه إخفاق جديد من جانبي.

ستصيبنا إخفاقات كثيرة أخرى!

«هيا، يا صديقي».

وقبل أن نذهب، حفظت نسخًا من الصور الجديدة على الإنترنت.

كان بناء مدرسة «روز تيراس» كبيرًا منخفضًا، يعزله عن الشارع سياج حديدي. كان القسم الرئيسي من المدرسة قديمًا، وكان جميلًا: طابق واحد له عدد من السقوف المقبَّبة. وكانت كلمتا أولاد وبنات محفورتَيْن على الحجر الأسود فوق المدخلين المنفصلين، لكن هناك لافتات أحدث عهدًا تشير إلى أن ذلك الفصل الفيكتوري بين الجنسين صار الآن مستخدمًا للإشارة إلى المراحل الرئيسية المختلفة. لقد جعلوني أرى المكان قبل تسجيل جيك في تلك المدرسة. في الداخل، صالة ذات أرضية خشبية ملمعة تقوم بدور المركز الذي تتوزّع غرف الصفوف من حوله. وبين أبواب تلك الصفوف، كانت الجدران مغطّاة برسوم كثيرة بألوان مختلفة وضعتها هناك مجموعة منتقاة من التلاميذ السابقين، وقد كُتب تحت كل واحدة منها التاريخ الذي كان فيه صاحبها من تلاميذ هذه المدرسة.

وقفت مع جيك عند السياج.

«ما رأيك؟».

قال لي: «لست أدري».

كان من الصعب لومه على شكّه وتردّده. كانت الباحة خلف ذلك السياج مليئة بالأطفال مع عدد من أهاليهم الواقفين في مجموعات. كان ذلك أول يوم من السنة الجديدة، لكن الجميع هنا -الأطفال وأهلهم أيضًا يعرف كل منهم الآخرين من السنتين السابقتين؛ وأما أنا وجيك فسوف ندخل فيكون كل منا غريبًا في نظر الجميع، إلا في نظر صاحبه. كانت مدرسته السابقة أكبر حجمًا ولا يعرف المرء كل من فيها. أما هنا، فقد بدا الجميع على علاقة وثيقة بحيث كان من المستحيل تخيل أننا لن نشعر بالغربة دائمًا. يا إلهي... كنت آمل حقًّا أن يستطيع الانسجام هنا.

ضغطت على يده ضغطة خفيفة.

قلت له: «هيا بنا، فلنكن شجاعيْن».

«إنني بخير، يا بابا».

«إنني أتحدّث عن نفسي».

كنت أمزح، لكنه لم يكن أكثر من نصف مزاح. بقيت خمس دقائق قبل موعد فتح الأبواب. وكنت أعرف أن عليَّ أن أبذل جهدًا لكي أتحدّث مع بعض الأهالي الآخرين، ولكي أبدأ إقامة صلات معهم من جانبي. بدلًا من ذلك، استندت إلى الجدار، وانتظرت.

ظل جيك واقفًا إلى جانبي وهو يعضّ على شفته صامتًا. نظرت إلى الأطفال يجرون هنا وهناك، وتمنّيت أن يذهب جيك ويحاول أن يلعب معهم.

قلت لنفسي: ما عليك إلا أن تتركه على سجيّته.

ينبغي أن يكون ذلك أمرًا حسنًا إلى الحدّ الكافي، أليس كذلك؟

وفي النهاية، فُتح الباب من أجل تلاميذ المرحلة الأولى، وكانت معلّمة جيك الجديدة واقفة عند الباب، مبتسمة. بدأ التلاميذ يصطفون. كانت حقائبهم المدرسية تتأرجح. لقد كان ذلك أول يوم من أيام المدرسة، وكان أكثر تلك الحقائب فارغًا الآن. لكن حقيبة جيك لم تكن فارغة. كعادته، أصر على أن يجلب رزمة الأشياء الخاصّة معه.

ناولته الحقيبة وزجاجة الماء.

«ستهتم بأشيائك، أليس كذلك؟».

«سأهتم بها».

يا إلهي... هذا ما كنت آمله. كانت فكرة ضياع رزمة أشيائه الخاصّة غير محتملة عندي مثلما هي غير محتملة عنده. فبالنسبة إليه، تكافئ هذه الرزمة بطانية مريحة دافئة. لم يكن ممكنًا أن يغادر البيت من غيرها.

بدأ جيك الحركة في اتجاه الأطفال المصطفّين.

قلت له بصوت خافت: «أحبّك، يا جيك».

«وأنا أحبّك أيضًا، يا بابا».

بقيت واقفًا هناك أنظر إليه إلى أن اختفى في الداخل. كنت آمل أن يلتفت ويلوّح لي بيده. لكنه لم يفعل. أظنّها علامة حسنة... عدم إفراطه في التعلّق بي. هذا ما جعلني أرى أنه غير خائف من هذا اليوم الذي لا يزال في بدايته، وأنه ليس في حاجة إلى أن أطمئنه.

أرجوك، أرجوك، أرجوك... كن بخير.

«صبي جديد، هاه».

استدرت، فوجدت امرأة واقفة إلى جانبي. على الرغم من أنه كان نهارًا حارًّا، منذ الصباح، فقد كانت تلك المرأة مرتدية معطفًا طويلًا داكن اللون دفنت يديها في جيبيه كما لو أنها تتقي صقيع

الشتاء. كان شعرها يبلغ كتفيها وكان مصبوغًا أسود. رأيت في وجهها تعبيرًا موحيًا بشيء من الفكاهة.

ولد جديد!

أجبتها: «أوه، أنت تعنين جيك! نعم، إنه ابني».

«الحقيقة أنني كنت أعنيكما معًا. أنت تبدو قلقًا! صدقّني... أنا واثقة من أنه سيكون على ما يرام».

«نعم، أنا واثق من أنه سيكون كذلك. حتى إنه لم يلتفت لينظر في اتجاهي».

«كفّ ابني عن فعل ذلك منذ فترة. والحقيقة أنني أكفّ عن الوجود بالنسبة إليه فور وصولنا إلى باحة المدرسة كل صباح. شيء يحطّم القلب أول الأمر، لكنك سرعان ما تعتاده. إنه شيء جيّد في حقيقة الأمر»... هزت كتفيها... «بالمناسبة، اسمي كارين. وابني اسمه آدم».

قلت لها: «وأنا توم. يسرني لقاؤك. كارين وآدم؟ يجب أن أحفظ هذه الأسماء الجديدة كلّها».

قالت المرأة مبتسمة: «سوف يستغرق الأمر وقتًا. لكنّي واثقة من أن جيك لن يواجه أيّة متاعب. يكون الأمر صعبًا عند الانتقال إلى مكان جديد؛ لكنهم عصبة جيّدة من الأطفال هنا. لم يبدأ آدم الذهاب إلى هذه المدرسة إلا في منتصف السنة الماضية. هذه مدرسة جيّدة».

سارت المرأة في اتّجاه بوابة الخروج، فعهدت لذاكرتي بالاسمين. كارين. آدم. لقد بدت امرأة لطيفة، ولا بد لي من بذل شيء من الجهد هنا. فربما -على الرغم من كل ما يوحي بعكس ذلك- ربما أستطيع حقًّا أن أصير واحدًا من أولئك الأشخاص الراشدين الطبيعيين الذين يتحدّثون مع أهالي أطفال آخرين في باحة المدرسة.

أخرجت هاتفي، ووضعت السمّاعتين الرأسيتين في أذنيَّ استعدادًا لمشوار العودة القصير إلى البيت. صار في ذهني الآن شيء آخر يثير توتري. لم أكن قد تجاوزت ثلث روايتي الجديدة عندما ماتت ريبيكا. وفي حين يمكن أن يرمي كتّاب آخرون بأنفسهم في معمعة العمل في محاولة للتناسي، فإنني لم أنظر إلى ما كتبته منذ ذلك الوقت. صارت الفكرة التي كنت أعمل عليها تبدو لي الآن فارغة؛ وأحسست بأنّني موشك على هجران ذلك المشروع كلّه وتركه يتعفّن في ذاكرة كمبيوتر كما لو أنه حماقة غير منجَزة.

فماذا أكتب في تلك الحالة؟ بعد أن عدت إلى البيت، شغّلت الكمبيوتر وفتحت ملفًا جديدًا للكتابة، ثم حفظته تحت اسم «أفكار سيّئة». هذا ما كنت أبدأ به دائمًا. ساعدني إقراري بأن الوقت لا يزال مبكرًا في التخفّف من بعض الضغط النفسي. وبعد ذلك (بما أنني كنت دائمًا من الأشخاص الذين لا يعترضون على إعداد القهوة باعتباره نوعًا من تضييع الوقت)، مضيت إلى المطبخ وشغّلت غلاية الماء، ثم استندت إلى الطاولة ورحت أنظر إلى حديقة البيت الخلفية عبر

النافذة. رأيت رجلًا واقفًا هناك. كان ظهره في اتجاهي، وبدا لي أنه يعبث بقفل باب الكراج في حديقتي.

ما هذا، بحق الجحيم؟

نقرت على زجاج النافذة.

قفز الرجل وراح يتلفت حوله بسرعة. كان في الخمسينات من العمر؛ رجل قصير ممتلئ الجسم، تحيط برأسه الأصلع حلقة من شعر رمادي ذكرتني برؤوس الرهبان. كان أيضًا في ملابس أنيقة، بدلة، ومعطف خفيف رمادي، ووشاح عنق. بدت لي هيئته بعيدة كل البعد عن شخص من المحتمل أن يكون لصًا يحاول اقتحام المكان.

كرّرت عبارة ما هذا، بحق الجحيم؟، لكني كررتها هذه المرة بتعابير وجهي وحركتَي يديَّ. نظر الرجل إليَّ لحظة وقد ظهرت الصدمة على وجهه، ثم استدار ماضيًا عبر ممر السيارة في اتجاه واجهة البيت.

تردّدت لحظة، لكن ما رأيته أغضبني فمضيت في اتجاه باب البيت مصممًا على مواجهته ومعرفة ما كان يفعله هناك.

ولحظة بلوغي الباب، رُن الجرس.

14

فتحت الباب بسرعة، فوجدت الرجل واقفًا أمامه وقد ارتسم على وجهه تعبير اعتذار. من هذه المسافة القريبة اكتشفت أن الرجل أقصر قامة مما بدا لي عندما رأيته عبر النافذة.

«يؤسفني كثيرًا أنني أزعجتك». كان يتحدّث بنبرة رسمية منسجمة مع طراز بدلته القديم... «لم أكن أظن أن في البيت أحدًا».

خطر في ذهني: قرع جرس الباب واحدة من الطرق الواضحة للتأكد مما إذا كان في البيت أحد!

طويت ذراعي على صدري: «فهمت. ما الذي أستطيع فعله من أجلك».

تململ الرجل في وقفته: «حسنًا... إنه طلب غير معتاد، إلى حد ما. لا بد لي من الإقرار بهذا. لكن المسألة هي أن... هذا البيت. الحقيقة أنني ترعرعت هنا. هل رأيت؟ مرّت الآن سنين كثيرة -هذا واضح- لكن لي ذكريات عزيزة في هذا المكان و...».

توقّف الرجل عن الكلام.

قلت: «حسنًا!...».

ثم انتظرت أن يكمل كلامه. لكنّه ظلّ واقفًا هناك وقد بدا عليه شيء من الترقّب، كما لو أنه زوَّدني بالقدر الكافي من المعلومات، وكما لو أن من الغرابة -أو ربما من الجلافة- أن أطالبه بإكمال كلامه.

أدركت ما يريده بعد لحظة.

«هل تعني أنك تريد دخول البيت والتجول فيه، أو شيء من هذا القبيل؟».

أومأ برأسه شاكرًا: «أعرف أن هذا عبء مزعج لك، لكني سأقدّر لك كثيرًا سماحك لي بفعل ذلك. إن لهذا البيت ذكريات خاصّة عندي».

ومن جديد، كانت طريقة كلامه زائدة الرسمية إلى حد جعلني موشكًا على الضحك. لكني لم أضحك لأن فكرة ترك هذا الرجل يدخل بيتي جعلت أعصابي تتوتّر. لقد كان حسن الملبس، وكان سلوكه مهذّبًا إلى حدّ السخف، فبدا لي الأمر كلّه نوعًا من التنكّر. بدا لي الرجل خطيرًا على الرغم من وضوح أنه لا يشكل أي خطر جسدي بالنسبة إلي. أستطيع تخيله وهو يطعن أحدًا بنصل أو بسكين وهو ينظر في عينيه ويتلمّظ وهو يفعل ذلك.

«يؤسفني أن هذا غير ممكن».

وعلى الفور، خبت هيئة التهذيب المخادعة وزحفت لمحة من الانزعاج إلى وجهه. كائنًا من يكن هذا الرجل، فقد رأيت بوضوح أنه قد اعتاد أن يحصل على ما يريده.

قال لي: «كم هذا مؤسف! هل لي أن أسألك عن السبب؟».

«السبب بسيط. لقد انتقلنا إلى هذا البيت حديثًا. وهناك صناديق في كل مكان».

ابتسم ابتسامة صغيرة: «فهمت. حسنًا، ربما في وقت لاحق؟».

«الحقيقة... لا. لأنني أيضًا لا أحب أن أسمح لأشخاص غرباء تمامًا بأن يدخلوا بيتي».

«هذا أمر... محبط».

«لماذا كنت تحاول دخول مرأب السيارة؟».

«لم أكن أحاول ذلك». تراجع إلى الوراء خطوة وقد بدا عليه شعور بالإهانة... «كنت أحاول رؤية ما إذا كنت أستطيع العثور عليك».

«ماذا؟ هل تريد العثور عليَّ داخل مرأب مقفل؟».

«لا أعرف ما تظنّ أنك رأيته، لكن لا». هز رأسه بحزن... «أرى الآن أن تلك كانت غلطة مؤسفة. شيء مخجل في حقيقة الأمر. لكن، ربما تغيّر رأيك».

«لن أغيّره».

«إذًا... آسف لأنني أزعجتك».

استدار وبدأ يسير في الممر مبتعدًا.

لحقت به وقد تذكّرت الرسائل التي تلقيتها.

«هل أنت السيد بارنيت؟».

تردد عند سماع ذلك السؤال، ثم استدار من جديد ونظر إلي. توقّف في مكانه. صار وجهه الآن مختلفًا تمام الاختلاف. عيناه خاليتان من أي تعبير. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين حجمي وحجمه، ظننت أنني سأتراجع إذا خطا خطوة واحدة في اتجاهي في هذه اللحظة.

قال لي: «لست هو. مع السلامة».

ثم سار مبتعدًا فبلغ الشارع وسار فيه من غير أن يقول كلمة أخرى. لحقت به من جديد، ثم توقّفت عند الرصيف غير واثق إن كان عليَّ أن ألحق به في الطريق، أم لا. سَرَت في جسدي رعشة خفيفة على الرغم من دفء الشمس.

لقد كان ذهني، حتى هذه اللحظة، شديد الانشغال بالبيت نفسه، فلم أذهب حتى الآن لإلقاء نظرة على المرأب. من المؤكّد أنه لم يكن الجزء الأفضل من البيت: باب أزرق اللون له مصراعان معدنيان لا يكادان يلتقيان في المنتصف. وإلى الجانب، نافذة تشقّق زجاجها. وجدران بيضاء متقشّرة، كانت أعشاب طويلة قد غطت الأرضية. كان الوكيل العقاري قد أخبرني بأن مادة الأسبستوس مستخدمة في السقف، وبأنني في حاجة إلى معونة من شخص اختصاصي إذا قررت هدم المرأب؛ لكنه بدا لي موشكًا على السقوط من تلقاء نفسه في لحظة ما. بدا ذلك المكان كأنه جاثم خلف البيت مثل سكّير عجوز غير قادر على الوقوف مستقرًا على قدميه. يحاول ألّا يترنح!

كان على الباب قفل؛ لكن الوكيل العقاري أعطاني مفتاحه. صرّ الباب المعدني وهو يتحرك كاشطًا الأرض الأسفلتية عندما أزلت القفل وفتحت الباب. خفضت رأسي قليلًا وخطوت إلى الداخل.

نظرت من حولي غير مصدّق. كان المكان مليئًا بسقط المتاع.

كنت أفترض أن تكون السيدة شيرينغ قد أفرغت البيت بعد مجيئي في المرة الأولى، وأنها استعانت بشركة ما للتخلّص من الأثاث القديم. رأيت الآن أنها فضلت أن تعفي نفسها من تلك النفقات فوضعت كل شيء هنا حتى صار المكان فائحًا براحة العفن والغبار. رأيت أكوامًا من الصناديق الكرتونية في وسط المكان. كانت الصناديق في الأسفل متغضّنة تحت ثقل تلك التي فوقها. طاولات وكراسٍ قديمة مكدّسة على أحد الجانبين، مختلطة متداخلة كأنها أحجية من خشب. فراش قديم مستند إلى الجدار الخلفي، وعلى القماش بقع بلون الشاي... بقع كبيرة بدت أشبه بخريطة طبيعية لعالم غريب. شممت رائحة موقد الشيّ المُسودّ إلى جانب الباب.

أكداس من أوراق النباتات الجافة البنية عند الجدران. دفعت علبة طلاء بحركة قوية من قدمي فوجدت تحتها أكبر عنكبوت رأيته في حياتي. قفز ذلك الشيء قفزة صغيرة حيث كان جاثمًا. من الواضح أن وجودي لم يسبب له أي ذعر.

نظرت من حولي وقلت في نفسي: لا بأس. أشكرك كثيرًا يا سيدة شيرينغ.

لم يكن في المكان متّسع كبير للحركة، لكني تقدّمت في اتجاه أكداس الصناديق وفتحت واحدًا من تلك التي في الأعلى. كان الكرتون رطبًا تحت أصابعي. نظرت فرأيت زينات عيد ميلاد قديمة. لفافات باهتة من خيوط كانت لامعة، وكرات تزيينية كادت تزول ألوانها، وشيء بدا لي أشبه بالجواهر.

طارت واحدة من تلك الجواهر فاصطدمت بوجهي...!

يا إلهي!

كدت أفقد توازني، وانزلقت قدمي على أوراق النباتات التي تحتها. لوّحت بذراعي أمام وجهي. رفرف ذلك الشيء مرتفعًا إلى السقف، ثم انقض من جديد وراح يدور مسرعًا قبل أن يصطدم بالنافذة الرمادية، ثم يكرر اصطدامه بها مرّة بعد مرّة.

تاب، تاب، تاب... اصطدامات ناعمة.

أدركت أخيرًا أنها فراشة! ليست من الفراشات التي أعرفها... على الرغم من أن معارفي في هذا المجال لا تتجاوز التفريق بين الفراشات البيضاء والفراشات الملونة.

تقدّمت بحذر من النافذة حيث كانت الفراشة مستمرة بالرفرفة عند زجاجها. ظللت أنظر إليها بضع لحظات إلى أن وصلتها الرسالة آخر الأمر، فتوقّفت وحطت على طوار النافذة المتّسخ وقد بسطت جناحيها. كانت كبيرة بحجم العنكبوت الذي من خلفي. لكن لون العنكبوت كان رماديًا بشعًا؛ أما الفراشة فكانت رائعة الألوان. خطوط متموّجة من الأصفر والأخضر على امتداد جناحيها، مع لمحة من لون أرجواني عند حافتي الجناحين. فراشة جميلة!

عدت إلى الصندوق ونظرت فيه من جديد فرأيت ثلاث فراشات أخرى مستقرّة عند السطح. لم تكن تلك الفراشات تتحرّك فظننتها ميتة. نظرت إلى الأسفل فرأيت فراشة أخرى على جانب صندوق في أسفل الكومة. كان جناحاها يتحركان حركة لطيفة بطيئة كالنسيم.

لم تكن لدي أدنى فكرة عن الزمن الذي مر على وجود تلك الفراشات هنا، أو عن طبيعة دورة حياتها. لكن، لم يبد لي أن لها أملًا كبيرًا في الحياة في هذا المكان، اللهم إلا باعتبارها وجبات تنتظر أن يلتهمها ذلك العنكبوت. داهمتني رغبة في تخريب ذلك النظام البيئي! انتزعت قطعة مربعة رطبة من الكرتون من أعلى أحد الصناديق. ورحت ألوح بها محاولًا دفع إحدى الفراشات إلى الخروج من الباب. لكن الفراشات لم تعبأ بمحاولاتي تلك. جربت المحاولة مع الفراشة التي عند النافذة، لكنها كانت عنيدة مثل رفيقاتها. على الرغم من حجم تلك الفراشات الكبير، فقد بدت لي شديدة الرهافة عندما نظرت إليها عن قرب، كما لو أنها يمكن أن تستحيل غبارًا عند أدنى لمسة. لم أرد المخاطرة بإيذائها.

وهكذا، فقد أقلعت عن المحاولة.

رميت بقطعة الكرتون جانبًا ومسحت يدي ببنطلوني الجينز: «لا بأس، أيتها الفراشات. لقد فعلت ما أستطيع فعله».

لم يكن هناك أي معنى لبقائي مزيدًا من الوقت في ذلك المرأب. إنه على ما هو عليه. وسوف يضاف إخلاؤه وتنظيفه إلى قائمة المهمّات الطويلة التي تنتظرني. لكن هذه ليست مهمة عاجلة.

ما الذي يمكن أن يكون قد أثار اهتمام زائري بهذا المكان؟ من الواضح أن محتوياته أشياء لا قيمة لها. لكني بدأت أفكر الآن -بعد أن تراجع الأثر المتبقّي من تلك المواجهة- رحت أتساءل... لعلّ ما قاله لي كان صحيحًا، ولعلّي قد أسأت حقًّا فهم ما رأيته من نافذتي.

خرجت، وأعدت القفل إلى مكانه، فحبست الفراشات في الداخل من جديد. بدا لي أمرًا لافتًا أنها ظلّت حية هناك تلك الفترة كلّها على الرغم من أن المكان غير مناسب لعيشها. وعندما سرت عائدًا في الممر الذاهب إلى باب البيت الأمامي، فكّرت في جيك، وفي نفسي، فأدركت أن ما جرى لنا كان أمرًا يشبه حال تلك الفراشات.

في حقيقة الأمر... ليس لديها خيار.

هذا ما يفعله كل كائن حيّ! إنه يحاول مواصلة الحياة حتى في ظلّ أقسى الشروط.

15

كانت الغرفة صغيرة، لكنها تعطي إحساسًا بمكان لا حدود لامتداده، فقد كان كل سطح فيها مطليًا بالأبيض. مكان من غير جدران. أو لعله مكان خارج الزمان والمكان، خارجهما كلّيًا. كان بيت يتخيّل دائمًا أن هذا المكان يمكن أن يبدو لمن ينظر إلى ما تسجّله كاميرات المراقبة كما لو أنه مشهد من فيلم خيال علمي فيه شخص وحيد جالس ضمن محيط فارغ لا نهاية له... شخصٌ لا يزال يتعيّن بناء محيطه الافتراضي من حوله!

مرَّ بإصبعه على سطح طاولة المكتب التي تقسم الغرفة من أوّلها إلى آخرها. صدر عن تلك الحركة صرير واهٍ. كان كل ما في هذا المكان نظيفًا، ملمَّعًا، معقَّمًا. ثم... عادت الغرفة صامتة من جديد.

ظلّ جالسًا، منتظرًا.

عند وجود شيء فظيع لا بد من مواجهته، فمن الأفضل أن يواجهه المرء حالًا. سيحدث الأمر، مهما يكن أمرًا سيئًا؛ وعلى الأقل، فإنك لا تكون مضطرًا إلى تحمّل انتظاره بعد ذلك. كان فرانك كارتر يدرك هذا. لقد كان بيتْ يزوره مرة في السنة، على الأقل، منذ حبسه هنا. وكان الرجل يجعله ينتظر دائمًا. سوف يحدث شيء من التأخير هناك، في مبنى الزنزانات حادث مختلق ما. كانت تلك طريقة كارتر في تبيان أنه المتحكّم في الأمر بحيث يكون واضحًا أنه هو من يقرر مجرى الأمور. ينبغي أن تكون حقيقة أن بيتْ هو من يستطيع المغادرة بعد انتهاء اللقاء حقيقة مطمئِنة له، لكنّها لم تكن كذلك في يوم من الأيام. ما كان لديه شيء يعرضه على كارتر غير إلهائه وتسليته. وما كان إلا واحدٌ منهما يمتلك شيئًا يريده الآخر. كان كل منهما يعرف هذا.

وهكذا ظلّ منتظرًا مثل أي ولد مطيع.

مرّت بضع دقائق أخرى، ثم انفتح الباب الذي في الناحية الأخرى من طاولة المكتب ودخل اثنان من حرّاس السجن. وقفا عند الباب، من الجانبين. لكن فتحة الباب نفسه ظلت خالية. كما يحدث دائمًا، كان الوحش يتمهّل في الدخول.

أتاه الإحساس المعتاد بالضيق مع اقتراب تلك اللحظة. تسارعت نبضاته. لقد كف منذ زمن بعيد عن تحضير أسئلة من أجل هذا اللقاء لأنّ الكلمات كانت، لا محالة، تتبعثر فوضى في ذهنه كأنها طيور أجفلت فانطلقت فزعة من شجرتها. لكنه أرغم وجهه على عدم إبداء أي تعبير، وحاول المحافظة على هدوئه إلى أقصى حد ممكن. كان الجزء العلوي من جسده يؤلمه بعد التمرينات العنيفة التي أدّاها في الصالة الرياضية في ذلك الصباح. وبعد ذلك، دخل كارتر مجال نظره.

كان مرتديًا أَفرولًا أزرق باهتًا، وكان مقيَّد اليدين والقدمين. لا يزال شعر رأسه حليقًا تمامًا؛ ولا يزال محتفظًا بلحيته البنّية الصغيرة الشبيهة بلحية تيس. وكعهده دائمًا، سار منخفض الرأس قليلًا عند دخوله الغرفة على الرغم من أنه لم يكن في حاجة إلى ذلك. كان كارتر رجلًا ضخمًا طوله مئة وخمسة وتسعين سنتيمترًا، ووزنه مئة وثمانية كيلوغرامات، لكنه لم يكن ليفوّت أيّة فرصة لكي يجعل نفسه يبدو أكبر حجمًا.

تبعه حارسان آخران فرافقاه حتى الكرسي الموضوع إلى الناحية الأخرى من الطاولة. وبعدها، خرج الحراس الأربعة تاركين بيت وحيدًا مع كارتر. أحس بيت كما لو أن صوت إغلاق الباب من خلفهم أعلى صوت سمعه في حياته كلها.

كان كارتر ينظر إليه مستمتعًا.

«صباح الخير، يا بيتر».

أجابه بيتْ: «فرانك... تبدو في حالة حسنة».

«أعيش جيدًا». ربّت كارتر على بطنه، فصلصلت السلاسل في معصمَيْه بصوت خافت... «الحقيقة أنني أعيش على نحو جيّد جدًّا».

أومأ بيتْ برأسه. كلما زاره، كلما فاجأه أن كارتر لا يبدو شخصًا يستمر في العيش على الرغم من حبسه، بل يبدو كما لو أنه مستمتع بذلك العيش أشد استمتاع. الظاهر أنه يمضي الشطر الأكبر من وقته في صالة التمرينات الرياضية في السجن. على الرغم من أنه ظلّ، من الناحية الجسدية، شخصًا هائلًا مثلما كان وقت إلقاء القبض عليه، لكن أثر السنين التي أمضاها في السجن -السنين التي جعلته أطرى قليلًا، على نحو ما- كان أمرًا لا يمكن إنكاره. لقد بدا مرتاحًا. كان جالسًا هناك فاردًا ساقيه، وقد وضع إحدى ذراعيه الثخينتين على مسند الكرسي، فظهر كما لو أنه ملكٌ مستوٍ على عرشه ينظر إلى واحدٍ من أفراد حاشيته. عندما كان كارتر خارج هذه الجدران، كان حيوانًا خطيرًا، حانقًا، معلنًا الحرب على العالم؛ وأما بعد أن صار حبيسًا، وبعد أن صار شخصًا مشهورًا له حفنة من الأنصار الذين يريدون التقرّب منه، فقد وجد لنفسه أخيرًا موضعًا يستطيع الاسترخاء فيه.

قال كارتر: «تبدو لي في حالٍ حسنة أيضًا، يا بيتر. أرى أنك تأكل جيدًا وتحافظ على لياقتك. كيف حال أسرتك؟».

قال بيت: «لست أدري. كيف حال أسرتك أنت؟».

انطفأ البريق في عيني كارتر عندما سمع ذلك. أمر خاطئ دائمًا أن يقدّم المرء على وخز ذلك الرجل، لكن هذا كان شيئًا تصعب مقاومته دائمًا. كانت زوجة كارتر وابنه هدفين سهلين. لا يزال بيتْ يتذكّر تلك النظرة عندما أصغى إلى شهادة جين في المحكمة عن طريق دارة تلفزيونية مغلقة. لا بد أن الرجل تصوّر أنها ستكون مذعورة ومحطّمة إلى حدٍّ يمنعها من الانقلاب عليه؛ لكنّها انقلبت عليه آخر الأمر، وسمحت لبيتْ بدخول الغرفة الملحقة بالمنزل، وتراجعت عن شهادتها

التي أدلت بها قبل شهور من ذلك، لإثبات وجود زوجها في مكان آخر وقت وقوع تلك الجرائم. كان تعبير وجهه في ذلك اليوم شبيهًا بالتعبير الذي ظهر فيه الآن. مهما يكن كارتر مرتاحًا هنا، فإن الحقد الذي يكنّه لأسرته لم يهدأ أبدًا.

انحنى إلى الأمام بحركة مفاجئة.

قال: «هل تعرف أنني رأيت الليلة الماضية حلمًا من أكثر الأحلام غرابة».

قسر بيتْ نفسه على الابتسام.

«هل رأيت حلمًا غريبًا؟ يا إلهي... يا فرانك. أنا لست واثقًا من أنني أريد معرفته».

«أوه، لا... أنت تريد معرفته». استند في مقعده، ثم ضحك لنفسه... «أنت تريد معرفته حقًّا. وذلك لأن الصبي كان فيه... هل رأيت؟ الصبي سميث. عندما بدأ الحلم، لم أكن واثقًا من أنه هو لأن أولئك الأنذال الصغار متشابهون جميعًا، أليسوا كذلك؟ أي واحد منهم يكون وافيًا بالغرض. ثم إن قميصه كان مرفوعًا بحيث يغطي وجهه فلا أستطع رؤيته جيدًا هكذا أحبّ أن يكون الأمر. لكنه هو نفسه. أقول هذا لأنني -كما ترى- أتذكر الملابس التي كانت عليه. هل فهمت؟».

بنطلون رياضي أزرق. وقميص بولو أسود صغير.

لم يقل بيتْ شيئًا.

قال كارتر: «وصوت شخص يبكي. لكنه لم يكن هو الذي يبكي. لم يكن هو لسبب واحد هو أنه تجاوز الآن مرحلة البكاء منذ زمن بعيد؛ وانتهى أمره. ثم إن ذلك الصوت كان آتيًا من مكان بعيد. أدرت رأسي فرأيتهما هناك الأم والأب. لقد شاهدا ما فعلته بابنهما. كانا يبكيان بصوت مسموع آمالهما وأحلامهما كلّها... فانظر ما فعلته بهما». تجهّم وجهه... «ما اسماهما؟».

ومن جديد، لم يجبه بيتْ.

«ميراندا وآلان»... أومأ كارتر لنفسه... «تذكّرت الآن. كانا في المحكمة في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ وأنت كنت جالسًا معهما».

«صحيح».

«نعم، صحيح. إذًا، ميراندا وآلان يبكيان ويذرفان دموعًا كبيرة. إنهما ينظران إليَّ. قل لنا أين هو! أرأيت؟ إنهما يتوسّلان إليّ. أمر محزن بعض الشيء، لكن كل ما يفعله ذلك هو أن يذكّرني بك، فأقول في نفسي إن بيتر يريد أن يعرف ذلك أيضًا وإنه قد يأتي لزيارتي مرة أخرى عمّا قريب»... ابتسم كارتر من خلف الطاولة... «بيتر صديقي، أليس هذا صحيحًا؟ وينبغي لي أن أحاول مساعدته في الأمر. وهكذا، فقد نظرت من حولي بكل انتباه محاولًا معرفة المكان الذي كنت فيه وأين هو الصبي. أقول هذا لأنني لم أستطع أبدًا أن أتذكّر هذه النقطة، أليس كذلك؟».

«صحيح».

«ثم حدث شيء مدهش جدًّا».

«هل حدث ذلك حقًّا؟».

«شيء مدهش جدًا. هل تعرف ما حدث؟».

أجابه بيتْ: «استيقظت من النوم».

مال كارتر برأسه إلى الخلف وضحك، ثم صفق بيديه معًا، بقدر ما استطاع. صلصلت السلاسل عندما صفّق. وعندما انتهى، تكلّم من جديد. عاد صوته إلى مستواه العادي، وعاد ذلك البريق المألوف إلى عينيه.

«أنت تعرفني أكثر مما ينبغي يا بيتر. نعم، لقد استيقظت. لكنه أمر مؤسف، أليس كذلك؟ أظن أنه سيكون على ميراندا وآلان -وأنت أيضًا مواصلة البكاء حينًا آخر من الزمن».

لكن بيتْ ما كان ليلتقط الطعم.

قال له: «هل رأيت أحدًا آخر في منامك؟».

«أحد آخر! مثل من؟».

«لست أدري. أي شخص آخر معك هناك. شخص يساعدك، مثلًا».

كانت تلك محاولة مباشرة كثيرًا لا يمكن أن تلقى إجابة مباشرة. وكالمعتاد، راح يراقب ردة فعل كارتر على السؤال مراقبة دقيقة. في ما يتعلق بمسألة وجود شخص متعاون معه، كان كارتر يلعب اللعبة جيدًا: يبدو عليه أحيانًا أن الأمر يسلّيه؛ ويبدو في أحيان أخرى أنه يضجره. لكنه لم يعترف أبدًا، ولم ينكر أبدًا، وجود شخص آخر متورِّط معه في تلك الجرائم. وأما هذه المرة فقد ابتسم لنفسه؛ إلا أن ردة فعله كانت مختلفة عن المعتاد. كان فيها شيء إضافي هذه المرة.

إنه يعرف سبب وجودي هنا.

قال كارتر: «كنت أتساءل كم سيمر من الوقت قبل أن تأتي لرؤيتي بعد اختفاء ذلك الصبي الصغير، وتلك الأشياء كلّها. فوجئت بأن زيارتك قد تأخّرت إلى هذا الحدّ».

«طلبت زيارتك من قبل. لكنك رفضت».

«ماذا؟ أأرفض رؤية صديقي العزيز بيتر؟»... بدأ كارتر يتظاهر بالغضب... «وكأنني يمكن أن أفعل هذا! أظنّ أن ذلك الطلب لم يصلني. أخطاء إدارية. يكادون يكونون عديمي النفع هنا».

أرغم بيتْ نفسه على هز كتفيه.

قال: «لا بأس، يا فرانك. في الحقيقة، لم تكن زيارتك أمرًا ذا أولوية. أنت في السجن منذ زمن بعيد. وهذا يعني أن من الممكن القول إنك لست من المشتبه فيهم في هذه القضية».

عادت الابتسامة إلى وجه الرجل.

«لست من المشتبه فيهم. وأما بالنسبة إليك، فإن الأمر متعلّق بي دائمًا، أليس كذلك؟ ينتهي الأمر دائمًا حيث بدأ».

«ماذا يعني هذا؟».

«إنه يعني ما يعنيه. فما الذي تريد أن تسألني عنه؟».

«أسألك عن حلمك، يا فرانك... كما قلت لك. هل كان في الحلم شخص آخر؟».

«ربما. أنت تعرف كيف تكون الأحلام. إنها تزول سريعًا. أمر مؤسف، أليس كذلك؟».

نظر بيت إلى كارتر لحظة. كان يروزه. لن يكون صعبًا عليه أن يعرف بأمر اختفاء نيل سبنسر لأن وسائل الإعلام تحدّثت عنه. لكن، هل يعرف كارتر أي شيء آخر؟ واضح أنه يستمتع بإعطاء انطباع بأنه يعرف شيئًا آخر؛ لكن هذا لا يعني شيئًا في حدِّ ذاته. من الممكن تمامًا ألّا يكون أكثر من لعبة أخرى من ألعاب القوّة. طريقة أخرى يستخدمها لكي يجعل نفسه يبدو أكبر وأكثر أهمّية مما هو عليه في حقيقة الأمر.

قال بيتْ: «هناك أشياء كثيرة تُنسى. سوء السمعة، على سبيل المثال».

«ليس هنا».

«لكن الأمر هكذا في العالم الخارجي. لقد نسي الناس كل شيء عنك».

«أوه، أنا واثق من أن هذا غير صحيح».

«أنت تعرف أن الصحف لم تأتِ على ذكرك منذ زمن غير قليل. أنت رجل الأمس. بل إنك لا تكاد تكون كذلك أيضًا إن هذا الصبي الصغير مفقود منذ شهرين، مثلما قلت أنت، فهل تعرف عدد المراسلين الصحافيين الذين أتوا على ذكر اسمك؟».

«لا أعرف هذا، يا بيتر. فلماذا لا تخبرني أنت؟».

«لم يذكر اسمك أحد».

«هاه! هذا يعني أنه يتعيّن عليَّ قبول إجراء مقابلات مع كل أولئك الأكاديميين والصحافيين الذين يطلبون ذلك مني باستمرار!».

«قد تفعل هذا».

ابتسم ابتسامة صغيرة فكان عقم هذا الوضع صدمة لبيتْ. إنه يعرض نفسه لهذا الأمر من أجل لا شيء. كارتر لا يعرف أي شيء. وسوف ينتهي الأمر مثلما كان ينتهي دائمًا. إنه يعرف حقّ المعرفة كيف ستكون حاله بعد ذلك... يعرف كيف يؤدّي حديثه مع كارتر إلى استعادة ذكرياته كلّها. وفي وقت لاحق، ستصير جاذبية تلك الخزانة في المطبخ أقوى من أي وقت.

نهض واقفًا وأدار ظهره لكارتر وبدأ يسير مبتعدًا: «نعم، قد يكون عليك أن تفعل هذا. مع السلامة، يا فرانك».

«قد يكونون مهتمين بأمر الهمس».

توقّف بيتْ بعد أن وضع يده على مقبض الباب. سرت في ظهره رعشة، ثم انتقلت إلى ذراعيه.

الهمس!

لقد أخبر نيل سبنسر أمه عن وحش يهمس له من تحت نافذته. لكن هذا الجانب من قصّة اختفاء الصبي لم يكشف عنه على الملأ، ولم يجد طريقه إلى الأخبار. من الممكن تمامًا أن تكون هذه محاولة من كارتر بهدف الإيقاع به. لكن كارتر قالها بنبرة المنتصر إلى حدٍّ لا يمكن أن يجعل الأمر كذلك. قالها كمن يلعب الورقة الرابحة.

استدار بيتْ بحركة بطيئة.

كان كارتر لا يزال جالسًا مسترخيًا في كرسيه، لكن وجهه كان ناطقًا بالإعجاب بالنفس. لقد أضاف إلى الصنارة الطعم الكافي بالضبط لكي لا تسبح السمكة مبتعدة. وفجأة، صار بيتْ واثقًا من أن الإشارة إلى الهمس لم تكن على الإطلاق ضربًا من ضروب التخمين.

إن هذا الوغد يعرف بالأمر، على نحو ما.

لكن كيف؟

في هذه اللحظة تحديدًا، أكثر من أي لحظة مضت، كان عليه أن يحافظ على هدوئه.

سوف يتقوّى كارتر إذا أحس أن الرجل الواقف قبالته في حاجة إليه؛ ثم إنه أعطاه ما يكفي لأن يشغل ذهنه به.

قد يكونون مهتمين بالهمس!

«ما الذي عنيته بهذا، يا فرانك؟».

«حسنًا، لقد رأى الصبي الصغير وحشًا تحت نافذته، أليس كذلك؟ وكان الوحش يتحدّث إليه». انحنى كارتر إلى الأمام من جديد... «كان يتحدّث... بهدوء شديد؛ كان يهمس له».

حاول بيتْ التخلص من إحساسه بالخيبة والإحباط، لكن زوبعة كانت تدور في داخله. كان كارتر يعرف شيئًا ما، وهناك صبي مفقود. لا بد لهم من العثور عليه.

قال له: «وكيف عرفت بأمر الهمس؟».

«آه، سوف يكون لهذا معنى إذا أخبرتك».

«إذًا، أخبرني».

ابتسم كارتر. كانت ملامح وجهه ملامح رجل لا شيء لديه يربحه أو يخسره عدا إيلام الآخرين وإزعاجهم.

قال: «سوف أخبرك. لكن عليك أولًا أن تعطيني شيئًا أريده».

«وما هو هذا الشيء؟».

استند كارتر إلى ظهر كرسيه من جديد، واختفى المزاح من تعابير وجهه. مرّت لحظة كانت عيناه خلالها خاليتين من أي تعبير، لكن الكره لم يلبث أن اشتعل فيهما. كان ظاهرًا في عينيه كأنه جمرة ملتهبة.

قال: «أحضر لي أسرتي».

«أسرتك!».

«تلك العاهرة وابنها القذر الصغير. أحضرهما إلى هذا المكان، وامنحني خمس دقائق معهما، وحدي».

حدّق بيتْ في كارتر. وللحظة، اجتاحه الغضب والجنون المشتعلان في عيني ذلك الرجل الجالس قبالته. ثم... مال كارتر برأسه إلى الخلف وقعقع بالسلاسل التي في معصميه. ولم يلبث صمت الغرفة أن تكسّر كله عندما راح يضحك، ويضحك، ويضحك.

16

«هل يريد أن نعطيه خمس دقائق وحده مع أسرته القديمة؟»... كانت أماندا تفكّر في الأمر... «هل يعقل أن نفعل هذا؟».

لكنها رأت تعبير وجه بيت في تلك اللحظة. «إنني أمزح، بالمناسبة».

«أعرف هذا».

تهاوى جالسًا على كرسيٍّ قبالة طاولة مكتبها، ثم أغمض عينيه.

نظرت أماندا إليه برهة. بدا لها مستنفدًا، منكمشًا بالمقارنة مع الرجل الذي رأته في لقائهما الأول. لم تكن على معرفة جيّدة به -بالطبع- ولم تنشأ بينهما صلة وثيقة خلال الشهرين الماضيين، لكنه فاجأها كثيرًا بأنه... حسنًا، بأنه ماذا؟ بأنه رجل مسيطر على مشاعره وانفعالاته. ومن الواضح أنه في حالة بدنيّة ممتازة بالنسبة إلى سنّه. شخص هادئ قدير. لم يكد يقول لها كلمة واحدة زائدة عندما حدّثها عن القضية القديمة؛ بل إنه كان ثابتًا لم يظهر عليه أي تأثّر عندما جعلها ترى الصور التي التُقطت داخل الغرفة الملحقة ببيت فرانك كارتر. كانت مشاهد مخيفة في حقيقة الأمر. مشاهد رعب كان هو أول من رآها. جعلتها تلك الصور قلقة بشأن كيفية تمكّنها من المحافظة على رباطة جأشها حتى الآن، فكيف إذا انتهت الأمور نهاية سيئة؟

لن تنتهي نهاية سيئة!

رجال الشرطة المنطقيون لا يسمحون للحوادث بالتأثير عليهم. هذا ما يكرّره دائمًا مديرها لايونز كانت واثقة من ذلك وهذا لأن تلك هي الطريقة الوحيدة للصعود: أن يكون الثقل الذي يشدّك إلى الأسفل أقل ما يمكن. قبل اختفاء نيل سبنسر، كانت أماندا تتخيّل أنها ستكون مثل لايونز، لكنها لم تعد الآن واثقة من ذلك تمام الثقة. وإذا كانت قد ظنّت أول الأمر أن بيت ويليس شخص هادئ يعرف كيف يفْصُل مشاعره عمّا يحدث، فإن النظر إليه الآن جعلها تعيد تقييم ذلك الانطباع الأول. لقد كان ماهرًا في الاحتفاظ بمسافة بينه وبين العالم -هكذا قالت في نفسها- وكان فرانك كارتر رجلًا يستطيع التأثير عليه أكثر من معظم الناس.

ليس هذا مفاجئًا جدًّا بالنظر إلى التاريخ الذي يربط بينهما، وبالنظر إلى أنه لم يتم العثور أبدًا على واحد من الأطفال الذين كانوا ضحايا كارتر -طفل فُقد عندما كان بيت مسؤولًا عن متابعة الأمر، ثم ظل مفقودًا-. ألقت على شاشة كمبيوترها نظرة سريعة فرأت صورة نيل سبنسر التي صارت مألوفة لها، صورته في قميصه الرياضي. لقد اختفى نيل منذ أكثر قليلًا من شهرين، وكان غيابه ألمًا جسديًا حقيقيًا لها. مهما حاولت منع نفسها من التفكير في الأمر، فإن شعورها بالفشل

يزداد سوءًا مع مرور كل يوم. لم تكن قادرة على تخيّل كم يمكن أن يصير ذلك الشعور سيّئًا بعد عشرين سنة. لم تكن تريد أن ينتهي بها الأمر مثلما انتهى بالرجل الجالس قبالتها الآن.

لن ينتهي الأمر هكذا!

قالت له: «حدّثني مرة أخرى عن فرضية وجود شريك متعاون مع كارتر».

فتح بيت عينيه: «ليس لدينا إلا أقل القليل في ما يتعلّق بهذا الأمر. قال أحد الشهود إنه رأى رجلًا متقدّمًا في السن له شعر رمادي يتحدّث مع توني سميث؛ وهذا الوصف لا ينطبق على كارتر. وهناك أيضًا بعض الروايات المتداخلة بخصوص توقيت الاختطاف.

«هذه أشياء واهية».

«أعرف هذا. يرغب الناس أحيانًا في أن تكون الأمور أكثر تعقيدًا مما هي عليه في حقيقة الأمر».

«من الممكن أن يكون كارتر قد ارتكب هذه الجرائم كلّها وحده. يقول مبدأ أوكهام إن...» (2).

«أعرف ما يقوله مبدأ أوكهام»... مرّر بيتّ أصابع يده في شعره... لا تُكثر من الفرضيات من غير ضرورة... «يجب الأخذ بالحل الأكثر بساطة والذي ينسجم مع الوقائع المعروفة كلّها».

«بالضبط».

«وهذا ما نفعله هنا، أليس كذلك؟ نتوصّل إلى الشخص، ثم نثبت أنه ارتكب الجريمة. هذا كافٍ بالنسبة إلينا. وهكذا، فإننا نختم التحقيق ونضعه في خزانة الأرشيف، ثم نتابع السير. أغلقت القضية؛ وتم تنفيذ المهمّة. فلننطلق إلى المهمّة التي بعدها».

فكرت في لايونز من جديد. فكّرت في تسلّق السلّم.

قالت: «نحن نفعل هذا لأنه ما يتعيّن علينا فعله».

هز بيت رأسه: «لكنّه، في بعض الأحيان، لا يكون جيدًا إلى الحد الكافي. فالأشياء التي تبدو بسيطة، تصير أكثر تعقيدًا في بعض الحالات، وينتهي الأمر بتضييع ما نعتبره مادة زائدة لا لزوم لها».

قالت: «والمادة الزائدة في هذه الحالة يمكن أن تشتمل على شخص ارتكب جريمة قتل ولم نمسك به!»

«من يدري؟ حاولتُ عدم التفكير في هذا الأمر على مر السنين».

«أظن أنه تصرّف حكيم».

«لكن لدينا الآن نيل سبنسر. لدينا قصة الهمس والوحش. ولدينا ذلك الوغد الجالس هناك، فرانك كارتر؛ وهو يعرف شيئًا عن الأمر».

ظلّت منتظرة تتمّة الكلام.

قال بيتْ: «وأنا لا أعرف ما يتعيّن علينا فعله في هذا الشأن. لن يخبرنا كارتر بأي شيء. وقد دقّقنا مئات المرات في صلاته المعروفة كلّها. أولئك الأشخاص لا شائبة عليهم».

فكّرت أماندا في كلامه، ثم قالت: «أيمكن أن يكون شخصًا يحاول تقليد كارتر؟».

«هذا محتمل. لكن كارتر لم يكن يخمّن تخمينًا في تلك الغرفة. لم تعرف الصحافة بقصّة الهمس، لكنه يعرفها. لم يزره أحد غيري. والمراسلات التي يتلقّاها خاضعة للمراقبة، كلّها. فكيف عرف بالأمر؟».

على نحو مفاجئ، صار انزعاجه شديد الوضوح إلى حدٍّ جعلها تستغرب أنه لم يضرب الطاولة بقبضة يده. هز رأسه من جديد وأشاح بوجهه جانبًا. على الأقل، أعاده هذا الأمر إلى الحياة قليلًا... هكذا قالت أماندا في نفسها. إنه شيء جيد -إلى الجحيم بهذا الهدوء- كانت أماندا مؤمنة حقيقةً بفكرة أن الغضب حافز حسن... يعرف الربّ أن الإنسان يكون أحيانًا في حاجة إلى شيء يدفعه إلى الاستمرار. وفي الوقت نفسه، كان واضحًا لها أن قدرًا كبيرًا من غضب بيتْ كان موجّهًا إلى داخله. إنه يلوم نفسه على عدم تمكّنه من الوصول إلى الحقيقة. كان هذا غير حسن أبدًا. إنها مؤمنة أيضًا بالفكرة القائلة إن الإحساس بالذنب أمر سيّئ يمكن أن يستولي على المشاعر كلّها. ما إن تترك الإحساس بالذنب يستولي عليك، حتى يتمسّك بك فلا يتركك أبدًا.

قالت له: «لم يكن كارتر ليساعدنا أبدًا؛ ليس عن طيب خاطر».

«لا».

«وذلك الحلم عن توني سميث...؟».

لوح بيده كأنه يطرد تلك الفكرة: «هذا ما يفعله عادة. لقد سمعت ذلك كلّه من قبل. لا شك عندي أبدًا في أنه قتل توني. وفي أنه يعرف بالضبط أين وضعه. لكنه لن يقول لنا هذا أبدًا. لن يقوله طالما ظل قادرًا على تعذيبنا به... على تعذيبي به». صار جليًا لها الآن مقدار ما سببته زيارة كارتر من معاناة لبيتْ. لكنه ذهب بصرف النظر عن أي شيء. ومهما يكن ذلك صعبًا عليه فقد وضع نفسه في تلك المحنة من جديد لأن العثور على توني سميث يعني له الكثير. لكن كارتر وجد الآن لعبة جديدة يلهو بها، وعليهم أن يركّزوا على هذه النقطة. صحيح أنها كانت تفهم العناء الذي يلقاه بيتْ، لكن الحقيقة تظلّ أن توني سميث ميت منذ زمن بعيد، لكن نيل سبنسر قد يكون على قيد الحياة، حتى الآن.

بل هو لا يزال على قيد الحياة.

قالت أماندا: «حسنًا، إن لديه الآن نقطة جديدة ضدنا. لكنّي تذكّرت شيئًا. قلت لي إنك تذهب لرؤيته لأن هناك احتمالًا لأن يبوح بالمعلومات من غير قصد».

«صحيح».

«لا بأس... لقد فعل ذلك! إنه يعرف شيئًا، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون هذا قد حدث بفعل السحر. إذًا، علينا أن نتبيّن الأمر».

لكنها أعادت التفكير في الأمر بعد أن ظلَّ صامتًا ولم يجبها بشيء.

لا زوار. ولا مراسلات.

قالت: «ماذا عن أصدقائه في السجن؟».

«إن له أصدقاء كثيرين».

«هذا أمر مفاجئ، من ناحية ما. قاتل أطفال، وكل ذلك».

«لم يكن في تلك الجرائم أي عنصر جنسي على الإطلاق؛ وهذا ما يساعده قليلًا. ثم إنه لا يزال وحشًا حقيقيًا من الناحية الجسدية. وفوق هذا، لديه تلك الشهرة كلها -ذلك الهراء عن الهامس-. إن لديه هناك مملكته الصغيرة الخاصّة به».

«هذا جيّد. فمن هو أقرب أصدقائه؟».

«لا فكرة عندي».

انحنت أماندا إلى الأمام: «لكنّنا نستطيع معرفة هذا، أليس كذلك؟ أليس من الممكن أن تكون المعلومات قد وصلته عن طريق شخص آخر؟ شخص ما زار واحدًا من أصدقائه، الصديق يخبر كارتر. كارتر يخبرك».

فكر بيت في هذا، وبعد لحظة من ذلك، ظهر عليه الانزعاج من نفسه لأن هذا لم يخطر في ذهنه.

أحسّت أماندا بشيء من الاعتزاز بالنفس. ليس بمعنى أنها أرادت إحداث انطباع جيّد لديه، بالطبع ليس كذلك! كانت تريد العثور على حافز يدفعه إلى الأمام، أو يجعله يكفّ عن كونه مجروحًا إلى هذا الحدّ.

قال لها: «صحيح، هذه فكرة حسنة».

«إذًا، افعل ذلك»... تردّدت قليلًا... «لست في موقع من يعطيك أشياء تفعلها. لكن من شأن هذا أن يكون تقدّمًا بالنسبة إلينا، أليس هذا صحيحًا؟... إذا كان لديك وقت».

«لديَّ وقت». لكنّه توقّف عند الباب.

قال لها: «هناك شيء آخر. قلت إن كارتر قد أعطانا شيئًا... هو يعرف بأمر الهمس، بطريقة ما».

«هذا صحيح».

«لكن هناك مسألة التوقيت أيضًا. لقد ظل يرفض رؤيتي مدة شهرين. لم يحدث هذا من قبل. ثم غيّر رأيه فجأة وصار راغبًا في زيارتي».

«ما معنى هذا؟».

«لست أعرف على وجه التأكيد. لكن، قد يكون علينا الاستعداد لاحتمال أن يكون هناك سبب لهذا».

اقتضاها فهم ما يشير إليه لحظة قصيرة لم تلبث بعدها أن التفتت ونظرت إلى صورة نيل سبنسر غير راغبة في احتمال أن يكون قد مات.

لن يصل الأمر إلى هذا الحدِّ! لكن بيتْ كان محقًّا! مرَّ شهران من غير أي تطوّر أو تقدّم في القضية. ربما يكون هناك معنى لقرار كارتر بأن يتكلّم الآن: هناك تطور موشك على الظهور.

17

جاء وقت الغداء، فجلس جيك وحده على أحد المقاعد في باحة المدرسة، وراح ينظر إلى بقية الأطفال يجرون هنا وهناك، ويتعرّقون في تلك الحرارة. كان الضجيج شديدًا؛ وبدا الجميع غير منتبهين إلى وجوده. كانت هذه سنة مدرسية جديدة، لكن التلاميذ في صفه يعرف أحدهم الآخر منذ زمن طويل. صار واضحًا له ذلك الصباح أنهم غير مهتمّين كثيرًا بالتعرّف على شخص جديد. لم يكن هذا مزعجًا له. لو ظلّ جيك جالسًا في الداخل يرسم، لكان أسعد حالًا؛ لكن الجلوس في الداخل غير متاح في وقت الاستراحة. وهكذا، فقد جلس على ذلك المقعد إلى جوار بعض الشجيرات الصغيرة. كان يؤرجح ساقيه منتظرًا رنين الجرس.

ستبدأ المدرسة غدًا. أنا واثق من أنك ستجد هناك أصدقاء جددًا كثيرين.

في أحيان كثيرة، لم يكن أبوه يدرك كم هو مخطئ. على الرغم من هذا، فقد تساءل جيك إن كان ذلك سيحدث حقًا لأن تلك العبارة التي قالها أبوه بدت مفعمة بالأمل أكثر من أي شيء آخر. ربما كان كلٌّ منهما يعرف في أعماقه أن هذا لن يحدث أبدًا. لو كانت ماما هنا لقالت له إن الأمر غير مهمٍّ، ولكانت جعلته مقتنعًا بذلك أيضًا. لكن جيك يظن الآن أن بابا يرى الأمر مهمًا. كان جيك مدركًا أنه يكون محبِطًا لأبيه كثيرًا، بعض الأحيان. على الأقل، مضت الفترة الصباحية على ما يرام. لقد تمرّنوا على بعض جداول النحو البسيطة، فكانت كلّها سهلة، وكان ذلك أمرًا حسنًا. كان لديهم في غرفة الصف نظام من أجل السلوك السيّئ يشبه إشارة السير الضوئية؛ وكانت أسماء الجميع ظاهرة في المساحة السفلية الخضراء. كان جورج، مساعد المعلمة، شخصًا لطيفًا؛ إلا أن معلّمة الصف، السيدة شيلي، بدت شديدة الصرامة، ولم يكن جيك يريد أن ينتقل اسمه إلى المساحة الصفراء منذ اليوم الأول. لا يستطيع اكتساب أصدقاء، لكنه قادر -على الأقل- على المحافظة على حسن السلوك. هذه هي مهمة المرء في المدرسة: أن يفعل ما يُقال له، ويكتب الإجابات في المساحات الفارغة، وألّا يثير أيّة مشكلات من خلال الإكثار من طرح الأسئلة.

صوت فرقعة.

أجفل جيك عندما اصطدمت كرة القدم بالشجيرة التي إلى جواره. لقد حفظ أسماء زملائه في الصف جميعًا؛ وكان أوين هو من أتى مسرعًا لاستعادة الكرة. كان آتيًا من أجل الكرة، لكنه كان ينظر إلى جيك طيلة الوقت، وهذا ما جعل جيك يظن أنه قذف الكرة في هذا الاتجاه عمدًا، إلا إذا كان أوين لاعب كرة قدم سيئًا!

«إنني آسف».

«لا بأس».

«صحيح... أعرف أنه لا بأس».

«أخرج أوين الكرة من بين الأغصان بحركة خشنة وهو مستمر بالنظر إلى جيك كما لو أنه هو المخطئ؛ ثم سار مبتعدًا. كان هذا أمرًا لا معنى له. لعل أوين شخص غبيٌّ حقًّا. وحتى في هذه الحالة، قد يكون من الأفضل له أن يغيّر مكان جلوسه.

«مرحبًا، يا جيك».

«نظر إلى جانبه فرأى الفتاة الصغيرة راكعة تحت تلك الشجيرة. غمر الارتياح قلبه، وبدأ ينهض واقفًا.

وضعت إصبعها على شفتيها: «ششش... لا تتحرّك».

جلس من جديد. لكن ذلك كان صعبًا. أراد أن يقفز فوق ذلك المقعد! رآها مثلما كان يراها دائمًا: الفستان نفسه الملون بالأزرق والأبيض، وتلك السحجة على ركبتها، والشعر المزاح كلّه، على نحو غريب، إلى ناحية واحدة.

قالت له: «ابقَ جالسًا كما أنت. لا أريد أن يراك بقية الأطفال وأنت تتحدّث معي».

«لم لا؟».

«لأنه لا ينبغي لي أن أكون هنا».

«نعم، لأنك لا ترتدين ملابس هذه المدرسة».

«هذا أحد الأسباب، صحيح»... فكّرت في الأمر لحظة... «يسرني أن أراك من جديد، يا جيك. لقد اشتقت إليك، هل اشتقت إلي؟».

أومأ برأسه بحركة قوية، لكنه لم يلبث أن أرغم نفسه على أن يهدأ من جديد. إن بقية الأطفال موجودون من حولهما، ولا يزال صوت اصطدام كرة القدم ينبعث هنا وهناك. لم يرد أن يخذل الفتاة الصغيرة. لكن رؤيتها كانت أمرًا سارًّا كثيرًا! الحقيقة أنه يشعر بوحدة شديدة في البيت الجديد. لقد حاول بابا أن يلعب معه أكثر من مرة، لكن من الواضح أنه لم يكن مستمتعًا بذلك اللعب. كان يلعب مدة عشر دقائق، ثم ينهض ويقول إن ساقَيْه في حاجة إلى شيء من الراحة على الرغم من وضوح أنه راغب في فعل شيء آخر بدلًا من اللعب. وأما هذه الفتاة الصغيرة، فهي مستعدة دائمًا للعب معه زمنًا طويلًا قدر ما يشاء. لقد كان يترقّب رؤيتها طيلة الوقت منذ انتقالهما إلى البيت الجديد؛ لكنها لم تظهر له أبدًا.

لم تظهر إلا الآن.

قالت له: «هل أصبح لديك أصدقاء جدُد هنا؟».

«في الحقيقة لا. يبدو لي آدم وجوش وحسن؟؟؟؟ أشخاصًا لا بأس بهم. أوين ليس لطيفًا تمامًا».

قالت له: «أوين ولد قذر».

نظر إليها.

قالت مسرعة: «لكنْ هناك الكثير من الأشخاص القذرين، أليس كذلك؟ وليس كل من يظهر لك الصداقة صديقًا حقيقيًا».

«لكنكِ صديقتي!».

«بالطبع، أنا صديقتك».

«هل ستأتين لتلعبي معي من جديد؟».

«أحب هذا. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. أنت تعرف هذا».

غار قلب جيك لأنه... لا، كان يعرف أن الأمر ليس بسيطًا. كان يريد رؤيتها طيلة الوقت، لكن بابا غير راضٍ عن حديثه معها: «إنني هنا. نحن الاثنان. بيت جديد، وبداية جديدة». أو، على الأقل، كان جيك راغبًا في رؤيتها طيلة الوقت... عندما لا تبدو مهمومة أو جادة كثيرًا مثلما بدت له في تلك اللحظة.

قالت له: «قل لي... قل لي العبارة التي علّمتك إياها».

«لا أريد هذا».

«بل قلها».

«إذا تركت الباب نصف مفتوح، فسرعان ما ستسمع صوت الهمس».

«والبقية».

أغمض جيك عينيه.

«إذا لعبت في الخارج وحدك، فسرعان ما تصير غير قادر على العودة إلى البيت».

«تابع!». بدت الآن كأنها غائبة.

«وإذا تركت نافذتك غير مقفلة، فسوف تسمعه ينقر على زجاجها».

«وماذا أيضًا؟».

قالت ذلك السؤال بصوت خافت جدًّا حتى لكأنه ليس أكثر من نسمة هواء خفيفة. ابتلع جيك ريقه. لم يكن راغبًا في قول ذلك، لكنه أرغم نفسه وتكلّم بصوت شديد الخفوت، مثل صوت الفتاة.

«إذا كنت وحيدًا، حزينًا، مكتئبًا، فسوف يأتي الهامس إليك».

رُنَّ جرس المدرسة.

فتح جيك عينيه فرأى الأطفال في باحة المدرسة أمامه. كان أوين واقفًا مع ولدين أكبر سنًا لم يرهما جيك من قبل. كانوا ينظرون إليه. كان جورج معهم أيضًا وقد ارتسم على وجهه تعبير جادّ مهتمّ. وبعد ثانية من ذلك، بدأ الأطفال يضحكون، ثم اتجهوا نحو باب الدخول ملقين إليه نظرات سريعة من فوق أكتافهم.

نظر جيك إلى جانبه.

كانت الفتاة الصغيرة قد اختفت.

«مع من كنت تتحدّث خلال الاستراحة؟».

أراد جيك أن يتجاهل سؤال أوين. كان مطلوبًا منهم أن يكتبوا بحروف متّصلة على دفاترهم؛ وقد أراد أن يركّز على عمله لأن هذا ما قيل لهم أن عليهم فعله. كانت لا مبالاة أوين بتلك المهمّة واضحة تمامًا فقد كان منحنيًا فوق الطاولة ينظر إلى جيك. وكان واضحًا لجيك أن أوين واحد من أولئك الأولاد الذين لا يهمّهم أن توبّخهم المعلمة. كان يعرف أيضًا أن إخبار أوين بأمر الفتاة الصغيرة سيكون أمرًا في غاية السوء. لم يكن أبوه راضيًا بالحديث معها، لكن من غير الممكن أبدًا أن يسخر منه لهذا السبب. إلا أنه كان واثقًا من أن أوين سيسخر منه.

هز كتفيه وقال: «لا أحد».

«كنت تتحدّث مع أحد ما».

«أنا لم أر أحدًا هناك. فهل رأيت أحدًا؟».

فكر أوين قليلًا، ثم استند إلى ظهر مقعده. قال: «لقد كان هذا مقعد نيل».

«ماذا كان؟».

«أعني مقعدك يا غبي. إنه مقعد نيل».

بدا أوين حانقًا في شأن هذا الأمر، لكن جيك لم يكن واثقًا مما يُحتمل أن يكون قد أخطأ فيه. لقد قالت السيدة شيلي لكل واحد منهم، في ذلك الصباح، أين ينبغي أن يجلس. وهو لم يتعمّد أن يسرق مقعد ذلك الشخص الذي اسمه نيل.

«من هو نيل؟».

قال أوين: «لقد كان هنا في السنة الماضية. لكنه لم يعد هنا، لأن أحدًا أخذه بعيدًا. والآن، أنت أتيت وأخذت مقعده».

كان جليًّا أن في تفكير أوين شيئًا خاطئًا.

قال له جيك: «لقد كنتَ في الصف الأول، السنة الماضية... مما يعني أن هذا المقعد لم يكن مقعد نيل».

«لو لم يؤخذ نيل، لكان هذا مقعده».

«وإلى أين انتقل؟».

«لم ينتقل إلى أي مكان. لقد أخذه أحد ما».

لم يعرف جيك كيف يفهم هذه الجملة، فقد كانت كلامًا من غير معنًى. كيف يمكن أن يكون أهل نيل قد أخذوه إلى مكان آخر، لكنهم لم ينتقلوا؟ نظر جيك إلى أوين، فرأى أن عيني الصبي الحانقتين مليئتان بمعرفة شيء داكن لا يطيق صبرًا على قوله لجيك.

قال أوين: «لقد أخذه رجل سيّئ».

«إلى أين أخذه؟».

«لا يعرف أحد هذا. لكنه ميّت الآن؛ وأنت جالس في مقعده».

كانت فتاة اسمها تابي جالسة على المقعد نفسه أيضًا.

قالت لأوين: «هذا أمر فظيع، فأنت لا تعرف أن نيل قد مات. لقد سألت أمي فقالت إن ليس من المستحسن الحديث في هذا الأمر مع أي إنسان».

قال لها أوين: «لقد مات»... ثم استدار إلى جيك وأشار إلى المقعد... «هذا يعني أنك التالي».

رأى جيك أن هذا -أيضًا ليس له معنى. لم يفكّر أوين في هذا الكلام الذي يقوله؛ لم يفكّر فيه أبدًا. وذلك لسبب بسيط... لم يكن نيل ليجلس على هذا المقعد تحديدًا مهما حدث له. وهذا يعني أن هذا المقعد لا يحمل لعنة، أو أي شيء من هذا القبيل.

وفوق هذا، هنالك إمكانية أكثر احتمالًا بكثير لكنه لم يرد قولها. ظلّ لحظة صامتًا، لكنه لم يلبث أن تذكّر ما قالته له الفتاة الصغيرة في الخارج. تذكّر أنه يحسّ بالوحدة كثيرًا، فقرر أن يتعامل مع أوين مثلما يتعامل أوين معه.

قال له: «قد يعني هذا أنني سأكون الأخير».

نظر إليه أوين مضيِّقًا عينيه، وقال: «وما معنى هذا؟».

«من الممكن أن يقوم ذلك الرجل السيّئ بأخذ الصفّ كله، واحدًا بعد آخر، ثم يحلّ محلّهم أولادًا وبناتٍ غيرهم. هذا يعني أن الهامس سيأخذك أنت قبل أن يأخذني».

شهقت تابي فزعة، ثم انفجرت باكية.

قال أوين بنبرة باردة: «لقد جعلت تابي تبكي».

كانت المعلّمة في طريقها إليهم. قال لها أوين: «يا سيّدة شيلي، قال جيك لتابي إن الهامس سوف يقتلها مثلما قتل نيل، فخافت كثيرًا».

هكذا ظهر اسم جيك في المساحة الصفراء منذ يومه الأول في المدرسة.

سوف يكون أبوه في غاية الانزعاج.

18

انقضى اليوم على نحو أفضل مما كنت أتوقّع.

قد تبدو كتابة ثمانمئة كلمة أمرًا صغيرًا، نسبيًا؛ لكنها كانت بداية على الأقل لأنني لم أكتب شيئًا منذ شهور.

قرأت ما كتبته مرة بعد مرة.

ريبيكا.

في تلك اللحظة كان الكلام كلّه عنها، لم يكن قصّة في حدِّ ذاته، ولا بداية قصّة مثلما يبدو الأمر، بل كان ذلك بداية رسالة أكتبها لها... رسالة تصعب قراءتها. كانت لدي ذكريات سعيدة كثيرة أستطيع الاعتماد عليها؛ وكنت أعرف أن تلك الذكريات ستصعد إلى السطح مع استمراري في الكتابة. لكن، ومع أنني كنت أحبها وأشتاق إليها بأكثر مما أستطيع قوله، فإنني لم أكن قادرًا على إنكار نواة الاستياء الكريهة التي كانت في نفسي: غضبي لأنها تركتني وحدي مع جيك، ووحدة ذلك الفراش الخالي. إحساسي بأنني متروك لكي أتعامل مع الأشياء هو الشيء الذي كنت غير قادر على التلاؤم معه. لم تكن الغلطة غلطتها، بالطبع؛ لكن الأسى يشبه طبخة فيها ألف مكوّن من المكوّنات التي ليست كلها طعامًا سائغًا.

كان ما كتبته تعبيرًا صادقًا عن جزء صغير مما أحسّه.

كان ذلك، من حيث الأساس، عملًا تمهيديًا. صارت لديَّ الآن فكرة عما أستطيع الكتابة عنه. رجل... رجل ضعيف مثلي... فَقَدَ امرأةً بسيطةً مثلها. مهما يكن الغوص في هذا الأمر مؤلمًا، فإنني قادر على فعله، وقادر على الانتقال من البشاعة إلى الجمال، وكذلك إلى إحساس أخير بالقبول والاستقرار. هذا أملي. أحيانًا، تكون الكتابة قادرة على المساعدة في شفائك. لم أكن أعرف إن كان الأمر هكذا بالنسبة إليّ، لكنه كان هدفًا أستطيع محاولة السير في اتجاهه.

حفظت الملف، ثم ذهبت لكي آخذ جيك من المدرسة.

عندما وصلت إلى المدرسة، كان أهالي الأطفال كلّهم مصطفّين عند الجدار. كانوا ينتظرون. أظنّ أن هناك عرفًا صارمًا -وإن يكن غير مفصَح عنه- في ما يخص مكان الوقوف. لكن نهاري كان طويلًا فقرّرت ألّا أبالي بالأمر. رأيت كارين واقفة وحدها عند البوابة فمضيت إليها. كان بعد ظهر ذلك اليوم أكثر دفئًا من صباحه، لكنّي رأيت أنها لا تزال مرتدية تلك الملابس التي تبدو أشبه بملابس شخص يتوقّع هطول الثلج.

قالت لي: «مرحبًا من جديد. هل تظن أنه تمكّن من اجتياز اليوم الأول بسلام؟».

«أنا واثق تمامًا من أنهم كانوا سيتّصلون بي لو لم يكن الأمر كذلك».

«هذا ما أتوقّعه. كيف كان يومك؟ حسنًا... إنني أدعوه يومًا! كيف كانت ساعات الحرية الست؟».

أجبتها: «كان فيها ما يثير الاهتمام. نظرت أخيرًا في كراجنا الجديد، فاكتشفت أن المالكة السابقة لم ترمِ بقايا متاعها، بل خبأتها هناك».

«آه. هذا مزعج. لكن، يا لها من امرأة ماكرة».

ضحكت، لكنها كانت ضحكة صغيرة. لقد أزالت الكتابة شيئًا من الضيق عن الرجل الذي جاء إلى المدرسة الآن، لكنها لم تلبث أن عاودتني في هذه اللحظة.

«وكان لديَّ أيضًا شخص غريب يحوم من حول البيت».

«حسنًا، يبدو هذا أمرًا غير جيّد تمامًا».

«صحيح. قال إنه نشأ في ذلك البيت وإنه يريد إلقاء نظرة. لست واثقًا من أنني صدّقت ما قاله».

«لكنك لم تسمح له بدخول البيت، صحيح؟».

«يا إلهي، لا».

«أين يقع بيتكم الذي انتقلتم إليه؟».

«شارع غارهولت».

أومأت برأسها: «إنه متقاطع مع شارعنا. بالمناسبة، هل هو البيت المخيف؟».

البيت المخيف! غصّ قلبي قليلًا.

«ربما. لكنّي أفضل اعتبار أن له شخصيةً خاصّةً به».

أومأت برأسها من جديد: «أوه، إن له شخصيةً خاصّةً به. رأيته معروضًا للبيع خلال الصيف. من الواضح أنه ليس مخيفًا على الإطلاق؛ لكن آدم اعتاد القول إن مظهره يبدو غريبًا».

«هذا يعني أنه البيت المناسب تمامًا لي ولجيك».

قالت مبتسمة: «هذا غير صحيح، أنا واثقة من ذلك»... ثم ابتعدت عن الجدار عندما انفتح باب المدرسة... «ها هم. لقد أطلقوا سراح الوحوش».

أتت معلمة جيك ووقفت عند الباب تنظر إلى الأهالي وتنادي تلاميذها بالاسم واحدًا بعد آخر. كانوا يخرجون مسرعين، متتابعين، وتتأرجح حقائبهم المدرسية وزجاجات المياه في أيديهم.

تذكّرت أن اسمها السيدة شيلي. بدت صارمة إلى حدٍّ ما. وأنا متأكّد من أن نظرتها قد توقّفت عندي بضع مرات، لكنّها كانت تنتقل عني قبل أن أفلح في إخبارها بأنني والد جيك. أتى إلينا ولد افترضت أنه آدم، فداعبت كارين شعره.

«هل كان يومك حسنًا، يا ولد؟».

«نعم، يا ماما».

«إذًا، هيا بنا»... التفتت في اتجاهي، «أراك غدًا».

«إلى الغد».

انتظرت قليلًا بعد ذهابهما إلى أن بدا لي أنني الوحيد الذي ظلّ واقفًا هناك، وأخيرًا أشارت إليَّ السيّدة شيلي بأن أقترب. سرت إليها طائعًا.

«هل أنت والد جيك؟».

«أنا والده».

خرج جيك مطرق الرأس وسار في اتجاهي. بدا شكله ضئيلًا، منكمشًا. قلت في نفسي: أوه، يا إلهي. لقد حدث أمر ما. هذا ما جعلها تتركه إلى ما بعد خروج الأولاد جميعًا.

«هل هناك أية مشكلة؟».

قالت السيدة شيلي: «لا شيء كبيرًا، لكنّي أريد أن أقول لك كلمة. جيك، هل تحبّ أن تخبر والدك عمّا حدث؟».

«لقد وُضع اسمي في المنطقة الصفراء، يا بابا».

هتفت: «في ماذا؟».

قالت السيدة شيلي موضحة: «لدينا على الجدار شيئًا يشبه إشارة السير الضوئية. إنها من أجل الشغب. ونتيجة سلوكه اليوم، كان جيك أول طفل ينتقل اسمه إلى المساحة الصفراء. هذا يعني أن يومه الأول لم يكن مثاليًا».

«وماذا فعل؟».

قال جيك: «قلت لتابي إنها ستموت».

أضافت السيدة شيلي: «قلت هذا لأوين أيضًا».

«ولأوين أيضًا».

قلت: «حسنًا»... توقّفت قليلًا، ثم لم أستطع التفكير في شيء أكثر منطقية يمكن أن أقوله... «سوف نموت جميعًا».

لم يعجب هذا السيدة شيلي.

«هذا ليس مضحكًا، يا سيد كينيدي».

«أعرف».

قالت السيدة شيلي: «كان لدينا ولد في السنة الماضية، اسمه نيل سبنسر. لعلك رأيت شيئًا عنه في الأخبار».

بدا لي ذلك الاسم كصوت جرس مبهم غريب.

قالت: «لقد اختفى».

«أوه، نعم».

إنني أتذكّر الآن. شيء ما عن أن والديه تركاه يسير عائدًا إلى البيت وحده.

«لقد كان ذلك أمرًا محزنًا كثيرًا»... نظرت السيّدة شيلي إلى جيك، ثم تردّدت قبل أن تقول: «هذا موضوع لا يحب أحد الحديث عنه. قال جيك إن دور ذلك الطفل وتلك الطفلة قد يأتي بعده».

«فهمت، ولهذا فإنه... في المساحة الصفراء!».

«إذا انتقل إلى الأحمر خلال الأسبوع القادم، فسوف يكون عليه أن يرى مديرة المدرسة».

نظرت إلى جيك الذي بدا في حالة بؤس شامل. لم تعجبني فكرة وضعه موضع الخزي علنًا، على الجدار؛ لكن... في الوقت نفسه، كنت منزعجًا منه. كان ذلك الشيء الذي قاله سيّئًا حقًا. لماذا فعل هذا؟».

قلت: «فهمت. حسنًا، يؤسفني أن أسمع عن سلوكك هذا يا جيك. لقد أزعجني الأمر كثيرًا».

طأطأ رأسه أكثر من ذي قبل.

«سنتحدّث في الأمر خلال طريق عودتنا».

التفتُّ إلى السيدة شيلي، وقلت لها: «أعدك بأن هذا الأمر لن يتكرّر».

«فلنحرص على عدم تكراره. هناك شيء آخر أيضًا».

اقتربت مني وكلّمتني بصوت منخفض، على الرغم من وضوح أن جيك كان قادرًا على سماعها... «أخبرني مساعدي أنه رآه في استراحة الغداء. قال إن الأمر أثار قلقه قليلًا. أخبرني بأن جيك كان

يتكلّم مع نفسه!».

أغمضتُ عينيَّ. الآن، غصّ قلبي حقًّا. يا إلهي... ليس هذا أيضًا! ليس أمام الجميع!

لماذا لا يمكن أن تكون الأمور بسيطة؟

لماذا لا نستطيع الانسجام هنا؟

قلت لها: «سوف أتحدّث معه».

لكن جيك رفض أن يبادلني الكلام.

في طريق عودتنا إلى البيت، حاولت استمالته لكي يخبرني بما حدث؛ كانت محاولات لطيفة أول الأمر، لكنّي فقدت أعصابي قليلًا بعد أن قابل جهودي كلّها بصمت حجري. كنت أعرف أن من الخطأ أن أفعل ذلك لأن الحقيقة هي أنني لم أكن غاضبًا منه هو. كنت غاضبًا من وضعنا. وكان انزعاجي عائدًا إلى أن الأمور لم تسر سيرًا حسنًا مثلما كنت آمل. وكنت قانطًا لأن صديقته المتخيّلة قد عادت. كنت قلقًا في شأن ما قد يظنّه به الأطفال الآخرون، وكيف سيتعاملون معه. أخيرًا، غرقت في الصمت وسرنا متجاورين كأننا شخصان غريبان.

نظرت في حقيبة كتبه عندما صرنا في البيت. على الأقل، لا تزال رزمة أشيائه الخاصّة موجودة هناك. كان عليه أيضًا واجب منزلي: قراءة أشياء بدت لي سهلة بالنسبة إليه.

قال جيك بصوت منخفض: «إنني أفسد كل شيء، أليس كذلك؟».

وضعت الكتب في الحقيبة. كان واقفًا عند الكنبة، خافضًا رأسه. بدا منكمشًا أكثر من أي وقت مضى.

قلت له: «لا. أنت لا تفسد شيئًا».

«هذا ما تظنّه أنت».

«أنا لا أظنّ هذا، يا جيك. بل إنني فخور بك كثيرًا».

«لكنّي لست فخورًا. إنني أكره نفسي».

أحسست كأنما تلقّيت طعنة عندما سمعت ذلك.

قلت له مسرعًا: «لا تقل هذا». ثم ركعت وحاولت احتضانه. لكنه لم يستجب لي على الإطلاق... «لا يجوز أبدًا أن تقول هذا».

سألني من غير أن يحمل صوته أي تعبير: «هل أستطيع أن أرسم قليلًا؟».

أخذت نفسًا عميقًا وابتعدت عنه قليلًا. كنت تواقًا إلى النفاذ إليه، لكن من الواضح أن هذا لن يحدث الآن. يمكننا أن نتحدّث في وقت لاحق. سوف نتحدّث!

«فليكن».

ذهبت إلى مكتبي. أردت النظر من جديد إلى ما كتبته اليوم. إنني أكره نفسي!

قلت له إن عليه ألّا يقول هذا. لكن، فلأكن صادقًا، إنها كلمات صرت أقولها لنفسي كثيرًا خلال السنة الأخيرة. والآن، أحسست هذه الكلمات من جديد. لماذا أنا فاشل هكذا؟ كيف أكون عاجزًا إلى هذا الحد عن قول وفعل الأشياء الصحيحة. كثيرًا ما كانت ريبيكا تقول لي إن جيك يشبهني كثيرًا؛ فلعل هذه الأفكار نفسها تدور في رأسه الآن! صحيح أن كلًا منا يحب الآخر، حتى عندما نتشاجر، لكن هذا لا يعني أن كلًا منا يحبّ نفسه!

لماذا قال هذا الشيء الفظيع في المدرسة؟ لقد كان يكلّم نفسه لكن... بالطبع، لم يكن الأمر كذلك حقًّا. لم يكن لدي أيّ شك في أن تلك الفتاة الصغيرة كانت تكلّمه، وفي أنها قد وجدتنا أخيرًا. لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا ينبغي أن أفعله في هذا الشأن. إذا لم يستطع اكتساب أصدقاء حقيقيين، فسوف يكون عليه دائمًا أن يعتمد على أصدقاء يتخيّلهم. وإذا كان أولئك الأصدقاء المتخيلون سببًا يجعله يتصرّف مثلما تصرّف اليوم فمن المؤكد أن هذا يعني أنه في حاجة إلى مساعدة!

«العب معي».

رفعت رأسي عن شاشة الكمبيوتر.

تلت ذلك لحظة صمت تسارعت فيها ضربات قلبي.

لقد أتى الصوت من غرفة المعيشة، لكنه لم يبد لي شبيهًا بصوت جيك، على الإطلاق. كان خشنًا، بشعًا.

«لا أريد».

هذه المرّة، كان هذا صوت جيك. اقتربت من الباب ورحت أستمع بانتباه.

«قلت لك أن تلعب معي».

«لا».

على الرغم من أن الصوتين يجب أن يكونا صادرين عن ابني، فقد كانا صوتين مختلفين بحيث يغدو من السهل تصديق أن هناك طفلًا آخر معه. لكن ذلك الصوت لم يبد لي صوت طفل؛ لم يبد كذلك على الإطلاق! كان أجشَّ، وكان أكبر من صوت طفل. ألقيت نظرة إلى باب البيت

القريب مني. لم أقفله عندما عدنا، ولم أضع عليه سلسلته. هل يمكن أن يكون شخص آخر قد دخل البيت. لا... لقد كنت في الغرفة المجاورة. لو دخل شخص آخر لسمعته.

«بل سوف تلعب معي».

كان ذلك الصوت كأنه يتلذّذ بفكرة اللعب مع جيك.

قال جيك: «أنت تخيفني».

«أريد أن أخيفك».

عندما قال ذلك، دخلت الغرفة مسرعًا. كان جيك راكعًا على الأرض أمام الأوراق التي يرسم عليها. نظر إليّ بعينين متّسعتين، مذعورتين.

كان وحيدًا تمامًا، لكن ذلك لم يهدّئ من روعي. ومثلما حدث من قبل، في بيتنا القديم، كان هناك إحساس بحضور معلّق في تلك الغرفة، كما لو أن شخصًا أو شيئًا قد اختفى عن الأنظار قبيل دخولي مباشرة.

قلت بصوت هادئ: «جيك».

ابتلع ريقه بصعوبة، وبدا لي أنه موشك على البكاء.

«جيك، من الذي كنت تتحدّث معه؟».

«لا أحد».

«سمعت صوتك. كنت تتظاهر بأنك شخص آخر. كنت تتظاهر بأنك شخص يريد اللعب معك».

«لا، لم أكن أفعل هذا». وعلى نحو مفاجئ، بدا لي غاضبًا، لا مذعورًا، كما لو أنني خذلته على نحو ما... «أنت تقول هذا دائمًا. هذا ليس منصفًا».

رفرفت عيناي وقد فاجأتني إجابته وأدهشتني، ثم وقفت عديم الحول بينما راح جيك يضع أوراقه في رزمة أشيائه الخاصّة. إنني لا أقول هذا له دائمًا، أليس كذلك؟ لا بد أنه يعرف بانزعاجي من حديثه مع نفسه -إنه أمر يقلقني- لكن ذلك لا يعني أنني أكرّر القول له بأن يكفّ عن ذلك.

عبرت الغرفة وجلست على الأريكة، قريبًا منه.

«جيك...».

«أنا ذاهب إلى غرفتي».

«لا تذهب، من فضلك. إنني قلق عليك».

«لا، لستَ قلقًا. أنت لا يهمك أمري على الإطلاق».

«هذا غير صحيح». لكنه ابتعد عني متّجهًا إلى باب الغرفة. قال لي إحساسي الغريزي إن عليَّ أن أتركه يذهب الآن، وأن أترك الأمور تهدأ، ثم نتحدّث في وقت لاحق. لكني كنت أريد أيضًا أن أطمئنه. رحت أفتّش جاهدًا عن الكلمات المناسبة.

قلت له: «كنت أظنّ الفتاة الصغيرة تعجبك. وظننت أنك تريد رؤيتها من جديد».

«لم تكن هي».

«فمن الذي كان؟».

«لقد كان الصبي الذي في الأرض».

ثم اجتاز الباب واختفى عن عينيَّ.

بقيت جالسًا لحظة غير قادر على التفكير في شيء أقوله.

الصبي الذي في الأرض. تذكّرت ذلك الصوت الأجشّ الذي كان جيك يتكلّم به مع نفسه. وبالطبع، كان ذلك هو التفسير الوحيد لما سمعته. لكنّي أحسست، حتى في هذه الحالة، بقشعريرة باردة تسري في جسدي. لم يبد ذلك الصوت شبيهًا بصوته على الإطلاق.

أريد أن أخيفك.

نظرت إلى الأرض عند ذلك. لقد جمع جيك معظم أشيائه، لكن ورقة واحدة بقيت هناك ومن حولها بضعة أقلام ملوّنة. أصفر، وأخضر، وقرمزي.

نظرت إلى الرسم. كان جيك يرسم فراشات. كان الرسم طفوليًا، غير دقيق، إلا أنه كان من السهل التعرف في تلك الفراشات على الفراشات التي رأيتها في الكراج هذا الصباح. لكن هذا مستحيل، لأنه لم يذهب إلى المرأب. كنت موشكًا على التقاط الورقة والنظر إليها بتمعّن أكبر عندما سمعته ينفجر باكيًا.

نهضت واقفًا وجريت إلى الممرّ، لكنه ظهر في تلك اللحظة، ظهر خارجًا من مكتبي فمرّ بي وصعد السلّم إلى غرفته.

«جيك...».

«اتركني وحدي! إنني أكرهك!».

نظرت إليه وهو يبتعد عني، وشعرت بالعجز وبعدم القدرة على مواكبة ما يحدث... بعدم القدرة على الفهم.

سمعته يغلق باب غرفته بعنف.

دخلت مكتبي بخطوات ثقيلة.

وعندها... رأيت الأشياء الفظيعة التي كتبتها لريبيكا ظاهرة على الشاشة. كانت كلمات تصف كيف أن كل شيء صار صعبًا من غيرها، وتقول إن جزءًا مني يلومها لأنها تركتني أتعامل وحدي مع هذا كله. لا بد أن ابني قد قرأ هذه الكلمات. أغمضت عينيَ وقد فهمت ما حدث.

19

كان بيتْ جالسًا إلى طاولة العشاء عندما جاءه الاتصال الهاتفي. كان يجب أن يكون الآن منشغلًا بالطبخ، أو بمشاهدة التلفزيون. لكن المطبخ من خلفه ظلّ مظلمًا، باردًا، وكانت غرفة المعيشة صامتة أيضًا. كان جالسًا يحدّق في الزجاجة وفي الصّورة.

إنه يحدّق فيهما منذ وقت طويل.

لقد كان هذا اليوم شديد الثقل عليه. إن رؤية كارتر أمر ثقيل الوطأة دائمًا، لكن هذا كان أسوأ كثيرًا مما هو معتاد. وعلى الرغم من تجاهله الاحتمال الذي طرحته أماندا، فإن أوصاف القاتل في حلم كارتر عن توني سميث قد وصلت إلى بيتْ لم يكن الأمر «عملًا كالمعتاد» على الإطلاق. لقد قرّر في الليلة الماضية أن ينسى أمر نيل سبنسر. لكن هذا صار الآن مستحيلًا. القضيتان مترابطتان. وهو على صلة بالأمر.

لكن، ما الفائدة المرجوّة منه؟ لقد أمضى فترة بعد الظهر في استعراض من زاروا أصدقاء كارتر في السجن فلم يصل إلى نتيجة... حتى الآن، على أقل تقدير. لا يزال لديه أشخاص كثيرون حتى ينظر في أمرهم. كانت الحقيقة المحزنة أن لذلك الوغد أصدقاء في السجن أكثر من أصدقاء بيتْ خارج السجن.

إذًا، اشرب.

أنت لا قيمة لك. أنت لا فائدة منك. فاشرب إذًا!

لم يكن الدافع إلى الشرب قويًّا إلى هذا الحدّ في يوم من الأيام، لكنه قادر على تجاوز هذا. فبعد كل حساب، تمكّن من مقاومة هذا الصوت في الماضي. لكن فكرة إعادة الزجاجة إلى الخزانة من غير فتحها سبّبت له إحساسًا بالقنوط. بدا له كما لو أن إقدامه على الشرب أمر محتوم لا مفرّ منه.

ضغط بيده على ذقنه وراح يدلّك جلد وجهه من حول فمه بحركة بطيئة، ثم نظر إلى صورته مع سالي.

منذ سنوات كثيرة، وفي محاولة لمحاربة كره الذات الذي غزاه، شجعته سالي على إنشاء قائمة: عمودان اثنان، واحد لخصاله الإيجابية، وواحد لخصاله السلبية، بحيث يستطيع أن يرى بنفسه مقدار التوازن بينهما. لم يساعده هذا الأمر. كان إحساسه بالفشل مزروعًا عميقًا حيث لا تستطيع الرياضيات تبديده. لقد بذلت جهدًا كبيرًا من أجل مساعدته، لكنه كان دائمًا يتجه إلى الشرب بدلًا من ذلك.

كان قادرًا على رؤية هذا في الصورة. صحيح أن كلًّا منهما يبدو سعيدًا، لكن العلامات واضحة. عينا سالي المفتوحتان على اتساعهما في الشمس، وجلدها المتلألئ؛ وأما هو فقد بدا غير واثق كما لو أن جزءًا منه متردّدٌ في السماح للضوء بالدخول. كان يحبّها حبًّا عميقًا، مثلما أحبّته، لكن منح الحب وتلقيه كان لغة لا يعرف قواعدها. ولشدّة اقتناعه بأنه لم يكن مستحقًّا ذلك الحب، بدأ يشرب حتى صار رجلًا لا يستحق ذلك الحبّ فعلًا. وكما كان الأمر مع والده، ساعده البُعد في فهم ذلك كله. غالبًا ما يكون المرء قادرًا على فهم المعارف فهمًا أفضل عندما ينظر إليها من السماء.

لكن الوقت قد فات.

الآن، مرّت سنين كثيرة جدًّا، لكنه تساءل عن مكان سالي وعمّا تفعله. كان الشيء الوحيد الذي لديه هو معرفته بأنها لا بد أن تكون سعيدة في مكان ما. وأن انفصالهما قد أنقذها من حياتها معه. كان يعيش ويستمرّ على فكرة أنها بعيدة عنه، تحيا الحياة التي كانت تستحقّها دائمًا.

هذا ما يجعلك الشرب تخسره.

ولهذا لا يستحق الأمر أن تشرب.

وبطبيعة الحال، كان لدى ذلك الصوت ردٌ على هذا الكلام مثلما كان له ردٌ على كل شيء. إذا كان قد خسر بالفعل أروع ما مر به في حياته، فلماذا يعذّب نفسه هذا العذاب؟

وما أهمّية الأمر؟

نظر إلى الزجاجة. ثم أحسّ كما لو أن الصورة ترتعش وتصطدم بساقه.

بالنسبة إليك، فإن الأمر ينتهي بي دائمًا، أليس كذلك؟ ينتهي دائمًا من حيث بدأ.

عادت إليه كلمات كارتر بينما كان ينقّب في الأرض البور بشعاع مصباحه، ويسير بخطوات بطيئة حذرة متّجهًا إلى قلبها الغارق في الظلام. لم يكن هناك شيء يعادل الغثيان وترقّب السوء اللذَيْن في قلبه إلا إحساسه بالفشل... إحساسه بحتمية الفشل. بدت كلمات كارتر عارضة مرمية كيفما اتفق، في ذلك الوقت، لكنّه كان يجب أن يكون أكثر حكمة. ما من شيء عديم المعنى في كل ما يقوله كارتر أو يفعله. كان عليه أن يدرك تلك الرسالة الخفيّة التي كان مُرادًا لها ألا تُفهم إلا في ما بعد.

رأى الخيمة وأنوار المصابيح الكاشفة أمامه. ورأى أخيلة عناصر الشرطة يتحرّكون بحذر في المكان. اشتدّ إحساسه بالغثيان، وكاد يتعثّر. سر بخطوات حذرة. قبل شهرين من الآن، كان في هذا المكان يبحث عن طفل مفقود، وأما الآن فهو هنا لأن طفلًا صغيرًا قد عُثر عليه. تذكّر ما جرى في تلك الليلة من شهر تموز عندما ترك عشاءه يبرد على طاولة الطعام. وأما الليلة، فإن الزجاجة هناك. إذا وجد ما يتوقّعه هنا، فسوف يفتحها عندما يعود إلى البيت.

بلغ الخيمة وأطفأ ضوء مصباحه. لا حاجة إلى المصباح في وجود الأنوار الكاشفة القوية المحيطة بالخيمة. والواقع أن رؤية ما كان موضوعًا في الوسط ما كانت في حاجة إلى هذا الضوء كلّه. لم يكن مستعدًا لهذا بعد. أشاح بوجهه فرأى مديره لايونز واقفًا إلى جانب الخيمة. كان ينظر إليه بوجهٍ خالٍ من أيِّ تعبير. مرّت لحظة تخيّل فيها بيتْ أنه رأى في ذلك الوجه نظرة ازدراء كان عليك أن تمنع حدوث هذا -فأشاح بوجهه من جديد، أشاح بوجهه سريعًا فوقعت عينه على الشاشة المسطّحة لجهاز التلفزيون. مضت لحظة قبل أن يدرك أن أماندا واقفة إلى جانبه.

قال لها بيتْ: «هذا هو المكان الذي اختطف فيه».

«لسنا متأكدين من ذلك».

قال: «إنني واثق من هذا».

نظرت أماندا في الظّلمة. كانت شدّة الإنارة وكثافة الحركة أمامهما تجعلان الأرض الواسعة المحيطة بهما تبدو أكثر ظلمة.

قالت أماندا: «ينتهي الأمر دائمًا حيث يبدأ. أليس هذا ما قاله لك كارتر؟».

«صحيح. كان عليَّ أن أستفيد من هذا».

«أو... كان عليَّ أنا أن أستفيد من هذا. هذه ليست غلطتك».

«إذًا، فهي ليست غلطتك أيضًا».

ابتسمت ابتسامة حزينة: «ربما. لكنك تبدو أكثر مني حاجة إلى سماع ذلك».

لكنه كان قادرًا على رؤية أن هذا غير صحيح. لقد بدت له شاحبة، مريضة. فخلال الشهرين الماضيين، لاحظ ما أبدته أماندا من كفاءة وقدرة في عملها. لقد شك في أنها صاحبة طموح أيضًا... ظنّ أنها ترى في قضية من هذا النوع فرصة قد تساعدها في التقدّم في سيرتها المهنيّة من غير أن تفهم فهمًا كاملًا ما قد يكون لها من آثار أخرى. وأما الآن، فقد أحسّ بأن بينهما نوعًا غريبًا من الصّلة التي تربطهما. لقد تركه العثور على جثث الأولاد المقتولين في بيت كارتر محطّمًا فترة من الزمن. وكان يعرف أن أماندا قد عملت -وأمِلت- مثلما فعل قبل عشرين عامًا، وأنها تشعر الآن (مهما تكن طبيعة آمالها وتوقّعاتها) بأنها أشبه بجرح مفتوح.

لكن تلك الصّلة لم تكن من النوع الذي يمكن التعبير عنه بالكلام. عليك أن تمضي في طريقك وحدك. إما أن تجتازه، وإما لا.

أطلقت أماندا زفرة بطيئة.

قالت له: «كان الوغد يعرف. أليس كذلك؟». «صحيح».

«السؤال إذًا، كيف عرف؟».

«لست واثقًا من هذا بعد. فحتى الآن لم أصل إلى شيء من تلك الناحية. لكن، لا تزال لديّ قائمة طويلة من أصدقائه في السجن ممن يجب أن أتحرّى أمرهم».

أحسّ ترددها. قالت له: «هل تريد رؤية الجثة؟».

يمكنك أن تشرب عندما تعود إلى البيت.

سوف أدعك تفعل ذلك.

قال لها: «أجل».

دخلا الخيمة حيث كان جسد الصبي راقدًا، فاتحًا ساقيه وذراعيه، بالقرب من جهاز التلفزيون القديم. كانت حقيبته الظهرية موضوعة إلى جواره على الأرض. بذل بيتْ أقصى جهده لكي ينظر إلى التفاصيل بأقصى قدر من التجرّد من العواطف. الملابس: البنطلون الرياضي الأزرق؛ والقميص الأبيض ذو الكمّين القصيرين الذي كان مرفوعًا ليغطّي وجه الصبي بحيث صار الرسم الذي على صدره مرئيًا من الخلف.

قال: «لم نعلن هذا الأمر على الملأ أبدًا».

هذه صلة أخرى تربط القضية بكارتر.

«لا يوجد دم كثير»... نظر إلى ما حول الجثة... «أقل مما ينبغي على أية حال أقل مما ينبغي بالنسبة إلى هذه الإصابات. لقد قتل في مكان آخر».

«هذا ما يبدو».

«هذا اختلاف بين رجلنا الجديد وكارتر. لقد قتل كارتر أولئك الأطفال حيث وجدتهم، ثم احتفظ بهم في البيت. لم يحاول أبدًا أن يتخلّص من الجثث».

«باستثناء توني سميث».

«هذا متعلّق بالملابسات. ثم إن الجميع يعرفه»... أشار إلى ما حوله... «كائنًا من كان ذلك الذي فعل هذا، فمن الواضح أنه أراد أن نعثر على الجثة. ومن الواضح أنه أراد أن نعثر عليها في هذا المكان تحديدًا. حيث بدأ الأمر، تمامًا مثلما قال لي كارتر».

يمكنك أن تشرب عندما تعود إلى البيت.

«هذه هي الملابس التي كان يرتديها عند فقدانه. وبصرف النظر عن إصاباته، يبدو أنه كان يلقى عناية معقولة. لم يصبه هزال واضح».

قالت أماندًا: «هذا اختلاف آخر عن كارتر».

«صحيح».

أغمض بيت عينيه محاولًا التفكير في الأمر كلّه. لقد جرى احتجاز نيل سبنسر في مكان ما مدة شهرين قبل قتله، وقد لقي رعاية معقولة. ثم تغيّر شيء ما. وفي ما بعد، جرت إعادته إلى المكان الذي اختطف منه.

كأنّه هديّة... هكذا قال في نفسه.

كأنّه هديّة قدّمت إلى شخص ما، لكنه قرّر أنه لم يعد يريدها.

فتح عينيه: «حقيبته. هل زجاجة الماء فيها؟».

«نعم. سوف أريك إياها».

تبعها مقتربًا من الجثة فصار عند الصبي تمامًا. فتحت أماندا الحقيبة بيدها المرتدية قفازًا، فنظر بداخلها. رأى فيها زجاجة مملوءة بالماء إلى منتصفها. رأى فيها شيئًا آخر، أرنبًا أزرق اللون دمية من تلك التي يأخذها الأطفال معهم إلى السرير عند النوم. لم يرد ذكر هذا الأرنب في القائمة.

«هل كان هذا معه؟».

ردّت أماندا: «نحاول معرفة ذلك من أبويه. لكن، نعم. أظنّه كان معه، لكنهما لم يكونا على علم به».

بحركة بطيئة، أومأ لها بيت برأسه. صار الآن يعرف كل شيء عن نيل سبنسر. كان الصبي صاحب ميول تخريبية في المدرسة، وكان عدوانيًا. كان طفلًا أكبر من عمره، وأكثر صلابة، مثلما يحدث للناس عندما تسيء الحياة إليهم.

لكن، تحت تلك القشرة، كان لا يزال صبيًا عمره ست سنين.

أرغم نفسه على النظر إلى جثة الصبي من غير أن يلقي بالًا إلى المشاعر التي يثيرها ذلك أو إلى الذكريات التي يحرّكها. إن في وسعه أن يتناول شرابًا عندما يعود إلى البيت.

سوف نوقع بالشخص الذي فعل بك هذا.

وبعدها، استدار وسار مبتعدًا، وأضاء مصباحه الكاشف عندما صار في الظلمة خارج نطاق ضوء المصابيح.

نادته أماندا من خلفه: «أنا في حاجة إلى مساعدة منك في هذا الأمر، يا بيتْ».

أجابها: «أعرف»... لكنه كان يفكّر في الزجاجة التي تركها على طاولة الطعام في بيته، وكان يحاول ألا يجري إليها جريًا... «وسوف أساعدك».

20

وقف الرجل مرتعشًا في الظلمة.

ومن فوقه، كانت السماء الزرقاء الداكنة صافية مرصّعة بالنجوم. كان ذلك الليل في تضاد بارد حاد مع حر النهار الذي سبقه. لكن برودة الليل لم تكن سبب ارتجافه. فعلى الرغم من رفضه التفكير تفكيرًا مباشرًا في ما فعله بعد ظهر ذلك اليوم، فإن أثر أفعاله ظلّ يرافقه، غير مرئي، مدفونًا تحت جلده.

لم يقتل أحدًا قبل هذا اليوم.

قبل ذلك، كان يتخيّل أنه قادر على هذا الفعل؛ وكان الكره والغضب اللذان أحسّهما في تلك اللحظة قد مكّناه من القيام به. لكن ذلك تركه مضطربًا غير واثق من مشاعره. لقد ضحك في هذا المساء؛ وقد بكى أيضًا. هزّه الإحساس بالعار وبكره النفس، لكنه رقص في الحمام مبتهجًا بنفسه. كان ذلك شيئًا يستحيل وصفه. لكنه فهم أن هذا شيء منطقي. لقد فتح بابًا لا يمكن إغلاقه، وخاض تجربة لم يخضها، ولن يخوضها، إلا قلّة من الناس في العالم كله. فهذه الرحلة التي انطلق فيها رحلة لا يمكن الاستعداد لها، وليس لها كتاب إرشادي. ما من خريطة تبيّن مسارها. تركه الإقدام على القتل ضائعًا في بحر من المشاعر لا خرائط له.

صار الآن يستنشق هواء الليل البارد ببطء. لكن جسده لا يزال صاخبًا. كان المكان شديد الهدوء فلم يسمع فيه صوتًا غير حركة الهواء كما لو أن العالم نائم يتمتم بأسراره لنفسه. مصابيح الشارع في البعيد تشعّ متألّقة، لكنه شديد البعد عنها في هذا المكان؛ ثم إنه واقف من غير حركة بحيث يمكن أن يمر أحد على مسافة أمتار منه فلا يراه. إلا أنه سيرى من يمر أو سيشعر به، على الأقل. أحسّ بأنه متناغم مع العالم. وفي هذه اللحظة تحديدًا، في الساعات التي تسبق الفجر، كان واثقًا من أنه وحيد تمامًا في ذلك المكان.

ينتظر.

ينتظر مرتعشًا كلّه.

صار صعبًا عليه الآن أن يتذكّر كم كان غاضبًا بعد ظهر هذا اليوم. في ذلك الوقت، كان الغضب قد ابتلعه، واشتعل في صدره مضطرمًا، إلى أن صار جسده كلّه ينتفض بفعل قوّته كأنه دمية تحرّكها خيوط. كان ضوء يعمي الأبصار قد ملأ رأسه؛ ولعلّه صار غير قادر على تذكّر ما فعله، حتى إن حاول ذلك. أحسّ كما لو أنه قد خرج من نفسه برهة؛ وبفعله ذلك، سمح لشيء آخر بأن يظهر. لقد كان رجلًا متدينًا، وكان سهلًا عليه تخيّل أن قوة خارجية قد تملّكته

واستحوذت عليه. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ وكان يعرف أن ما استولى عليه في تلك الدقائق الرهيبة قد أتى من داخله.

لقد زال عنه الآن ما كان مستوليًا عليه أو لعلّه انسحب عائدًا إلى كهفه. وصار ما أحسّه صوابًا في ذلك الوقت يسبب له الآن ما هو أكثر بقليل من شعور بالذنب، وبالفشل. لقد وجد في نيل سنبسر طفلًا مسكينًا في حاجة إلى من ينقذه ويعتني به. وكان مقتنعًا بأنه سيفعل ذلك. كان يريد مساعدة نيل ورعايته. كان يريد إيواءه، والعناية به.

لم تكن لديه أبدًا أيّة نيّة في إيذائه.

وقد نجح الأمر. نجح شهرين كاملين. وكان الرجل يحسّ قدرًا كبيرًا من السلام. كان وجود الصّبي عنده، ورضاه الواضح بذلك، بلسمًا لنفسه وبقدر ما يستطيع التذكر، كانت تلك أو مرة يبدو له عالمه فيها، لا عالمًا ممكنًا فحسب، بل عالمًا صحيحًا أيضًا، كما لو أن عدوى استوطنت داخله من زمن بعيد قد بدأت تشفى الآن.

لكن، بالطبع، كان ذلك كلّه وهمًا.

كان نيل يكذب عليه طيلة الوقت... كان ينتظر فرصة، بل كان يتظاهر أيضًا بأنه سعيد. وأخيرًا، وجد الرجل نفسه مرغمًا على تقبّل أن بريق الطيبة الذي تخيّله في عيني الصبي لم يكن حقيقيًا على الإطلاق، بل لم يكن أكثر من خداع واحتيال. لقد كان شديد السذاجة منذ البداية، وكان شديد الثقة أيضًا. لكن نيل سبنسر لم يكن إلا حيّة ترتدي جلد صبيّ صغير. والحق أنه قد استحق تمامًا ما جرى له اليوم. كان قلب الرجل يخفق عنيفًا جدًّا.

هز رأسه، ثم أجبر نفسه على الهدوء قليلًا، وراح يتنفّس من جديد تنفّسًا منتظمًا ويبعد هذه الأفكار عن ذهنه. لقد كان ما حدث اليوم أمرًا مقيتًا. لكنه، وعلى الرغم من وجود المشاعر الأخرى كلّها، جلب إليه أيضًا إحساسًا غريبًا بالرضا والانسجام؛ وهذا ما كان شيئًا فظيعًا... شيئًا خاطئًا لا بد من مقاومته. عليه، بدلًا من ذلك، أن يتعلّق بالصفاء التي شهدته الأسابيع الماضية، وإن كان قد اتضح له أن ذلك الصفاء كان زائفًا. لقد أساء الاختيار؛ هذا كل ما في الأمر. كان نيل غلطة لن تتكرّر مرّة أخرى.

وسوف يكون الصّبي الصغير التالي ممتازًا.

21

كان الاستسلام للنوم أكثر صعوبة من ذي قبل.

لم أتمكّن من التوصل إلى حلٍّ أي شيء مع جيك بعد ما جرى بيننا اليوم. صحيح أنني استطعت أن أبرّر لنفسي ما كتبته لربيبكا، لكن من المستحيل جعل صبي في السابعة من عمره يفهم ذلك. ففي نظره لم تكن تلك إلّا كلمات تستهدف أمه. صار يرفض الإجابة على ما أقوله له؛ ولست أدري إن كان مصغيًا أصلًا.

وعندما جاء وقت النوم رفض أن أحكي له حكاية، فوقفت لحظة حائرًا غير قادر على فعل شيء، وكنت ممزّقًا بين القنوط وكره النفس والحاجة الشديدة إلى جعله يفهم الأمر. وفي نهاية المطاف، اكتفيت بأن طبعت قبلة خفيفة على رأسه من الخلف، وقلت له إني أحبه، ثم تمنّيت له ليلة طيبة آملًا أن يتحسّن الوضع في الصباح... وكأن الأمور يمكن أن تجد لها حلًا بهذه الطريقة! سيكون الغد يومًا جديدًا. لكن، ما من سبب يجعلني أظنّ أنه سيكون يومًا أفضل.

وفي وقت لاحق، استلقيت في غرفتي ورحت أتقلّب إلى هذا الجانب وذاك محاولًا أن أهدأ وأنام. لم أكن أطيق ذلك البعد المتزايد بيننا. وأسوأ من هذا، كانت حقيقة أنه ليست لدي أيّة فكرة عن كيفية منعه من التزايد، ناهيك عن أن يصير التباعد تقاربًا. كنت مستلقيًا في الظلام، وكنت أيضًا أتذكّر ذلك الصوت الأجشّ الذي اصطنعه جيك، وأرتجف كلّما تذكّرته.

أريد أن أخيفك.

الصبي الذي في الأرض!

على الرغم مما سبّبه لي ذلك كلّه من توتّر أعصاب، فقد كان رسمه تلك الفراشات هو ما يقلقني أكثر. كان باب المرأب مقفولًا. وما من طريقة تسمح لجيك بأن يدخل ذلك المكان من غير معرفتي. لكني نظرت إلى الصورة مرة بعد مرة فلم يعد هناك أي احتمال للخطأ. لقد رأى تلك الفراشات، على نحو ما. لكن كيف، وأين؟ كانت تلك مصادفة بالطبع؛ لا بد أن تكون مصادفة. لعلّ تلك الفراشات شائعة الوجود أكثر مما أعرف. ولا بدّ أن تلك التي في المرأب قد أتت من مكان ما حيث يكثر أمثالها. ومن الطبيعي أنني حاولت أن أتحدّث مع جيك في شأن تلك الفراشات أيضًا. من الطبيعي على نحوٍ مماثلٍ، أنه رفض الإجابة عن سؤالي. وهكذا، رحت أتقلّب محاولًا النوم، وأدركت أن سرَّ الفراشات قد وصل إلى النقطة نفسها التي بلغها الحديث بيننا. ليس أمامي شيء غير الأمل بأن تتحسّن الأمور في الصباح.

صوت تحطّم زجاج.

أمي تصرخ.

رجل يصيح.

استيقظ يا توم.

استيقظ الآن.

أحدٌ يهزّ قدمي.

استيقظت مجفلًا، غارقًا في العرق، ضربات قلبي عنيفة في صدري. كانت الغرفة هادئة، حالكة الظلمة لا نزال في منتصف الليل. كان جيك واقفًا أمام السرير، عند قدمي؛ كان شبحًا أسود في الظّلمة التي من خلفه. دعكت عينيَّ.

قلت بصوت منخفض: «جيك!».

لا إجابة.

لا إجابة! كنت غير قادر على رؤية وجهه إلا أن النصف العلوي من جسده كان يتحرّك بهدوء مائلًا من جانب لآخر. كان كأنه يترنّح في مكانه.

نظرت إليه عابسًا: «هل أنت مستيقظ؟».

ومن جديد، لا إجابة!

استويت جالسًا في السرير متسائلًا عن أفضل شيء يمكنني فعله الآن، إذا كان يسير في نومه، فهل أوقظه بلطف أم أحاول توجيهه وهو لا يزال نائمًا بحيث يعود إلى غرفته؟ لكنَّ عينيَّ لم تلبثا أن ألفتا الظلمة قليلًا وصار ذلك الشبح أكثر وضوحًا. لم يكن شعره مثل شعر جيك. إنه أطول كثيرًا مما يجب أن يكون. ثم إنه بدا لي مُزاحًا إلى جانب واحد.

و... سمعت أحدًا يهمس.

إلا أن شكل الإنسان الذي كان عند سريري ظلّ يتمايل ببطء من جانب لآخر وكان صامتًا تمامًا. كان الصوت الذي أسمعه آتيًا من مكان آخر في البيت.

نظرت إلى يساري. رأيت الممرّ المظلم عبر باب الغرفة المفتوح. كان خاليًا، لكنّي ظننت الهمس آتيًا من مكان ما في الممرّ.

«جيك...».

لكنّي نظرت من جديد فوجدت أن الشبح الواقف عند السرير قد اختفى وأن الغرفة قد صارت خالية.

دعكت عيني حتى أزيل النوم منهما، ثم زلقت نفسي عبر الناحية الباردة من السرير، وسرت بهدوء فخرجت إلى الممرّ. صار صوت الهمس هنا أعلى قليلًا. صحيح أنني لم أستطع فهم الكلمات، لكن من الواضح الآن أنني أسمع صوتين اثنين: حديث جارٍ بصوتٍ منخفضٍ بين شخصين اثنين، صوت أحدهما أكثر خشونة من الآخر بقدرٍ طفيفٍ. لقد كان جيك يتكلّم مع نفسه من جديد. تحرّكت غريزيًا في اتجاه غرفته، لكنّي ألقيت نظرة إلى أسفل السلم فتجمدت في مكاني.

كان ابني في أسفل السلم جالسًا عند باب البيت. ورأيت مساحة مثلّثة ضيّقة من ضوء مصباح الشارع، الداخل من جانب حافة الستارة في غرفة مكتبي. كان الضوء يبلغ جيك من جانب واحد فيصبغه بلون برتقالي. رأيت ساقيه مطويتين تحته ورأسه مستندًا إلى الباب وقد وضع إحدى يديه على إطاره، وفي اليد الأخرى رأيت رزمة المفاتيح الاحتياطيّة التي أضعها في درج مكتبي. كانت على فخذه.

أصغيت.

همس جيك: «أنا لست واثقًا».

أتت الإجابة بصوت أجش لم أسمع مثله من قبل: «سوف أعتني بك. أعدك بهذا».

«أنا لست واثقًا».

«دعني أدخل، يا جيك».

تحرّكت يد ابني على الباب متّجهة إلى فتحة الرسائل. انتبهت في تلك اللحظة إلى أنها كانت مفتوحة بفعل ضغط من الخارج. رأيت أصابع ممتدة منها. وثب قلبي عندما رأيت تلك الأصابع. أربعة أصابع نحيلة، شاحبة، ممتدة عبر ذلك الشق بحيث يظل غطاؤه مفتوحًا.

«دعني أدخل».

وضع جيك يده الصغيرة على واحد من تلك الأصابع، ثم انثنت أصابع يده كأنها تداعب ذلك الإصبع.

«دعني أدخل».

مد جيك يده إلى سلسلة الباب.

صرخت: «لا تتحرّك».

خرج صوتي من غير تفكير؛ كان آتيًا من قلبي مثلما هو آتٍ من فمي. انسحبت الأصابع على الفور، وأغلق غطاء الفتحة من خلفها. التفت جيك ورفع رأسه ناظرًا إليّ وأنا أهبط السلم سريعًا في اتّجاهه. كان قلبي يضرب كالمطرقة في صدري. صرت في الأسفل، انتزعت المفاتيح من يده.

في جلسته تلك، كان جيك يحول دون فتح الباب.

صرخت به: «تحرّك، تحرّك».

ابتعد من طريقي زاحفًا على يديه وركبتيه فدخل غرفة مكتبي. فتحت سلسلة الباب، ثم أدرت مقبضه فدار بسهولة كان جيك قد فتح قفل الباب اللعين. خرجت مسرعًا بعد أن فتحت الباب فصرت في الممر أمام البيت. نظرت من حولي في ظلمة الليل.

بقدر ما استطعت الرؤية، لم يكن هناك أحد في الشارع، لا من هذه الناحية، ولا من تلك. كان الألق المضيء تحت مصابيح الشارع ضبابيًا. وكان الرصيف خاليًا. لكنّي نظرت إلى الناحية الأخرى من الشارع، فظننت أنني استطعت رؤية شخص يجري مسرعًا عبر الحقل. شكل غير واضح... ساقان مسرعتان في الظلمة. لن أستطيع الإمساك به، فقد ابتعد كثيرًا.

بفعل الغريزة، سرت مسافة في ذلك الممر، لكنّي توقّفت في منتصفه. كانت أنفاسي مرئية في هواء الليل البارد. ما الذي أفعله هنا؟ لا أستطيع أن أترك البيت مفتوحًا لأذهب وأطارد شخصًا في الحقل. لا أستطيع أن أترك جيك وحيدًا هنا... وحيدًا، مهمَلًا.

وهكذا، بقيت واقفًا هناك بضع ثوانٍ أحدّق في ظلمة الحقل. كان الشخص قد اختفى الآن... إن كان هناك شخص أصلًا! بل... نعم، لقد كان موجودًا هنا بالفعل!

بقيت واقفًا بضع لحظات أخرى. ثم عدت فدخلت البيت، وأقفلت الباب، واتصلت بالشرطة.

الجزء الثالث

22

بعد عشر دقائق من اتصالي الهاتفي، وصل -والحق يقال- عنصرا شرطة إلى بيتي. وبعد ذلك، بدأت الأمور تسوء.

عليَّ أن أتحمّل نصيبي من المسؤولية في ما حدث. كانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف صباحًا؛ وكنت مرهقًا، خائفًا، غير قادر على التفكير الواضح. وعلى أية حال، فإن ما قلته لهما كان فقيرًا بالتفاصيل. لكنّي لم أجد طريقة لتفادي التطرّق إلى دور جيك في ما جرى.

عندما دخلت البيت لإجراء ذلك الاتصال الهاتفي، وجدت جيك جالسًا عند أسفل السلم وقد طوّق ساقيه بذراعيه ودفن وجهه بين ركبتيه. كنت قد هدأت -آخر الأمر- إلى حد يسمح لي بمحاولة تهدئته أيضًا؛ ثم حملته إلى الغرفة الأمامية حيث جلس متجمّعًا على نفسه على الناحية القصيّة من الأريكة. ثم رفض أن يكلّمني.

بذلت أقصى جهد استطعته لإخفاء الإحباط والذعر اللذين أحسستهما. وأظن أنني لم أنجح في ذلك.

ظلّ جيك جالسًا في الوضعية نفسها حتى بعد أن وصل عنصرا الشرطة وانضما إلينا في تلك الغرفة. جلست إلى جانبه بحركة غريبة خرقاء. حتى في تلك اللحظة، كنت مدركًا المسافة الفاصلة بيننا، وكنت واثقًا أنها شديدة الوضوح للشرطيين أيضًا. كان الشرطيان -رجل وامرأة- مهذبَيْن؛ وعبّر وجهاهما عن اهتمام وتفهّم كبيرين. إلا أن الشرطية ظلّت تلقي على جيك نظرات فضولية، فنشأ لدي انطباع بأن القلق البادي على وجهها لم يكن كلّه ناتجًا عمّا أقوله لهما.

وبعد ذلك، نظر الشرطي إلى الملاحظات التي دوّنها وقال لي: «هل سبق لجيك أن سار في نومه قبل الآن؟».

أجبته: «قليلًا. لكن ذلك لم يحدث مرّات كثيرة، ولم يسر إلا إلى غرفتي. لم ينزل إلى الطابق السفلي قبل الآن أبدًا».

هذا إذا كان قد سار في نومه الليلة! صحيح أنني سأكون أكثر ارتياحًا لو تأكّدت من أنه كان يتحرّك في نومه ولم يوشك على فتح الباب بإرادة واعية منه، لكني أدركت الآن أنني لست واثقًا من الأمر. ثم، يا إلهي، لو كان هذا صحيحًا، فهو يعني أن ابني قد صار يكرهني كثيرًا؟

سجّل الشرطي ملاحظة أخرى لديه.

«ألا تستطيع أن تصف لنا الشخص الذي رأيته؟».

«لا. كان قد ابتعد كثيرًا في الحقل عندما فتحت الباب؛ وكان يجري سريعًا. لم أستطع رؤيته جيّدًا بسبب الظلام».

«شكل جسمه. ملابسه؟».

هززت رأسي نفيًا: «لا. إنني آسف».

«هل أنت واثق أنه كان رجلًا؟».

«نعم. لقد كان الصوت الذي سمعته بالباب صوت رجل».

«لا أيمكن أن يكون الصوت صادرًا عن جيك؟».

نظر الشرطي إلى ابني وهو يقول ذلك.

كان جيك لا يزال متجمّعًا على نفسه بالقرب منّي ينظر في الفراغ كما لو أنه الشخص الوحيد في العالم كلّه.

«يتحدّث الأطفال مع أنفسهم أحيانًا».

لم يكن هذا أمرًا أحب الخوض فيه.

قلت له: «لا. لقد كان هناك شخص ما... بالتأكيد! رأيت أصابع رجل ممتدة عبر فتحة الرسائل. وسمعت صوته. كان صوت شخص كبير. وكان يحاول إقناع جيك بأن يفتح له الباب... وقد كان جيك موشكًا على فتحه أيضًا. الرب وحده يعرف ما كان يمكن أن يحدث لو أنني لم أستيقظ في تلك اللحظة».

لم تصدمني حقيقة الوضع إلا في تلك اللحظة. فقد رأيت المشهد من جديد، تصوّرته في ذهني، وأدركت كم كان الخطر داهمًا. لو أنني لم أكن هناك، لكان جيك الآن قد ضاع. تخيّلته مفقودًا. وتخيّلت هذين الشرطيين جالسين قبالتي، لكن لسبب مختلف عن سبب جلوسهما الآن. شعرت بالعجز. على الرغم من أن سلوك جيك قد أغضبني، فقد وددت في تلك اللحظة أن أطوّقه بذراعي لكي أحميه، ولكي أحتضنه وأجعله قريبًا مني. لكنّي كنت مدركًا أنني لا أستطيع فعل هذا. لن يسمح لي جيك بفعله... لم يكن يريد أن أفعل ذلك في تلك اللحظة.

«كيف حصل جيك على المفاتيح؟».

«تركت المفاتيح في غرفة مكتبي الواقعة إلى الناحية الأخرى من الممرّ». هززت رأسي... «لن أرتكب هذه الغلطة مرّة أخرى».

«قد يكون امتناعك عن ترك المفاتيح هناك تصرفًا حكيمًا».

انحنت الشرطية في اتجاه جيك، وابتسمت له ابتسامة لطيفة: «وماذا عنك يا جيك؟ هل تستطيع إخبارنا شيئًا عمّا حدث؟».

هز جيك رأسه نفيًا.

«ألا تستطيع ذلك؟ لماذا كنت جالسًا عند الباب، يا عزيزي؟».

رفع جيك كتفيه بحركة لا تكاد ترى، ثم بدا كما لو أنه ابتعد قليلًا عني. اعتدلت المرأة في جلستها وهي مستمرّة في النظر إلى جيك. كان رأسها مائلًا بعض الشيء. وكانت تنظر إليه نظرة متفحّصة.

قلت مسرعًا: «كان هناك رجل آخر. لقد أتى إلى البيت يوم أمس. كان يتجوّل عند المرأب ويتصرّف بطريقة غريبة. وعندما واجهته، قال إنه نشأ هنا ويحبّ أن يلقي نظرة على البيت».

بدا الاهتمام على الشرطي عندما سمع ذلك.

«كيف واجهته؟».

«لقد جاء إلى باب البيت».

«أوه، فهمت»... سجّل ملاحظة في دفتره... «هل تستطيع وصفه؟».

وصفت الرجل، فدوّن الشرطي مزيدًا من الملاحظات. لكن، كان واضحًا أن قيام ذلك الرجل بقرع جرس الباب قد جعل الأمر يبدو أقل أهمية في نظر الشرطي. ثم إنني وجدت صعوبة في نقل مقدار ما جعلني ذلك الرجل أحسّه من ضيق وانزعاج. لم يكن فيه شيء خطير من الناحية الجسدية، لكنه بدا لي خطيرًا، على مستوى ما.

تذكّرت فقلت: «نيل سبنسر».

توقّف الشرطي عن الكتابة: «عفوًا، ماذا قلت؟».

«أظنّ أن هذا اسمه. لقد انتقلنا إلى هذه القرية منذ فترة وجيزة. لكنّ صبيًا آخر قد اختفى، أليس هذا صحيحًا؟ اختفى في أول الصيف».

تبادل الشرطيان نظرة سريعة.

سألني الشرطي: «ماذا تعرف عن نيل سبنسر؟».

«لا شيء. لقد ذكرت معلمة جيك اسمه. اعتزمت أن أبحث عن قصته في الإنترنت، لكن الوقت كان... كانت ليلة حافلة». ومن جديد، لم أجد نفسي راغبًا في فتح موضوع الجدل الذي دار بيني وبين جيك... «كنت أعمل».

لكن -بالطبع- كان قول ذلك شيئًا غير صحيح أيضًا لأن عملي هو الكتابة، ولأن جيك قد قرأ ما كتبت. أحسست به ينكمش قليلًا إلى جانبي.

استولى عليَّ القنوط.

قلت: «في الواقع، أظنّ بأن اهتمامكما بما حدث يجب أن يكون أكبر مما يبدو لي».

«يا سيدي كينيدي...».

«يبدو الأمر كما لو أنكما لا تصدّقان كلامي».

ابتسم الرجل، لكنها كانت ابتسامة حذرة، محسوبة.

«ليست المسألة أننا لا نصدقك، يا سيد كينيدي، لكننا لا نستطيع العمل إلا على ما هو بين أيدينا»... نظر إليّ لحظة. كانت نظرة متفحّصة تشبه النظرة التي لا تزال شريكته تلقيها في اتجاه ابني... «إننا نأخذ كل شيء على محمل الجدّ، سوف نسجّل محضرًا بذلك. لكن، واستنادًا إلى ما قلته لنا، لا أجد أن لدينا الآن الكثير مما نستطيع فعله. وكما قلت لك قبل قليل، أنصحك بأن تحتفظ بمفاتيحك بعيدًا عن متناول الطفل. واحرص على أساسيات السلامة المنزلية. انتبه إلى ما يجري خارج البيت. ولا تتردّد في الاتصال بنا إذا رأيت أي شخص آخر يحوم في مكان لا ينبغي أن يكون فيه».

هززت رأسي. فبالنظر إلى ما حدث -بالنظر إلى أنّ أحدًا قد حاول أخذ ابني بدا لي أن استجابة الشرطة ليست مناسبة على الإطلاق. كنت غاضبًا من نفسي؛ ولم أستطع الامتناع عن الغضب على جيك أيضًا. كنت أحاول مساعدته! سينصرف الشرطيان بعد دقيقة من الآن، ولن يبقى هنا إلا أنا وهو. سنبقى وحدنا. وما من أحد منا مستعد لمهمة العيش مع الآخر. قالت الشرطية لي بصوت لطيف: «سيد كينيدي! هل تعيشان هنا وحدكما؟ أنت وجيك؟ هل تعيش أمّه في مكان آخر؟».

«أمّه ماتت». قلت هذه العبارة بطريقة شديدة الفجاجة، فقد أفلت مني شيء من الغضب الذي كنت أحسّه. بدا لي أن الشرطية قد فوجئت بطريقة كلامي.

«أوه، يؤسفني كثيرًا أن أسمع هذا».

«إنني، فقط... الأمر قاسٍ. وما حدث في هذه الليلة... لقد أخافني».

عاد جيك إلى الحياة في تلك اللحظة. لعل غضبه هو ما حرّكه. غضبه على ما كتبته، وغضبه نتيجة طريقتي الفجّة في قول إن أمه قد ماتت. تخلّى عن جلسته المنكمشة، وجلس منتصب القامة، ثم نظر إليَّ أخيرًا، لكن من غير أي تعبير في وجهه. وعندما تكلّم، كان صوته أجشَّ غريبًا، وبدا أكبر من سنه كثيرًا.

قال: «أريد أن أخيفك».

23

رن جرس الساعة المنبِّهة، لكن بيتْ ظلّ لحظة راقدًا من غير حراك، وترك الساعة ترنّ إلى جانب سريره. هناك شيء ليس على ما يرام؛ وعليه أن يستعد. ثم اجتاحته موجة ذعر عندما تذكّر حوادث الليلة الماضية. مشهد جثة نيل سبنسر في الأرض البور. ثم عودته إلى البيت بعد ذلك بسرعة تكاد تكون محمومة. والثقل المطمئِن للزجاجة بين يديه. ثم فتح قفل الزجاجة.

وأخيرًا، فتح عينيه. كانت شمس الصباح الباكر قوية، يتخلّل ضياؤها الستارة الزرقاء الخفيفة، وتسقط حزمة منه على أغطية السرير المتجمّعة فوق ركبتيه. لا بد أنه أحسّ بالحر في وقت ما من الليل، فدفع بالأغطية بعيدًا عن الجزء العلوي من جسده. أحسّ بثقل الغطاء غير المعقول فوق ساقيه؛ وأحس كما لو أنه ملتفٌ بإحكامٍ حول ركبتيه.

أدار رأسه ونظر إلى الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره. كانت الزجاجة عليها، وكان الختم منزوعًا عنها. لكن محتوى الزجاجة ظلّ كما هو. ظلّت ممتلئة إلى أعلاها.

تذكّرَ كم من الوقت بقي جالسًا في الليلة الماضية يتأمّل ويصارع ذلك الدافع الملحّ وهو يأتيه من هذه الزاوية مرة، ومن تلك الزاوية مرة أخرى؛ وكيف ظلّ كل منهما -هو والصوت- يرفض الاستسلام أو التراجع. بل إنه جلب الزجاجة والكأس إلى جانب سريره. كان الصراع لا يزال مستمرًّا حتى ذلك الوقت.

إلا أنه انتصر في نهاية المطاف. سرى فيه ارتياح غامر. ألقى نظرة إلى الكأس. قبل ذهابه إلى النوم، وضع صورة سالي فوق تلك الكأس. فبعد كل ما حدث -بعد أهوال ذلك المساء كلها- كانت تلك الصورة وتلك الذكريات كافية لإبقائه نظيفًا.

حاول الامتناع عن التفكير في اليوم الذي ينتظره، أو في الأمسيات التي ستأتي.

هذا يكفي الآن!

استحمّ، ثم تناول إفطاره. حتى من غير أن يشرب، أحسّ بأنه منهك إلى حد جعله يفكر في إلغاء الذهاب إلى الصالة الرياضية. كان أول الأعمال المقرّرة لذلك اليوم اجتماعًا سريعًا لوضعهم في صورة التطوّرات التي طرأت على القضية. وكان عليه أن يستعدّ لهذا، وأن تشغل تفاصيل القضية ذهنه كلّه. لكنّه -منذ الآن- يحسّ بنفسه متشبّعًا بها. صحيح أنه حاول التجرّد من مشاعره إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ عندما نظر إلى جثة نيل سبنسر، لكن ذلك كان أشبه بالتصوير باستخدام كاميرا من غير النظر عبر عدستها: يحتفظ ذهنك بالصّورة، على الرغم من ذلك. كيفما يكن الأمر الآن، فإن عليه أن يفرغ ذهنه من بعض تلك الأهوال إن أراد أن يكون قادرًا على العمل بكفاءة ومهنية بعد ساعتين من الآن.

وهكذا، فقد ذهب إلى صالة الرياضة.

صارت أعصابه أكثر هدوءًا بعد ذلك، فصعد إلى الطابق العلوي. عرّج على مكتبه حيث وقف لحظة ينظر إلى العمل المكتبي المكدّس، إلى تلك الأوراق المسالمة غير المؤذية. ثم تناول رزمة الأوراق المزعجة التي سجل فيها ملاحظاته لأنه سيكون في حاجة إليها، وتوجّه إلى غرفة العمليات في الطابق الذي فوقه.

تلاشى جزء من هدوئه عندما فتح باب تلك الغرفة. لا تزال عشر دقائق باقية حتى موعد الاجتماع، لكن الغرفة كانت مليئة بأفراد الشرطة. لم يسمع أحدًا يتكلّم. بدت له وجوههم جميعًا كئيبة. كان من الممكن أن يعمل أي رجل أو امرأة منهم على هذه القضية منذ بدايتها؛ ومهما تكن الاحتمالات، فإن كلًا منهم سوف يظلّ متمسّكًا بالأمل. وأما الآن، فقد عرفوا جميعًا ما تم العثور عليه الليلة الماضية.

قبل هذا اليوم، كان هناك طفلٌ مفقودٌ. وأما الآن، فإن لديهم طفلًا مقتولًا.

استند إلى جدار في آخر الغرفة منتبهًا إلى أن الأعين كانت متّجهة إليه عندما فعل ذلك. أمر مفهوم. فعلى الرغم من أن مساهمته الأوّلية في القضية لم تفضِ إلى أي شيء، فلا بد أنهم يعرفون جميعًا أن حضوره الآن ليس مصادفة. لمح المدير لايونز جالسًا في واحد من المقاعد الأمامية. كان ملتفتًا ينظر إليه. التقت عيونهما لحظة، وحاول بيتْ قراءة تعبير وجه الرجل. إلا أن وجهه كان خاليًا من التعبير، تمامًا كما كان الليلة الماضية في الأرض البور. وهذا ما ترك لبيتْ حرّية تخيّل ما يشاء تخيّله. هل يحسّ هذا الرجل الآن بنوعٍ غريبٍ من الانتصار؟ بدا لبيت أن التفكير في شيء كهذا أمرٌغير منصف؛ إلا أنه محتمل بالتأكيد. فعلى الرغم من التباين الكبير بين مسارَيْهما المهنيين منذ ذلك الوقت، كان بيتْ يعرف أن لايونز يمقته على مستوى ما... يمقته لأنه الشخص الذي تمكّن من الإيقاع بفرانك كارتر. لكن ما استجد في الليلة الماضية يعني أن القضية القديمة لم تغلق. وها هو لايونز الآن يترأس الاجتماع الذي قد يكون نهاية اللعبة، مما سيعني أن مكانة بيتْ ستتراجع كثيرًا.

طوى ذراعيه على صدره، وراح يحدّق في الأرض... منتظرًا.

كانت أماندا تسير متقدّمة إلى أول القاعة. كان واضحًا له، حتى من تلك اللمحة الجانبية السريعة أثناء سيرها، أنها مستعجلة، وأنها متعبة. لاحظ أنها لا تزال في ملابسها التي كانت ترتديها في الليلة الماضية. لعلها نامت في إحدى غرف النوم في مركز الشرطة، والأكثر احتمالًا أنها لم تنم على الإطلاق. عندما صعدت إلى المنصة الصغيرة، كان مظهر الانكسار والهزيمة واضحًا عليها.

قالت أماندا: «نعم... لقد سمعتم كلكم بما استجد لدينا. تلقّينا مساء أمس تقريرًا يبلغنا بالعثور على جثة طفل في منطقة الأرض البور بالقرب من غيرلين. حضر عناصر الشرطة وقاموا بتأمين المكان. لا نزال في انتظار تأكيد هوية الضحية، لكننا نعتقد بأن الطفل هو نيل سبنسر».

كان الجميع على علم بهذا كلّه من قبل، لكن بيتْ لاحظ حالة الهبوط التي سَرَت في الحاضرين جميعًا. كأن الحرارة الانفعالية في الصالة قد انخفضت. كان الصمت مطبقًا على عناصر الشرطة المجتمعين هنا، لكنه بدا الآن أثقل وطأة.

... «نعتقد أيضًا بأن هناك من قتله لأن في الجثة إصابات كبيرة».

كاد صوت أماندا ينقطع عند تلك النقطة، ورأى بيتْ وجهها يتقلّص قليلًا. إنها تقسو على نفسها أكثر مما ينبغي أن تفعل. في ظل ظروف مختلفة، من الممكن أن يعتبر هذا علامة ضعف. لكن بيتْ لم ير أن تلك الظروف موجودة في الصالة الآن. رآها تستجمع قواها من جديد.

... «لدينا تفاصيل من الواضح أننا لن نجعلها متاحة للصحافة في هذا الوقت. لقد طوّقنا المكان، لكن الصحافة تعرف أننا عثرنا على جثة. لن يعرفوا أكثر من هذا قبل أن نتمكّن من فهم ما يجري».

كانت امرأة واقفة عند الجدار تومئ برأسها... لنفسها. عرف بيتْ في هذه الحركة ردة الفعل التي كانت لديه عندما كان مدمنًا على الشراب، عندما كان يتوق إلى الشرب ويحاول إبعاد تلك الفكرة عن ذهنه.

... «جرى نقل الجثة من ذلك المكان، وسوف يتم تشريحها هذا الصباح. نقدّر أن الوفاة قد حدثت بين الثالثة والخامسة من بعد ظهر يوم أمس. وعلى افتراض أن الجثة لنيل سبنسر، فقد عثر عليه في المكان نفسه -تقريبًا الذي اختفى فيه؛ وهذا ما قد يكون أمرًا ذا دلالة. نعتقد أيضًا بأن نيل قتل في مكان آخر؛ وقد يكون ذلك حيث كان محتجزًا. نأمل أن يتمكّن تقرير الطب الشرعي من تزويدنا بما يساعدنا في معرفة مكان ارتكاب الجريمة. وفي انتظار التقرير، سوف نعيد مشاهدة تسجيلات كاميرات المراقبة في المنطقة. سنسأل المقيمين في الجوار. أقول هذا لأنني لن أقبل بأن يظلّ الوحش الذي فعل ذلك يتجوّل في القرية من غير أن نعرفه. لن أسمح بهذا».

رفعت رأسها. كان في عينيها الآن بريقٌ ناريٌّ على الرغم من التعب والإحباط الظاهرَيْن عليها.

«لقد كان كل شخص موجود في هذه القاعة مشاركًا في هذا التحقيق. ومهما استطعنا تمالك أنفسنا، والتحلّي بالقوة، فإن هذه ليست بالنتيجة التي كان يريدها أيٌّ منا. لذا، اسمحوا لي أن أكون واضحة تمامًا: لا يجوز أبدًا أن نتوقّف. هل نحن متفقون على هذا».

نظر بيتْ من حوله مرة أخرى. رأى بضعة رؤوس تحوم هنا وهناك. بدأت الحياة تعود إلى الصالة. كان معجبًا بهذه المشاعر، ومقرًّا بالحاجة إليها الآن. لكنّه تذكّر أيضًا كيف ألقى كلمة غاضبة مثل هذه قبل عشرين عامًا. كان يصدّق كلماته في ذلك الوقت، لكنه يعرف الآن أن الأمور لم تبقَ واقفة في مكانها فحسب -سواء أراد المرء ذلك أم لم يرده- بل إنها ظلّت على الدوام تلاحقه بعد ذلك.

قالت أماندا: «فعلنا كل ما نستطيع فعله. لم نعثر على نيل سبنسر في الوقت المناسب. لكننا مصمِّمون على العثور على الشخص الذي فعل هذا به».

كان بيتْ يرى أنها مؤمنة بما تقوله بتلك العاطفة كلّها التي تشبه عاطفة كانت لديه قبل سنين كثيرة مضت. لكنَّ هذا أمر لا بد منه. يحدث أمر فظيع أثناء مناوبتك، ولا تكون لديك وسيلة لتخفيف الألم غير أن تفعل كل ما تستطيع فعله لكي تضع الأمور في نصابها. عليك أن تمسك بمن فعل ذلك قبل أن يؤذي شخصًا آخر، أو على الأقل، أن تبذل كل ما تستطيعه من جهد من أجل الإمساك به.

... سوف نمسك بالشخص الذي فعل هذا!

ان يأمل أن يحدث ذلك حقًا.

24

أمر مدهش كيف تكون الحياة قادرة على العودة إلى مجراها المعتاد عندما ينبغي عليها فعل ذلك!

قرّرت بعد ذهاب الشرطيين أن لا معنى لأن يحاول أي منا العودة إلى النوم من جديد. ونتيجة ذلك، لم تبلغ الساعة الثامنة والنصف صباحًا إلا وأنا في غاية الإرهاق. بدأت أحضّر له فطوره وأشياءه حتى يصير جاهزًا للذهاب إلى المدرسة. بعد ما حدث، بدا لي هذا أمرًا سخيفًا؛ لكني لم أجد سببًا يجعلني أبقيه في البيت. والحقيقة أن جزءًا فظيعًا مني كان راغبًا، بعد سلوك جيك أمام الشرطيين في وقت سابق، في ألا أكون على مقربة منه الآن.

جلس يتناول حبوب الإفطار وهو لا يزال رافضًا الكلام معي. وقفت في المطبخ، وسكبت لنفسي كوب ماء ثم شربته دفعة واحدة. في الحقيقة، لم أكن أعرف ما ينبغي عليَّ فعله، وكيف ينبغي أن يكون إحساسي. فبعد مرور بضع ساعات على ما جرى، بدت لي حوادث تلك الليلة بعيدة، غير واقعية. فهل أنا واثق مما رأيته؟ لعلّ ذلك كان خيالًا! لكن لا، لقد رأيت ذلك. لو كنت أبًا أفضل -أو حتى لو كنت أبًا عاديًا لتمكّنت من إقناع الشرطة بأن يأخذوا كلامي على محمل الجد. لو كنت أبًا أفضل لكان لي ابن يكلّمني، ولا يقوّض عزيمتي... لكان لي ابن قادر على رؤية أنني خائف عليه، وأنني أحاول حمايته.

اشتدّت قبضة يدي على الكأس.

صوت ريبيكا في رأسي.

أنت لست مثل أبيك، يا توم.

لا تنسَ هذا أبدًا!

نظرت إلى الكأس في يدي. كان ضغط قبضتي على الكأس شديدًا. عاودتني تلك الذكرى البشعة -صوت تحطّم الزجاج؛ وأمي تصرخ- فوضعت الكأس سريعًا قبل أن تنهار مقاومتي بشكل أسوأ كثيرًا.

التاسعة إلا ربعًا. سرت مع جيك في اتجاه المدرسة. كان يمشي إلى جانبي، لكنه لا يزال ممتنعًا عن الكلام معي. لم يكلّمني إلا عندما بلغنا بوابة المدرسة.

«من هو نيل سبنسر، يا بابا؟».

«لست أدري»... على الرغم من موضوع كلامه، فقد ارتحت لأنه كلّمني آخر الأمر... «إنه ولدٌ من فيذربانك. أظنّه فُقد في وقت سابق من هذه السنة. أتذكّر أنني قرأت شيئًا عنه. لا يعرف أحد ما جرى له».

«يقول أوين إنه مات».

«يبدو لي أن أوين ولد صغير جذّاب».

كان واضحًا أن جيك يفكّر في إضافة شيء آخر في ما قاله، لكنه غيّر رأيه.

«قال لي إنني أجلس في مقعد نيل».

«هذا سخف. أنت لم تحصل على مقعد في هذه المدرسة بسبب فقدان نيل. لقد انتقل شخص آخر كان يعيش هنا»... تجهّم وجهي... «وعلى أية حال، فقد كانوا في غرفة صف أخرى في السنة الماضية، أليس هذا صحيحًا؟».

نظر إليّ جيك نظرة غريبة وقال لي: «ثمانية وعشرون».

«ثمانية وعشرون ماذا؟».

قال: «ثمانية وعشرون طفلًا، وفوقهم أنا، صار العدد تسعة وعشرين».

«بالضبط». لم تكن لدي أية فكرة عمّا إذا كان ما يقوله صحيحًا، لكني سايرته... «إن لديهم صفوفًا تتسع لثلاثين طفلًا، مهما يكن من أمر نيل، فإن مقعده لا يزال موجودًا».

قال جيك: «أتظنّه سيعود؟».

دخلنا باحة المدرسة.

«لست أدري يا صاحبي».

«هل أستطيع أن أعانقك، يا بابا؟».

نظرت إليه. رأيت في تعبير وجهه الآن أن ما حدث الليلة الماضية وهذا الصباح قد زال عنه كأنّه لم يحدث أبدًا. ثم إنه في السابعة من عمره فحسب! كانت خلافاتنا تنتهي دائمًا في الوقت الذي يحدّده هو، وبشروطه هو. كما أنني كنت في هذه اللحظة مرهقًا فلم أستطع إلا قبول طلبه.

«بكلّ تأكيد».

«لأننا... حتى عندما نختلف...».

«... يظلّ كل منا يحبّ الآخر. يظلّ كلّ منا يحبّ الآخر كثيرًا».

ركعت أمامه فأحسست كأن تلك المعانقة القوية قد أعادت لي شيئًا من العزم. في أكثر الأحيان، يكون عناق مثل هذا هو ما يجعلني قادرًا على الاستمرار. وبعد ذلك، سار فتجاوز السيدة شيلي من غير أن يلتفت في اتجاهي. عدت خارجًا من بوابة المدرسة آملًا ألا تكون لديه متاعب أخرى هذا اليوم.

لكن، إن كانت لديه متاعب...

حسنًا، لقد كانت لديه متاعب.

دعه على طبيعته!

«مرحبًا».

استدرت فوجدت كارين على مسافة قريبة خلفي. كانت تسير مسرعة لكي تصل إلى المدرسة قبل قرع الجرس.

قلت لها: «مرحبًا. كيف حالك؟».

«في شوق إلى بضع ساعات من الهدوء والسلام».

تباطأت خطواتها عندما صارت إلى جانبي: «كيف كان جيك يوم أمس؟».

أجبتها: «لقد انتقل اسمه إلى المساحة الصفراء».

«لا أعرف معنى هذا».

شرحت لها نظام إشارة السير الضوئية. بدت لي جديّة الأمر، وكذلك خطورته المفترضة، أمرًا لا معنى له بعد حوادث الليلة الفائتة، فكدت أضحك في نهاية كلامي.

قالت لي: «يبدو لي هذا شيئًا كريهًا جدًا».

«هذا ما أظنّه أيضًا».

تساءلت في نفسي عمّا إذا كانت هناك لحظة يقرّر فيها أهالي الأطفال الذين يلتقون في باحة المدرسة التخلّي عن سوية ما من التظاهر بالوقار والتهذيب، فيتكلّمون مثل بقية الناس العاديين. إن كانت هناك لحظة من هذا النوع، فأنا مسرور لأنني تجاوزتها.

قالت: «على الرغم من هذا، فمن الممكن اعتبار هذا الشيء وسام شرف. سوف يكون موضع حسد رفاقه. قال لي آدم إنه لم تسنح له فرصة لكي يلعب معه».

قلت كاذبًا: «قال لي جيك إن آدم ولد لطيف».

«وقال آدم أيضًا إن جيك كان يتحدّث مع نفسه قليلًا».

«صحيح. إنه يفعل هذا أحيانًا. أصدقاء متخيلون».

قالت كارين: «نعم. إنني متعاطفة معه تمامًا. بعض أفضل أصدقائي متخيّلون أيضًا. إنني أمزح، بالطبع! لكن آدم مرّ بهذا الأمر أيضًا. وأنا واثقة أيضًا من أنني مررت به عندما كنت طفلة. لعلك كنت تفعل ذلك أيضًا».

عبست قليلًا. وعلى نحو مفاجئ، عادت لي ذكرى قديمة.

قلت لها: «مستر نايت».

«ماذا؟».

«يا إلهي، لم أفكر في هذا منذ سنين...». مرّرت أصابعي في شعري، كيف نسيت هذا؟... «نعم، لقد كان لي أشخاص متخيّلون. عندما كنت صغيرًا، كنت أقول لأمي إن هناك شخصًا يأتي إلى غرفتي في الليل ويعانقني. اسمه مستر نايت. هكذا كنت أسميه».

«نعم... هذا مخيف تمامًا. لكن الأطفال يقولون أشياء مخيفة طيلة الوقت. وهناك مواقع إنترنت بأسرها مكرّسة لهذا الأمر. عليك أن تكتب قصتك وتضعها على الإنترنت».

«قد أفعل». لكن هذا ذكّرني بشيء آخر... «في الآونة الأخيرة، كان جيك يقول أشياء غريبة أخرى: إذا تركت الباب نصف مفتوح، فسرعان ما ستسمع صوت الهمس! هل سمعتِ هذا الشيء من قبل؟».

فكّرت كارين في الأمر قليلًا: «هممم. كأنه يذكّرني بشيء. لا بد أنني سمعت هذا في مكان ما. أظنه واحدة من الأغاني التي يغنّيها الأطفال عندما يلعبون معًا».

«ممكن. لعله سمعها في باحة المدرسة».

لكنه لم يسمعها في باحة هذه المدرسة، لأن جيك قال هذه العبارة في الليلة التي سبقت يومه الأول في مدرسته الجديدة. لعلها شيء مما كان يغنّيه الأطفال، لكني لم أسمع به أو لعلّه شيء من تلك البرامج التلفزيونية التي أضعها من أجله ثم أنصرف إلى شؤوني ولا أهتم بمتابعتها.

تنهّدت وقلت: «آمل أن يكون يومه حسنًا. إنني أقلق عليه».

«هذا شيء طبيعي. ما رأي زوجتك؟».

قلت لها: «لقد ماتت السنة الماضية. لست واثقًا من مدى تقبّله هذا الأمر وتلاؤمه معه. أظنّ بأن قلقي أمر مفهوم».

ظلّت كارين صامتة لحظة، ثم قالت: «يؤسفني جدًّا سماع هذا».

«أشكرك. ولست واثقًا من مدى تلاؤمي، أنا أيضًا... هذه هي الحقيقة. لا أعرف أبدًا إن كنت أبًا جيّدًا أم لا. ولا أعرف إن كنت أفعل من أجله كل ما أستطيع فعله».

«هذا أمر طبيعي أيضًا. أنا واثقة من أنك تفعل كل ما تستطيع فعله».

«ولعلّ السؤال الحقيقي هو ما إذا كان كلّ ما أستطيع فعله كافيًا؟».

«من جديد، أقول لك إنني واثقة من أنه كافٍ».

توقّفتْ عن السير ووضعت يديها في جيبيها. وصلنا إلى مفترق طرق. كان واضحًا من حركة جسدينا أنها ستواصل السير إلى الأمام في حين أنعطف يمينًا.

قالت: «على أية حال، يبدو لي أن هذا الأمر جعل كلًّا منكما يمرّ بوقت عصيب. ولهذا، فإنني أظن -أعرف أنك لم تطلب سماع رأيي، لكن، إلى الجحيم بهذا- أظن أن عليك ألا تكون قاسيًا على نفسك إلى هذا الحد».

«ربما».

«ربما تستطيع التخفيف قليلًا، على الأقلّ».

«ربما».

«أعرف أن قول هذا أسهل من فعله»... تجمّعت على نفسها فصار جسدها كلّه كما لو أنه يتنهّد... «على أية حال... أراك في وقت لاحق. أتمنّى لك يومًا طيبًا».

«ولك أيضًا».

واصلتُ التفكير في ذلك طيلة ما بقي من مسافة الطريق إلى البيت. ربما يجب ألا أكون قاسيًا على نفسي إلى هذا الحد! لعل في هذا شيء من الحقيقة، فأنا أسير في الحياة متعثّرًا مثلما يتعثّر أي شخص غيري، أليس كذلك؟ أحاول أن أبذل قصارى جهدي. لكنّي عدت إلى البيت، ورحت أتجوّل في الطابق السفلي غير عارف ما أفعله بنفسي. قبل هذه اللحظة، كنت أظنّ بأن تمكّني من البقاء من غير جيك، بعض الوقت، سيكون أمرًا حسنًا. أما الآن، في هذا البيت الخالي الصامت من حولي، فقد أحسست برغبة كبيرة في أن يكون قريبًا مني إلى أقصى حدٍّ ممكن.

لأنني أريد أن أحميه.

لم أكن قد تخيّلت ذلك الذي حدث في الليل.

جلب لي ذلك لحظة ذعر. إذا كانت الشرطة لا تريد مساعدتنا، فهذا يعني أن أقوم بالمهمّة. سرت في الغرف الفارغة، فأحسست بنوع من القنوط أحسست بحاجة لأن أفعل شيئًا ما على الرغم من أنه لم تكن لدي أية فكرة عما يتعيّن فعله. انتهى بي الأمر في غرفة المكتب. لقد تركت

اللابتوب مفتوحًا طيلة الليل. لمسته فدبت الحياة في الشاشة من جديد وظهرت الكلمات التي عليها.

ريبيكا...

لو كانت هنا لعرفت على الفور كيف تتصرّف؛ كانت تعرف ذلك دائمًا. تخيّلتها جالسة متربّعة على الأرض مع جيك يلعبان متحمّسَين بأيّة ألعاب قد تكون بينهما. تخيّلتها جالسة على الأريكة القديمة، تقرأ له، وقد وضع رأسه تحت ذقنها فصار جسداهما قريبين إلى حد يبدوان معه كأنهما شخص واحد. كلّما نادى في الليل، تكون ريبيكا هي من ينهض أولًا فتسير في اتجاهه، بينما لا أزال أحاول الاستيقاظ من النوم. كانت أمّه هي من يناديه دائمًا.

حذفت الكلمات التي كتبتها بالأمس، وكتبت بدلًا منها ثلاث جمل.

اشتقت إليك.

أحس كما لو أنني أخذل ابننا؛ ولا أعرف ما ينبغي فعله.

إنني آسف!

حدّقت في الشاشة لحظة.

يكفي هذا.

كفاني تخبطًا. بقدر ما قد يكون الأمر صعبًا، فإن مهمتي أن أعتني بابني. وإذا كان أفضل ما أستطيعه غير كافٍ له، فهذا يعني أن عليَّ أن أتحسّن.

عدت إلى باب البيت. كان له قفل وسلسلة. لكن ذلك لم يبد لي جيدًا إلى الحد الكافي. سأضع قفلًا كبيرًا أيضًا؛ وسأجعله عاليًا بحيث لا يستطيع جيك الوصول إليه وحده. سأضع حسّاسات للحركة عند أسفل السلم. هذا كله ممكن. لكنَّ أيًّا من هذا كلّه لن يكون عقبة يستحيل اجتيازها! هكذا قالت لي هواجسي.

لكنْ، هناك شيء آخر أستطيع فعله قبل ذلك. حوّلت انتباهي إلى كومة الرسائل على درجات السلم من خلفي. كانت هناك رسالتان إضافيتان موجهتان إلى دومينيك بارنيت، كلتاهما من إشعارات شركة تحصيل الديون. أخذت الرسالتين إلى مكتبي، ثم أغلقت برنامج الوورد في لابتوبي وفتحت متصفح الإنترنت.

فلنر من أنت، يا دومينيك بارنيت.

لم أكن أعرف ما كنت أتوقّع اكتشافه عنه من خلال الإنترنت. ربما صفحة فيسبوك -شيء فيه صورة يمكن أن أعرف منها إن كان هو نفسه الرجل الذي كان عند البيت يوم أمس- وإن لم أجد

صفحة فيسبوك، فقد أجد عنوانًا ما أستطيع تتبّعه في العالم الحقيقي. أي شيء يمكن أن يساعدني في حماية جيك وفهم ما يجري في بيتي.

وجدت صورة للرجل منذ أول محاولة بحث. لم يكن دومينيك بارنيت هو زائري الغامض. لقد كان أصغر سنًا وعلى رأسه شعر أسود طويل. لكن الصورة لم تكن في واحد من مواقع التواصل الاجتماعي.

لقد كانت موضوعة إلى جانب مادة إخبارية ظهرت لي في أعلى صفحة نتائج البحث:

الشرطة تتعامل مع موت رجل مقيم في المنطقة على أنه جريمة قتل.

أحسست بالغرفة تنكمش من حولي. واصلت التحديق في تلك الكلمات إلى أن بدأت تفقد معناها. صمتَ البيت كلّه، ولم أعد قادرًا على سماع شيء غير صوت ضربات قلبي.

وعند ذلك...

طقطقة.

نظرت إلى السقف، إنه ذلك الصوت من جديد، مثلما سمعته من قبل، كما لو أن أحدًا قد سار خطوة واحدة في غرفة جيك. تنمّل جلدي عندما تذكّرت ما حدث في الليل الشخص الذي تخيلته واقفًا عند قدمي سريري، شعره المزاح جانبًا مثل شعر تلك الفتاة الصغيرة التي رسمها جيك. أحسست بقدميَّ ترتعشان.

استيقظ، يا توم.

لكن ذلك كان من صنع مخيّلتي بعكس الرجل الذي رأيته عند الباب. ففي نهاية المطاف، كنت وقتها نصف نائم. لم يكن ذلك إلا أثرًا باقيًا من كابوس من الماضي أعادت أحزان الحاضر تشكيله.

لم يكن في بيتي أي شيء. قرّرت أن أبعد ذهني عن ذلك الصوت، وأرغمت نفسي على فتح تلك المقالة:

الشرطة تتعامل مع موت رجل مقيم في المنطقة على أنه جريمة قتل

كشفت الشرطة عن أنها تنظر إلى موت دومينيك بارنيت، الذي عثر على جثته في الغابة يوم الثلاثاء، باعتباره جريمة قتل.

كان بارنيت البالغ من العمر اثنين وأربعين عامًا يعيش في شارع غارهولت في فيذربانك. وقد تمّ العثور على جثته عند ضفة جدول في هولينغبيغ وود. اكتشفها أطفال كانوا يلعبون عند هولينبيك. وقد كشف مدير الشرطة لايونز للصحافة اليوم عن أن بارنيت مات نتيجة إصابات

«كبيرة» في الرأس. جرى تحرّي عددٍ من الدوافع المحتملة لمهاجمته، لكن الأشياء التي اكتشفت في مسرح الجريمة توحي بأن السرقة لم تكن من بين تلك الدوافع.

قال لايونز: «أود اغتنام هذه الفرصة لطمأنة الناس جميعًا. لقد كان السيد بارنيت معروفًا لدى الشرطة. ونظنّ بأن هذه الحادثة معزولة. لكننا عزّزنا الدوريات في المنطقة، كما أننا نشجّع كلّ من لديه معلومات عن الأمر على تقديم شهادته على الفور».

قرأت المقالة من جديد وقد تكثّف الذعر في داخلي. كان واضحًا من عنوانها أن ما من شك في أن هذا هو دومينيك بارنيت الذي أبحث عنه. لقد عاش في هذا البيت، ولعله كان يجلس في هذا المكان تمامًا، أو ينام في الغرفة التي صارت غرفة جيك. لقد قتل في شهر نيسان من هذا العام.

حاولت المحافظة على هدوئي، ونقرت لكي أعود إلى صفحة البحث وأفتش عن مقالات أخرى. ظهرت لي المعلومات نفسها، لكن على أجزاء متفرّقة. وكان ممكنًا استنتاج قسم كبير منها من خلال قراءة ما بين السطور. كان السيد بارنيت معروفًا لدى عناصر الشرطة. صياغة حذرة، لكن معناها بدا لي كما لو أنه كان متورّطًا -على نحو ما- في شيء متعلّق بالمخدرات؛ وظننت أن من الممكن أن يكون ذلك سببًا مفترَضًا وراء الدافع في قتله. إن هولينغبيك واقعة إلى الجنوب من فيذربانك، إلى الناحية الأخرى من النهر. ولم يكن واضحًا سبب وجود بارنيت في ذلك المكان. تم اكتشاف سلاح الجريمة بعد أسبوع من ذلك، ولم تلبث الأخبار أن توقّفت بعدها بفترة وجيزة. مما استطعت العثور عليه في الإنترنت، فهمت أن الشرطة لم تستطع العثور على قاتله.

هذا يعني أنه لا يزال طليقًا هنا.

جعلني إدراك هذه الفكرة أُحسُّ إحساسًا غريبًا يجتاحني من جديد. لم أعرف ما ينبغي علي فعله. هل أتصل بالشرطة من جديد؟ لم يبد لي أن ما اكتشفته الآن يضيف الكثير على ما أخبرتهم به من قبل. قرّرت أن أتّصل بهم، لأن يجب أن أفعل شيئًا. لكنّي في حاجة، إلى مزيد من المعلومات قبل ذلك.

بعد شيء من التفكير، وبيدين مرتعشتين، فتّشت في الأوراق التي احتفظت بها عند شراء البيت، فعثرت على العنوان الذي أردته، ثم أخذت مفاتيحي. سيكون على تدابير الأمان الإضافية أن تنتظر بعض الوقت. هناك شخص واحد سيكون قادرًا على إخباري بالمزيد عن دومينيك بارنيت. رأيت أنه قد حان الوقت للحديث مع تلك المرأة.

25

قالت أماندا في نفسها: ينتهي الأمر دائمًا حيث بدأ. كانت تنظر إلى المواد التي سجّلتها الكاميرات الموجودة حول منطقة الأرض البور فلم تستطع منع نفسها من التفكير في أنها كانت تتفحّص صور هذه الشوارع نفسها، قبل شهرين من الآن. في ذلك الوقت، كانت تتفحّصها أملًا في التمكن من رؤية أحد يختطف نيل سبنسر. وأما الآن، فهي تفتّش علّها تجد صورة شخص يعيد جثة الصبي إلى ذلك المكان. لكن النتيجة ظلّت نفسها، حتى الآن... لا شيء!

قالت في نفسها: الأيام الأولى... لكن الفكرة كانت مثل رماد في ذهنها! لقد تأخّر الوقت كثيرًا جدًّا، بالنسبة إلى نيل سبنسر نفسه، على الأقل. ظلّ ذهنها يعود إلى مشهد جثته على الرغم من أن العودة إلى المشهد المهول الذي رأته الليلة الماضية -وإلى فشلها في العثور على نيل قبل مقتله- لم تكن مفيدةً في أي شيء. ما كان عليها فعله بدلًا من ذلك هو التركيز على عملها الحالي. خطوة بعد أخرى. جزء من المعلومات بعد جزء. تلك هي الطريقة التي يمكن، في آخر المطاف، أن توقع بالوغد الذي فعل هذه الأشياء بالصبي الصغير.

فكرة خاطفة أخرى.

هزت رأسها، ثم نظرت إلى آخر الغرفة حيث كان بيت ويليس يعمل صامتًا على الطاولة التي خُصِّصت له. بعد أن سنحت لها فرصة الجلوس، وجدت نفسها تنظر إليه خفية، باستمرار. كان يرفع سماعة الهاتف من حين لآخر، ثم يجري مكالمة. وأما بقية الوقت، فكان انتباهه كله مركزًا على الصور والأوراق. هناك شيء يعرفه فرانك كارتر. كان بيتْ يدقّق في الزيارات التي تلقاها أصدقاء كارتر ومعارفه السجناء، ويحاول استنتاج إن كان هناك احتمال لأن يكون أي واحد منهم مسؤولًا عن تزويد كارتر بمعلومات من العالم الواقع خارج السجن. لكن بيتْ نفسه هو من كان يسحر أماندا الآن.

كيف يستطيع أن يكون هادئًا هذا الهدوء كلّه؟

لكنّها كانت تعرف أنه يتألّم أيضًا... يتألّم تحت السطح. تذكّرت كيف كان يوم أمس بعد زيارة فرانك كارتر، وتذكّرت كيف كانت حاله في الأرض البور الليلة الماضية. إن كان يبدو الآن غارقًا في عمله، منفصلًا عن عواطفه، فهذا فقط لأنه يشغل نفسه عن تلك المشاعر، تمامًا مثلما كانت تحاول فعله. وإذا كان ينجح في ذلك، فهذا لأن لديه خبرة في فعله تفوق خبرتها كثيرًا.

ودّت أماندا لو تستطيع سؤاله عن السرِّ في ذلك.

لكنها أرغمت نفسها على التركيز من جديد على التسجيلات المصوّرة على الرغم من معرفتها في قرارة نفسها بأنها لن تسفر عن شيء، تمامًا مثلما حدث قبل شهرين من الآن، عندما عمل

فريقها على تحديد هوية كل شخص ظهر على أية كاميرا من الكاميرات المنصوبة في القرية. كان ذلك عملًا محبطًا. كلّما عملت أكثر، كلّما صار إحساسك بما تفعله أكثر سوءًا؛ لكنه عمل لا بد من إنجازه!

تابعت المضيّ عبر تلك الصور المشوّشة. صور ثابتة لرجال ونساء وأطفال. لا بد من مقابلة كل واحد منهم على الرغم من أنّ أيًّا منهم لم يرَ شيئًا ذا قيمة. لقد كان الرجل الذي كانوا يبحثون عنه أكثر حذرًا من أن يظهر هنا. وسيكون الأمر هو نفسه في ما يتعلّق بالسيارات أيضًا. كان التصميم الذي أظهرته خلال الاجتماع حقيقيًا، ولا يزال جزءٌ منها مصرًّا على ذلك الآن؛ لكنها أدركت في قرارة نفسها أن لكل منهم دورًا مهمًّا. الحقيقة أن ليس من الصعب أن يقود المرء سيارة من حول فيذربانك بحيث يتفادى كاميرات المراقبة كلّها. هذا إن كان يعرف ما يفعله!

سجلت تلك الملاحظة على الدفتر الصغير الموضوع جانبها.

معرفة مواقع كاميرات المراقبة!

لكنّها سجلت الملاحظة نفسها منذ شهرين. وها هي الآن أيضًا تسجّلها من جديد. التاريخ يعيد نفسه!

ينتهي الأمر دائمًا حيث بدأ.

ألقت بالقلم محبَطة، ثم نهضت وسارت إلى حيث كان بيت جالسًا. أغضبها أنه لم يلاحظ شيئًا مما فعلته. كانت الآلة الطابعة على طاولة مكتبه تُخرج سلسلة متواصلة من الصور: لقطات ثابتة من تسجيلات كاميرات المراقبة لزوار السجن. كان بيتْ ينظر في الصور وفي المعلومات على الشاشة، ويسجل ملاحظاته على ظهر كل صورة. كانت على مكتبه أيضًا نسخة مطبوعة من مقالة صحيفة قديمة. مالت أماندا برأسها حتى تقرأ العنوان.

قرأت: «آكل لحوم البشر من كوكستون يتزوّج في السجن».

أجفل بيت: «ماذا؟».

«مقالة الصحيفة»... قرأت العنوان من جديد... «لا يكفّ العالم عن مفاجأتي... بطرق مخيفة أكثر الأحيان».

«أوه. نعم»... أشار بيتْ إلى الصور التي كان يجمعها... «وهؤلاء هم زواره جميعًا. اسمه الحقيقي فكتور تايلر. اختطف بنتًا صغيرة منذ خمسة وعشرين عامًا. ألم يكن اسمها ميري فيشر؟»

قالت أماندا: «أتذكّرها».

كان بيتْ وأماندا متقاربَيْن في السن. وفي حين لم تستطع تخيّل صورة وجه تلك الفتاة، فقد ربط عقلها بسرعة بين اسمها والقصص المرعبة والصور المشوّشة في الصحف القديمة. خمسة

وعشرون عامًا. يصعب تصديق أن ذلك الزمن كلّه قد انقضى، ويصعب تصديق كيف يذوي الناس ويختفون في الماضي، ثم ينساهم العالم.

قالت أماندا: «لو ظلّت حية، فلعلها كانت متزوّجة الآن. لا يبدو هذا صائبًا، أليس كذلك؟».

«أنت محقّة». تناول بيتْ صورة أخرى خرجت من الطابعة ونظر إلى الشاشة نظرة سريعة... «تزوّج تايلر منذ خمسة عشر عامًا لويز ديكسون. أمر لا يصدق أنهما لا يزالان متزوجين. لم يمضيا ليلة واحدة معًا... بالطبع! لكنك تعرفين كيف يكون الأمر أحيانًا. إنه الألق الذي يمكن أن يحيط برجال من هذا النوع».

أومأت أماندا برأسها... كأنما لنفسها. أشخاص مجرمون... بل حتى أسوأ أنواع المجرمين... لا يشكون -أكثر الأحيان- قلّة مراسلاتهم مع العالم الخارجي. ففي نظر نوع بعينه من النساء، يكون أولئك الرجال جذابين، مثيرين للاهتمام. «هو لم يفعل ذلك»... إنهن يقنعن أنفسهنّ بهذا. أو يقلن لأنفسهنّ إنه قد تغيّر. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإنهن يعتبرن أنفسهنّ مخلصات لهم. ومن الممكن أيضًا أن تكون بعضهنّ ممن يعشقن الخطر. لم يكن لهذا كلّه أي معنى في نظرها؛ لكنه موجود في الواقع!

سجّل بيتْ شيئًا على ظهر الصورة، ثم وضعها جانبًا ومد يده ليتناول صورة أخرى.

قالت له: «وهل كارتر من أصدقاء هذا الرجل؟».

«كان كارتر شاهدًا على زواجه».

«حسنًا، لا بد أنها كانت حفلة زواج لطيفة! من الذي قام بتزويجهما... أهو الشيطان نفسه؟».

لكن بيتْ لم يجبها بشيء. وبدلًا من النظر إلى الشاشة، كان انتباهه كلّه منصبًا على الصورة الأخيرة التي تناولها. افترضت أماندا أنها صورة واحد آخر من زوار تايلر... لكن تلك الصورة استحوذت على انتباهه كلّه.

«من هذا؟».

«نورمان كولينز»... رفع بيتْ رأسه ونظر إليها... «إنني أعرفه».

«أخبرني عنه».

روى لها بيتْ الأشياء الأساسية. كان نورمان كولينز رجلًا من المنطقة جرى استجوابه في سياق تحقيق جرى منذ عشرين عامًا. لم نستجوبه بسبب وجود دليل ملموس ضده، بل بسبب غرابة تصرفاته. ومن الوصف الذي قدّمه بيتْ، بدا لها الرجل واحدًا من أولئك الأوغاد المفزعين الذين يفرضون أنفسهم فرضًا -بعض الأحيان- على التحرّيات التي تجريها الشرطة. يجري تدريب عناصر الشرطة على الانتباه إلى أولئك الأشخاص... الأشخاص الذين يتسكّعون بالقرب من

الجنازات ومن المؤتمرات الصحافية. والأشخاص الذين يبدون كما لو أنّهم يسترقون السمع، أو يكثرون من طرح الأسئلة إلى حد يثير الريبة. إنهم الأشخاص الذين يبدو عليهم اهتمام شديد، أو يتصرّفون بطريقة غريبة. صحيح أن الواحد من أولئك الناس يمكن أن يكون شخصًا مريضًا أو صاحب سلوك مزعج، لا أكثر، إلا أن القتلة أيضًا يتصرّفون أحيانًا على هذا النحو.

من الواضح أن كولينز لم يكن كذلك.

قال بيتْ: «لم يكن لدينا شيء ضدّه. في حقيقة الأمر، لم يكن لدينا أي شيء على الإطلاق. ففي كلّ حالة من حالات الخطف، كان عنده دليل قوي لإثبات مكان وجوده. ثم إن ما من صلة تربطه بالأطفال أو بعائلاتهم. لا شائبة عليه على الإطلاق. وفي آخر المطاف، لم يكن أكثر من شخص ورد ذكره في القضية على نحو هامشي».

«لكنك تتذكّره».

حدّق بيتْ في الصورة من جديد. ثم قال: «لم يعجبني أبدًا».

من المرجّح أن هذا أمر لا أهمّية له! لم تكن أماندا راغبة في بناء آمال كاذبة إضافية. ولكن، عندما يكون على المرء أن يلتزم بالعقلانية وبمنهج عمل صحيح، فإنّ للحدس مكانه أيضًا. وإذا كان بيت لا يزال يتذكّر هذا الرجل، فلا بد أن هناك شيئًا خلف ذلك.

قالت له: «وها هو الآن يظهر من جديد. هل لدينا عنوانه؟».

نقر بيتْ على لوحة المفاتيح: «إنه لا يزال يعيش في البيت نفسه».

«لا بأس. اذهب وتحدّث معه. لن ينتج عن ذلك شيء -على الأرجح- لكن يمكننا أن نكتشف السبب الذي جعله يزور فكتور تايلر».

ظل بيتْ ينظر إلى الشاشة لحظة أخرى، ثم أومأ برأسه ونهض واقفًا.

عادت أماندا إلى مكانها. لكن المحقّقة ستيفاني جونسون اعترضتها قبل أن تصل إلى طاولتها.

«سيدتي».

«من فضلك، لا تخاطبيني هكذا، يا ستيفاني. إنه يجعلني أبدو كما لو أنني جَدّة من الجَدّات. هل توصّلت إلى شيء عن سؤال الناس في البيوت؟».

«لا شيء حتى الآن. لكنّك قلت إنك تريدين معرفة إن أتانا أي شيء من الأهالي القلقين. إفادات عن متسكّعين فضوليين... أشياء من هذا القبيل!».

أومأت أماندا برأسها. لقد أهملت والدة نيل هذا الأمر في البداية. ولا تريد أماندا أن تتكرّر هذه الغلطة.

قالت ستيفاني: «أتتنا إفادة في ساعة مبكرة هذا الصباح. اتّصل بنا رجل وقال إن أحدًا كان عند باب بيته يتكلّم مع ابنه في الليل».

مدت أماندا يدها من فوق طاولة ستيفاني وأدارت الشاشة حتى تستطيع قراءة التفاصيل. كان الصبي المذكور في السابعة من عمره. مدرسة روز تيراس. رجل كان أمام باب البيت؛ ويفترض أنه كان يكلّمه. لكن الإفادة تضمّنت أيضًا أن الصبي كان يتصرّف بطريقة غريبة في الآونة الأخيرة. ومن قراءة ما بين السطور، كان واضحًا لها أن عنصرَيّ الشرطة اللذين ذهبا إلى ذلك البيت لم يكونا واثقين من أن القصّة حقيقية.

من الممكن أن تتحدّث معهما في الأمر.

ابتعدت أماندا عن الشاشة، ثم عبرت الغرفة وهي تلقي من حولها نظرات حانقة. وقعت عيناها على الشرطي جون دايسون. إنه يفي بالغرض... كان الوغد الكسول جالسًا خلف كدس من الأوراق، لكنه يلهو بهاتفه. وعندما سارت إليه وفرقعت بإصبعيها في وجهه، سقط هاتفه في حضنه.

قالت له: «تعالَ معي».

26

كانت المسافة إلى بيتِ السيدة شيرينغ عشر دقائق بالسيارة. إنها المرأة التي اشتريت منها بيتنا الجديد.

أوقفت السيارة أمام بيتٍ مستقلٍ من طابقين، له سقف مدبّب ومدخل مرصوف عريض للسيارة. كان مفصولًا عن الرصيف بسياج معدني، أمامه صندوق بريد أسود على عمود قصير. إن هذه المنطقة من فيذربانك أكثر ثراء من المنطقة التي أعيش فيها الآن مع جيك، في ذلك البيت الذي كان ملكًا للسيدة شيرينغ وكانت تؤجّره سنين طويلة.

أظنّ أن دومينيك بارنيت كان آخر المستأجرين لديها.

مددت يدي عبر السياج وفتحت البوابة. ولحظة فتحتها، أتاني من داخل البيت صوت نباح غاضب، لم يلبث أن اشتد عندما بلغت باب البيت. ضغطت على الجرس، وانتظرت. فتحت السيدة شيرينغ الباب بعد الرنّة الثانية، لكنها أبقت السلسلة ونظرت إليَّ عبر الفرجة الصغيرة. كان الكلب من خلفها: كلب صغير من نوع يوركشاير تيري ينبح في اتجاهي غاضبًا. كان فراؤه موشحًا بلون رمادي فبدا لي أنه في مثل عمرها وفي مثل هشاشتها.

«نعم!».

قلت لها: «مرحبًا. لا أعرف إن كنت تتذكّريني، يا سيدة شيرينغ. اسمي توم كينيدي. لقد اشتريت بيتك منذ بضعة أسابيع. التقينا مرتين عندما أتيت لأراه. كنت مع ابني».

«أوه، نعم. بالطبع. اسكت يا موريس. تراجع»... كانت الكلمات الأخيرة موجّهة إلى الكلب. مسّدت فستانها والتفتت إليَّ من جديد... «إنني آسفة فهو يتوتّر سريعًا. ما الذي أستطيع فعله من أجلك؟».

«الأمر متعلّق بالبيت. هل أستطيع الحديث معك عن أحد المستأجرين السابقين».

«فهمت».

عند ذلك، بدا لي كما لو أنها ارتبكت... كما لو أن لديها شكًّا في شيء لم أدركه. قرَّرْت أن أنتظرها. وبعد بضع ثوانٍ من الصمت، تغلّبت اللباقة على أي تحفظ عندها، ففكّت سلسلة الباب.

قالت من جديد: «فهمت. إذًا، من الأفضل أن تدخل».

صرنا في الداخل، فبدت لي مضطربة إذ راحت تعبث بملابسها تارة وبشعرها تارة أخرى وتعتذر لأن البيت في حالة فوضى. لم تكن في حاجة إلى الاعتذار في ما يخص البيت، فقد كان فخمًا، مرتبًا، وكانت ردهة المدخل وحدها في مساحة غرفة الجلوس عندي، ومن خلفها سلم خشبي عريض ملتفٌ صاعد إلى الطابق الأعلى. تبعت السيدة شيرينغ إلى غرفة جلوس مريحة بينما كان موريس ينبح بحماسة أكبر عند قدمي. أريكتان وكرسي من حول الموقد المفتوح الذي كان خاليًا نظيفًا جدًا. خزائن على امتداد الجدار ظاهرة فيها تحف كريستال مرتّبة بعناية خلف زجاجها. لوحات على الجدران تمثّل مناظر ريفية ومناظر صيد. كانت على النافذة التي في واجهة البيت ستائر حمراء داكنة تحجب الشارع.

قلت: «إن لديك بيتًا جميلًا».

«شكرًا. إنه كبير عليَّ، في حقيقة الأمر خاصة بعد انتقال الأولاد ووفاة ديريك، فليبارك الرب روحه! لكني صرت الآن كبيرة في السن لا أقوى على الانتقال إلى بيت آخر. تأتي فتاة كل عدّة أيام من أجل تنظيف البيت. هذه رفاهية مكلفة، لكن... ما الذي أستطيع فعله غير هذا؟ اجلس من فضلك».

«شكرًا».

«هل آتيك بشيء من الشاي؟... قهوة؟».

«لا، لا أريد شيئًا».

جلست. كانت الأريكة صلبة، قاسية.

سألتني: «هل أنتما مرتاحان في بيتكما الجديد؟».

«إننا بخير».

ابتسمت ابتسامة حلوة: «يسعدني سماع هذا. هل تعرف أنني ترعرعت في ذلك البيت، وأنني كنت أتمنّى دائمًا أن يؤول آخر الأمر إلى شخص لطيف؟... إلى أسرة محترمة! ابنك اسمه جيك... إن كنت أتذكّر على نحو صحيح! كيف حاله؟».

«لقد بدأ الذهاب إلى المدرسة».

«أهي مدرسة روز تيراس؟».

«أجل».

تلك الابتسامة من جديد: «إنها مدرسة جيّدة جدًّا. كنت أذهب إليها عندما كنت طفلة».

«أهما كفّاكِ المطبوعان على الجدار هناك؟».

أومأت برأسها معتزة: «هذا صحيح. كف أحمر، وكف أزرق».

«شيء لطيف. قلتِ لي إنك ترعرعت في شارع غارهولت؟».

«صحيح. وبعد موت أبي وأمي، احتفظنا به -أنا وديريك- لكي نستثمره. كانت تلك فكرة زوجي، لكنه لم يكن في حاجة إلى بذل جهد لإقناعي بها. لقد أحببت ذلك البيت دائمًا. لدي فيه ذكريات كثيرة، هل تفهمني؟».

«بالطبع»... فكّرت في الرجل الذي أتى إلى البيت، وحاولت حساب الزمن. إنه يصغر السيدة شيرينغ كثيرًا، لكن الأمر غير مستحيل. «هل لديك أخ أصغر منك؟».

«لا، فقد كنت طفلة وحيدة. لعل هذا هو السبب الذي خلق لديَّ تلك العاطفة كلّها تجاه البيت. لقد كان بيتي، كما ترى. كان كلّه لي. لقد أحببته»... كشرتْ قليلًا... «عندما كنت صغيرة، كان أصدقائي يخشون ذلك البيت قليلًا».

«لماذا كانوا يخشونه؟».

«أوه، إنه واحد من تلك البيوت... على ما أظن. يبدو شكله غريبًا بعض الشيء، أليس كذلك؟».

«أظنّ هذا». كانت كارين قد قالت لي الشيء نفسه يوم أمس. كرّرت أمام السيدة شيرينغ ما قلته لكارين على الرغم من أنه -بصراحة- بدأ يبدو لي كلامًا فارغًا... «أظن له شخصية».

«بالضبط!»... بدا عليها السرور لسماع هذه العبارة... «هذا ما كنت أراه دائمًا؛ هذا هو تمامًا. وهذا ما يجعلني سعيدة لأنني أراه الآن بين يدين أمينتين من جديد».

ابتلعتُ تلك العبارة... لأن البيت لم يكن يبدو لي آمنًا، ولو من بعيد. لكن، مهما يكن ذلك الرجل الذي أتى إلى البيت، فقد كذب عندما قال لي إنه ترعرع فيه، تمامًا مثلما ظننت وقتها. فاجأتني أيضًا طريقة صياغتها تلك الجملة.

وهذا ما يجعلني سعيدة لأنني أراه الآن بين يدين أمينتين من جديد. قالت أيضًا إنها أرادت أن يؤول إلى شخص لطيف آخر الأمر.

«هل كان من قبل في أيد غير أمينة؟».

بدا عليها الانزعاج من جديد.

«لا، ليس تمامًا. فلنقل فقط إنني لم أكن موفقة في الحصول على أفضل المستأجرين في الماضي. ومع ذلك، فإن من الصعب جدًا أن يصدر المرء أحكامًا، أليس هذا صحيحًا؟ من الممكن أن يبدو الناس مريحين على نحو تام عندما تقابلهم. ثم إنه لم يكن لدي أي سبب حقيقي للشكوى. كانوا يدفعون الإيجار في وقته. وكانوا يعتنون بالبيت جيِّدًا...».

لم تنهِ كلامها كما لو أنها لم تكن قادرة على توضيح ما كانته المشكلات الحقيقية، أو كما لو أنها تفضّل عدم الحديث في هذا الأمر.

كانت رفاهية الامتناع عن الكلام متاحة لها، لكنها لم تكن متاحة لي.

«ولكن...؟».

«أوه، لست أدري. لم يكن لدي أبدًا أي شيء ملموس ضدّهم، وإلا لما تردّدت في طردهم. مجرّد شكوك، لا أكثر. كنت أشكّ في أن أشخاصًا آخرين يقيمون معهم من حين لآخر».

«هل تقصدين أنهم كانوا يؤجّرون غرفًا في البيت؟».

«أجل. وكنت أشكّ أيضًا في أن أشياء غير مريحة تحدث هناك»... تقلّص وجهها قليلًا... «في مرّات كثيرة، كنت أجد رائحة البيت غريبة عندما أعرّج عليه لكن، بطبيعة الحال، ليس متاحًا لك فعل ذلك هذه الأيام من غير موعد مسبق. هل تصدّق هذا؟ أنت في حاجة إلى موعد مسبق حتى تدخل بيتًا تملكه! أو، فلنقل إنذار مسبق. لم يسمح لي بالدخول في المرة الوحيدة التي ذهبت فيها من غير إعلامه بذلك».

«هل تتحدّثين عن دومينيك بارنيت؟».

تردّدت، ثم قالت: «نعم، إنه هو. لكن الذي قبله لم يكن أحسن منه. أظنّ أن حظي كان سيئًا جدًّا في ما يخصّ ذلك البيت».

... البيت الذي تخّلصتِ منه فصار لي.

قلت لها: «هل تعرفين ما حدث مع دومينيك بارنيت؟».

«أعرف، بالطبع».

أطرقت برأسها ونظرتْ إلى يديها المستقرّتين بأناقة ولطف في حجرها. ظلّت صامتة لحظة.

«كان ما حدث له فظيعًا. لا أتمنّى حدوثه لأي كان. لكني سمعت في ما بعد أنه كان يتحرّك ضمن تلك الدوائر».

قلت بطريقة مباشرة فجّة: «مخدّرات».

لحظة صمت أخرى. ثم تنهّدت كما لو أننا كنا نتحدّث عن بعض وجوه العالم الغريبة عنها كل الغرابة.

«لم يكن هناك أي دليل على أنه يبيع المخدرات انطلاقًا من بيتي. لكن ما تقوله صحيح! لقد كان هذا أمرًا محزنًا جدًّا. أظنني كنت قادرة على التفتيش عن مستأجر آخر بعد موته؛ لكنّي صرت كبيرة السنّ، فقررت ألا أفعل ذلك. قلت في نفسي إن الوقت قد حان لبيع البيت وإنهاء

الأمر كلّه. بهذه الطريقة، أستطيع أن أمنح بيتي القديم حظًّا جيّدًا مع شخص آخر... مع من يستخدمه بشكل أفضل مما استخدمته به في الآونة الأخيرة».

«تقصدين أنا وجيك».

«صحيح!»... أشرقت عند سماع ذلك... «أنت وولدك الصغير اللطيف! لقد تلقّيت عروضًا أفضل، لكنّي لست مهتمة بالمال هذه الأيام؛ وقد رأيت أنكما الشخصان المناسبان. أعجبتني فكرة أن يصير بيتي القديم ملكًا لأسرة شابة، وأن يصير فيه من جديد طفل صغير آخر يلعب هناك. أردت أن أحسَّ بأن البيت قد يمتلئ نورًا وحبًّا من جديد. أردته مليئًا بالألوان مثلما عرفته عندما كنت طفلة صغيرة. يسرني كثيرًا سماع أنكما سعيدان فيه».

تململت في جلستي.

أنا وجيك لم نكن سعيدين هناك... بالطبع، لم نكن سعيدين. ثم إن جزءًا منّي كان حانقًا على السّيدة شيرينغ. أحسست بأنه كان من واجبها حقًّا أن تخبرني عن تاريخ ذلك البيت في الوقت المناسب. لكنّها بدت لي أيضًا مسرورة سرورًا حقيقيًا كأنها تظنّ بأنها فعلت شيئًا جيدًا. كنت قادرًا على فهم السبب الذي دفعها إلى اختيارنا، أنا وجيك، لكي تبيعنا بيتها بدلًا من... وعندها، تجهّم وجهي.

قلت لها: «هل قلتِ لي إنك تلقّيت عروضًا أفضل لشراء البيت؟».

«أوه، نعم... كانت عروضًا أفضل كثيرًا، في حقيقة الأمر. جاء رجل كان مستعدًا لأن يدفع أكثر من الثمن المطلوب، بكثير»... غضَّنت أنفها وهزّت رأسها... «لكنّه لم يعجبني أبدًا. لقد ذكّرني قليلًا بأولئك الأشخاص الآخرين. كان شديد الإلحاح أيضًا، وهذا ما جعلني أكثر نفورًا منه. لا أحبّ أبدًا أن يضايقني أحد بإلحاحه».

ملت صوبها.

همم... لقد كان هناك شخصٌ مستعدٌّ لأن يدفع في ذلك البيت مبلغًا يزيد كثيرًا على السعر المطلوب، لكن السيّدة شيرينغ رفضته. كان شديد الإلحاح! وكان هناك شيء منفّر فيه!

سألتها بحذر: «هذا الرجل. كيف كان شكله؟ هل كان رجلًا قصيرًا؟ قمة رأسه صلعاء، وله شعر رمادي هناك؟».

أشرت إلى رأسي، لكني رأيتها تومئ برأسها مؤيّدة كلامي.

«ذلك هو، نعم. شخص متأنّق دائمًا».

كشّرت من جديد كأنها تريد القول إن المسحة المحترمة التي يوحي بها منظره لم تنطلِ عليها بأكثر مما انطلت عليَّ.

«إنه السيد كولينز. نورمان كولينز».

27

عدت إلى البيت. أدخلت السيارة ووقفت أنظر إلى الممر. كنت أفكر -أو، على الأقل- كنت أحاول التفكير. أحسست كما لو أن المعلومات والأفكار والتفسيرات كانت تدوّم طائرة في رأسي كالعصافير... بطيئة بما يكفي لرؤيتها، لكنها أسرع من أن أستطيع الإمساك بها.

كان اسم الرجل الذي رأيته يتجوّل هنا نورمان كولينز. وخلافًا لما زعمه، فإنه لم يترعرع في هذا البيت. إلا أنه -لسبب أجهله- كان مستعدًا لشرائه بسعر أعلى من السعر المطلوب فيه. من الواضح أن البيت كان يعني شيئًا بالنسبة إليه. لكن، ما هو ذلك الشيء؟ تتبعتْ نظراتي الممر وصولًا إلى المرأب.

هناك كان كولينز عندما رأيته أوّل مرّة. ذلك المكان الممتلئ بسقط المتاع الذي نقل إليه قبل قدومي. أظنّ أن بعض تلك الأشياء كانت من ممتلكات دومينيك بارنيت. هل كان كولينز هو من جاء إلى البيت الليلة الماضية وحاول إقناع جيك بأن يفتح له الباب؟ إن كان الأمر هكذا، فلعل جيك لم يكن في خطر، ولعل كولينز كان يريد أخذ شيء يريده من البيت.

لعلّه كان يريد مفتاح المرأب!

لكنّ تفكيري لم يستطع الوصول إلى أبعد من تلك النقطة. ترجّلت من السيارة وسرت في اتجاه المرأب ففتحت قفله، ثم فتحت أحد مصراعي الباب ووضعت أمامه علبة طلاء قديمة حتى يظل مفتوحًا.

خطوت إلى الداخل. بالطبع، لا تزال تلك الأشياء القديمة كلّها على حالها: قطع الأثاث القديمة، والفِراش القذر، والصناديق الرطبة المكوّمة كيفما اتفق في وسط المكان. نظرت إلى الأسفل، إلى يميني، فرأيت أن العنكبوت مستمر في نسج شباكه الكثيفة، وقد صارت فيها الآن بقايا حشرات عالقة أكثر من ذي قبل. أظنّها بقايا فراشات أكلها العنكبوت فبقي منها ما يشبه عقد خيوط صغيرة شاحبة.

نظرت من حولي. لا تزال إحدى الفراشات واقفة برشاقة على النافذة. فراشة أخرى مستريحة إلى جانب الصندوق الذي فيه زينة عيد الميلاد، ترفع جناحيها ثم تخفضهما بحركات رقيقة. ذكّرتني بالفراشة التي رسمها جيك ذكّرتني أيضًا بحقيقة أنه لا يمكن أن يكون قد رأى هذه الفراشات هنا. لكن ذلك ظلّ سرًّا غامضًا، ولم أكن قادرًا على تفسيره.

وماذا عنك أنت، يا نورمان؟

ما الذي كنت تبحث عنه هنا؟

أزحت بعض أوراق النباتات الجافّة بقدمي حتى أفسح مكانًا، ثم أنزلت صندوق الزينات وبدأت أقلب محتوياته.

مضت نصف ساعة حتى انتهيت من تفتيش الصناديق كلّها، فقد أفرغتها واحدًا بعد الآخر ونشرت محتوياتها على الأرض. ركعت بين تلك المحتويات فأحسست ببرودة الأرض الحجرية، وأحسست كما لو أن ركبتَي بنطلون الجينز الذي أرتديه قد صارت عليهما بقعتان متطاولتان من الرطوبة. صدرت قرقعة عن الباب من خلفي فاستدرت سريعًا وقد أفزعني الصوت. لكن الممر الغارق في ضياء الشمس كان خاليًا. إنه النسيم الدافئ... دفع الباب فجعله يصطدم بعلبة الطلاء. عدت فالتفت إلى ما عثرت عليه.

وقد كان ما عثرت عليه لا شيء! كانت محتويات الصناديق كلّها مكونة من أشياء قديمة متنوعة من ذلك النوع الذي لا يجد المرء حاجة مباشرة إليه، لكنه يظلّ غير راغب في رميه. زينات عيد الميلاد؛ وحبال من خيوط ملونة كانت منتشرة من حولي الآن... خبت ألوانها وفقدت بريقها بفعل الزمن. كانت هناك مجلّات وصحف من غير شيء واضح يجمع بين تواريخها وطبعاتها المختلفة. ملابس مطويّة مصنّفة، فائحة برائحة العفن. كابلات كهربائية قديمة علاها الغبار. لم يوحِ لي شيء منها بأنه مخبأ على نحو مقصود بقدر ما كانت كلّها أشياء جمعت كيفما اتفق، ثم نُسي أمرها.

حاولت التخلص من شعوري بالإحباط. ما من إجابات هنا!

إلا أن الإزعاج الذي سبّبه تفتيشي لم يكن مقتصرًا على الفراشات وحدها. كانت خمس أو ست فراشات ترفرف فوق تلك الأشياء التي أخرجتها من صناديقها وقد مدت قرون استشعارها، في حين كانت فراشتان أخريان ترفرفان عند النافذة. رحت أنظر إلى واحدة من الفراشات التي كانت فوق الحبال الملوّنة. ارتفعت الفراشة في الهواء، ثم رفرفت مارة بي متّجهة صوب الباب المفتوح، قبل أن تنثني -تلك الحمقاء- عائدة من جديد وتحط أمامي على الأرض. وقفتْ على إحدى البلاطات القرميدية.

نظرت إليها لحظة، معجبًا بألوان جناحيها الواضحة الغنيّة. دبّت الفراشة على الأرض القرميدية، ثم اختفت في شق بين حجارتها.

حدّقت في الأرض.

كان قسم كبير من أرض الكراج الممتدة أمامي مبلطًا بقطع عشوائية من القرميد المستخدم في البناء. مرت لحظة قبل أن أدرك ما كنت أنظر إليه. حفرة في الأرض يمكن أن يستلقي فيها شخص تحت السيارة عندما يريد إصلاحها. كانت الحفرة مملوءة بحجارة قرميدية حتى تصير على مستوى بقية الأرضية.

ومن غير تفكير، رفعت قطعة القرميد التي كانت الفراشة واقفة عليها. انتزعت القرميدة من الأرض المغطاة بالغبار وشباك العنكبوت القديمة، لكنّ الفراشة ظلّت مصرّة على البقاء جاثمة

على جانبها.

وفي الحفرة التي خلفتها قطعة القرميد التي رفعتها، رأيت سطح ما بدا لي صندوقًا آخر من الورق المقوّى.

قرقع باب المرأب من خلفي مرّة أخرى.

يا إلهي!

نهضت واقفًا هذه المرّة، وخرجت إلى الممرّ حتى أتحقّق من الأمر. لم أر أحدًا هناك، لكن الشمس كانت قد اختفت خلف غيمة خلال الدقائق الأخيرة، فبدا المكان من حولي أقل ضياء وأشدّ برودة. كان النسيم قد اشتدّ. نظرت فرأيت أنني لا أزال ممسكًا بالحجر في يدي. رأيت يدي ترتعش ارتعاشًا خفيفًا.

عدت إلى المرأب، ووضعت الحجر جانبًا، ثم بدأت أزيح الحجارة الأخرى فيتكشّف لي الصندوق الذي تحتها. كان صندوقًا مثل بقية الصناديق من حيث الحجم، لكنه مغلق بشريط لاصق. أخرجت مفاتيحي واخترت من بينها مفتاحًا ذا حافة حادّة. كان قلبي يخفق.

أهذا ما كنت تبحث عنه، يا نورمان؟

شققت الشريط اللاصق بحافّة المفتاح ثم أدخلت أصابعي في الشقّ وجذبت حافتي الصندوق مباعدًا بينهما. تمزق الشريط اللاصق كلّه مصدرًا فرقعة عند نهايته. نظرت في داخل الصندوق.

وعلى الفور، ارتددت إلى الخلف فصرت واقفًا على قدمي. لعلي لم أكن قادرًا على استيعاب ما رأيته، أو لم أكن راغبًا في استيعابه. عادت بي أفكاري إلى ما قاله جيك في الليلة الماضية عندما كان يتكلّم مع نفسه في غرفة الجلوس... أريد أن أخيفك.

ظننت وقتها أن الفتاة الصغيرة المتخيّلة قد عادت إلى حياتنا.

سمعت صوت إغلاق باب. التفت إلى الخلف فرأيت سيارة واقفة عند أول الممر، ورأيت رجلًا وامرأة قادمين في اتجاهي.

لقد قال لي ابني:

لم تكن هي، إنه الصبي الذي في الأرض! خاطبتني المرأة: «سيد كينيدي».

بدلًا من أن أجيبها، نظرت مجددًا إلى الصندوق الذي كان أمامي.

نظرت إلى العظام التي فيه.

نظرت إلى الجمجمة الصغيرة التي كانت تحدّق بي.

ونظرت إلى الفراشة ذات الألوان الجميلة التي حطّت واستراحت عليها، إلى جناحيها المتحركين برقّة مثل نبضات قلب طفل نائم.

28

في تلك الأيام، كان بيتْ قد قابل نورمان كولينز في مناسبات كثيرة. لكن، لم يكن لديه ما يدعوه إلى زيارة بيت ذلك الرجل. إلا أنه كان يعرف البيت: بيت ملتصق ببيت آخر. كان ملكًا لوالدَيْ كولينز الذي بقي فيه ولم يتركه. فبعد موت والده، ظل يعيش هناك وحيدًا مع أمّه عدة سنوات؛ ثم ظلّ فيه بعد موتها.

لم يكن في ذلك أي شيء غير طبيعي؛ لكن فكرة بقائه في البيت نفسه جعلت بيت يشعر بشيء من الاستغراب. من المتوقع دائمًا أن يكبر الأطفال، وأن يتركوا بيتَ أهلهم ويبنوا حياتهم الخاصّة بهم. وأما فعل غير ذلك، فقد كان يوحي له بشيء من العجز عن الاستقلالية. لعلّ ذلك لم يكن ناجمًا إلا عن كون بيتْ قد تعرّف على كولينز. كان يتذكّره شخصًا ناعمًا، رخوًا، دائم التعرّق، وكأن في داخله شيء عفن يتسرب منه دائمًا. كان يبدو له كأنه شخص يمكنك تخيّل أنه قد حافظ على غرفة أمّه كما كانت على امتداد سنين طويلة، أو أنه صار ينام في سريرها.

على الرغم من هذا، وعلى الرغم من الانزعاج الذي كان نورمان كولينز يثيره في نفس بيتْ، فإنه لم يكن شريك فرانك كارتر في جرائمه.

لكن بيتْ وجد لنفسه شيئًا من السلوى: مهما يكن من أمر تورّط كولينز الآن، فإن عينه لم تغفل عنه في ذلك الوقت. صحيح أن الرجل لم يكن مشتبّهًا فيه أبدًا من الناحية الرسمية على الإطلاق، لكنه كان موضع شبهة غير رسمية. إلا أنّهم تحقّقوا من وجوده في أماكن أخرى... إذا كان هناك بالفعل شخص قد ساعد كارتر في ارتكاب جرائمه، فإن من المستحيل -من الناحية المادية- أن يكون ذلك الشخص نورمان كولينز.

إذًا، فما الذي كان يفعله في السجن؟

لعلّه لم يكن يفعل شيئًا! لكن كارتر قد تلقّى معلومات من العالم الخارجي، تلقّى تلك المعلومات على نحو ما... أحس بيتْ بقدر من الإثارة عندما أوقف سيارته أمام بيت كولينز. بطبيعة الحال، فإن من الأفضل ألا يبالغ المرء في آماله. لكن بيتْ ظلّ لديه ذلك الإحساس بأنهم يسيرون على الطريق الصحيح على الرغم من عدم اتضاح ما قد يقودهم إليه ذلك الطريق... حتى تلك اللحظة.

اقترب من البيتِ. كانت الحديقة الأمامية الصغيرة مهملة نمت نباتاتها نموًّا فوضويًّا وملأت أرضها أكداس من العشب الذي مات. كانت على مقربة من البيت أجمة صغيرة شديدة الكثافة جعلته مضطرًا إلى الاستدارة جانبًا، والمرور بين أغصانها وبين الجدار حتى يبلغ باب البيت. قرع الباب. أحسّ بخشب الباب ضعيفًا واهيًا تحت أصابعه. كان نصف متآكل. لقد جرى طلاء واجهة

البيت باللون الأبيض في زمن ما، لكن الطلاء تقشّر، فذكّره ذلك الجدار بوجه سيدة عجوز عليه بقايا من موادَّ تجميلية.

كان موشكًا على قرعِ الباب من جديد عندما سمع حركة من خلفه، انفتح الباب، لكنه لم ينفتح إلا بقدر ما تتيحه السلسلة. لم يسمع بيتْ صوت وضع السلسلة من الداخل مما يعني أن كولينز حريص على تأمين بيته، حتى عندما يكون فيه.

«ماذا؟».

لم يعرف نورمان كولينز وجه بيتْ، لكن بيتْ كان يتذكّره جيّدًا. عشرون عامًا لم تكد تغيّر فيه إلا القليل، عدا شعره الذي صار رمادي اللون. كانت قمّة رأسه مبقّعة، محمرّة، كأنها شخص حانق يمكن أن ينفجر غضبًا. يفترض أن يكون هذا الرجل مرتاحًا مسترخيًا في بيته الآن، لكن ملابسه كانت رسمية إلى حدٍّ غريب بعض الشيء: صُدار وبدلة قصيرة أنيقة سوداء.

أظهر بيتْ شارة الشرطي.

«مرحبًا، سيد كولينز. أنا المحقق بيتر ويليس. لعلك لا تتذكّرني، لكننا التقينا بضع مرات منذ سنين».

راحت عينا كولينز تتنقّلان بين شارة الشرطي ووجه بيتْ، ثم غدت ملامح وجهه متوتّرة، مشدودة. لقد تذكّره الآن.

«أوه، نعم. بالطبع». وأعاد بيتْ شارته إلى مكانها.

«هل أستطيع الدخول لكي نتحدّث؟ سوف أحاول ألا يأخذ ذلك قدرًا كبيرًا من وقتك».

تردّد كولينز وألقى نظرة سريعة داخل أعماق البيت شبه المظلمة. رأى بيتْ قطرات عرق تظهر على جبهة الرجل.

«هذا ليس بالوقت المناسب حقًّا. فيمَ تريد أن نتحدّث؟».

«أفضّل أن نتحدّث في الداخل، يا سيد كولينز».

ظلّ منتظرًا. كان كولينز رجلًا ممتلئًا قصير القامة؛ وكان بيتْ غير راغب في أن يطول ذلك الصمت إلى أن يصير محرجًا.

وافق كولينز بعد بضع ثوانٍ: «لا بأس».

أغلق الباب، ثم فتحه بعد أن أزال السلسلة. خطا بيتْ فدخل الردهة المربّعة الكالحة التي كان فيها سلّم صاعد مباشرة إلى فسحة غير مرئية جيّدًا. كان هواء البيت راكدًا، قديمًا، لكنْ فيه أثر من رائحة شيء حلو. ذكّره بمقاعد المدرسة القديمة في طفولته، عندما كان يرفع غطاء المقعد، فيشم رائحة الخشب ومعها رائحة السكاكر التي يضعها الأطفال هناك.

«بمَ أستطيع مساعدتك، أيها المحقّق ويليس؟».

كانا لا يزالان واقفين في تلك الردهة أسفل السلم... مكان ضيّق، وجد بيتْ نفسه غير مرتاح فيه. وعلى تلك المسافة القريبة، شمّ رائحة كولينز الذي كان يتعرّق تحت بدلته. أشار إلى الباب المفتوح المؤدّي إلى ما كان واضحًا أنه غرفة المعيشة.

«ألا نستطيع الجلوس في هذه الغرفة؟».

تردّد كولينز من جديد.

عبس بيتْ قائلًا في نفسه: ما الذي تخفيه، يا نورمان؟

قال كولينز: «بالطبع. تفضّل».

تقدّم بيت إلى غرفة المعيشة. كان بيت يتوقّع أن يجدها غرفة قذرة بائسة، لكن الغرفة بدت نظيفة مرتبة؛ وكان أثاثها أكثر جدّة وأحدث طرازًا مما توقّعه. شاشة بلازما كبيرة على أحد الجدران، وأعمال فنية على الجدران الأخرى، ومعها خزائن عرض ذات واجهات زجاجية.

توقّف كولينز في وسط الغرفة. كانت وقفته متصلّبة وقد ضمَّ يديه أمامه كأنه نادل في مطعم. كان في هيئته الرسمية الغريبة شيء أثار قشعريرة بيتْ.

«هل أنت... على ما يرام، يا سيد كولينز؟».

أومأ كولينز برأسه إيماءة صغيرة: «أوه، نعم. هل لي أن أسألك من جديد عن الأمر الذي تريد الحديث فيه؟».

«منذ أكثر قليلًا من شهرين، ذهبتَ لزيارة سجين اسمه تايلر في سجن ويترو».

«هذا صحيح».

«ما الهدف من تلك الزيارة؟».

«أردت الحديث معه. إنه الهدف نفسه الذي كان لزياراتي الأخرى».

«هل زرته قبل ذلك؟».

«زرته مرات كثيرة».

كان كولينز لا يزال واقفًا من غير حركة كما لو أنه أمام مصوّر. لا يزال مبتسمًا تلك الابتسامة المهذّبة.

«وهل أستطيع سؤالك عن موضوع حديثك مع فكتور تايلر؟».

«حسنًا... تحدثنا عن جرائمه».

«الفتاة الصغيرة التي قتلها!».

أومأ كولينز برأسه: «اسمها ميري فيشر».

«صحيح، أعرف اسمها».

إنه غول! هكذا كان كولينز يبدو دائمًا في نظر بيتْ ذلك الرجل القصير الغريب المفتون بالظلمة، التي يبتعد عنها الآخرون ابتعادًا غريزيًا. كان كولينز لا يزال واقفًا، مبتسمًا، كما لو أنه ينتظر بصبر انتهاء هذا الأمر وانصراف بيتْ؛ لكن ابتسامته كانت غير طبيعية على الإطلاق. أدرك بيتْ أن كولينز متوتّر. إنه يخفي شيئًا! أدرك بيتْ أيضًا أنه قد صار ساكنًا مثله -انعدام مزعج لأية حركة في تلك الغرفة- فسار في اتجاه الجدار وراح ينظر إلى بعض اللوحات والأشياء التي وضعها كولينز في إطارات وعلّقها هناك.

كانت اللوحات غريبة. وعند النظر إليها عن قرب، صار واضحًا كم كان عدد منها طفولي الطابع. تنقّلت عيناه، بين الشخوص المرسومة رسمًا بدائيًا، والألوان المائية غير المتقنة، ثم جذب انتباهه شيء غير معتاد أكثر من كل ما سبق: قناع شيطانيّ أحمر مصنوع من البلاستيك. كان شيئًا مما قد يجده المرء في المتاجر الرخيصة التي تبيع ملابس غريبة الشكل، لكنّ هناك سببًا جعل كولينز يثبّته على مربع زجاجي رقيق ويعلّقه على جدار الغرفة.

جاءه صوت كولينز: «أهوى جمع هذه الأشياء».

كان كولينز قد صار إلى جانبه على نحو مفاجئ. قاوم بيتْ رغبة جارفة في الصراخ، لكنه لم يستطع منع نفسه من الابتعاد عنه خطوة.

«تهوى جمعها؟».

أومأ كولينز برأسه: «بالضبط. لقد استخدم هذا القناع قاتل مشهور عند ارتكاب جرائمه. كلّفني اقتناؤه ثروة صغيرة؛ لكنه قطعة جميلة؛ كما أن مصدره معروف والأوراق التي تثبت أصله سليمة تمامًا»... استدار كولينز سريعًا ونظر إلى بيتْ... «أؤكّد لك أن هذا كله قانوني تمامًا ولا شائبة فيه. أهناك شيء آخر أستطيع مساعدتك فيه؟».

هز بيتْ رأسه محاولًا استيعاب ما قاله كولينز. ثم نظر إلى بعض الأشياء الأخرى المعلّقة على الجدار. أدرك أنها لم تكن صورًا فحسب. كانت إطارات كثيرة تحتوي على رسائل وأوراق مكتوبة. كان من الواضح أن بعضها وثائق وتقارير رسمية، في حين أن بعضها الآخر مكتوب بخط اليد على ورق رخيص.

أشار إلى الجدار بيده وقد أحسّ بشيء من العجز عن فهم ما رآه.

«و... هذه؟».

قال كولينز مسرورًا: «مراسلات. بعضها شخصي، وبعضها من مقتنياتي. هناك أيضًا صور لنماذج رسمية وأوراق من بعض قضايا المحاكم».

خطا بيتْ مبتعدًا من جديد. تحرّك هذه المرة حتى عاد فصار في وسط الغرفة. ثم استدار وراح ينظر في هذا الاتجاه وذاك الاتجاه. ومع استيعابه ما كان يراه، كان إحساسه بالانزعاج يزداد عمقًا ويتضاعف في داخله. جعله ذلك يشعر ببرودة في جلده كأن الحرارة قد غاضت منه.

رسوم، وتذكارات، ومراسلات.

آثار محفوظة... آثار الموت والقتل.

كان يعرف قبل تلك اللحظة أن في العالم أشخاصًا ميالين إلى جمع هذه الأشياء المروعة واقتنائها؛ بل إن هناك سوقًا نشطة على الإنترنت مكرّسة لهذا الأمر. لكنه لم يقف قبل الآن وسط مجموعة من هذا النوع. أحسّ كما لو أن الغرفة من حوله قد صارت نابضة بالخطر، لأن من الواضح أن هذا ليس مجرّد مجموعة مقتنيات فحسب، بل هو نوع من الاحتفاء. كان في طريقة عرض هذه الأشياء توقير وإجلال لها.

نظر إلى نورمان كولينز الذي ظلّ واقفًا عند الجدار. كانت الابتسامة قد اختفت عن الرجل وحلّ محلّها شيء أكثر غرابة وتنفيرًا. لم يرغب كولينز في السماح لبيتْ بالدخول. ومن الواضح أنه أمل في انتهاء الحديث من غير أن يلاحظ بيتْ هذه الصور والتحف. لكن تكشيرة زهو ارتسمت على وجهه الآن نظرة تقول إنه يعرف كم يجد بيتْ مجموعته شيئًا منفّرًا مخيفًا، وأن جزءًا منه مستمتع بهذا. تكشيرة زهو تقول إنه أعلى شأنًا منه، على نحو ما.

أؤكّد لك إنها أشياء قانونية تمامًا، أشياء مشروعة.

وهكذا ظلّ بيتْ واقفًا هناك لحظةً غير عارف ما يفعله وغير واثق مما إن كان هناك شيء يستطيع فعله. ثم... رُن هاتفه فجعله يجفل. أخرجه واستدار مبتعدًا عن كولينز وراح يتكلّم بصوت منخفض وقد ضغط الهاتف بقوة على أذنه.

«ويليس يتكلّم».

كانت تلك أماندا.

«بيتْ؟ أين أنتَ؟».

«أنا حيث قلت لك إنني ذاهب»... انتبَهَ إلى أن في صوتها ما ينبئ بحدوث أمر طارئ... «أين أنتَ؟».

«أنا في بيت في شارع غارهولت. لقد عثرنا على جثة ثانية».

«واحدة ثانية!».

«تمامًا. لكن بقاياها قديمة جدًا يبدو أنها مخبأة هنا منذ زمن طويل».

كان بيت يجد صعوبة في استيعاب ما يسمعه.

«لقد بيع هذا البيت منذ فترة وجيزة»... بدت أماندا نفسها مبهورة الأنفاس كما أنها لا تزال تحاول فهم ما يجري... «لقد وجد المالك الجديد الجثّة في كراج البيت. وقد أفاد أيضًا بأنه يظن أن هناك من حاول اختطاف ابنه الليلة الماضية. وأما رجلك، نورمان كولينز، فالظاهر أنه كان يحاول التسلّل إلى ذلك البيت. لقد رآه صاحب البيت هناك. وأظن أن كولينز على علم بوجود الجثة».

استدار بيتْ بحركة سريعة وقد أحسّ فجأة بشيء يقترب منه. كان كولينز قد صار إلى جانبه من جديد، كأنما بفعل سحر. كان الآن واقفًا إلى جانب بيتْ تمامًا. وكان وجهه قريبًا إلى حد جعل بيتْ يرى مسامات جلده وعينيه الخاليتين من أي تعبير. كان الهواء عابقًا بالخطر.

همس كولينز: «أهناك أي شيء آخر، أيها المحقّق ويليس؟».

ابتعد بيتْ عنه خطوة، وقد راح قلبه يخفق سريعًا.

سمع أماندا تقوله له: «اجلبه معك».

29

أوقفتُ السيارة في الشارع الواقع قبل مدرسة جيك قائلًا في نفسي إن وجود شرطي معي في السيارة يجب أن يكون أمرًا مطمِئنًا.

لقد غضبت الليلة الماضية عندما أحسست بأن الشرطيين، اللذين أتيا إلى بيتي فجرًا، لم يتعاملا مع ما قلته لهما عن زائري الليلي الذي حاول اختطاف ابني تعاملًا جدّيًا كما ينبغي لهما. تغيّر ذلك الإحساس الآن، لكن هذا التغيّر لم يأتني بأيّة راحة. لقد كان يعني أن هذا كله يحدث حقًا. وكان يعني أن الخطر على جيك كان حقيقيًا.

رفع الشرطي دايسون رأسه: «لا نزال هنا!».

«المدرسة خلف تلك الزاوية».

دسّ هاتفه في جيب بنطلونه الرسمي. كان دايسون في الخمسينات من العمر، وقد أمضى المسافة كلّها من مركز الشرطة إلى هذا المكان وهو صامت يستمع إلى شيء في هاتفه... شيء كأنه صوت شخص مراهق.

قال لي: «حسنًا. أريد منك أن تتصرّف مثلما تتصرّف دائمًا، بالضبط. خذ ابنك من المدرسة. تحدّث مع بقية الأهالي، أو أي شيء تفعله عادة. لا تستعجل. سوف أراقبك طيلة الوقت، وسأكون منتبهًا إلى الأشخاص الآخرين الموجودين في المكان».

وضعت يدي على عجلة القيادة: «أخبرتني المحقّقة بيك بأنكم قد اعتقلتم الشخص المسؤول».

ابتسم دايسون وقال: «طبعًا»... كان واضحًا من هيئته أنه ينفّذ أوامر تلقاها، وأنه يتّبع التعليمات... «هذا إجراء احتياطي فحسب».

إجراء احتياطي!

إنه التعبير الذي استخدمته المحقّقة أماندا بيك في مركز الشرطة. تحرّكت الأمور سريعًا بعد وصول الشرطة إلى بيتي وبعد أن جعلتهم يرون ما وجدته. وفي تلك الأثناء، جرى اعتقال نورمان كولينز، فجعلني ذلك أدرك على نحو واضح تمامًا ما كان يمكن أن يحدث لجيك ليلة أمس. من المفترض الآن أن يكون ابني قد صار في أمان بعد إلقاء القبض على كولينز!

فلماذا يرافقني هذا الشرطي؟

إجراء احتياطي، فحسب!

لم يجعلني ذلك أشعر بالاطمئنان عندما كنت في مركز الشرطة؛ ولم يجعلني أشعر بالاطمئنان الآن. الشرطة سنَد قوي، قادر، واقفٌ من خلفي، لكني لا زلت أحسّ بأن جيك لن يكون آمنًا إلى أن يصير إلى جانبي... إلى أن يصير حيث أكون قادرًا على العناية به.

اختفى دايسون عن عينيّ عندما سرت في اتجاه المدرسة، وبدا لي شيئًا فوق واقعي أن أسير في حماية شرطي يتبعني مثل ظلّي. لكن هذا اليوم كان غريبًا كلّه كأنه ليس من هذا العالم. فبفعل التوالي السريع للحوادث، كنت لا أزال غير قادر على استيعاب حقيقة أنني وجدت بقايا جثة بشرية من المرجح كثيرًا أن تكون جثة طفل... وجدتها في بيتي. لم أستوعب حقيقة هذا الأمر حتى الآن. لقد أدليت بإفادتي في مركز الشرطة بأعصاب باردة؛ وسوف أجدها مطبوعة تنتظر توقيعي عليها بعد أن آخذ جيك. لا فكرة عندي حتى الآن عمّا يمكن أن يحدث بعد ذلك.

لقد قال لي دايسون أن أتصرّف بشكل طبيعي؛ لكن ذلك كان طلبًا مستحيلًا تمامًا في ظل هذه الظروف. لكنّي بلغت باحة المدرسة، فوجدت كارين مستندة إلى سورها وقد وضعت يديها في جيبي معطفها الكبير، فقلت في نفسي إن الحديث معها سيكون تصرفًا طبيعيًا تمامًا. دخلت، ووقفت إلى جانبها مستندًا إلى ذلك السور مثلها.

قالت لي: «مرحبًا. كيف تسير الأمور؟».

«تسير سيرًا غريبًا».

«ها، ها»... ثم نظرت إليّ مليًا وقالت... «لكن هذه ليست نكتة، أليس كذلك؟ هكذا يبدو لي. أهو يوم سيئ؟».

أطلقت زفرة بطيئة. لم تقل لي الشرطة بشكل واضح إن عليّ ألا أخبر أحدًا بما حدث هذا اليوم، لكنّي ظننت أن من الحكمة أن أتريّث. فبمعزل عن كل شيء آخر، لم أكن أعرف أصلًا من أين أبدأ الكلام.

«يمكنك قول ذلك. لقد مرّت بي أربع وعشرون ساعة صعبة كثيرًا. سوف أحكي لك عنها في وقت ما».

«حسنًا، سوف أترقّب حلول ذلك الوقت. لكني آمل أن تكون بخير. لا أقصد أية إساءة، لكنك تبدو في حالة مزرية»... فكّرت في الأمر قليلًا، ثم تابعت... «إلا أن ما قلته الآن يظل مسيئًا، أليس كذلك؟ إنني آسفة. أقول دائمًا أشياء خاطئة. عادة سيئة».

«لا بأس. لم أنم جيدًا الليلة الماضية».

«هل حرمك النومَ أصدقاءُ ابنك المتخيّلون؟».

ضحكت... ضحكت حقًّا.

«هذا أقرب إلى الحقيقة مما تظنين».

الصبي الذي في الأرض.

فكرت في العظام البالية المظهر، وفي الجمجمة فارغة العينين بقمّتها المتصدّعة. فكّرت في جمال ألوان الفراشات التي لا يمكن أن يكون جيك قد رآها، لكنّه رسمها بطريقة ما. بقدر ما كنت راغبًا في خروجه هذه اللحظة من المدرسة، كنت متوتّرًا بعض الشيء لقرب ظهوره. كنت متوتّرًا بسببه. ابني الحساس، ابني الذي يمشي في نومه، وأصدقاؤه المتخيّلون، وكيف يتكلّم مع أشخاص لا وجود لهم فيقولون له أشياء مفزعة ويحاولون إخافته.

إنهم يخيفونني أنا أيضًا.

انفتح الباب، ظهرت السيدة شيري، ثم راحت تنظر إلى الأهالي الواقفين وتلتفت من فوق كتفها فتنادي هذا الطفل أو ذاك. مرّت عيناها عليّ وعلى كارين. وقالت: «آدم»، ثم انتقلت من فورها إلى طفل آخر.

قالت كارين: «آه... أوه! يبدو من جديد أنكما اليوم في خانة المشاغبين».

«لن يفاجئني هذا بعد اليوم الذي مررت به».

«يمكن أن يجعلك الأمر تشعر كما لو أنك عدت طفلًا، أليس كذلك؟ كيفية كلامهم معك، بعض الأحيان».

أومأت برأسي. لكني لم أكن واثقًا من أنني في مزاج يسمح لي بتحمّل حدوث ذلك في هذا اليوم.

وصل آدم إلينا، فقالت كارين: «على أية حال، انتبه إلى نفسك».

«سأفعل».

نظرت إليهما ذاهبَين، ثم انتظرت حتى خرجت بقية الأطفال. على الأقل، كان دايسون يحظى بفرصة جيّدة لكي يتّخذ احتياطاته هكذا افترضت. جعلتني تلك الفكرة أنظر إلى الأهالي الواقفين في باحة المدرسة. لكن، ما فائدة هذا؟ صحيح أنني صرت أعرف وجوه بعضهم، لكن الوقت الذي مضى على وجودي هنا، لم يكن كافيًا لمعرفة حفنة منهم. ثم إنه من المحتمل كثيرًا أن أبدو في نظرهم شخصيّة تثير الريبة!

عندما لم يبق إلا جيك، أشارت إليَّ السيدة شيري بأن آتي إليها. ظهر جيك واقفًا إلى جانبها. ومن جديد، كان مطرقًا ينظر إلى الأرض. بدا لي هشًّا ضعيفًا إلى حد جعلني راغبًا في الاندفاع لإنقاذه، جعلني راغبًا في حمله وأخذه إلى حيث يكون آمنًا. أحسست بدفقة حب تجاهه. لعلّه أشدّ هشاشة من أن يكون ولدًا عاديًا، من أن يتلاءم ويصير مقبولًا من الآخرين. لكن، بعد كل ما حدث، ما الأمر الآن؟

قلت لها: «مشكلات جديدة!».

ابتسمت السيدة شيري ابتسامة حزينة: «أخشى أن الأمر هكذا. لقد صار اسم جيك اليوم في المنطقة الحمراء. كان عليه أن يذهب لرؤية الآنسة والاس، ألم يحدث هذا يا جيك؟».

أومأ جيك برأسه، بائسًا. فقلت: «ماذا حدث؟».

«لقد ضرب ولدًا آخر في الصف».

«أوه».

«كان أوين هو البادئ»... بدا صوت جيك كما لو أنه موشك على البكاء... «كان يحاول أن يأخذ مني رزمة الأشياء الخاصّة، لم أكن أريد ضربه».

«نعم... حسنًا»... طوت السيدة شيري ذراعيها على صدرها ونظرت إليَّ نظرة حادّة... «لست واثقة تمامًا من أن قيام طفل في سنك بجلب تلك الرزمة معه إلى المدرسة أمرًا مناسبًا».

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما ينبغي أن أقوله. يقتضي ما هو متفق عليه اجتماعيًا أن أتّخذ صف الكبار؛ وهذا يعني أن عليَّ إخبار جيك بأن الضرب أمر سيئ، وبأن معلّمته محقّة في ما قالته عن رزمته. لكني لم أستطع فعل ذلك. فعلى نحو مفاجئ، بدا لي الأمر كلّه تافهًا. نظام الإشارات الضوئية الغبي التافه! ورعب الذهاب إلى الآنسة والاس. وفوق ذلك كلّه، فكرة توبيخ جيك لأن قذرًا صغيرًا عبث معه فنال -على الأرجح- ما استحقّه.

نظرت إلى ابني الواقف أمامي، ابني الذي كان خجلًا منكمشًا على نفسه، ابني الذي كان منطويًا منتظرًا أن أوبّخه. لكن ما كنت أريد حقًّا أن أقوله هو: أحسنت! لم تكن عندي شجاعة كافية لفعل هذا عندما كنت في مثل سنك. آمل أن تكون قد ضربته جيدًا!

لكن الاعتبارات الاجتماعية منعتني من قول ما أردت قوله.

قلت: «سوف أتحدّث معه».

«جيّد. تلك لم تكن بداية حسنة، يا جيك... أليس كذلك؟».

مدّت السيدة شيري يدها وداعبت شعره، فتهاوت الاعتبارات الاجتماعية كلّها.

قلت لها: «لا تمسّي ابني».

قالت بنبرة استفهامية: «إنني آسفة».

أبعدت يدها عن جيك كما لو أنه مكهرب. جعلني ذلك أحسّ بشيء من الرضا على الرغم من أن كلماتي أتت من غير تفكير، وعلى الرغم من أنني لم أكن واثقًا -حتى ولو من بعيد- مما كنت سأقوله بعد ذلك.

قلت لها: «هكذا هو الأمر! لا يمكنك وضع اسمه على نظام الإشارات الضوئية الذي تستخدمينه، ثم تتظاهري بأنك لطيفة معه. إذا أردتِ الصدق، فأنا أرى أن فِعل هذا لأي طفل أمر فظيع حقًّا، فما بالك بطفل من الواضح أن لديه الآن مشكلات».

فاجأها كلامي وأربكها. قالت: «أيّة مشكلات؟ إذا كانت هنالك مشكلات، فعلينا أن نتحدّث عنها».

كنت مدركًا أن من الغباء أن أكون حدّيًّا هكذا، لكنّي أحسست شيئًا من المسرة عندما اتخذت صف ابني. نظرت إلى جيك مرة أخرى، فوجدته ينظر إليّ مستغربًا كما لو أنه لم يكن واثقًا مما فهمه من تصرّفي. ابتسمت له. لقد أسعدني أنه دافع عن نفسه. أسعدني أنّ له أثرًا في هذا العالم.

نظرت إلى السيدة شيري من جديد. قلت لها: «سوف أتحدّث معه، لأن الضرب سلوك خاطئ. وسوف يجري بيننا حديث طويل عن الطرق الأمثل من أجل التصدّي لمن يحاول الاستقواء عليه».

«حسنًا... أمر جيّد أن أسمع هذا».

«عظيم. هل أنت مستعد، يا صاحبي؟».

أومأ جيك برأسه.

قلت: «جيّد... أظن أننا لن نستطيع الذهاب إلى بيتنا الليلة».

«لم لا؟».

بسبب الصبي الذي في الأرض.

لكني لم أقل هذا. والأمر الغريب حقًّا كان ظنّي بأنه يعرف الإجابة عن سؤاله.

قلت له بنبرة لطيفة: «هيا بنا».

30

قال بيت في نفسه: لقد وجدوه!... بعد هذا الزمن كلّه... لقد وجدوا توني!

كان جالسًا في سيارته ينظر إلى أفراد الشرطة يدخلون إلى بيت نورمان كولينز. في تلك اللحظة، كانت حركتهم النشاط الوحيد الجاري في الشارع. فعلى الرغم من تجمّع أفراد الشرطة هناك، فإن الصحافة لم تصل بعد. وكان الجيران الموجودون في بيوتهم آنذاك قد بقوا، حتى تلك اللحظة، محتجبين عن الأنظار. وقف أحد أفراد الشرطة على عتبة الباب، ووضع يديه خلف رقبته، وتمطّى.

كان كولينز جالسًا ينظر إلى ذلك المشهد أيضًا، لكنه كان مقيّد اليدين محتجزًا في المقعد الخلفي في سيارة بيتْ.

قال كولينز بصوت لا تعبير فيه: «ليس من حقّكم أن تفعلوا هذا».

«ابقَ صامتًا، يا نورمان».

ضمن الحيّز المحصور داخل السيارة، كان بيتْ غير قادر على تفادي شم رائحة ذلك الرجل؛ لكنه لم يكن يعتزم الكلام معه على الإطلاق. وبما أن تطوّرات الوضع كانت لا تزال جارية، فقد اعتقل كولينز -في الوقت الراهن- بناء على شبهة حيازته مسروقات؛ وذلك لأن من المحتمل كثيرًا أن يتمكّنوا من إثبات هذه التهمة عليه، بالنظر إلى طبيعة بعض القطع التي وجدها في مجموعة المقتنيات في بيته؛ ثم إن الاشتباه في حيازة المسروقات يمنحهم صلاحية تفتيش البيت. لكنهم كانوا -بطبيعة الحال- يريدونه لأمر يتجاوز ذلك. وبصرف النظر عن كثرة الأسئلة التي كانت لدى بيتْ، فإنه لم يكن يعتزم أبدًا تعريض مسار التحقيق للخطر من خلال استجواب كولينز هنا، في هذا الوقت. لا بد من فعل ذلك في مركز الشرطة بحيث يكون كل شيء مسجّلًا فلا تشوب التحقيق أيّة شائبة.

قال له كولينز: «لن يعثروا على أي شيء عندي».

تجاهله بيتْ. تجاهله لأنهم عثروا على شيء -بالطبع- ولأن كولينز بدا على صلة بما وجدوه. لقد جرى العثور على بقايا قديمة لجثة طفل. لقد كان كولينز على الدوام شديد الاهتمام بكارتر وبجرائمه؛ وقد زار صديق فرانك كارتر في السجن. وكان يحوم حول البيت الذي وجدوا فيه الجثة الثانية. لقد كان كولينز عارفًا بوجود الجثة هناك -وكان بيت واثقًا من هذا-. إلا أن ما هو أكثر أهمية -مع أن التحديد الرسمي لهوية الجثة سيستغرق بعض الوقت- هو أنه كان واثقًا أيضًا من أن تلك الجثة هي جثة توني سميث.

لقد عثرنا عليك بعد عشرين عامًا!

في ضوء هذا كلّه، كان ينبغي لهذه التطوّرات أن تأتيه بشيء من الإحساس بالراحة نتيجة التوصّل إلى إغلاق القضية المستمرّة منذ زمن طويل. فقد كان يبحث عن جثة الصبي طيلة ذلك الوقت. لكن الإحساس بالراحة لم يأتِ. لم يكن قادرًا على منع نفسه من التفكير في عطلات نهاية الأسبوع كلّها التي أمضاها في البحث، فمشّط الغابة والأجمات ضمن منطقة تبعد أميالًا كثيرة عن هذا المكان. في حين كان توني ثاويًا في موضع أقرب كثيرًا مما يمكن أن يتخيّله أي شخص.

كان معنى هذا أن هناك شيئًا قد سها عنه منذ عشرين عامًا.

نظر إلى التابليت في حضنه. أحسّ برغبة شديدة في الشرب، الآن... أليس غريبًا كيف يحدث هذا؟ كثيرًا ما ينظر الناس إلى الكحول باعتباره واقيًا من أهوال العالم. لكنّ جثّة توني سميث قد اكتشفت؛ ومن المحتمل كثيرًا جدًّا أن الرجل المسؤول عن قتل نيل سبنسر قد صار قيد الاحتجاز، جالسًا الآن خلفه مباشرة... لكن ذلك الدافع الملحّ إلى الشرب كان أقوى من أي وقت مضى. لكنْ، هناك دائمًا أسباب كثيرة تدعو إلى الشرب. وما كان لديه إلا سبب واحد حقيقي يدعوه إلى الامتناع عنه.

يمكنك أن تشرب في وقت لاحق. يمكنك أن تشرب قدر ما تريد.

قبِلَ فكرة أنه سيشرب. مهما يكن ما يحقّق هذه الرغبة!... الأمر بسيط إلى هذا الحدِّ. في الحرب، يستخدم المرء أي سلاح يكون في متناوله حتى يخرج من المعركة منتصرًا، ثم يعيد تجهيز نفسه ويخوض المعركة التالية. وبعدها معركة أخرى. وبعدها كل ما يأتي من معارك.

مهما يكن ما يحقّق هذه الرغبة!

قال كولينز ملحًّا: «لم أفعل شيئًا خاطئًا».

«أطبق فمك».

نقر بيت على التابليت. لا سبيل إلى تفادي هذا الأمر: كان عليه أن يعرف ما سها عنه طيلة تلك السنين، وما جعله يسهو عنه؛ وكان البيت الذي في شارع غارهولت حيث عثروا على بقايا جثة توني، هو النقطة التي ينبغي عليه أن يبدأ منها.

راحت عيناه تستعرضان المعلومات كلّها. حتى وقت قريب، كان البيت ملكًا لامرأة اسمها آن شيرينغ، لقد ورثته عن أبويها، لم تسكن فيه منذ عشرات السنين، بل أجّرته لأشخاص مختلفين.

وجد أمامه قائمة طويلة من المستأجرين؛ لكن بيتْ افترض أنه يستطيع غضّ النظر عمن سكنوه قبل سنة 1997، تلك السنة التي ارتكب فيها فرانك كارتر جرائمه. كان المستأجر في ذلك الوقت رجل اسمه جوليان ثمبسون. وفي تلك السنة كان قد مضى على وجوده في البيت أربع سنين، ثم استمرت إقامته فيه إلى سنة 2008. فتح بيت شاشة جديدة على الجهاز، ثم أجرى

بحثًا فاكتشف أن ثمبسون قد مات بالسرطان في تلك السنة، وكان عمره سبعين عامًا. عاد إلى الشاشة السابقة. كان المستأجر التالي للبيت رجل اسمه دومينيك بارنيت: لقد ظلّ في البيت حتى وقت سابق من هذه السنة.

دومينيك بارنيت.

تجهمّ وجه بيتْ. لقد جعله هذا الاسم يتذكّر شيئًا. أجرى بحثًا آخر فتذكّر المعلومات كلّها على الرغم من أنه لم يتولَّ تلك القضية بنفسه. لقد كان بارنيت شخصية ثانوية في عالم الجريمة، وكان متورّطًا في قضايا ابتزاز ومخدّرات. كان معروفًا لدى الشرطة، لكنّهم اعتبروه شخصًا قليل الشأن ضمن اللوحة العامة. لم تكن في سجّله أيّة إدانة قضائية خلال السنوات العشر الأخيرة... لكن، بالطبع، ليس معنى ذلك أنه كان قد صار شخصًا مستقيمًا؛ ولم يفاجأ أحد عندما اكتشفوا مقتله. وجدوا على سلاح الجريمة -مطرقة- أجزاء من بصمات شخص ما، لكنهم لم يعثروا في قاعدة البيانات لديهم على بصمات مطابقة. ثم فشلت تحرّيات لاحقة في التوصّل إلى أي شخص يمكن الاشتباه في ارتكابه تلك الجريمة. إلا أنهم عمدوا إلى طمأنة الناس في المنطقة: على الرغم من عدم قيام الشرطة بإلقاء القبض على أحد، فقد كانت ترى أن تلك الجريمة حادثة معزولة استهدفت ذلك الشخص تحديدًا. ثم إن كل من يقرأ بين السطور كان قادرًا على استنتاج ما هو كامن خلف هذا. من يعش بالسيف، بالسيف يموت!

وبالنظر إلى قلّة اهتمام بيتْ بالقضية في ذلك الوقت، فقد افترض الأمر نفسه. لكنه صار الآن يفكّر فيها. صحيح أن المخدرات هي الدافع الأكثر ترجيحًا في جريمة القتل تلك. إلا أن بارنيت عاش في بيت كانت جثة بشرية قد خُبّئت فيه. بدا له مستحيلًا ألا يكون بارنيت عارفًا بذلك. فهل يوحي هذا بوجود دافع آخر وراء قتله؟

رفع رأسه ونظر إلى نورمان كولينز في المرآة. نظر إليه لحظة. كان كولينز ينظر عبر النافذة نظرة جامدة إلى بيته.

كان هنالك ثلاثة رجال يمكن التفكير فيهم: جوليان سمبسون، ودومينيك بارنيت اللذين عاشا في هذا البيت. ونورمان كولينز الذي كان عارفًا بما هو مخبأ هناك. فما الذي يربط بين هؤلاء الثلاثة. ما الذي حدث منذ عشرين سنة، وفي السنين التي أعقبت ذلك؟

حمّل بيتْ خريطة فيذربانك على الجهاز. يقع شارع غارهولت على المسار الطبيعي بين مكان اختطاف توني سميث والاتجاه الذي فرّ منه فرانك كارتر. في ذلك الوقت، أكّدت الأدلّة الجنائية أن توني كان في شاحنة كارتر الصغيرة. لكن... إن كان أحد قد أخبر كارتر أن الشرطة قد فتشت بيته، فقد كان في وسعه أن يضع جثة الصبي في شارع غارهولت قبل فراره. كان جوليان سمبسون يعيش في ذلك البيت آنذاك.

لم يكن بيتْ في حاجة إلى العودة إلى ملفّ القضية حتى يعرف أن سمبسون لم يرد له ذكر في التحقيقات التي أُجريت في ذلك الوقت. جرى التدقيق، بعناية تامة، في معارف كارتر كلّهم. لكن سمبسون لم يكن واحدًا منهم.

ولكن...

كان سمبسون في الخمسين من عمره عندما جرت جرائم الاختطاف تلك؛ وهذا يعني أن سنّه مطابق للوصف المضطرب الذي قدّمه أحد الشهود. لعلّه كان شريك كارتر! إن كان كذلك، فلا بد من وجود صلة بين الرجلين، مهما تكن صلّة غير مباشرة. إلا أن بيتْ لم يكتشف تلك الصلة.

كان إحساسه بالفشل عنيفًا.

كان عليك أن تجده منذ وقت طويل!

مهما يكن ما فعله أو لم يفعله، فإن الغلطة تظلّ غلطته. كان يعرف أنه سيجد طريقة يلوي بها الأمور بحيث يقع اللوم عليه. لكن ذلك الإحساس لم يفارقه.

لا قيمة لك!

لا نفع منك!

سوف تشرب، في ما بعد.

رن هاتفه إنها أماندا من جديد.

أجاب على الهاتف: «ويليس. لا أزال عند بيت كولينز. سأكون في طريق العودة حالًا».

«كيف يجري التفتيش؟».

«إنه جارٍ».

ألقى نظرة سريعة في اتجاه البيت عارفًا أن التركيز يجب أن يكون منصبًّا عليه. الأولوية الآن هي إثبات تورّط كولينز، وليس التوصّل إلى معرفة ما سها عنه بيت -أو لم يسهُ عنه- منذ عشرين سنة. يمكن لهذا الأمر أن ينتظر.

قالت له أماندا: «حسنًا. إن صاحب البيت وابنه عندي. وأنا في حاجة إلى من يساعدني في ما يتعلّق بهما. علينا تأمين مأوى لهما لقضاء هذه الليلة. أشياء من هذا القبيل».

أحسّ بيتْ بقدرٍ من الاستياء. ففي أحسن الأحوال، ليست هذه إلا مهمة ثانوية. كان بيتْ يدرك معنى هذا: سوف تتولّى أماندا التحقيق مع نورمان كولينز. لكن، لعلّ الأمر يكون أفضل هكذا... لعلّه يكون أكثر «نظافة»! لا يريدون لتاريخه السابق مع الرجل أن يلقي بظلّه على التحقيق. ستأتي الإجابات عن أسئلته في وقتها، لكنه ليس مضطرًا إلى أن يكون الشخص الذي يطرح تلك الأسئلة.

أدار محرّك السيارة وقال لأماندا: «أنا في طريق العودة».

قالت أماندا: «اسم الرجل توم كينيدي. وابنه جيك. اجلب كولينز أولًا، ثم اذهب إليهما. إنهما في واحدة من غرف الاستراحة لدينا».

ظل بيثْ صامتًا لحظة. كانت يده الحرة على مقود السيارة. نظر إلى تلك اليد فلاحظ أنها قد بدأت ترتعش.

قالت أماندا: «بيثْ!... هل أنت معي؟».

«أجل. أنا في طريق العودة».

أغلق الهاتف ورماه على المقعد إلى جانبه. وبدلًا من أن ينطلق بالسيارة، أوقف محرّكها وتناول التابليت من جديد. لقد جعله استغراقه في الماضي ينسى التفكير في الحاضر: لم ينظر إلى المعلومات الخاصّة بالرجل الذي هو صاحب البيت الآن.

فاشل... كما هو دائمًا!

بحث عن صاحب البيت متسائلًا في نفسه عمّا إذا كان قد أخطأ سماع ما قالته أماندا. لكن، ها هو الرجل. توم كينيدي. أخيرًا... رجل يعرفه!

31

سألني جيك: «هل عثروا عليه، يا بابا؟».

كنا في مركز الشرطة، وكنت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا منتظرًا عودة المحقّقة أماندا بيك بإفادتي حتى أضع توقيعي عليها؛ لكن كلمات ابني جعلتني أتوقّف في مكاني.

كان جالسًا على كرسي كبير جدًّا عليه. وكان يؤرجح ساقيه أرجحة خفيفة، وقد استقرت على الطاولة إلى جانبه علبة من عصير البرتقال لم يمسّها بعد. كان الشرطي دايسون قد قدّم إليه تلك العلبة عقب وصولنا. قالوا إنهم سيجلبون لي قهوة، لكننا هنا منذ عشرين دقيقة، ولم تظهر بعد أية إشارة إلى وصول تلك القهوة، ولا إلى وصول المحقّقة بيك.

خلال ذلك الوقت كلّه، لم يكد يجري أي كلام بيني وبين جيك. لم أكن أعرف ما أقوله له الآن. كان سيري في الغرفة محاولة لملء الصمت بقدر ما كان محاولة لملء الفراغ.

«أجل. لقد عثروا على الرجل الذي جاء إلى بيتنا».

«ليس هو من أسألك عنه».

الصبي الذي في الأرض.

حدّقت في ابني لحظة، لكنه نظر إليَّ من غير أن يظهر عليه أي قلق أو خوف. كان أمرًا مدهشًا أن يستطيع تلقّي كل ما يجري في عالمه كما لو أنه أمر طبيعي تمامًا كما لو أننا نتحدّث عن صبي كان يلعب لعبة الاختباء والبحث، لا عن بقايا كائن بشري ظلّت مخبأة في أرضية مرأب بيتنا عددًا كبيرًا من السنين... بقايا كان من المستحيل أن يعرف أي شيء عنها.

كان هذا شيئًا لا ينبغي لنا أن نتحدّث عنه. ليس هنا! لقد كانت الإفادة التي قدّمتها إلى الشرطة صادقة، لكنها ناقصة لأنني لم أذكر فيها رسوم الفراشات، ولأنني لم أقل لهم شيئًا عن حديث جيك مع الصبي الذي في الأرض. لم أكن أعرف سببًا لامتناعي عن قول ذلك غير حقيقة أنني لم أستطع فهم شيء منه، وأنني أردت حماية ابني. كانت هذه كلّها أمورًا ينبغي على الكبار تحمّل أعبائها، ولا علاقة لها بطفل عمره سبع سنين.

قلت: «نعم، يا جيك. هذا ما عنيته بسؤالك. أليس كذلك؟ هذا خطير».

فكّر في الأمر قليلًا وقال: «لا بأس».

«سنتكلّم لاحقًا في الأمر الآخر». نهضت واقفًا، لكنّي أدركت أن ما قلته لم يكن كافيًا تمامًا، وأن جيك يستحقّ أن يعرف أكثر... «لكن... نعم. لقد عثروا عليه».

أنا من عثر عليه!

قال جيك: «هذا جيّد. لقد كان يخفيني قليلًا».

«أعرف هذا».

«لكنّي لا أظنّ أنه كان يريد إخافتي...». تجهّم وجه جيك قليلًا... «أظنّه كان يشعر بالألم والوحدة فحسب، وأن ذلك كان يجعله سيّئ الطبع بعض الشيء. لكنهم عثروا عليه، وهذا يعني أنه لن يشعر بالوحدة بعد الآن، أليس كذلك؟ صار قادرًا على العودة إلى بيته. ولن يكون سيّئ الطبع».

«كان ذلك كلّه من صنع خيالك، يا جيك».

«لا، ليس كذلك».

«سنتحدّث عن هذا في وقت لاحق. هل اتفقنا؟». نظرت إليه تلك النظرة التي أحاولها دائمًا عندما أريد وضع نهاية للحديث. عادة، لا تكون لهذه النظرة أية سلطة على الإطلاق. وعادة ما ينتهي الأمر، بعد دقيقة من ذلك، بأن يصرخ واحد منا في وجه الآخر. لكنه أومأ برأسه موافقًا، ثم استدار في كرسيه وتناول العصير وبدأ يشربه من غير مبالاة بأي شيء.

فُتح الباب من خلفي. استدرت فرأيت الشرطي دايسون يدخل الغرفة حاملًا فنجانين من القهوة. أبقى الباب مفتوحًا بأن أسند ظهره إليه حتى تدخل المحقّقة بيك التي كانت آتية خلفه مباشرة. رأيت أوراقًا في يدها، وبدا عليها أنها مرهقة مثلي: امرأة لديها مليون شيء تفعله، لكنها مصمّمة على فعل كل شيء بنفسها.

قالت لي: «سيد كينيدي، إنني آسفة حقًّا لأنني جعلتك تنتظر. آه... لا بد أن هذا هو جيك».

تجاهلها ابني وظلّ منشغلًا بشرب العصير.

قلت له: «جيك! هل يمكن أن تقول مرحبًا، من فضلك».

«مرحبًا».

استدرت إلى المحقّقة بيك: «لقد كان يومًا طويلًا».

«أفهمك تمامًا. لا بد أن هذا أمر شديد الغرابة بالنسبة إليه»... انحنت في اتجاهه واضعة يديها على ركبتيها بطريقة خرقاء بعض الشيء كما لو أنها غير واثقة من كيفية الكلام مع طفل... «هل دخلت مركز شرطة من قبل، يا جيك؟».

هز رأسه نفيًا، لكنه لم يقلّ لها شيئًا.

«حسنًا»... ضحكت ضحكة مرتبكة، ثم استوت واقفة... «آمل أن تكون هذه أول وآخر مرة. على أية حال، يا سيد كينيدي، هذه هي إفادتك، أرجو أن تقرأها وأن تتأكّد منها، وأن توقّعها. وها هي قهوتك أيضًا».

«أشكرك».

ناولني دايسون القهوة، فرحت أرتشف منها وأنا أقرأ الإفادة الموضوعة على الطاولة. لقد شرحت فيها ما أعرفه عن نورمان كولينز، وما أخبرتني به السيدة شيرينغ عنه وعن دومينيك بارنيت. كما تحدّثت عن الرجل الذي كان عند باب بيتي يهمس لجيك الليلة الماضية. جعلني هذا كلّه أتحرّى المرأب حتى أعرف ما يبحث عنه كولينز. هكذا عثرت على بقايا الجثة.

ألقيت نظرة سريعة في اتجاه جيك الذي كان الآن يحاول امتصاص آخر ما بقي في علبة العصير... كان السائل يقرقع في أسفلها. ثم وضعت توقيعي على الصفحة الأخيرة.

قالت بيك: «يؤسفني أنكما لن تستطيعا العودة إلى البيت هذه الليلة».

«لا بأس».

«ومن المحتمل أن يستمرّ الأمر أيضًا حتى ليلة الغد. بطبيعة الحال، يسعدنا أن نرتّب لكما إقامة في مكان آخر خلال هذه الفترة. إن لدينا بيتًا آمنًا على مقربة من هنا».

توقّفت يدي الممسكة بالقلم: «وما الذي يجعلنا في حاجة إلى بيت آمن؟».

قالت بسرعة: «لستما بحاجة إلى بيت آمن. إنه بيت متوفّر لدينا. لكني سأطلب من زميلي المحقّق بيتْ ويليس أن يشرح لكما ذلك كلّه. إنني أنتظر وصوله في أية لحظة. وسوف أترككما عند ذلك... ها هو قد وصل».

فُتح الباب مرة أخرى، ودخل الغرفة رجل جديد. قالت المحققة بيك: «بيتْ، هذان هما توم وجيك كينيدي».

نظرت إلى الرجل فأحسست كما لو أنّ كلّ شيء آخر في العالم قد اختفى. لقد مرّ زمن طويل جدًّا؛ والظاهر أن تلك السنين كلّها لم تكن قاسية عليه. لكن، ومع أنه صار أكثر رشاقة وعافية مما أتذكّره، لكنّي عرفته لأن الكبار يتغيرون أقل كثيرًا مما يتغيّر الأطفال. هزتني معرفته هزّة أحسستها في قلبي، ثم تلتها ذكرى مدفونة اندفعت كلّها وتفتّحت في رأسي.

لقد عرفني أيضًا! بالطبع، عرفني! لا بد أنه عرف اسمي قبل دخوله وحظي بالوقت الكافي من أجل إعداد نفسه لهذا اللقاء. وعندما اقترب مني -بمظهر مهني رسمي- تخيّلت أن ما من أحد آخر يمكن أن يلاحظ تعبير الألم في وجهه.

صوت تحطم زجاج.

أمي تصرخ.

قال أبي: «مرحبًا، سيد كينيدي».

32

كان جيك يقول في نفسه إن ذلك اليوم كان مربكًا إلى حدٍّ كبيرٍ.

فمن ناحية أولى، كان في غاية التعب نتيجة ما حدث في الليل، لكنه لم يتذكّر الكثير عن ذلك. كان نصف نائم في ذلك الوقت. لكنه لا يزال غاضبًا جدًّا على بابا بسبب ما كتبه. وعندما أتت الشرطة أصابه غضب شديد لأن بابا قال لهم إن ماما ميتة كما لو أن هذا شيء قليل الأهمية. لم يكن غضبه أمرًا حسنًا، لكنه لم يستطع تمالك نفسه.

إلا أن ذلك الغضب تناقص خلال النهار؛ وكان هذا أمرًا محيّرًا في حدّ ذاته. لكن... تختفي الخلافات أحيانًا مثلما يختفي ضباب الصباح الذي يراه المرء عند استيقاظه. إلا أنه شعر بوحدة شديدة عندما كان في الصف، ورغب كثيرًا في أن يعانق بابا ويقول له إنه آسف، ويسمعه يقول له إنه آسف أيضًا.

في ذلك الوقت، أحسّ كما لو أن الأمور يمكن أن تتحسّن.

ثم فعل أوين ما فعله، وكذلك فعل جيك، وكانت النتيجة ذهابه إلى مكتب الآنسة والاس. الحقيقة أن ذلك لم يكن شديد السوء في حدّ ذاته... لولا سببين كبيرين اثنين. الأول هو أن رزمة الأشياء الخاصّة ظلّت في الصف مما يعني أن من الممكن تمامًا أن تكون قد بقيت تحت رحمة أوين الشرير. كان هذا أمرًا لا يستطيع احتمال التفكير فيه.

«هل يمكنك أن تنظر إلي، من فضلك؟». كانت الآنسة والاس مضطرّة إلى تكرار هذا السؤال مرتين، لأن جيك لم يستطع إبعاد عينيه عن باب مكتبها المغلق. وأما السبب الآخر... حسنًا، كان يعرف أن بابا سينزعج ويغضب منه لأنه تورّط في مشكلات جديدة. وهذا يعني أن وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن تتحسّن الأمور. على هذا المنوال، قد لا تتحسّن الأمور أبدًا!

بل إن من الممكن أيضًا أن يكتب بابا كلمات فظيعة عنه مثلما كتب ذلك الكلام عن ماما.

كان لديه شيء من الظنّ بأن بابا يريد أن يكتب ذلك الكلام.

لكنه لم يلبث أن عاد إلى صفه ووجد رزمته كما هي لم يمسّها أحد، فخطر في ذهنه احتمال أن يكون عليه الإكثار من ضرب الآخرين. وعندما انتهت المدرسة وجاء بابا لأخذه، لم يبد عليه أبدًا أنه غاضب منه؛ بل الحقيقة أنه راح يجادل السيدة شيرينغ! رأى جيك أن هذا سلوك جريء، بالتأكيد. ولكن...! ما كان أكثر أهمية من هذا هو أن بابا قد وقف في صفه. رأى جيك ذلك بكل وضوح على الرغم من أن بابا لم يقله مباشرة. صحيح أن بابا لم يعانقه، لكن ما جرى جعل كل شيء يبدو له جيّدًا كما لو أنه عانقه بالفعل.

ثم صارا الآن جالسين في مركز الشرطة.

في البداية، كان ذلك أمرًا لا بأس به لأنه أثار اهتمامه حقًا. وقد سرّه خاصّة ذلك اللطف الذي أبداه الجميع تجاهه. لكنه الآن راغب في الذهاب. ثم حدث الأمر الآخر -دخول شرطي جديد- فصار كلّ شيء أكثر تشوّشًا وإثارة للحيرة نتيجة تغيّر سلوك بابا. كان على ما يرام مع أفراد الشرطة الآخرين، لكنه صار يبدو الآن شاحبًا، مذعورًا... كأن المكان صار بالنسبة إليه غرفة صف، وكأن الشرطي الجديد شخص مثل السيدة شيرينغ.

فكّر في الأمر فوجد أن الشرطي الجديد بدوره بدا له غير مرتاح. وعندما خرجت الشرطية حاملة الورقة التي وقّعها بابا، ثم أغلقت الباب من خلفها، أحسّ كما لو أن جو الغرفة قد صار شديد الغرابة. بدا له كما لو أن هناك مادّةً لاصقةً قد جعلت كل واحد ثابتًا في مكانه.

وبعد ذلك، سار الشرطي الجديد مقتربًا منه بخطوات بطيئة، ثم نظر إليه.

قال له: «لا بد أنك جيك».

«أجل»... كانت هذه إجابة صحيحة إلى حدٍّ آمن... «أنا جيك».

ابتسم الرجل، لكن ابتسامته كانت غريبة. كان له وجه يبدو قادرًا على أن يكون في غاية اللطف؛ إلا أن ابتسامته الآن كانت مضطربة. وبعد لحظة من ذلك، مد الرجل يده فصافحها جيك لأن ذلك هو التصرّف المهذب الصحيح. كانت يد الشرطي كبيرة، دافئة... أمسكت يده بلطف شديد.

«يسرّني أن أراك، يا جيك. يمكنك أن تدعوني بيتْ».

أجابه جيك: «مرحبًا بيتْ. تسرّني رؤيتك أيضًا. لماذا لا نستطيع الذهاب إلى بيتنا؟ قالت الشرطية لبابا إننا لا نستطيع الذهاب إلى البيت».

عبس بيتْ قليلًا، ثم ركع أمامه ونظر إليه بطريقة أوحت له بأنه قد يكون في الأمر سرٌّ ما. بادله جيك نظرته حتى يجعله يعرف أنه لا يخفي شيئًا. لا أسرار هنا، يا سيد!

قال بيتْ: «الأمر في غاية التعقيد. علينا أن نقوم ببعض التحرّيات في بيتكم».

«وهل ذلك بسبب الصبي الذي في الأرض؟».

«صحيح».

لكن بيتْ نظر إلى بابا بعد ذلك، فتذكّر جيك أنه ما كان ينبغي له ذكر الصبي. لكن جو الغرفة -صدقا- كان غريبًا إلى حدٍّ يصير معه من السهل أن ينسى المرء أشياء من هذا القبيل.

قال بابا: «لقد أخبرته بما عثرت عليه».

«لكن، كيف عرفت أنه صبي؟».

كان بابا واقفًا في مكانه، لكنه بدا عالقًا على نحو ما... كما لو أنه راغب في الحركة إلى الأمام، أو إلى الخلف، لكنه نسي كيف يحرّك جسده. صار لدى جيك إحساس مزعج بأنه لو تذكّر بابا كيف يتحرك بشكل صحيح، فسوف يتحرّك إلى الأمام... وستكون حركته هجومية أيضًا.

قال بابا: «لم أعرف هذا. لقد قلت جثة. لا بد أنه لم يسمع الكلمة جيدًا»[3].

قال جيك بسرعة: «هذا صحيح». لم يكن يريد أن يقدّم بابا على ضرب أي شخص -على ضرب شرطي خاصة- فقد بدا الآن موشكًا على فعل ذلك حقًّا.

نهض بيتْ بحركة بطيئة: «لا بأس. حسنًا، فلنتحدّث عن بعض الأمور العملية. أليس لدينا إلا أنتما الاثنين؟».

قال بابا: «نعم، اثنان فقط».

«وماذا عن والدة جيك؟».

لا يزال بابا غاضبًا: «ماتت زوجتي السنة الماضية».

«يؤسفني هذا. لا بد أن الأمر هذا كان شديد القسوة عليكما».

«نحن بخير».

«أرى هذا».

شيء مربك جدًّا! أراد جيك أن يهزّ رأسه نفيًا. بدا له الآن أن بيت غير قادر على النظر إلى بابا. لكن بيتْ شرطي؛ وهذا يعني أن له سلطة هنا، أليس هذا صحيحًا؟

«نستطيع تأمين مكانٍ لإقامتكما. لكنكما قد تكونان غير راغبين في ذلك. هل لكما أقارب تفضّلون الإقامة لديهم؟».

قال بابا: «لا. أبي وأمي ميتان».

ظهر على بيتْ شيء من التردّد، أو الارتباك: «فهمت. يؤسفني أيضًا أن أسمع هذا».

«لا بأس».

وعند ذلك تقدم بابا خطوة إلى الأمام. حبس جيك أنفاسه.

لكن بابا بدا في تلك اللحظة كما لو أنه راغب فقط في ضرب شخص ما؛ لكنها رغبة فقط!

«حدث هذا منذ زمن بعيد جدًا».

«نعم...» استنشق بيتْ نفسًا عميقًا، لكنه ظلّ ممتنعًا عن النظر إلى بابا. كان يحدّق في الجدار، فأحسّ جيك كما لو أنه قد صار يبدو فجأة أكبر سنًا بكثير مما بدا له عندما دخل الغرفة... «في هذه الحالة، يمكننا الآن تأمين مكان لإقامتكما».

«سيكون هذا أمرًا حسنًا... نعم».

«لكنّي واثق من أنكما في حاجة إلى بعض الأشياء من البيت. يمكنني الذهاب معكما إلى بيتكما، إن أحببتما الذهاب. وهناك، تستطيعان أخذ ما يلزمكما... ملابس احتياطية، وأشياء أخرى».

«هل ينبغي أن تكون معنا؟».

«أجل. إنني آسف! البيت موقع جريمة! وعليَّ تسجيل كل ما تأخذانه منه».

قال بابا: «حسنًا. ليس هذا بالأمر الجيّد تمامًا، أليس كذلك؟».

أخيرًا، نظر بيتّ إلى بابا: «أعرف. وأنا آسف».

هز بابا كتفيه. لا تزال عيناه لامعتين.

«هكذا هو الأمر. إذًا، فلنقم به! هل نذهب؟ جيك... عليك التفكير في الألعاب التي ترغب في أخذها... هل اتفقنا؟».

«اتفقنا».

لكن جيك راح ينقل عينيه بين الرجلين -بابا وبيتْ- فلم ير أحد منهما يتحرّك... بدا له كلًا منهما غير عارف أبدًا بما ينبغي فعله بعد ذلك، فاستنتج جيك أن أحدًا منهما لن يتحرك إذا لم يبادر بنفسه إلى فعل شيء ما. وضع علبة العصير الفارغة بحركة قوّية، فأصدرت صوت خبطة واضحًا.

قال: «أريد أن آخذ أشياء الرسم، يا بابا. لا أريد غيرها».

33

انتصارات صغيرة في أيام صعبة. عليكِ أن تتمسّكي بها هكذا قالت أماندا في نفسها عندما جلست في غرفة الاستجواب قبالة نورمان كولينز. فبعد الأهوال التي رأتها في الليلة الماضية، وبعد إحساسها بالفشل لأنها لم تستطع العثور على نيل سبنسر قبل قتله، كانت الآن مستعدّة لشيء من الشراسة. غالبًا ما تكون الانتصارات الصغيرة هي كل ما يحقّقه المرء.

قالت له: «آسفة لهذا الانقطاع، يا نورمان. فلنتابع».

«بالفعل. فلنصل بهذا الأمر إلى نهاية سريعة!».

ابتسمت ابتسامة مهذّبة: «بكل تأكيد، فلنفعل هذا».

طوى كولينز ذراعيه على صدره مبتسمًا ابتسامة صغيرة ساخرة. لم يفاجئها ذلك. لقد فهمت منذ وقعت عيناها عليه، فهمت بالضبط، ما كان بيتْ يعنيه عندما قال إن في هذا الرجل شيئًا منفّرًا. كان من ذلك النوع من الأشخاص الذين تدفعك غريزتك إلى اجتياز الشارع حتى تتفاداه. لم تر في هيئته الرسمية المبالغ فيها إلا ضربًا من ضروب التنكر محاولة للظهور بمظهر محترم؛ لكنها هيئة غير قادرة على إخفاء شيء كريه مختبئ خلفها. كان واضحًا من سلوكه أنه يرى نفسه مختلفًا عن بقية الناس... بل يرى نفسه متفوقًا عليهم.

مرت عشرون دقيقة على بداية الاستجواب؛ وكان يجيب على كل سؤال تطرحه... لا يزال لديه سبب وجيه لإحساسه بأنه متفوّق عليها! لكن ستيفاني قرعت الباب في تلك اللحظة ومدّت رأسها داخل الغرفة، فأشارت أماندا لنورمان بأنها ستوقف الاستجواب قليلًا. وبعد ذلك، مدّت يدها فشغّلت آلة التسجيل من جديد، ثم أعادت استعراض المعلومات الأولية.

تنهد كولينز الجالس أمامها... تنهّد لنفسه بطريقة مسرحية.

نظرت إلى الورقة التي أتت بها الآن معها. سيكون مما يسرّها أن تمسح تلك الابتسامة الساخرة عن وجه هذا التافه الحقير.

لكن، لا بد من بعض الأمور أولًا!

قالت له: «يا سيد كولينز، بغية الوضوح، فلنعد سريعًا إلى بعض الأشياء التي تحدّثنا عنها قبل قليل. في شهر تموز من هذا العام، قمت بزيارة فكتور تايلر في سجن ويترو. ما الغاية من تلك الزيارة؟».

«إن لديَّ اهتمامًا بالجرائم. وفي بعض الدوائر، يعتبرونني خبيرًا في هذا الميدان. لقد كنت مهتمًّا بالحديث مع السيد تايلر عما فعله. وأنا واثق من أن ذلك شبيه بحديث الشرطة معه خلال تلك السنين».

قالت أماندا في نفسها: لعله ليس شبيهًا به تمامًا!

وسألته: «هل تطرّق حديثكما إلى فرانك كارتر؟».

«لم يتطرّق إلى فرانك كارتر».

«هل كنت على علم بأن تايلر صديق لكارتر؟».

«لم أكن أعرف هذا».

«يبدو لي الأمر غريبًا. ألم تقل إنك خبير في هذه الأمور؟».

قال كولينز مبتسمًا: «لا يمكن توقّع أن يعرف المرء كل شيء».

كانت أماندا واثقة من أنه كاذب. لكنها لم تكن تملك تسجيلًا للحديث الذي جرى بين كولينز وتايلر، ولم تكن لديها وسيلة تثبت بها كذبه.

قالت له: «لا بأس. أين كنت بعد ظهر ومساء يوم الأحد الواقع في الثلاثين من تموز من هذا العام، أي ليلة اختطاف نيل سبنسر؟».

«لقد أخبرتك بهذا. كنت في البيت خلال الشطر الأكبر من فترة ما بعد الظهر. وبعد ذلك، ذهبت سيرًا على الأقدام إلى تاون ستريت وتناولت العشاء في مطعم هناك».

«أمرٌ حسن أن تكون قادرًا على التذكّر بهذا الوضوح».

رفع كولينز كتفيه: «إن لي عادات ثابتة. كان ذلك يوم أحد. عندما كانت أمي حيّة، كنا نذهب معًا. وأما الآن، فأنا أتناول طعامي وحدي».

كانت أماندا تعرف هذا فقد أكّده صاحب المطعم. وكان معنى ذلك أن كولينز لديه إثبات قوي لوجوده في مكان آخر خلال الفترة الزمنية التي جرى فيها اختطاف نيل سبنسر. كان تفتيش بيته لا يزال جاريًا، إلا أن الشرطة لم تعثر، حتى تلك اللحظة، على ما يوحي بأن نيل قد كان محتجزًا هناك. كانت واثقة من أن كولينز متورّط كل التورط -على نحو ما- في ما يجري. إلا أنه يبدو الآن بريئًا من فعل اختطاف نيل سبنسر.

قالت له: «البيت رقم 13 في شارع غارهولت».

«ماذا عنه؟».

«لقد حاولت شراء ذلك البيت».

«هذا صحيح. كان البيت معروضًا للبيع. لم تكن لديّ أيّة فكرة عن أن هذا الأمر يعتبر جريمة».

«لم أقل إنه جريمة».

«كان البيت مطروحًا في السوق. أعيش في بيتي الحالي منذ فترة طويلة جدًّا. وقد أحسست بأنه قد حان الوقت لكي أفرد جناحيَّ قليلًا... أعني... أن أُدخل تغييرًا على حياتي».

«وبعد ذلك، عندما رفضت صاحبة البيت عرضك لشرائه، ذهبت وحاولت الدخول إليه خلسة».

هز كولينز رأسه: «لم أفعل ذلك أبدًا».

«يدّعي السيد كينيدي أنك حاولت دخول مرأب بيته».

«ببساطة، كلامه غير صحيح».

«إنه المرأب الذي تم فيه العثور على بقايا جثة طفل».

كان على أماندا أن تعترف لنفسها بمهارة كولينز. صحيح أنه لم يكن لديها أي شك في معرفته بما وجدوه هناك، إلا أنه عرف كيف يتظاهر بالدهشة. لم يكن تظاهره مقنعًا لها على الإطلاق، لكن الدهشة ظهرت عليه.

قال لها: «هذا... مفاجئ جدًا».

«لست واثقة من أنني أصدقك، يا نورمان».

«لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك»... عبس قليلًا... «هل تحدثتم مع المرأة التي باعت البيت؟ أظن أن عليكم أن تسألوها؟».

«في هذه اللحظة، ينصبّ اهتمامي على السّبب الذي جعلك شديد الاهتمام بذلك البيت».
«لقد أجبتك عن هذا السؤال: لم أكن شديد الاهتمام. وذلك السيد... كينيدي، أليس هذا اسمه؟ إنه مخطئ، لم أقترب من بيته أبدًا».

حدّقت أماندا فيه، فقابل نظرتها بنظرة ثابتة. كلمة شخص مقابل كلمة شخص آخر! وحتى إذا تمكّنوا من عرض كولينز أمام كينيدي ضمن مجموعة من الأشخاص الآخرين وتمكن كينيدي من التعرف عليه، فمن الممكن تمامًا ألا يكون هذا كافيًا لتبرير توجيه أية تهمة إليه. الحقيقة أنهم -حتى هذه اللحظة- غير قادرين على إثبات معرفته أي شيء عن وجود بقايا الجثة في المرأب. وما من شيء لديهم يثبت علاقته باختطاف نيل سبنسر. بالنظر إلى الأشياء التي وجدوها في مجموعته قد يستطيعون اتهامه بحيازة مسروقات. لكن، ربما يفشلون في هذا أيضًا.

وكان هذا القذر الوقح يدرك ذلك كلّه.

أو، يظنّ أنه يدرك ذلك!

نظرت أماندا من جديد إلى الورقة التي أعطتها إياها ستيفاني نتائج مطابقة بصمات الأصابع التي أخذوها من نورمان كولينز عندما وصل إلى مركز الشرطة. على الرغم من أنها لم تستطع الاقتراب من إثبات أي شيء عليه في ما يتعلّق بنيل سبنسر، فقد شعرت بشيء من النشوة والإثارة. إنها تعيش من أجل لحظات كهذه اللحظة. تمنّت لو أن بيتْ كان موجودًا معها ليستمتع بها أيضًا. يعلم الرب أنه يستحقّ أن يعيش هذا الإحساس.

قالت: «يا سيد كولينز، هل تستطيع إخباري عن مكان وجودك مساء يوم الثلاثاء، الرابع من نيسان هذا العام؟».

ظهر التردّد على كولينز، وقال: «عفوًا، ماذا قلت؟».

انتظرت أماندا وواصلت النظر في الورقة التي في يدها. لقد جعله هذا السؤال يرتبك، على الأقل. لعلّه كان يتوقّع أسئلة أكثر عمّا كان يفعله يوم اختطاف نيل سبنسر؛ ولعلّه كان يظن بأنه آمن من تلك الناحية. لكن أماندا أدركت الآن هذا التاريخ الجديد الذي سألته عنه، كان حفرة قاتمة ضخمة انفتحت من تحت قدميه.

قال كولينز بنبرة حذرة: «لست واثقًا من قدرتي على التذكّر».

«إذًا، دعني أساعدك. هل كنت على مقربة من هولينغ بيكوود؟».

«لا أظنّ هذا».

«حسنًا، لقد كانت أصابعك هناك، فهل كانت بقية جسدك معها؟».

«أنا لست...».

«وجدنا بصمات أصابعك على المطرقة التي استخدمت في قتل دومينيك بارنيت في ذلك المكان تلك الليلة».

رفعت أماندا رأسها مستمتعة برؤية العرق الذي بدأ يظهر على جبهة كولينز. رجل كثير الجلبة، يظنّ نفسه متفوّقًا على غيره... لكن من السهل الإيقاع به عندما يحين وقت الجد! كان أمرًا مسليًا أن تنظر إليه وهو يقلب الخيارات في ذهنه باحثًا عن مخرج من تلك الورطة، ثم يأتيه بطيئًا ذلك الإدراك بأنه واقع في مشكلة أكبر مما كان يظنّ.

قال لها: «لا تعليق».

هزّت أماندا رأسها. لقد كان هذا من حقه -بالطبع- لكن تلك العبارة تضايقها دائمًا. وكلما سمعتها، تجد نفسها راغبة في القول: ليس من حقّك أن تلتزم الصمت! في هذه اللحظة، أرادت أن

يقرّ كولينز بما فعله، وأن يتحمّل مسؤوليته، لا أن يحاول التهرّب والاختباء. هناك أرواح أخرى ينبغي حفظها من الخطر.

«إن من مصلحتك الآن أن تخبرني بكل شيء تعرفه، يا نورمان». استندت إلى الطاولة بذراعيها، وحاولت أن تجعل نبرة صوتها أكثر تعاطفًا ممّا كانت تحسّه فعلًا... «ليست هي مصلحتك أنت وحدك. تقول لي إن لا علاقة لك باختطاف نيل سبنسر. إن كنت صادقًا في هذا، فهو يعني أن لدينا الآن قاتلًا لا يزال طليقًا». «لا تعليق».

«وما لم نعثر على القاتل، فسوف يُقدِم على قتل مزيد من الأطفال. أظنّك تعرف عن هذا الشخص أكثر مما تقوله لي».

حدّق كولينز فيها وقد غدا وجهه شاحبًا تمامًا. لم تر أماندا من قبل رجلًا يذوب أو ينصهر بهذه السرعة فيتحول من حالة الثقة الوقحة بالنفس إلى حزمة من البؤس ورثاء الذات. لم ترَ تحوّلًا سريعًا كهذا.

همس من جديد: «لا تعليق».

«نورمان...»

«أريد محاميًا».

«حسنًا، يمكننا الحصول على محامٍ، بالتأكيد»... وقفت سريعًا من غير أن تهتم بإخفاء الغضب الذي كان في صوتها... من غير أن تهتم بإخفاء تقزّزها... «ربما تدرك عند ذلك حجم الورطة التي وضعت نفسك فيها فتعرف أن التعاون معنا هو أفضل فرصة لك».

«لا تعليق».

«نعم، نعم، سمعتك منذ المرّة الأولى».

انتصارات صغيرة. لكن، وبما أنها اعتقلت نورمان كولينز، من الناحية الرسمية، بتهمة قتل دومينيك بارنيت، فقد وجدت أماندا نفسها تفكّر في كل ما قالته. إن كان يقول الحقيقة عندما أنكر إقدامه على قتل نيل سبنسر، فهذا يعني أن قاتل الطفل لا يزال طليقًا. وهذا يعني أن طفلًا صغيرًا آخر يمكن أن يموت أثناء تولّيها تلك القضية.

عاد ذهنها إلى مشهد نيل سبنسر ميتًا في البرية ليلة أمس، فاختفى كل ما يمكن أن تحسّه عادة من غبطة... اختفى كلّه.

أبدًا!... ليس هذا النصر الصغير كافيًا أبدًا!

34

ازدادت كثافة تواجد الشرطة في البيت خلال غيابي عنه. وصلنا فوجدنا سيارتين متوقّفتين في الخارج، ومعهما شاحنة صغيرة مغلقة. ورأيت عناصر شرطة وأفرادًا من فريق تحرّي مسرح الجريمة يعملون ضمن ممر المدخل المحاط بشريط أصفر. بدا لي أن اهتمامهم الآن ينصب على المرأب، لكنَّ شرطيين آخرين كانا متمركزين على الرصيف لتأمين البيت كلّه. كان باب البيت مفتوحًا على مصراعيه أمر مزعج أن يرى المرء بابه مفتوحًا عندما يعود إلى بيته!... مشهد أحسستُه خاطئًا، وأحسست أن فيه شيئًا يشبه الغزو.

أوقفت سيارتي خلف سيارتَيّ الشرطة. تجاوزتني سيارة أبي وتوقفت أمامي. ليس أبي!... ذكّرت نفسي بهذا. إنه المحقّق بيتْ ويليس.

ما من شيء يدعوني إلى النظر إليه باعتباره شيئًا آخر، أليس هذا صحيحًا؟ وباستثناء طريقته في الركوع إلى جانب جيك والنظر إليه، لم أرَ أي إشارة تفيد بأنه راغب في الإقرار بأنه شيء آخر. يريحني تمامًا أن يكون الوضع هكذا.

الآن، تراجع تأثير الصدمة قليلًا، لكن هذا كان أقرب إلى لحظات الصمت القليلة التي تعقب وقوع هزّة أرضيّة... لحظات صمت لا يلبث الصراخ أن يأتي بعدها. لا أزال قادرًا على تذكّر إحساسي عندما كنا في مركز الشرطة، عندما كان أبي هناك ينظر إليَّ... يراني. لقد وثب ذهني على الفور، فعاد إلى زمن بعيد جدًّا، عندما رأيته آخر مرة، فأحسست بأنني صغير عديم الحول. كنت كأنني انتقلت إلى ذلك الزمان. انتقلت إلى حالة الخوف والقلق. رغبتي في أن أنكمش على نفسي فلا يلاحظ وجودي. لكن الغضب أتى بعد ذلك. ليس من حقّه أن يكلّم ابني! ثم جاء الاستياء... الاستياء من اصطدامي بحقيقة أن له صلة بحياتي، وأنه في وضع يمنحه سلطة تجاهي... بدا هذا غير منصف أبدًا، فوجدت نفسي شبه عاجز عن احتماله.

«هل أنت على ما يرام، يا بابا؟».

«أنا بخير، يا صاحبي».

كنت أنظر إلى السيارة المتوقّفة أمامي، وإلى الرجل الجالس خلف مقودها.

رحت أذكّر نفسي بهذا: اسمه بيتْ ويليس. وهو لا يعني لي أي شيء. لا شيء على الإطلاق!

لن يعني شيئًا إلا إذا أتحتُ له ذلك.

قلت لجيك: «حسنًا، فلننته من هذا الأمر».

لاقانا عند الشريط فأظهر بطاقته لأفراد الشرطة هناك، ثم تقدَّمَنا عند دخول البيت من غير أن يقول شيئًا. توهّج الغضب في نفسي من جديد. إنني في حاجة إلى إذن منه حتى أدخل بيتي! أحسست بأن من المهين لي أن أسير خلفه داخلًا البيت، كما لو أنني طفل عليه أن يفعل ما يقال له. ثم ازداد ذلك الإحساس سوءًا بفعل حقيقة أنه بدا غير مبالٍ بذلك كلّه.

لوح كتابة وقلم كانا في يده.

«يجب أن أعرف ما هو لك وما الأشياء التي كانت هنا عندما انتقلت إلى هذا البيت ولم تستخدمها».

قلت: «كلّ شيء لي. ثم إن السيدة شيرينغ قد نظّفت غرف البيت كلّها».

«سوف نسألها عن هذا، فلا تقلق».

«لست قلقًا».

مضينا من غرفة إلى غرفة فجمعنا بعض اللوازم الضرورية لنا: مواد النظافة، وملابس لجيك ولي، وبضع ألعاب من غرفته. كان اضطراري إلى استئذان أبي كل مرة يلسعني لسعًا شديدًا، لكنّه كان يكتفي بأن يومئ برأسه ويسجلّ الأشياء التي نأخذها، فكففت عن سؤاله آخر الأمر. لست أدري إن كان ذلك قد أزعجه؛ لكنه لم يقل شيئًا. حقيقة الأمر هي أنه لم يكد ينظر في اتجاهي على الإطلاق. تساءلت عمّا قد تكون مشاعره الآن، وعمّا قد يفكّر فيه. لكني أقلعت عن ذلك لأنه... لا أهمية له!

انتهت جولتنا في غرفة مكتبي في الطابق السفلي.

«إنني في حاجة إلى اللابتوب»... بدأت أقول ذلك، لكن جيك قاطعني وقال: «من الذي وجده بابا في المرأب؟ هل هو نيل سبنسر؟».

بدا الارتباك على أبي.

قال له: «لا. كانت تلك البقايا أقدم عهدًا بكثير».

«لمن هي؟».

«حسنًا... بيني وبينك، أظنّ أنها قد تكون بقايا صبي صغير آخر. إنه صبي اختفى منذ زمن بعيد».

«منذ متى؟».

«منذ عشرين عامًا».

«واو!»... صمت جيك برهة حتى يستوعب ذلك الامتداد الزمني الكبير.

«نعم. آمل أن تكون بقايا ذلك الصبي لأنني أبحث عنه منذ ذلك الوقت».

بدا جيك في دهشة من ذلك كما لو أن الأمر كان إنجازًا من نوع ما. أما أنا فلم يعجبني هذا. لم أرد أن يثير هذا الرجل أي اهتمام لديه، ولا أن يكون له أي أثر في نفسه.

قال جيك: «لو كنت مكانك لاستسلمت وكففت عن البحث».

ابتسم أبي ابتسامة حزينة، وقال: «لقد كان هذا دائمًا أمرًا مهمًّا. يجب أن يعود كل شخص إلى بيته، ألا تظن هذا؟».

«هل يمكنني أخذ هذا، أيها المحقّق ويليس؟»... بدأت أفصل أسلاك اللابتوب لأنني أردت وضع نهاية لهذا الحديث... «إنني في حاجة إليه من أجل عملي».

«أجل»... استدار مبتعدًا عنا... «تستطيع أن تأخذه، بالطبع».

لم يكن «البيت الآمن» أكثر من شقّة فوق مكتب وكالة أنباء في نهاية تاون ستريت. لم يعجبني مظهر البناء عندما رأيته من الخارج؛ ثم بدا لي أسوأ حالًا عندما صرنا في الداخل مع ويليس.

سلم صاعد من الباب الأمامي إلى فسحة فيها أربعة أبواب. وفي الشقة غرفة جلوس، وحمام، ومطبخ، وغرفة نوم فيها سريران فرديان. كانت الشقة مفروشة ضمن الحدود الدنيا. أما العلامة الوحيدة التي توحي بأن الشرطة تستخدمها، وليست شقة يؤجّرها أصحابها بأبخس الأثمان، فكانت كاميرا مراقبة موضوعة بطريقة خفية على الجدار في الخارج، وكذلك زر الإنذار وكثرة الأقفال على الناحية الداخلية من الباب.

«يؤسفني أنكما مضطران إلى تشارك غرفة نوم واحدة».

دخل ويليس غرفة النوم حاملًا بطانيات وملاءات أتى بها من الخزانة. وأما أنا فكنت أخرج ملابسنا وأضعها فوق طاولة زينة خشبية قديمة بعد أن مسحت عنها طبقة رقيقة من الغبار. من الواضح أن أحدًا لم ينظّف الشقة منذ زمن طويل. كان هواؤها عابقًا برائحة الغبار.

قلت له: «لا بأس بهذا».

«أعرف أن الشقة صغيرة. نستخدمها أحيانًا من أجل الشهود؛ لكن أكثر من يأتون إليها يكونون من النساء والأطفال»... بدا لي أنه موشك على قول شيء ما، لكنه لم يلبث أن هز رأسه... «عادة ما يرغبون في النوم في غرفة واحدة».

«العنف المنزلي... على ما أظن».

لم يجبني أبي بشيء، لكن توتّر الجو بيننا ازداد قليلًا، وأدركت أن ضربتي أصابته. ظل ما بيننا غير منطوق، لكن صوت ذلك الكلام غير المنطوق ازداد ارتفاعًا مثلما يمكن أن يحدث للصمت أحيانًا.

قلت من جديد: «لا بأس. كم سيطول بقاؤنا هنا؟».

«لا أتوقّع أن يستمر أكثر من يوم أو اثنين. بل ربما أقل من ذلك. لكن القضية كبيرة. علينا أن نحرص على ألا يفوتنا أي شيء».

«هل تظنون أن الرجل الذي قمتم باعتقاله هو من قتل نيل سبنسر؟».

«محتمل. مثلما قلت لك، أظنّ أن البقايا التي وجدناها في بيتك تخصّ جريمة مماثلة. كانت لدينا دائمًا تخمينات أن فرانك كارتر -الشخص الذي قتل الأطفال في ذلك الوقت- كان له شريك من نوع ما. لم يكن نورمان كولينز مشتبَهًا به من الناحية الرسمية على الإطلاق؛ لكنه كان مهتمًا بالقضية إلى حد يثير الريبة. لم أكن أظنّ أبدًا أنه متورّط فيها تورّطًا مباشرًا، ولكن...».

«لكن ماذا؟».

«لعلي كنت مخطئًا».

«نعم، أظن أنك كنت مخطئًا».

لم يقل أبي شيئًا. أحسست بشيء من النشوة لإدراكي أنني قد جرحته من جديد؛ لكنها كانت نشوة صغيرة، مخيّبة. بدا لي غير مرتاحٍ، شديد الإرهاق. ولعلّه الآن يحسّ بنفسه عاجزًا... مثلما أحس نفسي.

«لا بأس».

عدنا إلى غرفة المعيشة حيث كان جيك راكعًا يرسم. كان في الغرفة أريكة وكرسي وطاولة صغيرة لها عجلات، وكذلك جهاز تلفزيون قديم قائم على صندوق خشبي فيه أدراج ومن خلفه مجموعة كابلات متشابكة. كان المكان كلّه موحيًا بالبرودة... كان كالحًا. حاولت الامتناع عن التفكير في ما يجري الآن في بيتنا... في بيتنا الحقيقي. مهما تكن المشكلات التي تمخض عنها ذلك البيت، فقد أحسست بأنه جنّة عند مقارنته بهذه الشقّة.

لكنك قادر على التعامل مع هذا الأمر. سرعان ما ينجلي. وسوف يخرج بيتْ ويليس من حياتك مرة أخرى.

قال لنا: «سوف أترككما الآن. لقد سرّني لقاؤك، يا جيك».

قال جيك من دون أن يرفع رأسه عن ورقة الرسم: «وأنا سرني لقاؤك، يا بيتْ. أشكرك على هذه الشقة اللطيفة».

أجابه بعد تردّد: «أهلًا بك».

خرجنا إلى فسحة السلم بعد أن أغلقت الباب المفضي إلى غرفة المعيشة. كانت هناك نافذة، لكننا صرنا في بداية المساء، وكان النور الآتي من النافذة واهيًا. بدا ويليس غير راغب في الذهاب،

فوقفنا لحظة في تلك الظّلمة الخفيفة. كانت الظلال تلفّ وجهه.

قال لي أخيرًا: «هل لديكما كل ما يلزمكما؟».

«أظن هذا».

«يبدو جيك طفلًا جيّدًا».

قلت: «نعم. إنه كذلك».

«إنه مبدع... مثلك».

لم أجبه. الآن، صار الصمت بيننا واخزًا. وبقدر ما استطعت الرؤية في نصف الظّلمة، أحسست بأن ويليس تمنّى لو أنه لم يقل شيئًا. لكنه لم يلبث أن أوضح ما قاله.

«رأيت الكتب التي ألّفتها... رأيتها في بيتك».

«ألم تكن تعرف هذا من قبل؟» هز رأسه نفيًا.

قلت له: «ظننت أنك قد تكون مهتمًا... ربما بحثت عن اسمي في الإنترنت، أو شيء من هذا القبيل».

«وأنت، هل بحثت عني؟».

«لا... لكن هذا أمر مختلف».

كرهت نفسي لحظة قلت هذا. كرهت نفسي لأنني قلته، فهو إقرار جديد بميزان القوى بيننا: فكرة أن من مهمته أن يبحث عني، وأن يفكر بي، وأن يهتم بي، وليس العكس. لم أرد تركه يتخيل أن هذا قد يكون صحيحًا... فهو غير صحيح. إنه لا شيء بالنسبة إليّ.

قال: «قرّرت منذ زمن بعيد أن من الأفضل لي أن أبقى بعيدًا عن حياتك. أنا وأمّك قرّرنا هذا في ما بيننا».

«هذه طريقة للتعبير عن الأمر... وهناك طرق غيرها».

«هذا صحيح. وهذه طريقتي في التعبير عن الأمر. لقد التزمت بالقرار. لم يكن الالتزام سهلًا دائمًا. كثيرًا ما أفكّر في هذا. لكنّه كان الحلّ الأفضل من أجل...».

لم يكمل جملته؛ وبدا فجأة أضعف من أي وقت مضى.

اعفني من هذا الرثاء للذات!

لكنّي لم أقلها. من الواضح أن أبي قد تغير، مهما يكن ما فعله في الماضي. لم يكن الآن في شكله، ولا في رائحته، ما يوحي بأنه مدمن على الكحول. إنه في حالة بدنية جيّدة. وعلى الرغم من إرهاقه،

كانتَ عليه مسحة منّ الهدوء والسكينة. ذكّرت نفسّي من جديد بأن كلًا منا، أنا وهذا الرجل، غريب عن الآخر. لسنا أبًا وابنًا. ولسنا عدوَّين.

لسنا شيئًا.

كان ملتفتًا ينظر عبر النافذة، ينظر إلى ضوء النهار، إلى موته البطيء في الخارج.

«سالي أعني أمك. ماذا جرى لها؟».

صوت تحطم زجاج.

أمي تصرخ.

فكّرت في كل شيء حدث بعد ذلك. تذكّرت كيف بذلتْ ما استطاعته من أجلي على الرغم من كل الصعوبات التي واجهتها عندما صارت أمًّا وحيدة. تذكّرت كم آلمني موتها، وكم أحزنني. كانت مثل ريبيكا... أُخذت قبل أوانها بكثير، قبل أن يصير أيٌّ منا مستحقًّا خسارة كبيرة إلى هذا الحدِّ.

قلت له: «لقد ماتت».

ظلّ صامتًا. مرّت لحظة بدا فيها مصدومًا، محطَّمًا. لكنه لم يلبث أن استجمع شتات نفسه.

«متى؟».

«هذا ليس من شأنك».

فاجأني الغضب في صوتي. لكن، كان واضحًا أنه لم يفاجئ أبي. ظل واقفًا هناك يمتصّ عنف الضربة.

قال بصوت خافت: «لا، أظنه ليس من شأني».

ثم بدأ ينزل السلم في اتجاه الباب الخارجي. وقفت أنظر إليه. تكلّمت من جديد عندما بلغ منتصف السلم. رفعت صوتي إلى الحدِّ الكافي لأن يسمعه.

«أتتذكّر تلك الليلة الأخيرة. الليلة التي سبقت رحيلنا. آخر مرة رأيتني فيها. أتذكّر كم كنت ثملًا يومها. أتذكّر كم كان وجهك محمرًّا. أتذكّر ما فعلته. أتذكّر كيف رميتها بالكأس. وأتذكّر كيف صرخَتْ».

توقّف على السلم. سكن تمامًا.

قلت: «أتذكّر هذا كلّه. فكيف تجرؤ الآن على سؤالي عنها؟».

لم يجبني بشيء.

ثم تابع نزوله صامتًا وتركني من غير شيء غير ضربات قلبي الحانقة السقيمة.

35

بعد خروجه من «البيت الآمن» قاد بيتْ سيارته بسرعة زائدة عبر الشوارع الخالية متّجهًا مباشرة إلى بيته. كانت خزانة المطبخ تناديه، وكان ذاهبًا لكي يستسلم لها. الآن، بعد أن اتّخذ قراره، صار ذلك الدافع أكثر قوّة من أي وقت. بدا له الآن أن حياته كلّها متوقّفة على الوصول إلى الزجاجة في أقرب وقت ممكن.

بلغ البيت، وأقفل الباب، وأسدل الستائر. كان البيت من حوله ساكنًا، صامتًا. كان واقفًا هناك، فبدا البيت له فارغًا، حتى بعد وصوله! فبعد كل حساب، ما الذي يضيفه إليه؟ نظر من حوله إلى الأثاث القليل في الغرفة الأمامية. كان البيت كلّه هكذا. وكان كلّ مكان فيه متقشفًا، حسن التنظيم. كانت الحقيقة هي أنه عاش سنين طويلة في بيت فارغ. بقايا واهية من حياة لم يكد يعيشها، من حياة حقيقية كان يتفاداها، من حياة لم يجعلها ترتيبها ونظافتها أقل حزنًا.

فارغ. لا معنى لك.

لا قيمة لك.

كان ذلك الصّوت فرحًا بانتصاره. ظلّ بيتْ واقفًا في مكانه، يتنفّس ببطء، ويحسّ عنف ضربات قلبه. لكنه عاش هذه اللحظة مرّات كثيرة من قبل. هكذا يسير الأمر دائمًا. عندما يكون الدافع إلى الشرب في أوج قوته، فإن كل شيء يعمل على تعزيزه. يمكن لأي حدث، أو فكرة -حسنة أو سيئة- أن يعيد تشكّله فيصير منسجمًا معه.

لكن ذلك كلّه كان كذبة.

لقد كنت هنا من قبل.

أنت قادر على تجاوز هذا.

صمت الحافز الملحّ برهة، ثم عاد يجأر داخل رأسه مدركًا الخدعة التي حاولها بيت. لقد تركه يقوده إلى البيت من غير أن يحاول مقاومته؛ وتركه يعتقد بأنه قد استسلم له. لكنه عاد الآن فأمسك بزمام الأمور من جديد.

راح الألم يدور في صدره ويُدوّم. كان ألمًا غير محتمَل.

لقد كنت هنا من قبل.

أنت قادر على تجاوز هذا.

الطاولة. الزجاجة والصورة. لقد أضاف إليهما هذه الليلة كأسًا. وبعد لحظة تردد، فتح الزجاجة وسكب مقدار إصبعين من الفودكا. لأنه... لم لا؟ إما أن يشرب، وإما ألا يشرب! ليست المسألة كم تكون المسافة التي يسيرها على تلك الطريق، بل هي ما إذا كان سيصل إلى النهاية.

اهتز هاتفه. نظر فيه فوجد رسالة من أماندا تخبره فيها بما جرى خلال استجوابها نورمان كولينز. لقد اعتقلوا كولينز، على ما يبدو، بتهمة قتل دومينيك بارنيت. لكن قضية نيل سبنسر لا تزال غامضة. قرر كولينز الاستعانة بمحامٍ.

كان توم قد سأله الليلة: «هل تظن أن الرجل الذي اعتقلتموه هو من قتل نيل سبنسر؟».

وقد أجابه: «هذا محتمل» كان واضحًا أن الرجل متورّط في الأمر على نحو ما. لكن، إذا لم يكن كولينز هو من اختطف نيل وقتله، فهذا يعني أن القاتل لا يزال حرًا طليقًا. عند هذه الفكرة، تبخّر الارتياح الذي أحسّه بعد اعتقال كولينز... تبخّر مثلما تبخر ارتياحه منذ عشرين عامًا عندما رأى ميريندا وآلان سميث جالسين في ردهة الاستقبال في مركز الشرطة فأدرك أن الكابوس لا يزال بعيدًا عن الوصول إلى نهايته.

لا ينبغي أن يكون هذا الأمر مشكلته الآن. إن توم ابنه على الرغم من البعد بينهما! يعني «تضارب المصالح» هذا أن عليه أن يتحدّث مع أماندا غدًا ويعفي نفسه من المشاركة في التحقيق. كان يفترض أن من شأن هذا أن يجعل الراحة تأتي تلقائيًا عندما يتحرّر من الضغط الواقع عليه. لكن... بعد أن جُرّ إلى أعماق القضية بعد أن أُرغم على مواجهة كارتر من جديد وعلى النظر إلى جثة نيل سبنسر في البرية الليلة الماضية... صار راغبًا في متابعة الأمر حتى نهايته مهما يمكن أن يكون ذلك مؤلمًا.

وضع الهاتف جانبًا، ثم حدّق في الكأس محاولًا تحليل شعوره تجاه رؤية توم من جديد بعد تلك السنوات كلّها. ينبغي أن تكون تلك المواجهة قد هزّته من أعماقه. هذا ما افترضه. لكنه يشعر بشعور غريب. على مر السنين، صارت مشاعره في ما يتعلّق بكونه أبًا في حالة من الخدر، كما لو أن ذلك شيء تعلّمه في المدرسة، ثم لم يعد له أيَّ أثر في حياته. كانت ذكرياته عن سالي ضمن الحدود المقبولة للألم... كان ذلك شيئًا يستطيع احتماله؛ لكن إخفاقه في ما يتعلّق بابنه توم كان مطلقًا، فصار بيت يفعل كل ما في وسعه حتى لا يفكّر في ذلك أبدًا. من الأفضل ألّا تكون له أيّة صلة بحياة ابنه! وكلما كان يجد نفسه متورّطًا في محاولة تخيّل الرجل الذي صاره توم، كان يزيح تلك الأفكار من رأسه سريعًا. كانت شيئًا أكثر حرارة من أن يستطيع مسّه.

لكنه صار يعرف الآن.

لم يكن لديه أيُّ حقٍّ في اعتبار نفسه أبًا، لكنه وجد استحالة في الامتناع عن تقدير الرجل الذي التقاه مساء ذلك اليوم. كاتب! إن لهذا معنى. بالطبع! كان توم مبدعًا دائمًا عندما كان صبيًا... كان يخترع قصصًا يعجز بيت عن متابعتها، أو يمثل سيناريوات معقّدة بألعابه. وقد بدا له أن جيك شديد الشبه بأبيه عندما كان في مثل سنه: طفل ذكي حساس. فمن القليل الذي سمعه

بيتْ، كان واضحًا أن توم عانى مآسيَ ومشقّات كثيرة على امتداد حياته، لكنه استطاع أن يربي جيك وحده. لا يمكن الشك في أن ابنه قد كبر فصار رجلًا جيّدًا.

ليس ابنًا عديم القيمة! ليس فاشلًا، ولا عديم النفع!

وهذا أمر حسن.

جعل بيت رأس إصبعه يسير على حافة الكأس. أمر حسن أن يكون توم قد نجح في تجاوز الطفولة البائسة التي أعطاه إياها. أمر حسن أنه أبعد نفسه عن حياة توم قبل أن يتمكّن من تسميمها أكثر مما فعل. هذا... لأن من الواضح أنه قد سمّمها. فحتى بعد هذا الوقت كلّه، لا يزال ابنه يتذكّر ذلك. كان أثره فظيعًا إلى الحد الكافي لترك أثر دائم.

أتذكّر تلك الليلة الأخيرة.

لا يزال بيت قادرًا على رؤية تعبير الكره الذي كان في وجه ابنه عندما قال له هذا. حمل الكأس. وضع الكأس من جديد. إلا أن هذا ليس صحيحًا تمامًا، أليس كذلك؟ لقد استحق الكره. كان مدركًا هذا الأمر تمامًا لكنّ الكره أمر لا بد من اكتسابه. كان بيت يشرب بشكل يكاد يكون مستمرًا عندما هجرته سالي آخذة توم معها، وكانت أيامه ولياليه أشبه بسديم ضبابي مشوّش. لكنه يتذكّر تلك الليلة بوضوح تام. لقد كان وصف توم ما حدث تلك الليلة أمرًا غير معقول... غير صحيح!

هل لهذا أهمية؟

قد لا يكون مهمًّا. إن كان ما يتذكّره ابنه غير صحيح بحرفيته على غرار إحساس بيت نفسه بالفشل، فهو قادر على افتراض أنه يظلّ صحيحًا بما فيه الكفاية. هذه هي الحقيقة التي تكون لها أكبر أهمية في آخر المطاف!

نظر إلى الصورة المألوفة، صورته مع سالي. التقطت هذه الصورة قبل أن تحمل سالي بتوم؛ لكن بيت ظنّ أن من الممكن للمرء، إن أراد، أن يرى ملمح المعرفة بالأبوّة الوشيكة في تعبير وجه الشاب الذي كانه. تلك العينان المضيَّقتان في مواجهة الشمس. ونصف ابتسامة... ابتسامة بدت كأنها موشكة على الاختفاء. كان ذلك كما لو أن الرجل الذي في الصورة يعرف أنه سيفشل فشلًا كبيرًا ويفقد كل شيء.

لا تزال سالي التي في الصورة تبدو سعيدة.

لقد فقدها منذ وقت طويل جدًّا، لكنه حافظ على وهم جميل يقول له إنها حيّة في مكان ما تعيش عيشة راضية ملؤها الحب. ظلّ محافظًا على اعتقاده البائس بأن خسارته كانت مكسبًا لها ولتوم. لكنه صار يعرف الحقيقة. ما من مكسب أبدًا! لقد ماتت سالي!... ماتت!

كان إحساسه بذلك كما لو أن كل شيء قد مات. حمل الكأس من جديد، لكنه ظل ممسكًا بها هذه المرة، وراح ينظر إلى السائل الحريري الملتف على نفسه داخلها. يبدو سائلًا شديد البراءة

إلى أن يلتفّ هكذا كما الماء الحارّ الذي تحرّكه فترى البخار المختبئ فيه.

لقد كان هنا من قبل. يستطيع تجاوز هذا!

لكن، لماذا يهتم؟

نظر إلى الغرفة من حوله وأحسّ من جديد بمدى فراغ وجوده. إنه لا شيء! رجل من هواء! حياة من غير معنى! ما كان في ماضيه شيء حسن يمكن إنقاذه؛ وما كان في مستقبله شيء يستحق إنقاذه.

لكن ذلك لم يكن صحيحًا، أليس كذلك؟ لا يزال قاتل نيل سبنسر طليقًا! إذا كان مقتل الصبي قد نجم عن فشله في الماضي، فإن من مسؤوليته الآن أن يصحّح غلطته مهما تكن ارتدادات ذلك عليه من الناحية الشّخصية. وسواء أعجبه هذا أو لم يعجبه، فقد عاد الآن إلى الكابوس نفسه، ولا بد له من متابعة الأمر إلى آخره، حتى لو حطّمه ذلك تحطيمًا. هناك تضارب في المصالح، نعم... لكن، إن كان حذرًا، فقد لا يعرف أحد بالأمر. وما من شك أبدًا في أن توم لا يريد للماضي البعيد أن يصير معروفًا للناس.

هذا سبب من الأسباب التي تستوجب بقاءه صاحيًا.

وكذلك أيضًا...

شكرًا على هذه الشقة اللطيفة!

ابتسم بيتْ عندما تذكّر هذه الكلمات التي قالها له جيك في وقت سابق من اليوم. كان غريبًا أن يقولها؛ لكن ذلك كان أمرًا طريفًا أيضًا. إنه طفل طريف. طفل لطيف. إنه مبدع. إن له شخصية. ولعلّه أيضًا طفل يصعب التعامل معه... تمامًا مثلما كان توم في تلك الأيام.

سمح بيتْ لنفسه بأن يفكّر في توم بضع لحظات أخرى. استطاع أن يتخيّل نفسه جالسًا يتحدّث مع الصبي... يلعب معه مثلما كان يمكن -بل مثلما كان يجب- أن يتحدّث ويلعب مع توم عندما كان طفلًا صغيرًا. كان هذا التفكير حماقة، بالطبع! ما من شيء هنا! ففي غضون أيام قليلة، سوف تنتهي علاقته بهما، ومن المحتمل تمامًا ألا يراهما بعد ذلك أبدًا. لكنْ، حتى لو كان الأمر كذلك، فقد قرّر ألّا يشرب.

ليس الليلة!

ما أسهل ابتلاع ما في هذه الكأس... بالطبع! من السهل دائمًا أن يفعل المرء هذا. لكنه نهض واقفًا وذهب إلى المطبخ فأفرغ كأسه في المجلى. وقف ينظر إلى السائل وهو يختفي في المصرف. وبموازاة ذلك الدافع إلى الشرب الذي في قلبه، فكّر في جيك من جديد وأحسّ بشيءٍ لم يحسّه منذ سنين. شيء لا سبب له، ولا معنى... لكنه كان موجودًا.

إنه الأمل!

الجزء الرابع

36

في الصباح التالي، عندما أوصلت جيك إلى المدرسة، كنت لا أزال حائرًا كل الحيرة لسرعة تكيّفه مع ظروفنا الجديدة. في الليلة الماضية في «البيت الآمن»، نام سريعًا من غير أيّة شكوى وتركني في غرفة الجلوس ساهرًا وحدي مع اللابتوب ومع أفكاري. عندما ذهبت إلى الفراش آخر الأمر، نظرت إليه فرأيت في وجهه سكينة جعلتني أتساءل إن كان قد وجد هنا راحة وطمأنينة أكثر مما وجده في بيتنا الجديد. تساءلت أيضًا عما كان يحلم به... إن كان يحلم بشيء.

لكنْ... كثيرًا ما أفكر هكذا!

وأما عن نفسي -مع أنني كنت متعبًا كثيرًا فقد جعل المحيط غير المألوف الاستسلام للنوم أكثر صعوبة من المعتاد. وهكذا، أحسست براحة حقيقية عندما وجدت التعامل مع جيك أكثر سهولة عندما جاء الصباح. لعلّه كان يتعامل مع هذا باعتباره مغامرة مثيرة. مهما يكن السبب، فقد كنت في غاية الامتنان لأنني كنت مستنفَدًا، وكانت أعصابي متوتّرة، وما كنت واثقًا من قدرتي على التعامل مع أي تحدٍّ حقيقي.

ذهبنا بالسيارة إلى المدرسة، ثم سرت معه فدخلنا باحتها.

«هل أنت على ما يرام، يا صاحبي؟».

«أنا بخير، يا بابا».

«لا بأس إذًا، أمسك هذه»... ناولته زجاجة الماء، ثم حقيبة الكتب... «أحبك يا جيك».

«وأنا أحبك أيضًا».

انطلق في اتجاه الباب وحقيبته تتأرجح في يده. كانت السيدة شيلي واقفة هناك. لم أتكلّم مع جيك مثلما وعدتها. كنت آمل فقط أن يكون هذا اليوم أكثر سهولة بالنسبة إليه، وألّا يجد نفسه مضطرًّا إلى ضرب أحد على الأقل!

«لا تزال تبدو في حالة مزرية».

لحقت بي كارين، عندما كنت في سبيلي إلى الخروج من بوابة المدرسة. لا تزال مرتدية معطفها على الرغم من دفء ذلك الصباح.

«بالأمس، كنتِ قلقة من احتمال شعوري بالإساءة عند سماع هذا السؤال».

«صحيح، لكنك لم تشعر بالإساءة»... هزّت كتفيها... «عندما استيقظت في الصباح، قدّرت أن ذلك لم يزعجك».

«هذا يعني أن نومك كان أحسن من نومي».

«هذا واضح»... دفنت يديها في جيبيّ معطفها... «ما الذي تعتزم فعله الآن؟ ما رأيك في تناول القهوة، أم إنك مضطرٌ إلى الذهاب مسرعًا والإحساس بالتعب في مكان آخر؟».

تردّدت. لم يكن لدي ما أفعله. لقد قلت لأبي إنني في حاجة إلى اللابتوب من أجل العمل، لكن احتمال أن أتمكن من إنجاز أي شيء في هذه الحالة كان ضئيلًا جدًا. على الأرجح، لن يكون هذا اليوم أكثر من خوض في الماء بأمل ظهور اليابسة آخر الأمر... أي قتل الوقت. نظرتُ إلى كارين الآن فأدركت أن هناك طرقًا لقتل الوقت أسوأ كثيرًا من ذهابي معها.

قلت: «طبعًا. سيكون هذا لطيفًا».

سرنا معًا حتى بلغنا الشارع الرئيسي حيث أخذتني فتجاوزنا المتجر الصغير عند الزاوية ومكتب البريد ووصلنا إلى مطعم اسمه «الخنزير السعيد». مناظر طبيعية على زجاج واجهته، وطاولات خشبية قديمة في الداخل، شيء يشبه مطبخ بيت مزرعة.

فتحت كارين الباب فرُن جرس معلّق فوقه. قالت: «فيه شيء من الادعاء والتظاهر. لكن قهوتهم مقبولة».

«إن كان فيها كافيين، فهي جيّدة».

كانت رائحة القهوة لذيذة. طلبنا قهوتنا وبقينا واقفين وقفة مرتبكة في انتظارها من غير أن نتكلّم. ثم أخذ كل منا قهوته وذهبنا إلى إحدى الطاولات فجلسنا.

خلعت كارين معطفها. كانت في بلوزة بيضاء وبنطلون جينز أزرق. ففوجئت برؤية مقدار رشاقتها المخفية تحت ذلك الدرع. هل كان درعًا؟ قلت في نفسي إنه قد يكون كذلك. كان في معصميها عدد من الأساور الخشبية التي قرقعت بصوت خافت عندما مدت كلتا يديها فجمعت بهما شعرها وربطته خلف رأسها.

قالت لي: «إذًا، ما الذي يجري معك؟».

«هذه قصة طويلة. ما مقدار ما تريدين معرفته؟».

«أوه، كل شيء».

فكّرت في الأمر لحظة. بما أنني كاتب، فإن من الأشياء التي كنت مقتنعًا بها دائمًا هي أن عليك ألا تتحدّث عن قصصك إلى أن تنتهي من كتابتها. إذا فعلت، فإن الدافع إلى كتابتها يصير

أضعف... تقريبًا، كأن لا بد لك من شيء يحملك على كتابة القصة، لكن ضغط ذلك الشيء يتضاءل إذا تحدّثت عن القصّة قبل ذلك.

لكنّي -على الرغم من تفكيري في هذا- قرّرت أن أقول لكارين كل شيء.

كلّ شيء... تقريبًا!

لقد أخبرتها قبل ذلك بأمر سقط المتاع الموجود في المرأب، وكذلك بزيارة الرجل الذي اتضح أن اسمه نورمان كولينز؛ لكنها فزعت عندما أخبرتها بأن جيك كان على وشك أن يُختطف في منتصف الليل. ثم قلت لها ما عرفته من السيدة شيرينغ، وأخبرتها بالحوادث التي جرت أمس. اكتشاف الجثة. البيت الآمن. وفي النهاية، أخبرتها عن أبي.

كان الانطباع الذي تشكّل لديَّ عن كارين حتى ذلك الوقت هو أنها خفيفة الطبع: امرأة ميالة إلى المزاح والسخرية اللعوب. لكنّها بدت مفزوعة عندما أنهيت كلامي. صارت جادة تمامًا.

«خراء!»... قالتها بنبرة هادئة... «لم يقدّموا لوسائل الإعلام أيّة معلومات حتى الآن. لم يقولوا إلا أنهم عثروا على جثة بشريّة في أحد البيوت. لم أعرف أن هذا البيت هو بيتك أنت».

«أظنّهم يحرصون على السرّية. مما فهمته، يمكنني القول إنهم يعتقدون بأنها بقايا جثة طفل اسمه توني سميث. لقد كان واحدًا من الأطفال الذين قتلهم مجرم اسمه فرانك كارتر».

هزّت كارين رأسها: «أبواه المسكينان... عشرون عامًا!... لكني أظنهما قد أدركا الأمر بعد هذا الزمن الطويل كلّه. بل إن اتضاح الأمر وإغلاق القضية رسميًا قد يكون راحة لنفسيهما».

تذكّرت كلمات أبي.

قلت لها: «يستحق كل شخص أن يعود إلى بيته».

أشاحت كارين بوجهها جانبًا. بدا لي كأنها راغبة في طرح مزيد من الأسئلة، لكنها غير واثقة -لسبب ما- مما إذا كان يجوز أن تطرحها.

قالت: «وهذا الرجل الذي اعتقلوه؟».

«اسمه نورمان كولينز».

«صحيح. نورمان كولينز. كيف عرف بالأمر؟».

«لست أدري. لكنه من الواضح أنه كان مهتمًا بالقضية منذ زمن بعيد»... أخذت رشفة من قهوتي... «والظاهر أن أبي يظنّ أن من المحتمل أن يكون شريكًا لكارتر، منذ ذلك الوقت».

«أيظنه قاتل نيل سبنسر أيضًا؟».

«لست متأكدًا من هذا».

«آمل أن يكون هو»... صحّحت جملتها... «أعرف أن قول هذا شيء فظيع، لكنهم سيكونون قد ألقوا القبض على الوغد الذي قتله. يا إلهي... لو أنك لم تستيقظ في الوقت المناسب...».

«أعرف هذا. ولا أريد حتى أن أفكّر فيه».

«شيء مخيف جدًا».

«لقد كان مخيفًا حقًّا -وبطبيعة الحال- لم تكن رغبتي في الامتناع عن التفكير فيه لتعني أنني قادر على الامتناع عن ذلك حقًّا».

قلت: «قرأت بعض الأشياء عنه الليلة الماضية. أعني كارتر. كان ذلك أمرًا كريهًا بعض الشيء، لكنني أحسست بأنه ينبغي لي معرفة شيء عنه. الهامس. لقد كان بعض التفاصيل مخيفًا حقًّا».

أومأت كارين برأسها: «... 'إذا تركت الباب نصف مفتوح، فسرعان ما ستسمع صوت الهمس'. سألت آدم عن هذا بعد أن ذكرتَه لي. إنها أغنية يردّدها بعض الأطفال. آدم لم يسمع بكارتر أبدًا، بطبيعة الحال، لكنّي أظن أن قصته هي الأصل الحقيقي لتلك الأغنية. ثم صار الأطفال يتناقلونها».

«تحذير من الغول».

«نعم، صحيح. لكن هذا الغول كان حقيقيًّا».

فكّرت في تلك الأغنية. لقد سمعها ابنها آدم من غير أن يدرك معناها. ولعلها أغنية منتشرة خارج فيذربانك! كثيرًا ما تنتقل هذه الأشياء بين الأطفال؛ وقد يكون واحد من الأطفال الذين كانوا في مدرسة جيك القديمة قد قالها أمامه فحفظها.

بالطبع، لا بد أن يكون الأمر شيئًا من هذا القبيل. لم تعلّمه إياها الفتاة الصغيرة، لأنها... لم تكن حقيقيّة.

لكن هذا لم يفسّر قصّة الفراشات، لم يفسّر أيضًا كلامه عن «الصّبيِّ الذي في الأرض».

بدا كما لو أن كارين تقرأ أفكاري.

«ماذا عن جيك؟ كيف يتعامل مع هذا كله؟».

«لا بأس، على ما أظنّ»... رفعت كتفي بحركة توحي بالعجز... «لست أدري. أنا وهو... أحيانًا، يكون من الصعب علينا أن يتكلّم أحدنا مع الآخر. هو ليس طفلًا سهلًا».

قالت كارين: «لا وجود لشيء من هذا القبيل».

«وأنا لست شخصًا يسهل التعامل معه».

«أكرّر ما قلته. لكن، على الرغم من ذلك، ماذا عنك أنت؟ لا بد أن رؤية أبيك بعد هذه السنين كلّها كانت أمرًا غريبًا. هل كانت صلتك به مقطوعة حقًا... مقطوعة تمامًا؟».

«لا صلة على الإطلاق. هجرته أمّي وأخذتني معها عندما بلغت الأمور بينهما حدًّا يصعب احتماله».

«حدّ يصعب احتماله!؟».

قلت: «الشرب. العنف».

لكنّي توقّفت عن الكلام. كان تفسير الأمر بتلك الطريقة أسهل من الخوض في التفاصيل. لكن الحقيقة هي أنني -باستثناء ذكرى الليلة الأخيرة- لم أكن أتذكّر شيئًا عن ممارسة أبي أي عنف جسدي، تجاه أمي، أو تجاهي. الشرب... نعم، كان يشرب؛ على الرغم من أنني لم أفهم الأمر في ذلك الوقت. كنت أعرف فقط أنه يكون غاضبًا على الدوام، وأنه يختفي أيامًا، وأن المال كان قليلًا جدًّا، وأن أبي وأمي كانا يتشاجران بشدّة. كنت أتذكّر أيضًا إحساسي بالمرارة والغضب اللذين يشعّهما ذلك الإحساس بالخطر الذي يكون الهواء من حولي عابقًا به كما لو أن شيئًا سيئًا يمكن أن يحدث في أيّة لحظة. كنت أتذكّر خوفي. لكن أيّ حديث عن عنف فعلي يمكن أن يكون مبالغة من جانبي.

قالت كارين: «يؤسفني سماع هذا».

رفعت كتفي من جديد وقد شعرت بشيء من الحرج.

«أشكرك. لكن... نعم، كانت رؤيته أمرًا غريبًا. إنني أتذكره، بالطبع، لكنه ليس كما كان. لا يبدو الآن واحدًا ممن يشربون. سلوكه كلّه صار مختلفًا. صار أكثر هدوءًا».

«الناس يتغيّرون».

«إنهم يتغيّرون. وهذا أمر حسن. حسن حقًا. نحن الآن شخصان مختلفان كل الاختلاف. أنا لم أعد طفلًا. وهو ليس أبي حقًا. ليس للأمر أهمية على الإطلاق».

«لست واثقة من أنني أصدقك».

«حسنًا... لا يمكن أن يكون أي أمر غير ما هو حقًا».

«أصدّق هذا»... كانت كارين قد أنهت قهوتها فبدأت ترتدي معطفها... «والآن، يؤسفني أن عليَّ أن أذهب الآن».

«هل أنت ذاهبة لكي تشعري بالتعب في مكان آخر؟».

«لا. لقد نمت جيدًا؛ ألا تتذكّر هذا؟».

«صحيح»... شربت ما بقي في فنجاني. لم تبد كارين ميّالة إلى إخباري بوجهتها الآن. خطر في ذهني أنني لا أكاد أعرف أي شيء عنها. «لقد أمضينا الوقت كلّه في الحديث عني، فهل أنت منتبهة إلى هذا؟ لا يبدو لي هذا منصفًا».

«هذا لأنك شخص يثير الاهتمام أكثر منّي، الآن خاصّة. لعل ما يحدث الآن شيء تستطيع الكتابة عنه في واحد من كتبك».

«ربما».

«نعم، إنني آسفة. لقد بحثت عن اسمك في غوغل». بدت عليها لمحة حرج عابرة... «إنني ماهرة في العثور على الأشياء. لا تقل هذا لأحد».

«سرُّكِ في أمانٍ».

«يسرّني سماع هذا»... سكتت لحظة كما لو أن هناك شيئًا آخر تريد قوله. لكنها هزّت رأسها ولم تقل شيئًا. من الواضح أنها غيّرت رأيها... «أأراك في وقت لاحق؟».

«سترينني. مع السلامة».

أنهيت قهوتي بعد ذهابها متسائلًا عمّا كانت موشكة على قوله في تلك اللحظة. فكّرت أيضًا في قولها إنها بحثت عني في غوغل. ما معنى هذا؟

أعجبني سماع هذا منها... فهل كان شيئًا خاطئًا أنه أعجبني؟

37

«هل انتهيت من هذا، يا عزيزي؟».

هز الرجل رأسه. كان في تلك اللحظة غير مدرك مكان وجوده، وغير مدرك ما كان مقصودًا بذلك السؤال. ثم رأى النادلة تبتسم له، ونظر إلى الطاولة أمامه، فأدرك أنه أنهى قهوته.

استند إلى ظهر الكرسي وقال: «أجل، آسف. كنت على مسافة أميال من هنا».

ابتسمت النادلة من جديد وهي تأخذ الفنجان الفارغ.

«هل آتي لك بشيء آخر؟».

«ربما بعد قليل».

لم تكن لديه نية لطلب أي شيء؛ لكن... ومع أن المكان كان نصف ممتلئ فقط، فقد كان من المنطقي أن يحرص المرء على الأدب وعلى مراعاة الأعراف الاجتماعية. لم يكن راغبًا في أن يعتبروه شخصًا جلس إلى الطاولة زمنًا أطول مما يحتمله شرب القهوة التي طلبها... لم يكن يريد أن يتذكّره أحد على الإطلاق.

وقد كان ماهرًا في هذا الأمر... على الرّغم من حقيقة أن الناس أيضًا يجعلون من ذلك سهلًا عليه. كان كثير منهم يبدو له ضائعًا في ضجيج الوجود كأنهم سائرون في نومهم على امتداد حياتهم غير منتبهين إلى العالم من حولهم. كانوا منوَّمين مغناطيسيًا بفعل هواتفهم الذكية. كانوا غير منتبهين إلى الناس الذين يمرّون بهم. كانوا بشرًا متمركزين على ذواتهم، غير مهتمّين بشيء. وكانوا لا يولون ما يجري في محيطهم إلا أقل قدر من الاهتمام. إذا لم تكن متميّزًا بشيء ما، فإنك تختفي سريعًا من أذهانهم مثلما يختفي الحلم.

نظر إلى توم كينيدي الجالس على مسافة طاولتين منه.

كان ظهر توم إليه. والآن، بعد أن انصرفت المرأة، صار قادرًا على التحديق فيه إن أراد ذلك.

خلال وجودها هنا، كان وجهها في اتجاهه، فراح يرتشف قهوته متظاهرًا بأنه ينظر إلى هاتفه جاعلًا نفسه جزءًا غير متميّز ضمن المشهد العام في المكان. لكنه كان مصغيًا بانتباه طيلة الوقت. بالطبع! تتداخل الأحاديث من حولك، إن سمحت لها بذلك، وتصير همهمة مختلطة لا معنى لها. وأما إذا ركّزت انتباهك، فأنت قادر على تمييز حديث من بين تلك الأحاديث كلّها ومتابعته بسهولة. لا حاجة إلا إلى التركيز كأنك تحرّك إبرة الراديو برفق حتى تضبطها بحيث يختفي الضجيج فتسمع الصوت واضحًا.

كم كان محقًّا!... هكذا صار يقول لنفسه الآن.

يجد كل منّا صعوبة في الحديث مع الآخر.

ليس طفلًا يسهل التعامل معه.

نعم... كان الرجل واثقًا من أن جيك سيكون في أحسن حالٍ تحت رعايته. سوف يمنح الصبي البيت الذي يستحق، ويعطيه ما يفتقده من الحب والاهتمام. ثم... هو نفسه أيضًا سيشعر بأنه شُفي، وبأنه قد عاد كاملًا من جديد.

وإذا لم يحدث هذا...

كان للزمن أسلوبه في جعل أحاسيسه متبلّدة. صار أسهل عليه الآن، أسهل كثيرًا، أن يفكّر في ما فعله بنيل سبنسر. تلاشت منذ وقتٍ بعيد تلك الرعشة التي لازمته بعد ذلك، وصار قادرًا على التعامل مع تلك الذكريات على نحو أكثر بُعْدًا عن العواطف -والحقيقة أن الإقدام على فعل ذلك كان فيه شيء من المسرّة أيضًا-. هذا لأن الصبي قد استحقّ ذلك... ألم يستحقّه؟ إن كانت هناك لحظات صفاء وسعادة في الشهرين اللذين سبقا ذلك، عندما كان كل شيء يبدو في أحسن حال، فقد كان لديه أيضًا إحساس بالسكينة والرضا عن النفس بعد ذلك اليوم الأخير، اليوم الذي كان بدوره يومًا مريحًا للنفس أيضًا... مريحًا بطريقته الخاصة.

لكن لا!

لن يحدث هذا مرّة أخرى.

نهض توم كينيدي وسار في اتجاه الباب. نظر الرجل إلى هاتفه وراح ينقر على شاشته متكاسلًا عند مرور توم على مقربة منه.

ظلّ الرجل جالسًا بضع لحظات إضافية مفكّرًا في أشياء أخرى سمعها. من عساه يكون نورمان كولينز؟ كان هذا الاسم غير مألوف لديه على الإطلاق. واحد من الآخرين -هكذا افترض- لكنّه لم يعرف أبدًا السبب الذي جعلهم يعتقلون كولينز الآن. إلا أن هذا الأمر كان مناسبًا له، فسوف يتشتّت انتباه الشرطة. وقد يصير كينيدي أيضًا أقل حذرًا. يعني هذا أن عليه أن يختار اللحظة المناسبة؛ وسوف يسير كل شيء على ما يرام.

نهض واقفًا.

كلما ازداد الضجيج، كلما كان من الأسهل أن ينسلّ المرء بصمت من غير أن ينتبه إليه أحد.

38

إنني أبحث عنك منذ زمن طويل.

خرج بيتْ من سيارته ودخل المستشفى، ثم نزل بالمصعد إلى القبو حيث وحدة التشريح المرَضي في المدينة. كانت مرآة كبيرة مثبتة على أحد جدران المصعد. بدا شكله حسنًا. بل إنه بدا هادئًا أيضًا. قد تكون الأجزاء في داخله محطّمة، لكنه بدا من الخارج مثلما تبدو هدية مغلّفة بعناية... لا تقرقع أجزاؤها المكسورة إلا عند هزّها.

كان عاجزًا عن تذكّر أي وقت كان فيه أكثر انتباهًا مما هو الآن.

إنه يبحث عن توني سميث منذ عشرين سنة. وفي قرارة نفسه، كان بيتْ يتساءل إن كان اختفاء الصّبي قد ساعده في الاستمرار إن كان قد أعطاه ذلك الإحساس بوجود هدف، ووفّر له سببًا يجعله يستمرّ، فقد كان ذلك خبيئًا في خلفية أفكاره. بصرف النظر عن كل شيء، لم يكن يعتبر أن تلك القضيّة قد أغلقت مهما حاول منع نفسه من التّفكير فيها.

وهكذا، كان عليه أن يكون حاضرًا حيث تكون القضيّة.

كان يكره غرف التشريح هنا... يكرهها دائمًا. لا تستطيع روائح المواد المعقّمة إخفاء رائحة الموت من خلفها؛ ولا تفعل الإنارة الشديدة والسطوح المعدنيّة الصقيلة اللامعة إلا إبراز الأجساد المشوّهة المعروضة هنا. إن الموت ملموس في هذا المكان... معروض، ظاهر. غرف فيها أوزان وزوايا وألواح عليها بعض معلومات في الكيمياء والبيولوجيا... باردة كلها، طبيّة. يدرك كلّما زار هذا المكان أن الأجزاء الأكثر أهمية في حياة الإنسان -مشاعره، وشخصيته، وتجاربه- تصير جلية بفعل غيابها.

سار كريس ديل، طبيب التشريح المرضي، مع بيتر إلى نقالة في الناحية الأخرى من الغرفة. أحسّ بيتْ بالضعف وهو يسير خلف الرجل؛ وكان عليه أن يقاوم رغبته في الاستدارة على عقبيه والعودة من حيث أتى.

«ها هو صبيّنا».

كان ديل يتكلّم بصوت هادئ. وكان معروفًا في مركز الشرطة بمسلكه الفظ النَّفور عندما يتعلّق الأمر بالتعامل مع الشرطة، فهو يوفّر احترامه لمن يشير إليهم دائمًا بأنهم «مرضاه».

... صبيّنا!

كان واضحًا من طريقة قول ديل هذه الكلمة أن بقايا الجثة قد صارت الآن في حمايته... وأن المهانة التي عانتها قد انتهت الآن بعد أن وجدت من يعتني بها.

قال بيت في نفسه: صبيّنا!

كانت العظام مرتّبة على هيئة طفل صغير، لكن الزمن جعلها منفصلة ولم يترك عليها شيئًا من لحمها. لقد رأى بيتْ في ما مضى عددًا من الجماجم. وعلى نحو ما، كان النظر إلى تلك الجماجم أكثر سهولة من النظر إلى أجساد الضحايا الميتين لأنهم يظلون أشبه بالبشر، لكنهم -في هدوئهم المخيف- ليسوا بشرًا على نحو ما! الجمجمة البشرية شيء شديد البعد عن تجارب الحياة اليومية، ومن الممكن أن ينظر المرء إليها بقدر أقل من اضطّرام المشاعر. لكن حقيقة الواقع تبلغ الذهن آخر الأمر: حقيقة أن الناس يموتون، ثم يمرّ زمن قصير فلا يبقى منهم إلا أشياء... عظام ليست أكثر من أشياء مبعثرة متروكة حيث سقطت.

قال ديل: «ما زال علينا إنجاز إجراءات تشريح ما بعد الوفاة. من المقرّر أن ننجز هذا في وقت لاحق. وأما ما أستطيع قوله لك الآن فهو أن هذه بقايا جثة طفل ذكر كان في حدود السنة السادسة من العمر وقت وفاته. ولا أستطيع الآن تخمين سبب الوفاة -قد لا نعرف هذا أبدًا لكنه ميت منذ وقت طويل».

«عشرون عامًا؟».

«هذا ممكن»... قالها ديل متردّدًا، عارفًا ما عناه بيتْ بسؤاله، ثم أشار إلى نقّالة ثانية بجوارهما... «لدينا أيضًا هذه الأشياء الإضافية التي وجدت في المكان. وبالطبع، ها هو الصندوق نفسه. لقد أتوا بالبقايا فيه من أجل المحافظة عليها بشكل أفضل. كانت الملابس تحت العظام».

تقدّم بيتْ خطوة. كانت الملابس قديمة وقد علتها شباك العنكبوت. لكن ديل وفريقه استخرجوها بعناية؛ وها هي الآن موضوعة هنا، مطوية بإتقان مثلما ظلّت خلال ذلك الزمن كلّه. لم يكن في حاجة إلى تحريكها كلّها حتى ينظر إليها.

إنه يعرفها: بنطلون رياضي أزرق. قميص بولو صغير أسود.

استدار ونظر إلى العظام من جديد. لقد استحوذت عليه القضية طيلة تلك الفترة كلّها، لكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها توم سميث في الحياة الحقيقية. فحتى هذه اللحظة، لم يكن لديه غير صور صبيٍّ صغيرٍ... صور تجمّدت في الزمان. لو سارت الأمور على نحو مختلف قليلًا، لكان من الممكن أن يمرّ بيتْ اليوم بتوم سميث البالغ ستة وعشرين عامًا في الشوارع من غير أن يكون قد سمع باسمه. نظر إلى الهيكل العظميّ الصغير المحطّم الذي كان، في يوم ما، يحمل جسم كائن بشري فيه كل ما فيه من احتمالات لما يمكن أن يصيره في المستقبل.

... آمالهما وأحلامهما كلّها... فانظر ما فعلته بهما!

دفع بيتْ كلمات فرانك كارتر بعيدًا عن ذهنه وظل يحدّق في العظام صامتًا بضع ثوانٍ محاولًا استيعاب جسامة تلك اللحظة. لكنه أدرك أن لا شيء هنا، وأن توني سميث نفسه ليس موجودًا في ذلك الهيكل العظمي الفارغ على النقّالة. لقد ظل بيت حبيس مدار هذا الصبي المفقود مدّة طويلة جدًّا، وكانت حياته تدور من حول لغز مكان وجوده. زال الآن مركز الجاذبية الذي كان يجعله يدور في ذلك المدار، لكن مساره ظلّ على حاله.

قال ديل: «وجدنا عددًا من هذه في الصندوق».

التفت بيتْ فرأى الطبيب منحنيًا إلى الأمام واضعًا يديه في جيبيه. كان ينظر إلى صندوق الورق المقوّى الذي وجدوا فيه عظام توني سميث. اقترب فرأى أن الرجل ينظر إلى فراشة عالقة في شباك العنكبوت في الصندوق. كان واضحًا أن الفراشة ميتة، لكن الرسوم الملوَنة على جناحيها لا تزال واضحة، حيّة.

قال بيت: «إنها فراشة الجثث».

نظر الطبيب إليه مستغربًا.

«لم أكن أظنّ أبدًا أنك من هواة الفراشات، أيها المحقّق».

«رأيت برنامجًا وثائقيًا ذات مرة». هز بيتْ كتفيه. كان يظنّ دائمًا أنه يقرأ ويتابع البرامج التلفزيونية لكي يقتل الوقت، لا أكثر. لكنه لم يفاجأ كثيرًا عندما وجد أن قسمًا من المعلومات قد بقي عالقًا في ذهنه... «إن لديَّ أمسيات كثيرة لا بد لي من ملئها بشيء ما».

«أفهم هذا».

بحث بيتْ في ذاكرته عن مزيد من التفاصيل. إن وجود هذا النوع من الفراشات في البلاد أصيل، لكنها نادرة. وقد تتبّع البرنامج الوثائقي الذي شاهده مسارَ فريق من رجال غريبي الأطوار كانوا يسيرون ويفتشون الحقول والأسيجة محاولين رؤية هذه الفراشة. لقد وجدوا واحدة منها آخر الأمر. إن رائحة اللحم المتفسّخ تجذب فراشة الجثث. لم ير بيتْ واحدة منها قبل الآن، لكنه وجد نفسه -منذ مشاهدة ذلك البرنامج الوثائقي- ينظر في الدروب الريفية، وعلى امتداد الأسيجة، حيث كان يفتش في عطلات نهاية الأسبوع متسائلًا عمّا إذا كان وجود فراشة منها يمكن أن يكون إشارة إلى أنه ينظر في المكان الصحيح.

اهتز هاتفه في جيبه. أخرجه ونظر إليه فوجد رسالة من أماندا. قرأ الرسالة سريعًا: «هناك تطوّر في القضية». بعد ليلة قضاها في الزنزانة، يبدو أن نورمان كولينز قد أعاد تقييم موقف «لا تعليق» الذي اتّخذه، وصار الآن مستعدًّا للحديث معهم. كانت أماندا تطلب من بيتْ أن يعود في أسرع وقت ممكن.

أعاد الهاتف إلى جيبه، لكنه تلكّأ لحظة وقف خلالها ينظر إلى صندوق الورق المقوّى. كان شريط بني لاصق ملصقًا عليه من فوق شريط بنّي آخر: واضح أن هذا الصندوق قد أغلق ثم فتح

من جديد. لقد أغلق وفُتح عدة مرات خلال تلك السنين. سوف يجري الآن إرسال الصندوق إلى وحدة تحليل الأدلة الجنائية بأمل العثور على بصمات أصابع. راحت نظرة بيت تمسح سطح الصندوق، وراح يتخيّل الأيدي غير المرئية التي يمكن أن تكون قد لمسته. تخيّل أشخاصًا يضعون بصمات أصابعهم عليه، وتخيّل أن الورق المقوّى جلدٌ يغلّف العظام الموضوعة داخله.

... معروف في دوائر جامعي المقتنيات.

تساءل لحظة إن كان لدى ذلك النوع من الناس قدرة على تخيّل كيف تكون دقات القلب... أم إنهم يشعرون بأنهم يحقّقون مجدًا عندما تغيب دقات قلب ما؟

39

تنهّد محامي نورمان كولينز بصوت مسموع وهو جالس قبالة أماندا وبيثْ.

قال: «إن موكلي مستعدٌ للاعتراف بشأن قتل دومينيك بارنيت، لكنه ينفي أية علاقة له بخطف نيل سبنسر وقتله».

نظرت أماندا إليه منتظرة المزيد.

«إلا أن موكّلي مستعدٌّ للإدلاء بشهادة كاملة صادقة في ما يتعلق بما يعرفه عن البقايا البشرية التي عُثر عليها بالأمس في شارع غارهولت. ليست لديه أية رغبة في أن تهدروا الموارد عليه، لأن من شأن هذا أن يعرّض أطفالًا آخرين للخطر. وهو يظن أن ما يريد قوله يمكن أن يساعدكم في الوصول إلى الشخص المسؤول حقًّا عن تلك الجريمة».

«هذا ما نقدّره تقديرًا كبيرًا».

ابتسمت أماندا ابتسامة مهذّبة على الرغم من أنها تميّز الكلام الفارغ عندما تسمعه.

كان كولينز جالسًا إلى الناحية الأخرى من الطاولة من غير أن يقول شيئًا. بدا متضائلًا، مجروحًا. لم يكن رجلًا مصنوعًا من أجل السجن، فقد مسحت ليلة احتجاز واحدة تلك الوقاحة الصلفة التي كانت ظاهرة عليه ليلة أمس. لم تسرّها حقيقة أنه صار مستعدًا للكلام إلا قليلًا لأن من الواضح أن الدافع الكامن خلف ذلك لم يكن أكثر من مصلحته الشخصية لا رغبته في إنقاذ الأرواح. ليست لهذا الرجل طبيعة أفضل مما رأته من قبل. كل ما في الأمر هو أنه حظي ببعض الوقت حتى يدرك أن كلامه معهم -وتقديم روايته للقصة- يمكن أن يحقّق له بعض الفائدة على المدى البعيد. سوف يبدو في صورة أفضل إذا تعاون معهم وظهر بمظهر من يريد مساعدتهم.

لكنَّ الوقت لم يكن مناسبًا لإظهار تقزّزها. ليس إن كان قادرًا على المساعدة حقًّا.

استندت في مقعدها إلى الخلف وقالت: «إذًا، تحدّث إلينا، يا نورمان».

«لست أعرف من أين أبدأ؟».

«كنت تعرف أن بقايا جثة توني سميث موجودة في ذلك البيت، أليس كذلك؟ فلنبدأ من هذه النقطة».

ظل كولينز صامتًا بضع ثوانٍ، محدِّقًا في الطاولة الفاصلة بينهم. كان يستجمع شتات نفسه. ألقت أماندا نظرة سريعة في اتجاه بيثْ الجالس إلى جانبها فرأت أنه يفعل مثلها. كانت قلقة عليه فقد بدا أكثر ضعفًا من أي وقت مضى، ولم يكد يقول لها شيئًا بعد وصوله إلى مركز الشرطة.

كانت تعرف أن هذا سيكون صعبًا عليه. لقد عاد قبل قليل من رؤية ما يعتقدون، شبه جازمين، أنه بقايا جثة توني سميث... الصبي الذي يبحثون عنه منذ زمن طويل جدًّا. وها هو الآن جالس لكي يسمع حقيقة ما جرى طيلة تلك الفترة. لعلّ السنين جعلته يخشوشن من الخارج، لكنها لم تكن راغبة في التفكير في أن جروحه القديمة سوف تنفتح الآن.

قال كولينز بصوت منخفض: «إنني أفهم رأيكم في اهتماماتي».

عاد انتباه أماندا إليه.

«... وأفهم أيضًا ما قد يراه كثير من الناس في تلك الاهتمامات. لكن الحقيقة تظلّ أنني شخص محترم ضمن مجال اهتمامي هذا. وقد اكتسبت خلال السنين سمعة طيبة باعتباري جامع مقتنيات».

جامع مقتنيات!

لقد جعل ذلك يبدو أمرًا سليمًا لا شائبة فيه -بل أمرٌ محترمٌ أيضًا لكنها رأت بعض تفاصيل مجموعته. أي نوع من الأشخاص يمكن أن ينجذب إلى تلك المواد التي أنفق هذه السنوات كلها لاقتنائها؟ تخيّلت كولينز والناس الذين مثله جرذانًا تجري وتبحث في عوالم الإنترنت السفلية. يجرون صفقاتهم، ويضعون خططهم. إنهم ينخرون عظام المجتمع. لا بد أن كولينز رأى التقزّز الذي بدا على وجهها عندما رفع رأسه ونظر إليها.

قال بنبرة دفاعية: «في حقيقة الأمر، هذا ليس مختلفًا عن اهتمامات الناس الآخرين. وقد عرفت منذ زمن طويل أن أكثر الناس يعتبرون هوايتي أمرًا متميّزًا، وأن قلّة منهم تراها منفرة. لكن هناك من يشاطرونني هذا الميل. وقد برهنتُ على مصداقيتي على مرّ السنين مما سمح لي بالوصول إلى قطع أكثر أهمية مما وصل إليه الآخرون».

«هل أنت جامع مقتنيات جاد؟».

«جامع مقتنيات جاد في ما يتعلق بأشياء جادّة»... بلل شفتيه بلسانه... «وعلى غرار بقية التعاملات التي من هذا النوع، هناك منتديات مفتوحة، وهناك منتديات خاصة. لقد كان اهتمامي بقضية الهامس معروفًا في المنتديات الخاصّة. ومنذ عدة سنين، عرفت أن هناك شيئًا... شيئًا بعينه... يمكن أن يكون متاحًا لي. هذا إن كنت مستعدًا للدفع، بالطبع».

«وما هو هذا الشيء؟».

نظر إليها برهة، ثم أجاب على السؤال كما لو أن ذلك واحد من أكثر الأشياء طبيعية في العالم: «قضاء بعض الوقت مع توني سميث... طبعًا».

قالت: «كيف؟».

«في البداية، قيل لي أن أزور فكتور تايلر في السجن. وقد جرى ترتيب كل شيء من خلال تايلر. كان فرانك كارتر يعرف بالأمر، لكنه لم يكن يريد أن تكون له أيّة صلة به. كان الإجراء الذي يتبعه تايلور هو التحقّق من الناس الذين يأتون إليه. وقد سرّته نتيجة ذلك الاختبار. حصلتُ على العنوان بعد أن استلمتْ زوجة تايلر المال الذي دفعتُه»... كشر كولينز قليلًا... «لم يفاجئني أنهم أرسلوني إلى جوليان سيمبسون».

«لماذا لم يكن هذا مفاجئًا لك؟».

«لم يكن شخصًا مستسَاغًا. وهو قليل الاعتناء بنظافته الشخصية. ولم يكن هذا سليمًا تمامًا»... نقر بإصبعه على رأسه عندما قال ذلك... «كان الناس يسخرون منه. لكنهم كانوا يخشونه في حقيقة الأمر. بيته، غريب، ألا تظنان هذا؟ أتذكر كيف كان الأطفال يتحدّى أحدهم الآخر للذهاب إلى ذلك البيت ودخول حديقته. كانوا يلتقطون صورًا لهم هناك. وحتى قبل ذلك -عندما كنت طفلًا كان الناس يعتبرونه البيت المخيف في القرية».

من جديد، ألقت أماندا نظرة سريعة في اتجاه بيتْ. كانت ملامح وجهه عصيّة على القراءة، لكنها استطاعت تخيّل ما يفكّر فيه. في ذلك الوقت، لم يرد اسم جوليان سيمبسون في التحقيق أبدًا. ولم تكن الشرطة تعرف عن ذلك الرجل شيئًا، ولا عن بيته ذي المظهر المخيف. كان هذا أمرًا مفهومًا تمامًا. هناك أشخاص مثل سيمبسون في كل مكان. لا تكون سمعتهم بين صغار السن قائمة بالضرورة على أي شيء ملموس؛ وبالتأكيد لا تكون قائمة على رأي الكبار فيهم.

لكن، وبصرف النظر عن هذا كله، كانت تعرف أن بيتْ سيلوم نفسه لأنه غفل عن هذا كلّه.

قالت أماندا: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

«ذهبت إلى ذلك البيت في شارع غارهولت. أعطيت سيمبسون مبلغًا آخر من المال، فجعلني أنتظر في الغرفة التي في الطابق السفلي. وبعد وقت، عاد حاملًا صندوقًا مقفلًا من الورق المقوّى. فتح الصندوق... فرأيته فيه».

«من رأيت؟ هذا من أجل السجلات يا نورمان».

«رأيت توني سميث».

وبالكاد، استطاعت أماندا أن تسأله: «ماذا فعلتَ ببقايا جثة توني سميث؟».

«ماذا فعلت بها؟»... بدت على كولينز دهشة حقيقية... «ماذا فعلت بها؟ أنا لست وحشًا. أنا لست مثل بعض الآخرين. ولا يمكن أن ألحق الأذى بشيء كهذا، حتى لو أتيح لي ذلك. لا، لم أفعل شيئًا غير الوقوف هناك مظهِرًا احترامي للموت. كنت مستغرقًا في ذلك الجو. قد تجدين صعوبة في فهم هذا، لكنها كانت واحدة من أقوى اللحظات في حياتي كلّها».

قالت أماندا في نفسها: يا إلهي!

بدا لها كأنه رجل يتذكّر حبّه الضائع.

فمن بين الاحتمالات الكثيرة التي تخيّلتْها، كانت إجابته هي الأكثر ابتذالًا وإثارة للقرف. كان واضحًا أن الوقت الذي أمضاه مع جثة صبي صغير مقتول كان يرقى عنده إلى مرتبة تجربة إيمانية! تخيّلتْه واقفًا هناك مقتنعًا بأن له صلة خاصّة بتلك البقايا الحزينة في صندوق عند قدميه. كان هذا أكثر فظاعة من كل ما يمكن أن يخطر في ذهنها.

كان بيتْ جالسًا إلى جانبها. انحنى إلى الأمام قليلًا وسأله: «قلتَ إنك... لست مثل بعض الآخرين».

مهما يكن وقع تلك القصة جسيمًا على بيتْ، فإنه لم يبدُ لها الآن إلا شخصًا مرهقًا... كان شخصًا استبد به التعب فبلغ روحه. هذا ما جال في ذهن أماندا.

«من هم الآخرون، يا نورمان؟ وماذا كانوا يفعلون؟».

ابتلع كولينز ريقه.

«كان هذا بعد أن تولّى دومينيك بارنيت الأمر بعد موت جوليان. أظنهما كانا صديقين، لكن بارنيت لم يكن يتحلّى بالسوية نفسها من الاحترام. لقد تدهورت الأمور تحت إشرافه».

«أهذا هو السبب الذي جعلك تقتله؟».

«قتلته لكي أحمي ما لديه. ثم إن بارنيت كفّ عن السماح لي بالذهاب إليه... كفّ عن ذلك بعد المرّة الأخيرة. كان توني في حاجة إلى حمايتي».

سأله بيتْ صابرًا: «أخبرنا عن الآخرين، يا نورمان».

«كان هذا بعد أن تولّى بارنيت الأمور»... تردّد كولينز قليلًا... «ذهبت عدّة مرّات خلال تلك السنين، لكن الأمر كان دائمًا هو نفسه بالنسبة إليّ. لقد كنت أعبر عن احترامي، وأريد أن أكون وحدي مع توني. لكن، وبعد أن جاء بارنيت، بدأ أشخاص آخرون يتواجدون هناك. لم يكن أولئك الأشخاص يعبّرون عن احترامهم مثلي».

«ما الذي كانوا يفعلونه؟».

«أنا لم أر شيئًا. لقد غادرت المكان... غادرته متقزّزًا. وقد رفض بارنيت أن يعيد نقودي. بل إنه سخر مني. لكن، ما الذي كنت أستطيع فعله؟».

قال بيت: «وما الذي أثار تقزّزك إلى هذا الحدِّ؟».

«في الليلة الأخيرة التي ذهبت فيها، كان هناك خمسة أشخاص آخرين، أو ستة. كانوا جميعًا من الأشخاص الذين سحرتهم تلك القضيّة. مجموعة متنوّعة من الناس -تنوّع مدهش، صدقًا وكان لدي انطباع مفاده أن بعضهم قد سافر مسافة كبيرة من أجل ذلك. لم يكن أحد منا يعرف

الآخر. لكن من الواضح أن أسباب وجود بعضهم هناك كانت مختلفة عن أسباب وجودي»... ابتلع كولينز ريقه من جديد... «لقد وضع بارنيت فراشًا في الغرفة. وضع أيضًا مصباحًا أحمر... لقد كان ذلك...».

تطوّعت أماندا بإكمال جملته: «شيئًا جنسيًّا؟».

«صحيح. هذا ما أظنّه»... هز كولينز رأسه، ثم نظر إلى الطاولة كما لو أن هذا الأمر كان يتجاوز قدرته على الفهم... «ليس مع الجثة... بل في ما بينهم. لكن هذا سيّئ بما فيه الكفاية. لا يمكنني أن أكون جزءًا من شيء كهذا».

«هل هذا ما جعلك تغادر؟».

«نعم. عندما كنت أذهب في الماضي، كان ذلك أشبه بالذهاب إلى كنيسة. كان شيئًا هادئًا، جميلًا. كنت أحس بوجود الرب. وأما تلك المرّة، مع المصباح الأحمر، ومع أولئك الأشخاص...». كفّ عن الكلام من جديد. «نورمان؟».

رفع رأسه أخيرًا: «كان ذلك أشبه بأن يكون المرء في الجحيم».

قالت أماندا: «هل تصدّقه؟».

كانا قد عادا إلى غرفة المكتب. وقف بيتْ مستندًا إلى طاولته ينظر بإمعان إلى الصور التي التقطتها كاميرات المراقبة للأشخاص الذين زاروا فكتور تايلر في السجن على امتداد السنين. تنقّلت عينا أماندا بين تلك الصور. كانت صور رجال ونساء، شباب وكبار.

لقد قال لهم كولينز: «مزيج متنوّع من الناس. شيء مفاجئ حقًّا».

«أصدّق أن كولينز لم يقتل نيل سبنسر»... حوَّمت يده فوق الصور... «وأما هذا...».

قال ذلك، ثم سكت معبّرًا عن عدم الاقتناع نفسه الذي كانت تشعر به أماندا أيضًا. خلال حياتها المهنية، رأت أماندا من الأشياء المهولة ما يكفي لأن تصير قدرة البشر على القسوة عاجزة عن إدهاشها. لقد كانت مرات كثيرة في مسرح جريمة أو في مكان وقوع حادث، ورأت الناس يتجمّعون هناك، أو رأت السيارات تبطئ سيرها، من أجل النظر إلى الضحايا. كانت تفهم أن الموت يجذب الناس. لكن، ليس هكذا!

سألها بيت بصوتٍ خافتٍ: «هل تعرفين السبب الذي جعلهم يدعونه الهامس؟».

«بسبب روجر هيل».

«هذا صحيح»... أومأ برأسه بحركة بطيئة... «كان روجر أولى ضحايا كارتر. كانوا يجرون إصلاحات في بيت أسرته في ذلك الوقت. وقد قال روجر لأبيه وأمه، قبل اختطافه، إنه كان يسمع

شخصًا يهمس له من تحت نافذته. كان كارتر صاحب الشركة التي تعمل في إصلاح البيت. وكان هذا ما جعلنا ننتبه إليه».

«كان يستدرج ضحيته».

«صحيح. لقد سنحت لكارتر الفرصة هناك. لكنَّ الأمر الغريب، هو أن أهالي الأطفال الآخرين زعموا جميعًا أن أطفالهم كانوا يسمعون الهمس أيضًا. لم تكن هناك أيّة صلة واضحة بكارتر، لكنهم سمعوا الهمس كلّهم».

«لعلهم سمعوه حقًا».

«قد يكون الأمر هكذا. أو... قد يكون السبب هو أن الصحف قد تداولت ذلك الاسم فزرعت الفكرة في عقول الناس. من عساه يدري؟ مهما يكن من أمر، فقد علق الاسم في أذهانهم. الهامس. لقد كرهت ذلك الاسم دائمًا».

ظلت أماندا منتظرة.

«... كرهته لأنني أردت أن ينساه الناس. هل تدركين هذا؟ لم أكن أريد أن يصير له لقب. لكن ما يبدو لي الآن هو أن هذا الاسم يلائمه تمامًا. هذا لأنه كان يهمس دائمًا. وكان الناس -هؤلاء الناس- يصغون إلى ذلك الهمس»... فرَدَ الصور بيده... «وأظن أن أحدهم كان يسمعه أكثر من غيره».

نظرت أماندا إلى الصور من جديد. قالت في نفسها إنه محقّ. فمن كلّ ما قاله كولينز، كان واضحًا أن عددًا غير قليل من الأشخاص الذين ترى صورهم الآن قد سار مسافة غير قليلة في درب الشر. لم يكن من المبالغة في شيء أن يعتقد المرء أن واحدًا منهم -أن واحدًا من أولئك الذي جذبهم همس فرانك كارتر- قد سار في تلك الدرب مسافة أكبر من غيره. كل واحد منهم شرير مختل عقليًّا؛ لكن من بينهم شخصٌ أسوأ منهم جميعًا.

إنه تلميذ فرانك كارتر.

قالت في نفسها إنهم سيعثرون على قاتل نيل سبنسر في مكان ما بين أولئك الأشخاص.

40

بقيت ساهرًا في غرفة الجلوس في «البيت الآمن» بعد ذهاب جيك إلى فراشه في تلك الليلة. وكان أمامي اللابتوب وكأس من النبيذ الأبيض.

على الرغم من محاولتي إعادة التفكير في الحوادث التي جرت خلال اليومين الماضيين، فقد كنت مدركًا أيضًا أن عليَّ أن أكتب. بدا ذلك أمرًا مستحيلًا في الظروف الراهنة، لكن المال الباقي عندي لن يدوم إلى الأبد. وكان الدافع الأكثر إلحاحًا من ذلك هو إحساسي بأهمية العمل على شيء ما؛ ليس فقط حتى ألهي نفسي عمّا يحدث، بل لأن الأمر كان على ذلك النحو دائمًا. الكتابة هي معنى وجودي. وهي ما لا بد لي من استعادته.

ريبيكا.

حذفت بقية ما كانت قد كتبته، ونظرت إلى اسمها. الفكرة التي كانت في رأسي عندما كتبت ذلك هي أن أبدأ كتابة مشاعري واثقًا من أن قصة ما ستظهر لي من ذلك الضباب. لكنّي أجد صعوبة في تبين حقيقة مشاعري الآن، ناهيك عن محاولة ترجمتها إلى شيء بسيط، إلى كلمات.

ذهب تفكيري إلى ما قالته كارين في المقهى هذا الصباح: «قد يكون هذا شيئًا يمكنك الكتابة عنه في واحد من كتبك». فكرت أيضًا في حقيقة أنها بحثت عني في الإنترنت. أعرف الآن كيف هو شعوري تجاه ذلك لأنه بعث في نفسي شيئًا من الإثارة. لقد كانت مهتمة بي. فهل أنا منجذب إليها؟ نعم! لكني لم أكن واثقًا من أن ذلك جائز لي. نظرت إلى اسم ريبيكا على الشاشة. تبخّر إحساسي بالإثارة، وحل محله شعور بالذنب.

ريبيكا.

بدأت أكتب سريعًا:

أعرف تمامًا كيف يمكن أن يكون رأيك في هذا لأنّك كنت على الدوام شخصيّة عمليّة أكثر مني. سوف تريدين أن أمضي في حياتي. سوف تريدين أن أكون سعيدًا. سيحزنك ذلك -بالطبع- لكنك ستقولين إن الحياة هكذا. بل إن من المحتمل تمامًا أن تقولي لي إن عليَّ ألّا أكون غبيًّا هكذا.

لكن المشكلة أنني لست واثقًا بعد من أنني مستعد لتركك تذهبين.

ربما أكون أنا من يشعر بأنه لا يجوز لي أن أكون سعيدًا، وبأنني لا أستحق...

رُن جرس الباب.

أغلقت اللابتوب ونزلت إلى الأسفل. نزلت مسرعًا لأنني خفت أن يرن الجرس من جديد فيستيقظ جيك. دعكت عيني قليلًا عند الباب. أمر حسن أنني لم أصل إلى مرحلة البكاء. ثم فتحت الباب فازداد ارتياحي لأنني لم أبكِ: كان أبي واقفًا هناك.

قلت له: «أهلًا أيها المحقق ويليس».

أومأ برأسه: «أأستطيع الدخول».

«جيك نائم».

«توقّعت هذا. لكن الأمر لن يستغرق طويلًا. سأتكلّم بصوت منخفض. أريد فقط أن أضعك في صورة التطوّرات التي جرت اليوم».

كان جزء مني متردِّدًا في السماح له بالدخول -لكن ذلك كان شعورًا طفوليًا وعلى أية حال، فهو ليس إلا شرطيًّا! لن أكون مضطرًا إلى رؤيته مرّة أخرى بعد أن ينتهي هذا كلّه. ثم إن مظهره المرهَق كثيرًا كان له دور في الأمر أيضًا. أحسست بأنني كنت الطرف الأقوى، في تلك اللحظة!

فتحت له الباب وقلت: «لا بأس».

سار خلفي فصعدنا إلى الطابق العلوي وجلسنا في غرفة المعيشة.

قال: «كدنا ننتهي من عملنا في بيتك. غدًا صباحًا تستطيع العودة إليه مع جيك».

«هذا جيّد. وماذا عن نورمان كولينز؟».

«لقد وجّهنا إليه تهمة قتل دومينيك بارنيت. اعترفَ بأن البقايا التي كانت في البيت هي بقايا جثة ضحية فرانك كارتر التي لم نعثر عليها أبدًا في ذلك الوقت. كان اسم ذلك الطفل توني سميث. وكان كولينز يعرف بالأمر منذ زمن بعيد».

«كيف؟».

«إنها قصة طويلة. ليست تفاصيلها مهمّة بالنسبة إليك».

«أليست مهمّة؟ حسنًا... وماذا عن نيل سبنسر؟ ماذا عن محاولة اختطاف جيك؟».

«إننا نعمل على هذا».

«هذا شيء مطمئِن»... تناولت كأسي وأخذت منه رشفة... «يا لسوء تصرّفي! ألا تريد كأسًا؟».

«أنا لا أشرب».

«لقد كنت تشرب».

«هذا هو سبب امتناعي عن الشرب الآن. هناك أشخاص يستطيعون التحكّم بشربهم، وأشخاص لا يستطيعون. اقتضاني الأمر زمنًا حتى أدرك ذلك. أظنّك واحد ممن يستطيعون».

«صحيح».

تنهّد وقال: «أظنّ أيضًا -في ضوء كل ما حدث خلال تلك السنين- أن ذلك كان صعبًا عليك. لكنك تبدو لي رجلًا يستطيع فعل أشياء كثيرة على نحو جيّد. هذا أمر حسن. وأنا مسرور بذلك».

كانت عندي رغبة في مقاومة هذا. كلماته نفسها، وليس مجرّد أنه ليس من حقّه أن يطلق عليَّ أحكامًا. لقد كان مخطئًا تمامًا لست قادرًا على فعل أي شيء على نحو حسن، ثم إنني لا أجيد التعامل مع الحياة على الإطلاق. لكن، بالطبع، لم يكن ممكنًا أن أسمح لأي نوع من الضعف بأن يظهر عليَّ أمام أبي... وهكذا، لم أقل شيئًا.

قال لي: «نعم، لقد كنت أشرب. كانت لدي أسباب كثيرة لذلك -أسباب، لا مبرّرات!- كنت أجد صعوبة في أشياء كثيرة، في ذلك الوقت».

«من بينها أن تكون زوجًا جيّدًا».

«صحيح».

«ومن بينها الأبوّة أيضًا».

«هذا صحيح أيضًا. المسؤولية المترتّبة على ذلك. لم أعرف أبدًا كيف أكون أبًا. ولم أرغب في ذلك أبدًا. ثم إنك كنت طفلًا صعبًا لكنك تحسّنت كثيرًا عندما كبرت. لقد كنت على الدوام مبدعًا. كنت تخترع قصصًا في ذلك الوقت».

لم أستطع تذكّر ذلك. قلت له: «هل كنت أخترع قصصًا؟».

«نعم. لقد كنت شخصًا حسّاسًا. يبدو جيك شبيهًا بك إلى حدٍّ كبيرٍ».

«أظن أن جيك مفرط الحساسية».

هز أبي رأسه: «لا وجود لشيء كهذا».

«بل هو موجود. إنه يجعل الحياة صعبة»... تذكّرت كل الأصدقاء الذين لم أصادقهم، أو الذين لم يصادقوني... «ثم إنك لا تعرف هذا. أنت لم تكن موجودًا».

«لا. لم أكن موجودًا. وكما قلت لك، كان هذا أفضل».

«حسنًا، هذا شيء نحن متفقان فيه».

مع قولي هذا، بدا كما لو أنه لم يبق شيء يمكننا قوله. استدار كما لو أنه ذاهب، لكنه تردّد. التفت إليّ بعد لحظة من ذلك.

قال لي: «لكنّي كنت أفكّر في ما قلته لي في الليلة الماضية. قلت لي إنك رأيتني في مرآة أمك قبل ذهابي».

«وماذا؟».

قال: «أنت لم ترني. لم يحدث ذلك. لم تكن في البيت تلك الليلة. لقد كنت تمضي تلك الليلة عند أحد أصدقائك في المدرسة».

كنت موشكًا على قول شيء ما، لكني توقّفت. تردّدت عند ذلك. كان إحساسي الغريزي الأول هو أن أبي يكذب... لا بد أنه يكذب لأنني أتذكّر تلك الليلة بوضوح شديد. ثم إنه لم يكن لدي أيّ أصدقاء. لكن، هل حدث ذلك حقًّا؟ بالنظر إلى ما كانه أبي في يوم من الأيام، لم أجد شيئًا مفاجئًا في احتمال أن يكون الآن كاذبًا. لكن الحقيقة -مع أنني لم أكن راغبًا في الاعتراف بذلك- هي أن أبي قد صارت له هيئة شخص شديد الصدق مع نفسه في ما يخص خصاله السيئة. لعل هذا كان تحوّلًا ضروريًا له عبر تلك السنين.

استعدت تلك الذكرى في ذهني.

صوت تحطّم زجاج.

أبي يصيح.

أمي تصرخ.

كنت قادرًا على رؤية تلك الصورة بوضوح مطلق؛ في رأسي؛ لكن... هل من الممكن أن أكون مخطئًا؟ كانت تلك الذكرى عندي أكثر وضوحًا من أيّة ذكرى أخرى من ذكريات طفولتي، من أي شيء أستطيع استعادته. فهل كانت أكثر وضوحًا من الحدِّ المعقول؟ هل كان ممكنًا أنها صورة انفعالية أكثر من كونها تذكّرًا حقيقيًا؟ هل هي تلخيص لمشاعري أكثر من كونها حدثًا بعينه جرى حقًا؟

قال أبي بصوت هادئ: «لكن الحقيقة أن الأمر جرى هكذا، إلى هذا الحدِّ أو ذاك. يخجلني دائمًا أنني فعلت ذلك. لم أرمها بالكأس!... فالشيء الغبيّ هو أنني كنت غاضبًا على الكأس نفسها. لكن ما قلته أنت قريب من الحقيقة».

«لكنني أتذكّره».

«لست أدري. ربما أخبرتك سالي بذلك».

هززت رأسي نفيًا: «لم تكن تذكُرك بالسوء أبدًا. وأنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ حتى بعد كل ما حدث».

ابتسم ابتسامة حزينة. كان واضحًا أنه يعرف، ويصدق كل ما قلته. وأن هذا ذكّره بالخسارة الكبيرة التي أصابته.

قال: «إذًا، لست أدري! لكني أردت إخبارك بشيء آخر أيضًا... مهما تكن قيمته الآن. ليس كبير القيمة، ولكن...! قلتَ إنها كانت آخر مرة أراك فيها. ذلك أيضًا لم يكن صحيحًا».

رفعت يدي: «من الواضح أن...».

«إنني أتحدّث عن ذلك الوقت. لقد طردتني أمّك. وكان ذلك هو الشيء الأفضل. لقد احترمتُ قرارها. بل إنني شعرت بشيء من الارتياح، تقريبًا، إن أردت الصدق أو، على الأقل، أحسست أنني أستحق ذلك. لكن، أتت أوقات بعدها، قبل أن تنتقلا، كانت فيها سالي تسمح لي بالعودة إلى البيت عندما أكون صاحيًا. لكنها لم تكن تريد أن يزعجك ذلك أو يسبب لك أي تشويش. أنا لم أُرد ذلك أيضًا. وهكذا كنت آتي دائمًا بعد أن تذهب إلى فراشك. كنت أدخل غرفتك وأنت نائم فأحتضنك. لم تستيقظ في أيّة مرّة. لم تعرف بالأمر أبدًا. لكني كنت أفعل ذلك».

كنت واقفًا هناك، صامتًا.

كنت صامتًا لأنني لم أكن أظنّ أن أبي يكذب، ولأن كلماته هزتني. كنت أتذكّر «مستر نايت» صديقي المتخيّل في أيام طفولتي. الرجل الخفي الذي يدخل غرفتي في الليل فيحتضنني وأنا نائم. والأسوأ من هذا أنني أتذكّر كم كان ذلك يشيع الراحة في نفسي. لم يكن شيئًا يخيفني أبدًا. والآن، بعد أن اختفى مستر نايت من حياتي، صرت أشتاق إليه، صرت أفتقده، كما لو أنني فقدت جزءًا مهمًا من نفسي. قال أبي: «لست أحاول البحث عن أعذار ومبرّرات. كل ما في الأمر هو أنني أريد أن تعرف أن الأمور كانت معقّدة. وأنا، كنت جزءًا من ذلك التعقيد. إنني آسف».

«لا بأس».

عند ذلك، حقيقة، لم يبقَ شيء آخر لكي يقال.

بدأ أبي ينزل السلّم. وأما أنا، فكنت مهزوزًا إلى حدٍّ جعلني غير قادر على فعل شيء غير تركه يذهب.

41

حرصت في الصباح التالي على أن يكون جيك مستعدًّا للخروج في موعد أبكر من المعتاد بحيث يكون لدينا وقت للذهاب إلى بيتنا قبل أن آخذه إلى المدرسة. كان أبي في انتظارنا أمام البيت، جالسًا في سيارته. أنزل زجاج السيارة عندما سرنا مقترِبَيْن منه.

قال أبي: «مرحبًا».

قال جيك بنبرة جدّية: «صباح الخير، يا بيتْ. كيف حالك اليوم؟».

أشرق وجه أبي قليلًا عندما سمع ذلك. أعجبته تلك النبرة الرسمية التي يتكلّم بها ابني أحيانًا.

أجابه بطريقة رسمية تشبه طريقته: «أنا في أحسن حال، أشكرك. كيف حالك يا جيك؟».

«إنني بخير. كانت إقامتنا هنا مسلية. لكنني الآن مشتاق إلى العودة إلى بيتنا».

«أفهم هذا».

«ومشتاق إلى الذهاب إلى المدرسة بعد ذلك».

«أستطيع أن أفهم هذا أيضًا. إن المدرسة مهمّة جدًا».

قال جيك: «صحيح، من الواضح أنها مهمّة».

بدأ أبي يضحك عندما سمع ذلك، لكنه ألقى نظرة في اتجاهي فكفّ عن الضحك. لعله ظنّ أن حديثه مع جيك بهذه الطريقة يمكن أن يضايقني. لكن الأمر الغريب هو أنه لم يضايقني كثيرًا الآن، لم يضايقني مثلما ضايقني في ذلك اليوم الأول عندما كنا في مركز الشرطة. كان يسرني أن يبدي الناس إعجابهم بابني. وكان هذا يجعلني أشعر بالفخر به. أمر سخيف أن أفكر بهذه الطريقة. إنه شخص في حدِّ ذاته -وليس إنجازًا من إنجازاتي- لكن ذلك الإحساس كان موجودًا عندي. وفي ما يتعلّق بإعجاب أبي بجيك، كان الإحساس أكثر قوّة من المعتاد. لم أكن أعرف السبب. أتراني أريد تمريغ وجهه في الأبوة، أم هي رغبة غير واعية في إثارة إعجابه؟ لم يعجبني ما يقوله أيٌّ من هذين الاحتمالين عني.

قلت لأبي: «حسنًا، سنراك هناك»، استدرت مبتعدًا عنه... «هيا بنا، يا جيك».

لم تكن رحلتنا طويلة، لكنّها استغرقت بعض الوقت في زحام الفترة الصباحية. أمضى جيك القسم الأكبر من هذا الوقت جالسًا في مقعد السيارة الخلفي يركل ظهر المقعد الذي أمامه من غير هدف، ويصفّر لنفسه بلحن ما. ومن حين لآخر، كنت ألقي عليه نظرة في المرآة فأراه ملتفتًا

جانبًا ينظر عبر النافذة مثلما يفعل أكثر الأحيان، كما لو أنه حائر لرؤية العالم الذي هناك من غير أن يكون شديد الاهتمام به.

«بابا، لماذا لا تحبّ بيثْ؟».

«أنت تعني المحقّق ويليس»... انعطفت بالسيارة فدخلت شارعنا... «ليست المسألة هي أنني لا أحبّه. أنا لا أعرفه. إنه شرطي، وليس واحدًا من أصدقائنا».

«لكنه شخص لطيف ودود. إنه يعجبني».

«أنت لا تعرفه أيضًا».

«لكن، إذا كنت أنت لا تعرفه، ولا تحبّه، فلماذا لا أستطيع أن أعرفه وأن أحبّه بدلًا منك؟».

كان تعبي أكثر من أن أجاريه في هذا التلاعب بالكلمات.

«لم أقل لك إنني لا أحبّه».

لم يجبني جيك، ولم تكن لدي رغبة في أيّ مزيد من الكلام في هذا الأمر. إن الأطفال ماهرون في التقاط الجو العام. ثم إن ابني أكثر حساسية من معظم الأطفال. لعلّه كان واضحًا له أنني أكذب.

ولكن... هل كانت تلك كذبة حقًّا؟ لقد احتفظت لنفسي بالحديث الذي جرى بيننا ليلة أمس. ولهذا السبب -ربما- صار من الأسهل علي الآن أن أقارن نفسي بأبي، وأن أنظر إليه على أنه رجل وجد الأبوة صعبة عليه مثلما أجدها صعبة عليّ. بصرف النظر عن هذا كلّه، فهو لم يعد الرجل الذي أتذكّره إلا بقدر ما بقيت أنا ذلك الطفل الذي كان في تلك الأيام.

كم من الوقت يلزم حتى يتغيّر المرء، وكم على المرء أن يتغيّر قبل أن يختفي الشخص الذي تكرهه ويحلّ محلّه شخص جديد. لقد صار بيثْ الآن شخصًا آخر.

لم يكن شخصًا لا أحبّه. الحقيقة أنه كان شخصًا لا أعرفه.

عندما بلغنا بيتنا، لم نرَ أي شيء يشير إلى الشرطة أو إلى عمل الشرطة... حتى الشريط الأصفر أزيل من المكان. ولم أجد حضورًا إعلاميًا كثيفًا كالذي كنت قلقًا من احتمال وجوده في انتظارنا: مجموعة صغيرة من الأشخاص يتحدّثون في ما بينهم. لم يظهر عليهم كبير اهتمام عندما أوقفتُ السيارة في مدخل البيت. لكن جيك كان مهتمًا.

قال مستثارًا متحمّسًا: «هل سنظهر على التلفزيون؟».

«بالتأكيد، لا».

«أوه».

كان بيتْ يسير خلفنا طيلة الرحلة. أوقف سيارته خلف سيارتنا، ثم خرج من السيارة مسرعًا. اقترب المراسلون الصحافيون منه. وأما أنا، فقد رحت أنظر إليه وهو يكلّمهم.

«ما الذي يجري هناك، يا بابا؟».

«انتظر».

كان جيك يمدّ رأسه محاولًا الرؤية أيضًا.

قال لي: «هل هذه...؟».

أطلقتُ شتيمة بذيئة.

حلّتْ في السيارة لحظة صمت بعد ذلك. حدّقت في المجموعة الصغيرة التي تجمعتْ من حول أبي مدركًا، إدراكًا غائمًا، أنه يبتسم لهم ابتسامة مهذّبة ويوضح لهم بعض الأشياء، وقد بان واضحًا من مظهره أنه يخفي شيئًا ما. رأيت بعض المراسلين يومئ برأسه. لكن انتباهي كان متركّزًا خاصّة على امرأة واقفة بينهم.

«لقد قلت كلمة بذيئة، يا بابا».

بدا على جيك استياء وعَجَبٌ شديدان.

«صحيح، لقد قلتها...». أشحت بوجهي عن كارين الواقفة بين المراسلين وقد حملت دفتر ملاحظات في يدها... «و، نعم، تلك هي والدة آدم».

قال جيك: «هل سنظهر على التلفزيون، يا بيتْ؟».

أغلقتُ باب البيت من خلفنا، ثم وضعت السلسلة.

«لقد أجبتك عن هذا السؤال، يا جيك. لا، لن نظهر على التلفزيون».

«إنني أطرح هذا السؤال على بيتْ».

قال بيتْ: «لا، لن تظهرا على التلفزيون، مثلما قال لك أبوك. هذا ما كنت أقوله لأولئك الذين في الخارج؛ إنهم مراسلون صحافيون؛ وهم مهتمّون بما حدث هنا. لكنّي كنت أذكّرهم بأن الأمر لا علاقة له بكما».

قال جيك: «لكن له بعض العلاقة بنا».

«حسنًا، بعض العلاقة فقط. لكن الأمر ليس هكذا في حقيقته. لو كنتما تعرفان أكثر، أو كانت لكما علاقة أكبر بالموضوع، لكان الأمر مختلفًا».

رميت جيك بنظرة حادّة، آملًا أن يفهم من تعبير وجهي أن الوقت غير مناسب لقول أي شيء آخر في ما يتعلّق بالصبي الذي في الأرض. نظر إليّ وأومأ برأسه، لكنه لم يكن يريد التخلي عن الأمر بهذه السهولة.

قال جيك لبيتْ: «بابا هو من عثر عليه».

قال بيتْ: «صحيح. لكننا لا نريد أن يعرف أولئك الناس بهذا الأمر. فبقدر معرفتهم، أنتما لستما جزءًا من القصة. وأظن أن هذه أحسن طريقة يمكننا التعامل بها الآن».

«لا بأس»... بدت خيبة الأمل على جيك... «هل أستطيع النظر في البيت حتى أرى ما فعلوه هنا؟».

«بالطبع».

اختفى جيك في الطابق العلوي. وأما أنا وبيت فبقينا منتظرَيْن عند الباب.

قال لي بعد لحظة: «لقد عنيتُ ما قلته لجيك. لا حاجة إلى القلق. لن يخاطر الصحافيون بتعريض المحاكمة لأيّة مخاطر. لا أستطيع منعك من الحديث معهم -هذا واضح- لكنّهم لا يعرفون شيئًا غير أنه تم العثور على بقايا الجثّة هنا. وهكذا، لا أظن أنهم سيكونون مهتمّين بكما كثيرًا. ثم إنهم سيكونون شديدي الحذر في ما يتعلّق بجيك».

أومأت برأسي شاعرًا بشيء من الغثيان. قد يكون هذا كل ما تعرفه الصحافة معرفة رسمية. لكن ما قلتُه لكارين يوم أمس كان كثيرًا جدًّا... كان كثيرًا إلى حدٍّ يجعلني الآن غير قادر على تذكّره تمامًا. إنها تعرف بأمر الزائر الليلي الذي حاول اختطاف جيك، وتعرف أنني أنا من عثر على بقايا الجثة. وهي تعرف أيضًا أن بيت أبي... أبي الذي كان يسيء إليّ وإلى أمي. ثم إنني كنت واثقًا تمامًا من قولي أشياء أخرى لا أستطيع تذكّرها الآن.

لقد قالت لي يوم أمس: «إنني ماهرة في اكتشاف الأشياء».

في ذلك الوقت، لم يكن هذا أكثر من حديث بين صديقين، ولم أدرك أنني أبوح بكل شيء لمراسلة صحافية ملعونة!

آلمني هذا.

كان عليها أن تخبرني. أحسست وقتها كما لو أنها مهتمّة بي اهتمامًا حقيقيًا؛ لكني لم أعد الآن واثقًا من ذلك.

ومن ناحية أولى، لم يكن هناك أي احتمال لمعرفتها بأن لي صلة بالقضية. وأما من ناحية أخرى، فإنها لم تشر في أي وقت خلال حديثنا إلى أنها شخص لا يجوز أن أخبره بكل شيء.

سألني أبي عابسًا: «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير».

لكن، يجب أن أتحقّق لاحقًا من مقدار الضرر الناجم عما قلته. وأما الآن، فمن المستحيل أن أخبر أبي بذلك.

سألته: «هل نحن آمنان هنا؟».

«أنتما في أمان. لن يطلق سراح نورمان كولينز في وقت قريب. وحتى إذا أُطلق سراحه، فقد صار هذا البيت خاليًا من أي شيء يمكن أن يثير اهتمامه. ليس فيه ما قد يثير اهتمام الآخرين أيضًا».

«الآخرون؟».

تردّد أبي: «لقد كان هنالك دائمًا أشخاص مهتمون بهذا البيت. قال لي كولينز إن أهالي الحيّ كانوا يعتبرونه بيتًا مخيفًا. كان الأطفال يتحدّى بعضهم بعضًا للاقتراب منه. كانوا يلتقطون صورًا هنا، وأشياء من هذا القبيل».

البيت المخيف. لقد تعبت من سماع هذا.

قال بيتْ: «هذه قصص أطفال، على أيّة حال. لم تعد بقايا توني سميث موجودة هنا. هذا ما كان كولينز مهتمًّا به. لم يكن مهتمًّا بك، ولا بجيك».

لم يكن مهتمًّا بي، ولا بجيك. لكن تفكيري ظلّ يعود إلى تلك اللحظة التي رأيت فيها جيك في الليل واقفًا في أسفل السلم وذلك الرجل يكلّمه عبر فتحة الرسائل، لم أكن قادرًا على تذكّر الكلمات التي سمعتها بالضبط، لكن ما أتذكّره كافٍ لأن أقتنع بأنه كان يحاول جعل جيك يفتح له الباب. لم أكن مقتنعًا بأن ذلك الرجل كان يريد شيئًا غير الحصول على مفاتيح المرأب.

قلت: «وماذا عن نيل سبنسر؟ هل جرى اتهام كولينز بارتكاب هذه الجريمة؟».

«لا. لكن لدينا الآن عددًا من المشتبه فيهم. إننا نقترب من معرفة الجاني. و... صدّقني، لو كنت أرى أن البيت غير آمن، لما تركتكما تعودان إليه».

«لم يكن في وسعك منعي من العودة».

«لا، لم يكن في وسعي ذلك»... أشاح بوجهه عنّي... «لكن من المؤكّد أنني كنت سأحاول إقناعك بالأمر، خاصة وأن جيك يعيش هنا. لقد انتهز من اختطف نيل سبنسر فرصة سنحت له؛... كان يسير وحده. إنه رجل لا يريد إثارة الانتباه إليه. من المؤكّد أن عليك أن تظلّ منتبّهًا إلى جيك. لكني لا أجد سببًا للاعتقاد بأن أيًّا منكما معرض للخطر».

هل بدا لي أبي مقتنعًا بما يقوله؟ لم أكن واثقًا من الإجابة، لكن قراءة ما في ذهنه كانت اليوم صعبة. كان يبدو شديد الإرهاق. عندما رأيته أول مرة، كان واضحًا عليه أنه في حالة جسدية

جيدة. وأما اليوم، فإن عمره الحقيقي واضح عليه.

قلت: «تبدو لي متعبًا».

أومأ برأسه: «إنني متعب. وعليَّ أن أقوم بشيء لا أحبّه».

«ما هو؟».

قال ببساطة: «لا أهمّية لهذا. الشيء المهم هو أن عليَّ أن أقوم به».

أدركت أن لهذه القضية تأثيرًا كبيرًا عليه. كان هذا واضحًا الآن... كان واضحًا في كل شيء فيه... الشيء المهمّ هو أن عليَّ أن أقوم به.

رأيت أمامي الآن رجلًا ينوء بأثقال كثيرة جدًا ويحاول الصمود أمام هذا العبء. كثيرًا ما أشعر بأنني في حالة كالحالة التي يبدو فيها الآن.

قلت فجأة: «أمي».

نظر إلي وانتظر من غير أن يطرح أي سؤال.

قلت: «لقد ماتت».

«أخبرتني بهذا».

«قلت لي إنك تريد معرفة ما حدث. لقد عاشت حياة صعبة، لكنها كانت شخصًا جيدًا. لا يمكن أن أتمنّى أمًّا أفضل منها. ماتت بالسرطان. لم تكن تستحق أن يحدث هذا لها؛ لكنّها لم تعانِ كثيرًا. حدث الأمر بسرعة كبيرة جدًّا».

كانت تلك كذبة -لقد ماتت أمي موتًا بطيئًا مؤلمًا! ولم أكن أعرف أبدًا ما جعلني أقول له هذا. ما من واجب يملي عليَّ أن أجعل الأمر أكثر سهولة على بيتْ، ولا أن أخفّف أي ألم يحسّه، أو أي شعور بالذنب. لكنَّ جزءًا مني كان مسرورًا برؤية شيء من ذلك الثقل ينزاح عنه قليلًا.

«متى ماتت؟».

«منذ خمس سنين».

«هل يعني أنها رأت جيك؟».

«لقد رأته. هو لا يتذكّرها. لكنها رأته».

«حسنًا، يسعدني أنها رأته... على الأقل».

حلّت لحظة صمت. ثم جاء جيك نازلًا السلم فاستدرنا معًا في وقت واحد، وابتعد كل منا عن الآخر كما لو أن خيطًا متوتّرًا بيننا قد انقطع.

«لا يزال كل شيء على حاله، يا بابا». بدا على جيك شيء يشبه الريبة.

قال بيت: «نحن نقوم بعملنا جيدًا عندما نفتش كلّ شيء بعناية، ثم ننظّف المكان بعد أن ننتهي».

«رائع».

استدار جيك ودخل غرفة المعيشة.

هز بيتْ رأسه: «إن له شخصية، هذا الفتى».

«صحيح. إنه كذلك».

قال: «سوف أظلّ على اتصال بك من أجل إخبارك بأيّة تطوّرات. وأما الآن، إذا كنت تريد أي شيء -أعني أي شيء على الإطلاق- فإن أرقام الاتصال بي موجودة هنا».

«شكرًا لك».

وقفت أنظر إلى أبي وهو يسير في ممر الخروج في اتجاه الشارع خافضًا رأسه قليلًا. قلّبت بطاقته التي كانت في يدي. وبينما جلس في سيارته، نظرت إلى المراسلين الصحافيين المتجمّعين خلفها. كان أكثرهم قد ذهب الآن. رحت أنظر إلى وجوه الباقين، باحثًا عن كارين.

لكنها كانت قد ذهبت.

42

قال بيت لنفسه: هذه هي المرة الأخيرة. تذكّر ذلك! كانت تلك الفكرة شيئًا يحاول التعلّق به وهو جالس في غرفة المقابلة البيضاء ساطعة الإنارة في السجن منتظرًا وصول الوحش. لقد أتى إلى هذا المكان مرّات كثيرة جدًّا على امتداد تلك السنين؛ وقد هزّته كل مرّة منها هزًا عنيفًا. وأما بعد هذا اليوم، فلن يكون لديه سبب يحمله على العودة. كان توني سميث مركز اهتمامه في زياراته الماضية؛ وقد تم العثور عليه. إذا رفض فرانك كارتر الحديث عن الرجل الذي يبحثون عنه الآن، فإن بيتْ قد اتخذ قراره بأن يخرج من هذه الغرفة من غير أن ينظر خلفه. لن يكون مضطرًّا أبدًا إلى تكرار معاناة الآثار الثقيلة لوجوده مع كارتر في هذا المكان.

هذه هي المرة الأخيرة!

ساعدته الفكرة، لكنها لم تساعده إلا قليلًا. كان جو الغرفة الصامتة عابقًا بالترقب والخطر. وكان الباب المقفل في الناحية الأخرى من الغرفة نابضًا بالشؤم. لا بد أن كارتر يدرك أيضًا أن من المحتمل كثيرًا أن يكون هذا آخر لقاء بينهما؛ وكان بيت واثقًا من أنه سيكون مصمّمًا على جعله لقاء متميّزًا. حتى هذه اللحظة، كانت هذه المقابلة تثير في نفسه خوفًا ذهنيًا وانفعاليًا. لم يكن ذلك الخوف جسديًّا قبل اليوم. وأما الآن، فقد كان سعيدًا بالطاولة العريضة الفاصلة بينهما وبقوة السلاسل التي سيكون ذلك الرجل مقيَّدًا بها. بل إنه تساءل أيضًا إن كانت تلك الساعات الطويلة التي قضاها في صالة التمرينات الرياضية مرحلة استعداد لاحتمال مجيء هذه اللحظة تحديدًا.

وثب قلبه في مكانه عندما سمع صوت فتح قفل الباب.

حافظ على هدوئك!

تلا ذلك المسار المألوف للدخول. دخل حارسان أولًا، ثم تمهّل كارتر قبل دخوله. حاول بيتْ تثبيت نفسه بالتركيز على المغلّف الذي أتى به معه وكان الآن موضوعًا على الطاولة أمامه. نظر إلى المغلف وانتظر متجاهلًا اقتراب الرجل الضخم وجلوسه بثقل على الكرسي المقابل له. فليجرِ الأمر بصورة معكوسة، ولينتظر كارتر قليلًا. ظل بيتْ صامتًا إلى أن تراجع الحارسان وسمع صوت إغلاق الباب. لم يرفع نظره إلى كارتر إلا بعد ذلك.

كان كارتر أيضًا ينظر إلى المغلف المغلق وقد ظهر الاستغراب على وجهه.

«هل كتبت لي رسالة، يا بيتر؟».

لم يجبه بيتْ بشيء.

«كثيرًا ما أفكر بأن أكتب إليك رسالة»... رفع كارتر رأسه وابتسم... «فهل سيعجبك ذلك؟».

كبت بيتْ الرعشة التي أحسّ بها. ثمة احتمال قليل لأن يستطيع كارتر اكتشاف عنوان بيته بصورة مباشرة. لكن فكرة تلقّي رسالة منه، حتى وإن أتت عبر جهة أخرى، كانت فكرة لا يستطيع أن يطيقها.

ومن جديد، لم يقل شيئًا.

هز كارتر رأسه مستاء.

«لقد قلت لك، منذ المرة الماضية، قلت لك يا بيتر، إن مشكلتك... هل تعرف مشكلتك؟ إنني أبذل هذا الجهد الكبير لكي أتكلم معك. وأنا أفعل ذلك كلّه حتى أقول لك أشياء قد تكون مفيدة لك. لكنّي أحسّ أحيانًا بأنك غير مصغٍ إليَّ على الإطلاق».

قال بيتْ: «ينتهي الأمر دائمًا حيث يبدأ. أفهم هذا الآن».

«ومع ذلك، فقد تأخّرت قليلًا في ما يخص نيل سبنسر».

«كيف عرفت ذلك يا فرانك؟ هذا ما يثير اهتمامي».

«كما قلت لك، هذه هي مشكلتك»... استند كارتر إلى ظهر كرسيّه فجعل ثقله الكرسي يئن من تحته... «أنت لا تصغي إليَّ. فكّر في الأمر... ما الذي يجعلني أهتم بطفل لعين؟ بل إن هذا لم يكن حتى ما حاولت الإشارة إليه».

«ألم يكن كذلك؟».

«لا، على الإطلاق»... مال إلى الأمام من جديد وقد بدا عليه اهتمام مفاجئ أكبر من ذي قبل. كاد بيتْ يجفل عند تلك الحركة، لكنه قاوم ذلك... «اسمع، ها هي إشارة أخرى. هل تتذكّر ما قلتَه لي من أن الناس في العالم الخارجي قد نسوني؟».

عاد بيتْ إلى ذاكرته، ثم أومأ برأسه وقال: «قلت لي إن هذا غير صحيح».

«لقد أخبرتك بهذا. ها ها ها! وأظنّك صرت تفهمه الآن، أليس كذلك؟ صرت تدرك كم كنت مخطئًا. كنت مخطئًا لأن هناك تلك المجموعة كلّها التي ظلّت مهتمة بي اهتمامًا حقيقيًا، لكنك لم تكن تعرف عنها شيئًا».

لمعت عينا كارتر عندما قال ذلك. تخيّل بيتْ مقدار المسرّة التي لا بد أن فرانك أحسّ بها على مر السنين لمعرفته بأن له معجَبين، من أمثال نورمان كولينز، يزورون البيت الذي ترك فيه جثة توني سميث ويتعاملون مع ذلك المكان كما لو أنه مزار يقصدونه. وأكثر من ذلك، لا بد أنه كان شديد السرور بقدرته على إبقاء الأمر سرًا عن بيتْ طيلة ذلك الزمان كلّه، عارفًا أنه كان يفتش من

غير انقطاع محاولًا العثور على الطفل المفقود، في حين يصل إليه أولئك الأشخاص الآخرون بكل سهولة.

«صحيح، يا فرانك. لقد كنت مخطئًا. وأنا أعرف هذا الآن. إنني واثق من أن مجريات الأمور كلّها كانت سارّة لك كل السرور. الهامس»... كشّر قليلًا... «لا تزال أسطورتك حية».

ابتسم كارتر ابتسامة عريضة: «لا تزال حيّة بطرق كثيرة جدًا».

«إذًا، فلنتحدّث عن بعض أولئك الأشخاص الآخرين».

لم يقل كارتر شيئًا، لكنه ألقى نظرة سريعة على المغلّف الموضوع على الطاولة، فازدادت ابتسامته اتساعًا. لن يستطيع بيتْ خداعه وجعله يتكلّم عن قاتل نيل سبنسر. كان بيتْ يعرف أن عليه أن يقرأ ما بين السطور إن أراد أن يعرف شيئًا، وأن هذا يعني أن عليه جعل الرجل يتكلّم كثيرًا. مع أن كارتر يمكن أن يتعمّد الغموض في بعض الأمور، فقد كان بيت واثقًا من أن الحديث عن زوار ذلك البيت خلال تلك السنين كلّها سوف يسعده... الآن على الأقل، بعد أن صار ذلك السرّ معروفًا.

قال بيت: «لا بأس. لماذا فكتور تايلر؟».

«آه... فكتور رجل جيد».

«إن طريقتك هذه في التعبير عن الأمر تثير إعجابي. لكن، ما أعنيه حقًّا هو: لماذا استخدمت وسيطًا من أجل ترتيب ذلك كله؟».

هزّ كارتر رأسه: «لم يكن من المناسب كثيرًا أن أكون ظاهرًا لهم؛ أليس كذلك يا بيتر؟ لو كان كل إنسان قادرًا على رؤية الرب، فكم سيكون عدد من يهتمون بالذهاب إلى الكنيسة؟ من الأفضل أن يحافظ المرء على شيء من المسافة الفاصلة! وبالطبع، هذا أفضل بالنسبة إليّ أيضًا. إنه أكثر أمانًا. أظنّك تحقّقت من زياراتي خلال تلك السنين؟».

«إنني الشخص الوحيد الذي تراه».

ضحك كارتر: «يا للشرف العظيم، أليس هذا صحيحًا؟».

«وماذا عن المال؟».

«ماذا عنه؟».

«كان أولئك الناس يدفعون مالًا لتايلر -أو لزوجته- على الأقل. كان سيمبسون يتقاضى منهم مالًا أيضًا، ثم بارنيت من بعده. لكنك لم تأخذ شيئًا».

ظهر على وجهه ما يشبه إحساسًا بالإساءة... ««ولماذا أهتم بالمال؟ كل ما أريده في الحياة متاح لي مجانًا هنا. وفكتور -كما قلت لك- رجل جيد. إنه رجل محترم! كان سلوك جوليان حسنًا

معي أيضًا. ومن المنصف أن يحصلا على شيء مقابل ذلك. لم أعرف بارنيت أبدًا، ولم أكن مهتمًّا بمعرفته. لكنه أمر حسن أن يدفع أولئك الناس مالًا لكي يزوروا المكان. عليهم أن يدفعوا، بالطبع. أنا أستحق هذا، أليس كذلك؟».

«لا، لا تستحق».

ضحك كارتر من جديد: «قد ينتهي الأمر بهم إلى الإقامة هنا، معي، بعد أن تعتقلهم جميعًا. سيكون ذلك إثارة حقيقية بالنسبة إليهم، أليس كذلك؟ أراهن على أنهم سيستمتعون بوجودهم معي».

قال بيت في نفسه: ليس بقدر استمتاعك أنت!

تناول المغلّف، وأخرج الصور التي أتى بها معه: رزمة صغيرة من الصور الثابتة التي التقطتها كاميرا المراقبة للزوار الذين استقبلهم فكتور تايلر خلال تلك السنين. كانت في الأعلى صورة نورمان كولينز. دفعها بحذر عبر الطاولة لكي يراها كارتر.

«هل تعرف هذا الرجل؟».

لم يكد كارتر ينظر إلى الصورة: «لا».

صورة أخرى: «وماذا عن هذا الرجل؟»

«لست أعرف أحدًا من هؤلاء الناس، يا بيتر»... فتح كارتر عينيه على اتساعهما مستغربًا... «كم مرة ينبغي لي أن أقول لك هذا؟ أنت لا تصغي إليّ. هل تريد معرفة هؤلاء الأشخاص؟... اذهب واسأل فكتور».

«سوف نسأله».

في حقيقة الأمر، كان بيتْ قد قابل تايلر، مع أماندا، قبل ساعة من الآن. كان استمتاع تايلر بالأمر أقل كثيرًا مما يبدو الآن على صديقه كارتر من سرور. كان غاضبًا. رفض التعاون معهما. رأى بيتْ أن ذلك أمر مفهوم بالنظر إلى أن لزوجته علاقة بالأمر. لكن الصمت لن يستطيع إنقاذ أيّ منهما. وبالمثل، كان البحث جاريًا عن الزوار الذين تم التوصل إلى معرفة هوياتهم (كان بيت واثقًا من أنهم سيعثرون بينهم على قاتل نيل سبنسر). سوف يصلون إليهم ويستجوبونهم.

كلّهم عدا شخص واحد!

دفع بيتّ بصورة أخرى عبر الطاولة. كانت الصورة لرجل أصغر سنًا... لعله في العشرينيات، أو في بداية الثلاثينيات. متوسّط الطول، متوسّط الوزن. نظارة سوداء. شعر بني يبلغ الكتفين. لقد زار هذا الرجل تايلر عدة مرات، كانت آخرها خلال الأسبوع الذي سبق مقتل نيل سبنسر.

«ماذا عن هذا الرجل؟».

لم ينظر كارتر إلى الصورة. حدّق في بيتْ وابتسم.

«هذا هو الشخص الذي يثير اهتمامك، أليس كذلك؟».

لم يجبه بيتْ بشيء.

«أنت شخص يسهل تخمين تصرفاته، يا بيتر. أنت واضح جدًّا. حاولت تخديري بصورتين، ثم دفعت إليَّ بصورة الشخص الذي يهمّك أمره حتى ترى ردّة فعلي. هذا هو الشخص الذي تريده، أليس كذلك؟ أو... على الأقل، الشخص الذي تظن أنك تريده».

«أنت ذكي جدًّا، يا فرانك. هل تعرف هذا الرجل؟».

عاد كارتر وحدّق في الصورة لحظة أخرى. وعندما فعل ذلك، امتدّت يداه المقيدتان فأمسك بالصورة وقرّبها منه. كانت حركته غريبة كما لو أن يديه تتحرّكان بفعل شيء منفصل عن جسمه. لم يتحرّك رأسه، ولم تتغير تعابير وجهه.

ثم أطرق برأسه وراح يتأمّل الصورة من جديد.

قال بصوت منخفض: «آه».

كان بيتْ ينظر إلى صدر الرجل الضخم يعلو ويهبط على وقع أنفاسه البطيئة وهو يتملّى تفاصيل الصورة التي أمامه.

قال كارتر: «أخبرني شيئًا عن هذا الرجل، يا بيتر».

«إنني أكثر اهتمامًا بما تعرفه عنه».

انتظر بيت إجابته، وفي النهاية رفع كارتر رأسه وربّت واحد من أصابعه الكبيرة على الصورة برفق شديد.

«هذا الرجل أذكى قليلًا من البقية، أليس كذلك؟ لقد استخدم اسمًا زائفًا من أجل الزيارة، لكنه كان يحمل مستندات شخصية تدعم ذلك الاسم. وأنت انتبهت إلى هذا الأمر فنظرت فيه وعرفت أن الاسم لم يكن حقيقيًا».

كان هذا صحيحًا. لقد كان الرجل يقدم وثيقة إثبات الشخصية كلما أتى في زيارة: اسمه ليام آدمز. عشرون عامًا. يعيش مع أبيه وأمه على مسافة ثلاثين ميلًا من فيذربانك. ذهب عناصر الشرطة إلى بيته منذ الصباح، لكنهم اصطدموا بحالة قاتمة من عدم الفهم ثم من الذعر الذي بدا على وجهَيْ أبويه... لأن ابنهما مات منذ عشر سنين.

قال بيت لكارتر: «تابع».

«هل تعرف مدى سهولة شراء وثائق شخصية جديدة، يا بيتر؟ الأمر أبسط بكثير مما تتخيّل. ومثلما قلت لك، هذا الشخص ذكي. إذا أردت هذه الأيام أن تبعث برسالة إلى شخص ما، فلا بد أن تكون ذكيًا، أليس هذا صحيحًا؟ وهذا الشخص هنا»... خفّض كارتر صوته... «هذا رجل يتّخذ احتياطاته».

«قل لي المزيد عنه، يا فرانك».

لكن كارتر لم يجبه، بل نظر إلى الصورة من جديد، وظلّ ينظر إليها عدّة ثوانٍ، كان يدرسها. كان ذلك كما لو أنه ينظر إلى شخص سمع عنه الكثير، لكن به الآن فضول لرؤيته آخر الأمر. لكن كارتر نشق بأنفه بصوت مرتفع، وصار فجأة غير مهتمٍّ بما رآه. دفع بالصورة إلى بيتْ عبر الطاولة.

«قلت لك كل ما أعرفه».

«أنا لا أصدقك».

«وكما قلت لك، كانت تلك هي مشكلتك، على الدوام»... ابتسم كارتر له، لكن عينيه صارتا الآن من غير أي تعبير... «كل ما في الأمر هو أنك لا تصغي، يا بيتر».

لم ينفّس بيتْ عن غضبه إلى أن صار جالسًا في السيارة حيث كانت أماندا في انتظاره. جلس في السيارة وأغلق الباب فسقطت الصور التي كانت في يده وتناثرت عند قدميه.

«خراء».

انحنى وجمع الصور على الرغم من أن واحدة فقط كانت لها أهمّية. بعد أن وضع بقيّة الصور في المغلف، ظلت تلك الصورة في يده فوضعها فوق ركبتيه. رجل يحمل اسم مراهق ميت وله نظارة سوداء وشعر بنّي يمكن -بكل بساطة- أن يكون مستعارًا... أو يمكن أن يكون قد تغيّر الآن. قد يكون سن هذا الرجل أي شيء تقريبًا! وقد يكون هذا الرجل أي شخص... تقريبًا.

قالت أماندا: «أظن أن كارتر لم يكن متعاونًا».

«لقد كان كما هو دائمًا».

مرّر بيتْ أصابعه في شعره. كان غاضبًا من نفسه. غضب من نفسه في المرة الماضية، لكنه تمكّن من تجاوز ذلك. خرج من الحديث خالي الوفاض كما يحدث دائمًا، على الرغم من أن كارتر يعرف شيئًا.

قال: «النذل».

قالت أماندا: «أخبرني».

ظل برهة ريثما تمالك نفسه، ثم قصّ عليها ما جرى من كلام، بكل تفاصيله. لم تكن فكرة أنه لا يصغي إلى كارتر أكثر من كلام فارغ. بالطبع... هو يصغي إليه. كان كلّ حديث مع كارتر يتسرّب إلى داخل نفسه. كانت الكلمات تسلك مسلكًا عكس مسلك العرق فيمتصّها جسمه ويصير باردًا دبقًا من الداخل.

فكّرت أماندا في ما سمعته بعد أن انتهى من حديثه.

«أتظنّ أن كارتر يعرف هويّة هذا الرجل؟».

نظر بيت إلى الصورة التي أمامه: «لست واثقًا من هذا. ربما! لكن من المؤكّد أنه يعرف عنه شيئًا. أو... لعله لا يعرف شيئًا، لكنه مستمتع برؤيتي أتخبّط هنا وهناك محاولًا إدراك معنى كل كلمة لعينة يقولها».

«أنت تستخدم الشتائم أكثر من المعتاد، يا بيتْ».

«إنني غاضب».

كل ما في الأمر هو أنك لا تصغي إلى ما أقوله.

قالت أماندا بصبر: «حاول أن تتذكّر الحديث كلّه من جديد. لست أعني هذه الزيارة، بل الزيارة السابقة. هذا ما قال إنك لم تصغ إليه، أليس كذلك؟».

تردد بيت قليلًا، ثم بدأ يفكّر في الكلام الذي دار بينهما آنذاك.

قال لي: «ينتهي الأمر دائمًا حيث بدأ! لقد بدأ في تلك الأرض البور، وهكذا، فقد كانت تنبغي إعادة نيل سبنسر إليها. لكن كارتر قال إنه لم يكن يقصد ذلك المعنى».

«فما الذي كان يعنيه؟».

«ومن عساه يدري؟»... كان بيت راغبًا في أن يرفع يديه عاجزًا... «ثم حدّثني عن ذلك الحلم عن توني سميث. لكنه لم يكن حقيقة. لقد اختلق ذلك لكي يحيّرني».

ظلّت أماندا صامتة بضع لحظات.

قالت له: «لكن، إذا كان الأمر هكذا، فلا بد أنه قد اختلق القصة بطريقة معينة. وأنت قلت لي بنفسك إن ذلك هو سبب زيارتك له. لقد كنت ترجو دائمًا أن يفصح عن شيء ما من غير أن يقصد ذلك».

همَّ بيتْ بالاعتراض على كلامها... لكنها كانت محقّة! إذا لم يكن ذلك الحلم حقيقيًا، فلا بد أن كارتر قد اخترعه بنفسه واختار أن يقدّم ذلك الوصف الذي قدّمه. ومن المحتمل أن يكون شيء من الحقيقة قد تسرّب من بين الثغرات في تلك القصة.

بدأ يعيد الأمر في ذهنه.

قال: «لم يكن واثقًا من أنه توني».

«في الحلم؟».

أومأ بيت برأسه: «في الحلم. كان قميص الصبي مرفوعًا بحيث يغطي وجهه، فلم يستطع رؤيته جيدًا. قال إنه كان يحب أن يكون الأمر كذلك».

«مثلما وجدنا نيل سبنسر».

«صحيح».

«لم ندع أحدًا يطّلع على هذه المعلومات»... هزت أماندا رأسها قانطة... «لقد كان كارتر شخصًا ساديًا. فلماذا لا يريد رؤية وجوه ضحاياه؟».

لم تكن لدى بيتْ إجابة عن هذا السؤال. لقد رفض كارتر دائمًا أن يناقش دوافعه. لكن، وفي حين لم يكن هناك أي عنصر جنسي ظاهر في تلك الجرائم كلّها، فقد كان تساؤل أماندا محقًّا: لقد ألحق بأولئك الأطفال إصابات كبيرة، وكان واضحًا أنه شخص سادي. وأما عن السبب الذي جعله يغطّي وجوههم، فإن هنالك ما لا حصر له من التفسيرات المحتملة. إذا سأل المرء خمسة خبراء مختلفين -وقد فعلوا ذلك وقت وقوع الجرائم- فإنه يحصل على خمس إجابات مختلفة. لعلّه فعل ذلك لأنه يجعل السيطرة الجسدية على الضحيّة أكثر سهولة. أو لعل ذلك من أجل كتم الصوت. أو لكي يجعل الضحيّة غير مدركة ما يجري حولها. أو لكي يخيف الضحيّة. أو لكي يمنع الضحيّة من رؤيته. أو لكي يحول بينه وبين رؤية الضحيّة. وكانت إحدى إجابات الخبراء كلاما فارغًا من قبيل أن المعتدين المختلفين لديهم دائمًا أسباب مختلفة كثيرة لكي يسلكوا نمطًا بعينه من السلوك. و...»تردّد بيتْ. قال بصوت خافت: «أولئك الأوغاد متماثلون جميعًا».

«ماذا؟».

قال بيت عابسًا: «هذا ما قاله لي كارتر. كانت جملة من هذا القبيل. عندما كان يتحدّث عن الطفل الذي رآه في منامه قال: أولئك الأوغاد متماثلون جميعًا. وأي واحد منهم يكون وافيًا بالغرض».

«وماذا بعد؟».

لكن بيتْ غرق في الصمت من جديد محاولًا التفكير في معنى ذلك. كان يشعر بأن هناك فهمًا ما قد صار فجأة في متناول يده. لم يكن كارتر مهتمًا بالشخص الذي يُلحق به الأذى. وأكثر من ذلك، لم يكن يريد رؤية وجوه ضحاياه على الإطلاق. لكن، لماذا؟

لمنع نفسه من رؤيتهم.

لعلّه كان يفعل ذلك لأنه كان يريد تخيل شخص آخر مكان الضحيّة! حدّق بيت في الصورة من جديد -صورة الرجل الذي يمكن أن يكون أي شخص- وتذكّر تلك النظرة الغريبة على وجه كارتر. على الرغم منه، كان لديه فضول لمعرفة الرجل الذي في الصورة. ومن جديد، أحسّ بأن كارتر كان كما لو أنه ينظر إلى شخص كان مهتمًا به منذ زمن بعيد، لكن عينه لم تقع عليه إلا الآن. هذا ما جعل بيتْ يفكّر في شيء آخر: كم كان يكافح حتى لا يفكّر في توم خلال تلك السنين، لكنه وجد من المستحيل عليه ألّا يفكّر به عندما التقيا... كان ذلك الرجل مختلفًا عن الصبي الذي يتذكّره، على الرغم من بقاء آثار من ذلك الصبي.

هذا لأن الأطفال يتغيرون كثيرًا.

لقد أخبرتك بكل ما أعرف!

والآن... تذكّر بيتْ طفلًا آخر. صبيًا صغيرًا آخر، صبيًّا صغيرًا خائفًا شبه جائع يختبئ خلف ساقي أمّه عندما فتح بيتْ الباب ودخل الغرفة الملحقة ببيت فرانك كارتر.

صبي صغير يجب أن يكون الآن في أواخر العشرينيات من عمره.

تذكّر بيت قول فرانك كارتر: أحضر لي أسرتي. تلك العاهرة، وابنها القذر الصغير.

رفع رأسه ونظر إلى أماندا... لقد فهم أخيرًا.

«هذا ما لم أكن مصغيًا إليه».

43

سمعت من يدقّ الباب قبيل وقت الغداء مباشرة. رفعت رأسي عن اللابتوب. كان الشيء الأول الذي فعلته بعد إيصال جيك إلى المدرسة ذلك الصباح هو البحث عن كارين في غوغل. كان العثور عليها سهلًا بما فيه الكفاية. ظهر اسم كارين شو إلى جانب مئات المقالات على الإنترنت في موقع الصحيفة المحلية؛ وكان بعض تلك المقالات مخصّصًا لتغطية تطوّرات اختطاف نيل سبنسر وقتله. قرأت كل واحدة من تلك المقالات بشعور متزايد بالغثيان في معدتي: لم يكن ذلك مجرد خشية مما قد تكتبه لاحقًا (تلك التفاصيل الشخصية كلّها التي كشفتها لها يوم أمس عندما كنا جالسين في المقهى)، لكني أحسّست أيضًا بأنني خذلت نفسي. لقد سمحت لنفسي بتخيّل أنها قد تكون مهتمة بي اهتمامًا حقيقيًا. لكنّي أحسست الآن بأنني كنت غبيًّا... كما لو أن أحدًا خدعني بطريقة من الطرق.

سمعت طرقًا على الباب من جديد: صوت دقّات هادئة متردّدة كما لو أن من بالباب لم يحسم أمره بعد، ويقرّر إن كان يريدني أن أسمع دقاته أم لا. قلت في نفسي إنني أعرف من سأجده واقفًا أمام بابي عند فتحه. أزحت اللابتوب جانبًا وذهبت إلى الباب.

إنها كارين... واقفة عند العتبة.

استندت إلى الجدار وطويت ذراعيَّ على صدري.

قلت لها: «ألديك آلة تسجيل تحت هذا الشيء؟».

أشرت برأسي إلى معطفها الضخم فأجفلت.

«هل أستطيع الدخول دقيقة واحدة؟».

«لماذا؟».

«أريد فقط... أريد أن أوضح الأمر. لن يستغرق هذا طويلًا».

«لا حاجة إلى هذا».

«بل أظنّ أن هناك حاجة إليه».

بدت لي نادمة -بل خجلة من نفسها أيضًا لكني تذكّرت كيف كانت أمي تقول لي إن التفسير والاعتذار يكونان دائمًا من أجل الشخص الذي يقدّمهما. أحسست برغبة في إخبار كارين بأنها تستطيع أن تذهب وتستخدم وقتها الخاص في مسامحة نفسها. لكن ضعفها الواضح في تلك

اللحظة كان على تناقض فاقع مع حالها في لقاءاتنا السابق فلم أستطع قول ذلك. بدت كأنها تفعل هذا لأن له أهمية حقيقية بالنسبة إليها.

ابتعدت عن الجدار وقلت: «لا بأس».

دخلنا إلى غرفة المعيشة. كان جزء مني محرجًا قليلًا نتيجة حالة المكان: الطبق المتّسخ الذي تناولت فيه فطوري لا يزال إلى جانب اللابتوب. وأقلام جيك وأوراقه لا تزال مبعثرة على الأرض. لكني لم أكن أعتزم الاعتذار من كارين بسبب هذه الفوضى. لا أهمية لما قد تظنّه، أليس كذلك؟ قبل هذا الصباح، كان يمكن أن تكون له أهمية... لا معنى لإنكار ذلك الآن. أمر غبي، لكنه حقيقي.

توقّفت في آخر الغرفة. لا تزال ملتفة بمعطفها الكبير كأنها غير واثقة بعد من أنني دعوتها إلى الدخول.

«هل آتي لكِ بشراب؟».

هزّت رأسها: «أردت فقط أن أوضح لك سبب وجودي هنا هذا الصباح. أعرف كيف بدا الأمر لك».

«لست واثقًا حقًّا من... كيف بدا لي. ولست واثقًا مما يجب أن أظنّه».

«إنني آسفة. كان علي إخبارك».

«صحيح».

«لقد كدت أخبرك. قد لا تصدقني. لكني كنت ألوم نفسي لومًا شديدًا صباح يوم أمس. أعني... عندما كنا في المقهى... طيلة الوقت الذي كنت تخبرني فيه بتلك الأشياء كلّها».

«لكنك تركتني أتكلم على الرغم من ذلك».

«حسنًا، أستطيع القول إنك لم تمنحني فرصة»... غامرت بابتسامة صغيرة، رأيت فيها لمحة من كارين التي اعتدتها أكثر مما اعتدت هذه المرأة الواقفة أمامي الآن... «صدقًا، بدا لي أن هناك الكثير الكثير مما تريد التنفيس عنه. وعلى ذلك المستوى، أسعدني أن أكون مفيدة لك. ومع ذلك، كان إصغائي إلى ذلك كلّه مؤلمًا لي... فأنا صحافية».

«هل كان مؤلمًا حقًّا؟».

«بالطبع. كان مؤلمًا لإدراكي أنني لن أستطيع استخدام أي شيء منه».

«أنا واثق من أنك تستطيعين ذلك».

«حسنًا، أستطيع... أستطيع بمعنى أنه ليس كلامًا رسميًا... أظنني كنت أستطيع ذلك. لكن، لن يكون ذلك منصفًا بالنسبة إليك وإلى جيك. لن أفعل هذا لكما. الأمر متعلّق بالأخلاق الشخصية،

لا بالأخلاق المهنية».

«صحيح».

«بصراحة، هذا أمر مألوف إلى حدٍّ كريهٍ»... ضحكت ضحكة مرة... «أكبر قصة في تاريخ المنطقة منذ انتقالي للعيش فيها. وقد عثرت على مدخل إليها لم يحظ به أحد من كبار الصحافيين هنا. لكني غير قادرة على استخدامه».

لم أجبها بشيء. كان صحيحًا أنها لم تستخدم ما سمعته. على الأقل... لم تستخدمه بعد. كانت آخر مقالة لها قد نشرت هذا الصباح. ولم تشتمل إلا على المعلومات نفسها التي وردت في بقية وسائل الإعلام. ما قلته لها كان أكبر كثيرًا من كل ما هو منشور، ثم إنه كان جزءًا شديد الوضوح من أسباب انزعاجها الآن. لكن، ومهما كان ذلك مغريًا، فهي لم تكشف بعد عن أي شيء مما سمعته مني. فهل أصدّقها الآن عندما تقول إنها لن تفعل ذلك؟ أظنني صدقتها.

قالت لي: «هل تحدّثت مع أي صحافي آخر؟».

كنت موشكًا على تكرار جملة أبي عن عدم معرفة أي شيء، لكن ذلك سيكون كذبًا لا معنى له في الظروف الراهنة... قلت: «لا، غادر أكثرهم المكان من غير تأخير. كانت هناك عدة مكالمات هاتفية على الهاتف الأرضي، لكني تجاهلتها».

«إنها مزعجة».

«أنا لا أجيب على الهاتف الأرضي أصلًا».

«حقًّا!... وأنا أيضًا لا أحب الهواتف كثيرًا».

«المسألة هي أن لا أحد يتّصل بي».

لم تكن تلك نكتة حقيقيّة، لكنها ابتسمت. أعجبني ذلك. كان حديثنا يزداد هدوءًا كلّما طال. زال بعض التوتر الذي كان في الغرفة... تبخّر الآن. كاد يدهشني مقدار الارتياح الذي جعلني ذلك أحسّه.

قلت لها: «هل تظنين أنهم سيواصلون المحاولة؟».

«هذا معتمد على ما يحدث. أقول لك استنادًا إلى خبرتي إن من الممكن أن يستحقّ الأمر الحديث مع واحد منهم إذا رأيت آخر الأمر أنهم لا يريدون تركك وشأنك... ليس معي بالضرورة. والحقيقة... بقدر ما يقتلني أن أقول هذا، فإن جزءًا مني يفضّل ألّا يكون حديثك معي».

«لماذا؟».

«لأننا صديقان، يا توم. هذا يجعل الموضوعية أكثر صعوبة. كما قلت لك، كنت ألوم نفسي لومًا شديدًا يوم أمس. أنت تعرف أنني لم أقترح الذهاب لشرب قهوة لأنني شممت رائحة قصة،

أليس هذا صحيحًا؟ كانت قصّتك مفاجأة تامّة. كيف كان لي أن أعرف؟ لكن الفكرة الآن هي أنك إذا قلت لهم شيئًا، ذات مرة، فسوف يتناقص اهتمامهم. مع هذا، عليك أن تنتظر لترى ما سيحدث».

فكّرت في الأمر، ثم قلت لها: «لكني أظل قادرًا على الحديث معك».

«طبعًا. هل تعرف ماذا؟... بعد كل ما قلناه الآن، سيكون أمرًا لطيفًا أن نذهب لتناول القهوة مرة أخرى، في وقت ما، ما رأيك؟».

«ربما أتمكّن من اكتشاف بعض أسرارك».

ابتسمت: «صحيح. ربما تتمكّن».

«هل أنت واثقة من أنك لا تستطيعين البقاء لشرب شيء؟».

«للأسف، لا أستطيع عندما قلت لك في البداية إنني لا أستطيع، لم يكن ذلك لحفظ ماء وجهي، فأنا مضطرّة إلى العودة حقًّا»... همّت بالخروج من الغرفة، لكن شيئًا خطر في ذهنها... «ما رأيك في هذه الليلة؟ أظنني أستطيع أن أطلب من أمي البقاء مع آدم. يمكننا أن نذهب لتناول شراب، أو شيء من هذا القبيل».

أمها!... للبقاء مع آدم! لم تقل زوجها، أو شريكها.

أظنّني كنت أفترض أنها أم عازبة؛ ولم أكن الآن واثقًا من أن هذا التأكيد قد جاء مصادفة أم إنها تعمّدته. بصرف النظر عن هذا، أردت كثيرًا أن أقول نعم. يا إلهي... كم سيكون أمرًا مدهشًا إن خرجتُ لتناول شراب مع امرأة! لم أستطع تذكّر المرّة الأخيرة التي خرجت فيها. بل، وأكثر من هذا، أدركت أنني أريد الخروج معها، أريده كثيرًا. عرفتُ الآن أنني أمضيت فترة الصباح كلها شاعرًا بالجرح، وبأنني أحمق، لسبب واضح تمامًا.

لكن، بالطبع، لم يكن ذلك ممكنًا.

قلت لها: «أظنني سأجد صعوبة في تأمين من يبقى مع ابني».

«صحيح. فهمتك. انتظر لحظة»... مدت يدها في جيب معطفها وأخرجت منه بطاقتها... «انتبهت الآن إلى أنك لا تعرف رقم هاتفي. معلومات الاتصال بي موجودة كلها هنا. أعني، إن أردتها».

«نعم... أريدها».

أخذت البطاقة: «شكرًا. ليست لدي بطاقة باسمي».

«شيء غبيّ. ابعث لي برسالة نصّية حتى يصير رقمك عندي».

«واضح. شيء غبي فعلًا».

توقّفت لحظة عند باب البيت: «كيف حال جيك اليوم؟».

قلت: «العجيب أنه في أحسن حال. حقًّا، لا أعرف سبب ذلك».

«إنني أعرفه. كما قلت لك، أنت شديد القسوة على نفسك».

وبعدها، خرجت سائرة في الممرّ. بقيت لحظة أنظر إليها، ثم نظرت إلى بطاقتها التي في يدي. فكّرت. إنها البطاقة الثانية التي أتلقاها اليوم. كانت علاقتي بكل منهما معقّدة بطريقتها الخاصّة. لكن، يا إلهي... سيكون الذهاب مع كارين لتناول شراب أمرًا حسنًا. بدا ذلك شيئًا يفعله الناس عادة. وبدا أن فعله يجب أن يكون ممكنًا بالنسبة إلي أيضًا.

عدت إلى غرفة الجلوس. تناولت هاتفي ووقفت أفكر في الوضع كلّه من جديد.

متردّد. غير واثق.

ابعث لي برسالة نصّية حتى يصير رقمك عندي. وفي النهاية، لم تكن تلك الرسالة الأولى التي أبعث بها.

44

كانت غرفة العمليات في مركز الشرطة ضاجّة بالنشاط. أفراد من الشرطة يواصلون إنجاز ما بين أيديهم من أعمال، لكنّ عددًا صغيرًا منهم كان الآن منكبًا على المهمّة الرئيسية المتمثّلة في تعقب فرانسيس، ابن فرانك كارتر. شدّت معرفة ذلك من عزيمة الجميع. كان تجدّد الطاقة في الغرفة أمرًا محسوسًا. فبعد شهرين من الحركة في دوائر مغلقة وتتبّع أدلّة لا فائدة منها، بدا لهم الآن أن دربًا جديدًا قد انفتح أمامهم.

ليس معنى هذا أنه يمكن أن يقودهم إلى أي شيء... هذا ما ذكّرت أماندا به نفسها. من الأفضل، ألا يأمل المرء بالكثير.

لكن من الصعب دائمًا أن يجعل المرء نفسه لا يأمل بالكثير.

قال بيت: «لا».

وضع ورقة جديدة فوق كومة الأوراق على المكتب بينهما.

أجابت: «لا»، وأضافت ورقة من عندها.

بعد محاكمة فرانك كارتر وصدور الحكم بحبسه، انتقل فرانسيس مع أمّه للعيش في مكان آخر. وقد حصلا على وثائق شخصية جديدة لتجنيبهما العار الناتج عن تلك القضية: فرصة لبدء حياة جديدة خالية من احتمال أن يخيّم فوقها ظلّ ذلك الوحش الذي كانا يعيشان معه. تغيّر اسم جين كارتر فصار جين باركر؛ وأما فرانسيس فصار اسمه ديفيد باركر. وبعد ذلك، اختفى هذان الاثنان. كان اسماهما الجديدان من الأسماء الشائعة التي يصعب تحديدها. ويفترض أن هذا واحد من الأسباب التي جعلت الاختيار يقع عليهما. وكانت المهمّة التي تواجه أماندا وبيت الآن هي العثور على ديفيد باركر المقصود من بين الآلاف ممن يعيشون في البلاد ويحملون الاسم نفسه.

الورقة التالية. كان عمر ديفيد باركر هذا خمسًا وأربعين سنة. لكن الشّخص الذي يبحثان عنه يجب أن يكون في السابعة والعشرين.

قالت: «لا».

استمر الأمر على هذا المنوال.

كانا يستعرضان الأسماء صامتَيْن معظم الوقت. كان انتباه بيت منصبًّا على الأوراق التي أمامه، فافترضت أماندا أن هذا التركيز كان وسيلة يلهي نفسه بها. لا بد أن مقابلته الأخيرة مع فرانك

كارتر قد هزّته مثلما كانت تهزّه المقابلات التي قبلها؛ لكنها لمست توترًا أكبر هذه المرة. كان بيت قد رأى ابن كارتر عندما كان فرانسيس طفلًا، لقد أنقذ ذلك الصبي في حقيقة الأمر. وبحكم المعرفة التي بدأت تتكوّن لديها بزميلها، كان من السهل تخيّل أنه يفكر في هذا الأمر الآن. لا بد أنه يطرح على نفسه أسئلة قاسية. ماذا لو أن ما فعله بيت في ذلك الوقت قد زرع في الصبي بذرة نمت فأنتجت هذا الرعب الجديد؟ وماذا لو أن هذا الأمر كان -على نحو ما- ذنبه هو، على الرغم من حسن نواياه.

قالت له: «لا نستطيع أن نكون على ثقة تامّة من تورّط فرانسيس في الأمر».

«صحيح».

وأضاف بيت ورقة جديدة إلى كومة الأوراق بينهما.

تنهّدت أماندا حزينة لمعرفتها بأن ما من شيء مما تستطيع قوله الآن يمكن أن ينقذ بيتْ من تلك الأفكار. لكن ما قالته كان صحيحًا. فمهما تكن نشأة فرانسيس كارتر فظيعة؛ ومهما يكن حجم المعاناة التي عاشها، فقد رأت أماندا أشخاصًا كثيرين ينجون من طفولة قاسية مؤذية ويكبرون فيصيرون أشخاصًا راشدين محترمين. طرق الخروج من الجحيم كثيرة ككثرة عدد الناس؛ ثم إن أكثر الأشخاص يتجاوزون ذلك.

كان اطلاعها على التحقيق الأصلي كافيًا لمعرفة أن بيت لم يخطئ في أي شيء، وأنه تولّى تلك القضية بأفضل شكل ممكن؛ بل إنه تجاوز ذلك عندما ظلّ مصرًّا على متابعة جين كارتر إلى أن توصل إلى إقناعها. لقد سار خلف حدسه الداخلي وركز تحرياته على فرانك كارتر فتمكّن آخر الأمر من الإيقاع به. صحيح أنه لم يفلح في إنقاذ توني سميث في الوقت المناسب، لكن إنقاذ الجميع أمر مستحيل! لا مفر أبدًا من وقوع أخطاء لا يمكن أن يراها المرء في وقتها.

كانت تعرف أن عليها، هي أيضًا، أن تتعلّق بذلك في ما يتعلّق بقضية نيل سبنسر. ولم تكن مستعدّة للاقتناع بأن الأشياء التي يسهو عنها المرء -تلك الأشياء التي تسنح له فرصة رؤية أو القيام بها- تثقله إلى حد يهدّد بإغراقه.

عاد انتباهها إلى الأوراق التي أمامها؛ ومضت تتابع قائمة الأشخاص الذين يحملون اسم ديفيد باركر.

«لا».

الأوراق تزداد بينهما.

«لا».

كانت تلك الكلمة تتكرّر على نحو صار معروفًا. لا. لا. لا. لكنها استعرضت ثلاث أوراق متتالية من غير أن تسمع شيئًا من بيتْ. لاحظت أنه ظلّ صامتًا فترة أطول مما ينبغي. رفعت رأسها

ونظرت إليه بأمل، لكنها أدركت أنه توقّف عن النظر إلى الأوراق التي على الطاولة. رأت هاتفه بين يديه. كان ينظر إلى شاشته.

سألته: «ماذا؟».

«لا شيء».

لكن من الواضح أن ذلك لم يكن لا شيء. بل إنها لم تستطع تصديق عينيها تمامًا. بدا لها أن بيتْ يبتسم. هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ كانت تلك الابتسامة صغيرة جدًّا، لكنها أدركت أنها لم تره يبتسم بهذا القدر قبل الآن. لقد كان على الدوام شخصًا صارمًا، جادًّا... كان قاتمًا مثل منزلٍ يصرّ صاحبه على رفض إضاءة أي مصباح. وأما في هذه اللحظة، فبدا كما لو أن غرفة واحدة من ذلك المنزل قد أضيء مصباحها. استنتجت أن رسالة نصّية قد وصلته. لعلها رسالة من امرأة! أو لعلّها رسالة من رجل... ففي آخر المطاف، لم تكن تعرف عن حياته الخاصّة إلا القليل جدًّا. إلا أنها أحبّت رؤية هذا التعبير غير المألوف في وجهه. كان ذلك استراحة مرحَّبًا بها من التوتر الذي ألفته... التوتر الذي جعلها قلقة عليه.

ودّت أن يستمر هذا المصباح الجديد مضيئًا.

«ماذا؟»... هذه المرّة، وجّهت إليه هذا السؤال بطريقة مازحة بعض الشيء.

«شخص يسألني إن كان لديَّ وقت حر هذا المساء من أجل شيء ما»... وضع الهاتف على الطاولة، واختفت ابتسامته... «لكن من الواضح أنني لا أملك وقتًا حرًّا».

«لا تكن سخيفًا».

نظر بيت إليها.

قالت له: «إنني جادّة في هذا. من الناحية الشكليّة، هذه القضية قضيتي، وليست قضيتك أنت. سوف أسهر عليها مهما طال الوقت. لكن، استمع... ستذهب إلى بيتك عند انتهاء وقت العمل».

«لا».

«بل ستذهب. يمكنك أن تفعل ما يحلو لك عندما تصير في بيتك. سوف أبلغك بأيّة تطورات تحدث».

«ينبغي أن أكون موجودًا».

«بالتأكيد، لا ينبغي ذلك. حتى إذا وجدنا ديفيد باركر الصحيح، فإننا لا نملك أيّة فكرة عن علاقته بالأمر، أو حتى عمّا إذا كانت له أيّة علاقة به. لن يكون ذلك أكثر من حديث نجريه معه. وأظنّ أن من الأفضل له ولك إن يتولّى إجراء ذلك الحديث شخص غيرك. أعرف ما تعنيه هذه

القضية بالنسبة إليك. لكنك لا تستطيع العيش في الماضي، يا بيت. إن للأشياء الأخرى أهمّية أيضًا»... أشارت برأسها إلى هاتفه... «أحيانًا، يكون عليك أن تترك كل شيء عند باب بيتك في نهاية اليوم. هل تفهمني؟».

ظلّ صامتًا بعض الوقت فظنّت أنه موشك على الاعتراض من جديد. لكنه أومأ برأسه موافقًا.

كرّر عبارتها: «لا يمكنك أن تعيش في الماضي. أنت محقّة في هذا. بل أنت محقّة أكثر مما تظنين».

«أوه، أعرف أنني محقّة. صدقني عندما أقول لك إنني أعرف».

ابتسم لها: «إذًا، لا بأس».

تناول هاتفه من جديد وبدأ يكتب رسالة جوابية. كان يكتبها بطريقة غريبة كما لو أنه شخص لا يتلقّى رسائل كثيرة ولم يعتد إرسال ردود عليها. أو لعله كان متوتّرًا في ما يخص هذه الرسالة بالذات. إلا أنها كانت مسرورة من أجله. ظهرت على وجهه تلك الابتسامة الصغيرة من جديد. أمر حسن أن يراه المرء مبتسمًا... أن يعرف أن هذا شيء ممكن.

إنه حي... أدركت هذا وهي تنظر إليه. هذه هي الحقيقة.

بعد كل ما مر به، صار يبدو الآن رجلًا يتطلّع إلى شيء ما... أخيرًا!

45

اتفقت مع أبي على أن يأتي في السابعة مساء. وقد كان توقيته شديد الدقة حتى ظننت أنه وصل أبكر من الموعد، فجلس في الخارج إلى أن حان الوقت المتّفق عليه. لعلّ تلك طريقة يظهر بها احترامه لي -فكرة أنه إذا سُمح له بدخول حياتي وحياة جيك، فإن عليه أن يفعل ذلك وفق شروطي، بالضبط- لكنّ الحقيقة أنني أظنّه يتصرّف هكذا مع الجميع! رجل شديد الاهتمام بالانضباط.

كان في ملابس أنيقة: بنطلون رسمي وقميص، كما لو أنه آت من العمل مباشرة. لكنه بدا منتعشًا، وكان شعره رطبًا بعض الشيء. من الواضح أنه استحمّ وغيّر ملابسه قبل أن يأتي. كان فائحًا برائحة النظافة أيضًا. عندما سار خلفي داخلًا البيت، أدركت أنني تحقّقت من رائحته من غير وعي مني. إن كان لا يزال سكّيرًا، فينبغي أن يكون قد بدأ الشرب في هذا الوقت. لا أزال قادرًا على إلغاء الأمر كلّه!

كان جيك راكعًا على أرض غرفة الجلوس منحنيًا فوق شيء يرسمه.

قلت له: «لقد وصل بيتْ».

«مرحبًا بيتْ».

«ألا تستطيع، على الأقل، أن تتظاهر بأنك تنظر إليه».

تنهّد جيك منزعجًا، لكنه وضع الغطاء على القلم الذي كان يستخدمه. كانت أصابعه ملطخة بالحبر.

قال من جديد: «مرحبًا بيتْ».

ابتسم له أبي: «مساء الخير، يا جيك. أشكرك لأنك سمحت لي برعايتك بعض الوقت هذه الليلة».

«أهلًا وسهلًا».

قلت لأبي: «أنا وجيك نقدّر لك هذا كثيرًا. لن يطول الأمر أكثر من ساعتين».

«لك ما يلزمك من الوقت. لقد جلبت معي كتابًا».

ألقيت نظرة في اتجاه الكتاب الكبير ذي الغلاف الورقي الذي كان في يده. لم أستطع رؤية غلافه على نحو يسمح لي بقراءة اسمه، لكني رأيت عليه صورة بالأبيض والأسود لونستون

تشرشل. إنه، بالضبط، ذلك النوع من الكتب القيّمة، الثقيلة، التي كنت -في ما مضى- أحاول إرغام نفسي على إنهائها. جعلني هذا أدرك تقصيري. لقد تمكّن أبي من تغيير نفسه، جسديًّا وذهنيًّا، فصار رجلًا لافتًا للنظر من غير صخب. لم أستطع منع نفسي من الإحساس بشيء من النقص عند المقارنة به.

لكن هذا سخف!

أنت شديد القسوة على نفسك!

وضع أبي كتابه على الأريكة: «هل تريني البيت؟».

«لقد كنت هنا من قبل».

قال: «كنت هنا بصفة أخرى. إنه بيتك. وأفضل أن أسمع ذلك منك».

«لا بأس. جيك... سوف نذهب قليلًا إلى الأعلى».

«نعم، أعرف هذا».

كان جيك قد بدأ يرسم من جديد. تقدّمت أبي فصعدت السلم. أشرت له إلى الحمام، ثم إلى غرفة جيك.

«عادة ما يستحمّ قبل نومه، لكننا سنتغاضى الليلة عن ذلك. يصعد إلى غرفته بعد نصف ساعة من الآن، أو نحو ذلك، لكي ينام. بيجامته هناك، فوق غطاء السرير. وكتابه هناك أيضًا. عادة ما نقرأ معًا فصلًا من الكتاب قبل إطفاء الضوء. وقد بلغنا نحو منتصف ذلك الكتاب.

نظر أبي إلى الكتاب مستفهمًا: «قوة الثلاثة؟». «نعم. إنه لديانا واين جونز. لعلّه أكبر من عمره قليلًا؛ لكنّه يحبّه».

«لا بأس بهذا».

«وكما قلت لك، لن أغيب طويلًا».

«هل لديك الليلة شيء لطيف؟».

ترددت، ثم قلت: «سوف أتناول شرابًا مع أحد الأصدقاء».

لم أكن أريد الخوض في أيّة تفاصيل أكثر من ذلك. وذلك لأن الأمر جعلني أشعر ياللغرابة- كما لو أنني مراهق لا يريد الإقرار بأنه ذاهب إلى شيء قد يمكن اعتباره لقاء عاطفيًا. بطبيعة الحال، لم نمر -أنا وأبي- بتلك الفترة الصعبة من نموّي. ولهذا، فقد يكون من الطبيعي أن أشعر الآن بشيء من الغرابة. لم تسنح لنا أبدًا فرصة بناء اللغة المناسبة بيننا للكلام في هذه الأمور، أو بعدم الكلام فيها.

قال لي: «أنا واثق من أن ذلك سيكون لطيفًا».

«صحيح».

وأنا أيضًا، توقّعت أن يكون اللقاء لطيفًا. وهذا ما جلب لي شعور مراهَقة آخر: فراشات في معدتي. لم يكن ذلك موعدًا عاطفيًا، بالطبع! وسيكون من الحماقة أن أذهب إلى تلك الأمسية ظانًّا أن الأمر كذلك. هكذا تأتي الخيبة! ثم إنّ كلًا منا لديه طفل في بيته، مما يعني أنه لا يمكن أن يحدث شيء بيننا. بحق الجحيم، كيف يتدبّر الناس أمر هذه الأشياء؟ لم تكن لدي أيّة فكرة. لم أواعد أحدًا منذ زمن بعيد جدًّا. ولهذا، يمكن اعتباري مراهقًا.

فراشات!

ذكرني هذا بأنني لم أقفل باب البيت بعد دخول أبي. سرعان ما حلّت محلّ الإثارة لحظة خوف صغيرة... أمر سخيف!

قلت لأبي: «هيا بنا. فلنعد إلى الأسفل».

46

كان السقف يطقطق عندما راح بابا وبيتْ يسيران في الأعلى. عرف جيك أنهما كانا يتحدّثان، لكنه لم يتمكّن من تمييز الكلمات. إنهما يتكلّمان عنه، بالتأكيد -تعليمات وضعه في الفراش، وأشياء من هذا القبيل. لا بأس في هذا. كان يريد الذهاب إلى الفراش في أسرع وقت ممكن.

يريد كثيرًا أن ينتهي من هذا اليوم.

غريب أمر النوم!... كأنه يمحو الأشياء.

المشاجرات، والمخاوف، وكل شيء.

من الممكن أن تكون خائفًا، أو حزينًا على شيء ما، وقد تظنّ أن النوم مستحيل؛ لكنه يحدث في لحظة ما. وعندما تستيقظ في الصباح يكون ذلك الإحساس قد زال عنك، لوهلة، كأنه عاصفة مرّت خلال الليل. أو لعل ذلك يشبه تخدير الناس قبل إجراء عملية جراحية كبيرة. قال له بابا إن هذا يحدث أحيانًا. يجعلك الأطباء تنام، فلا تعيش الأشياء المرعبة التي يتعيّن عليهم فعلها... ثم تستيقظ بعد ذلك وأنت في حال أفضل.

وأما في هذه اللحظة، فقد كان يريد أن ينام لكي يذهب الخوف عنه.

لكن الخوف ليس بالكلمة الصحيحة للتعبير عن ذلك. عندما تخاف، يكون خوفك من شيء بعينه -كأن يصرخ عليك أحد- لكن ما أحسّه كان أشبه بطير لا يجد مكانًا يحطّ فيه. منذ هذا الصباح، كان لديه شعور بأن شيئًا سيّئًا سوف يحدث؛ لكنه لم يعرف طبيعة ذلك الشيء. لكن، إن كان جيك واثقًا من شيء في هذه اللحظة، فهو أنه لا يريد أن يخرج بابا الليلة.

لكن ذلك الشعور لم يكن حقيقيًا. وبالتالي، فكلّما أسرع في الذهاب إلى النوم، كلّما كان ذلك أفضل. سوف يكون خائفًا -أو مهما يكن اسم ذلك الشعور- فإنه سيستيقظ في الصباح، فيجد بابا قد عاد إلى البيت. ومن جديد، سيكون كل شيء على ما يرام.

«لا، أنت محق في إحساسك بالخوف».

أجفل جيك.

كانت الفتاة الصغيرة جالسة إلى جانبه، وقد مدّت ساقيها. لم يرها منذ اليوم الأول في المدرسة، لكن تلك الخدوش على ركبتيها لا تزال حمراء كأنها جديدة. وكان شعرها مُزاحًا جانبًا، كعادته دائمًا. كان واضحًا له من وجهها أنها، الآن أيضًا، ليست في مزاج مناسب للعب. كان واضحًا أيضًا أنها تعرف بوجود شيء غير مريح. بدت له أكثر خوفًا منه.

قالت له: «لا ينبغي أن يخرج من البيت».

أطرق جيك برأسه وعاد ينظر إلى ما كان يرسمه. كان يعرف أن الفتاة الصغيرة غير حقيقية مثلها مثل ذلك الإحساس الذي كان لديه. هي غير حقيقية، حتى إن بدت حقيقية... حتى لو كان شديد الرغبة في أن تكون حقيقية.

همس لها: «لن يحدث أي شيء سيّئ».

«بل سيحدث. أنت تعرف أنه سيحدث».

هزّ رأسه. من المهم أن يكون منطقيًا وأن يكون كبيرًا في ما يتّصل بهذا الأمر لأن بابا معتمد عليه، ولأنه يتوقّع أن يكون ولدًا جيّدًا. وهكذا تابع الرسم كما لو أنها لم تكن موجودة معه. بالطبع... لم تكن موجودة معه!

على الرغم من ذلك، كان قادرًا على الإحساس بقنوطها.

قالت له: «أنت لا تريد أن يذهب لرؤيتها».

تابع جيك الرسم.

«أنت لا تريد أن تحلَّ امرأة أخرى محل ماما، أليس كذلك؟».

توقّف جيك عن الرسم.

لا! بالطبع لا!... هو لا يريد ذلك. ثم إن ذلك لن يحدث، أليس هذا صحيحًا؟ لكنه لم يستطع إنكار أنه أحسّ شيئًا غريبًا في سلوك بابا عندما كان يتحدّث عما سيحدث الليلة. ومن جديد، لم يكن ذلك الإحساس محدّدًا بحيث يعرف له اسمًا؛ إلا أن كل شيء بدا خاطئًا، مختلًّا قليلًا، كما لو أن هناك أمرًا لم يجر إخباره به. لكنّ أحدًا لن يحلّ محل ماما. ثم إن بابا لا يريد ذلك أيضًا.

إلا أنه تذكّر تلك الأشياء التي كتبها بابا. لكنهما تحدّثا عن ذلك... ألم يتحدّثا عنه؟ ذلك لم يكن حقيقيًا، مثله مثل الأشياء التي في الكتب. وفوق هذا، كان بابا شديد الحزن في الآونة الأخيرة؛ ولعل هذا شيء يمكن أن يساعده في التخلّص من حزنه. كان ذلك أمرًا مهمًّا. إن على جيك أن يترك بابا يكون بابا حتى يستطيع هو أيضًا أن يكون جيك من جديد.

عليه أن يكون شجاعًا.

بعد لحظة من ذلك، وضعت الفتاة الصغيرة رأسها على كتفه. كان شعرها قاسيًا، واخزًا، عند رقبته.

قالت له بصوت منخفض: «أنا خائفة كثيرًا. لا تتركه يذهب، يا جيك».

كانت موشكة على قول شيء آخر، لكنه سمع صوت خطوات ثقيلة تنزل السلم.

اختفت الفتاة الصغيرة.

47

عندما عدنا إلى الطابق السفلي، كان جيك لا يزال جالسًا على الأرض عند اللوحة التي يرسمها. كان قلمه في يده. لكنه توقّف عن الرسم الآن. كان ينظر في الفراغ. الحقيقة أنه بدا كما لو أنه موشك على البكاء. ذهبت إليه وجثوت إلى جانبه.

«هل أنت بخير، يا صاحبي؟».

أومأ برأسه، لكنّي لم أصدقه.

«ما الأمر؟».

«لا شيء».

عبسْت قليلًا وقلت: «همم، لست واثقًا من أنني أصدّقك. هل أنت قلق في شأن هذه الليلة؟».

تردّد ثم قال: «قد أكون قلقًا بعض الشيء».

«حسنًا، هذا أمر مفهوم. لكنّك ستكون على ما يرام. وإذا أردت الصدق، فقد كنت أظنّ أنك ستكون متشوّقًا إلى قضاء بعض الوقت مع شخص آخر... على سبيل التغيير».

نظر إليَّ عند ذلك. صحيح أنه لا يزال يبدو صغيرًا، ولا يزال يبدو ضعيفًا، لكنّي لا أظنّ أنني رأيت قبل ذلك تعبير وجهه تصير هكذا.

قال لي: «هل تعتقد بأنني لا أريد أن أكون معك؟».

«أوه، يا جيك. تعال».

تحرّكت حتى أجثو على ركبتيَّ وأحتضنه. اقترب مني، والتصق جسده الصغير بجسدي.

«لا أعتقد هذا على الإطلاق. لم يكن هذا ما عنيته».

لكنه... كان ما عنيته. نوعًا ما، على أية حال. كان أحد أكبر مخاوفي منذ موت ريبيكا ألا أستطيع إقامة صلة معه. خشيت أن يصير كلًا منا غريبًا عن الآخر. كان جزء مني يحسّ أنه قد يكون أحسن حالًا من غيري ومن غير محاولاتي المتعثّرة في عالم الأبوة وعندما دخل المدرسة في اليوم الأول من غير أن يلتفت خلفه ظننت أن شعوره كان هكذا طيلة الوقت.

جعلني هذا أتساءل إن كان يفكّر تجاهي بالطريقة نفسها. لعلّ خروجي هذه الليلة جعله يشعر بأنني غير راغب في أن أكون معه. أيظن أنني جعلته يذهب إلى نادي 567 لأنني أردت التخلص منه؟ صحيح أنني في حاجة إلى وقت وحيّز خاصّين بي، لكنَّ ذلك بعيد عن الحقيقة كل البعد.

كم كان هذا كلّه حزينًا... هكذا قلت في نفسي. إن لدى كلّ منا الإحساس نفسه. يحاول كل منا لقاء الآخر في منتصف المسافة، لكننا نفشل في اللقاء!

قلت: «وأنا أيضًا أريد أن أكون معك. لن أغيب طويلًا. أعدك بهذا».

اشتدّ ضغط ذراعيه من حولي؛ اشتدَّ قليلًا.

«هل أنت مضطر للذهاب؟».

استنشقت نفسًا عميقًا.

أظنّ أن الإجابة هي لا، لم أكن مضطرًا للذهاب؛ ثم إني كنت مترددًا في تركه إن كان ذهابي سيحزنه كثيرًا.

قلت له: «لست مضطرًا للذهاب. لكن كلّ شيء سيكون على ما يرام. أعدك بهذا. سوف تذهب إلى فراشك بعد قليل، وسوف تنام. وعندما تستيقظ ستجدني في البيت».

ظل جيك صامتًا. كان يفكّر في ما قلته له قبل لحظات. لكن قلقه بدا كما لو أنه يتسلّل إلى نفسي أيضًا، طيلة الوقت. شيء يكاد يكون خوفًا أو خشية مفاجئة من أن أمرًا سيئًا سوف يحدث. كان هذا سخفًا؛ وما كان هناك سبب للتفكير على هذا النحو. على الرغم من هذا، فإنني قادر على البقاء في البيت! كنت موشكًا على إخباره بأنني سأبقى، لكنه أومأ برأسه قبل أن تسنح لي فرصة قول ذلك.

قال لي: «لا بأس».

أجبته: «صحيح. جيّد. أحبك، يا جيك».

«وأنا أحبك أيضًا، يا بابا».

حرّر نفسه من عناقي ونهض واقفًا. كان أبي منتظرًا عند الباب طيلة ذلك الوقت. سرت إليه.

سألني: «هل جيك بخير؟».

«نعم، إنه بخير. سوف يهدأ. وأما في حال وجود أية مشكلة، فإن رقم هاتفي معك».

«إنه معي. لكن كل شيء سيكون على ما يرام. أظن أن الوضع غريب بالنسبة إليه. هذا كلّ ما في الأمر»... ثم رفع صوته قليلًا... «لكننا سننسجم تمامًا، يا جيك. وأنت ستكون جيدًا معي، فما رأيك؟».

كان جيك قد عاد يرسم الآن. أومأ برأسه موافقًا.

نظرت إليه لحظة وهو جاثم على الأرض وقد ركّز انتباهه على ما يرسمه، فأحسست بموجة حب تجاهه لا أستطيع وصفها. لكن موجة الحبّ تلك لم تلبث أن تحوّلت إلى عزم وتصميم. سوف نعود إلى المسار الصحيح، أنا وهو. وسيكون كل شيء في أحسن حال. أريد أن أكون معه. ويريد أن يكون معي. وسوف نتوصل في ما بيننا، على نحو ما، إلى طريقة لجعل ذلك يحدث.

قلت لأبي من جديد: «ساعتان فقط. لن أغيب أكثر من ساعتين».

48

قال الشرطي دايسون: «كدنا نصل».

أجابته أماندا: «أعرف».

لقد جعلت دايسون يقود السيارة حتى ترغمه على ترك هاتفه ساعة من الزمن. إنهما الآن على مبعدة خمسين ميلًا من فيذربانك، يمضيان على امتداد سور جامعة كبيرة. انعطفت السيارة فدخلت ما كان واضحًا أنه قلب المدينة الطلابية: بيوت كلّها من القرميد الأحمر مصطفة في الشوارع بيتًا بعد بيت. كان كل بيت من تلك البيوت مكوّنًا من ثلاثة طوابق، أو أربعة... بيوت يمكن أن يعيش في الواحد منها خمسة أشخاص، أو ستة؛ أو يمكن أن يؤجّرها مالكوها غرفًا مستقلة، فتتكوّن فيها مجموعات عشوائية من أشخاص غرباء يظلّون غرباء لا يعرف أحدهم الآخر. ميل مربع كامل من بشر يائسين. مكان منخفض التكلفة يسهل الاختفاء فيه.

كان ديفيد باركر -المعروف سابقًا بفرانسيس كارتر- قد اختار أن يعيش في هذا المكان. كانت وثائقه الشخصية متينة: السنّ الصحيح، والهيئة العامّة نفسها للشخص الذي زار فكتور تايلر في سجنه. لقد عثروا عليه قبل ساعة من انتهاء عمل بيثْ في مركز الشرطة. أثار هذا قلقها أول الأمر، فقد خشيت أن يفسد ما اتفقا عليه قبل ذلك، وأن يعود بيثْ إلى إصراره على المشاركة. كان واضحًا لها أنه راغب في ذلك. إلا أنه اكتفى بالجلوس والنظر إلى أماندا بهدوء وهي تخبر الشرطة المحلية بأنها ذاهبة إلى ذلك العنوان. وعندما حان وقت انصرافه، فعل ذلك من غير أي تذمّر: اكتفى بأن تمنّى لها حظًّا طيبًا وطلب منها أن تطلعه على أيّة تطورات تحدث. بعد اتخاذ القرار بأنه لن يذهب، صارت أماندا تظنّ أنه قد ارتاح لذلك.

ليتها كانت قادرة على قول الشيء نفسه... فقد كانت لديها رغبة في أن يكون بيث معها في هذه اللحظة. مع أن كل ما قيل في مركز الشرطة يظلّ صحيحًا (ليس لديهم دليل ملموس على تورّط فرانسيس كارتر في القضية أصلًا؛ وسوف تكون هذه الرحلة زيارة روتينية في المقام الأول)، فقد كان إحساسها عكس ذلك. شيء يشبه الدغدغة في معدتها... شيء في منتصف المسافة بين الخوف والإثارة. كان هذا الإحساس يخبرها بأنها قريبة من الحل... سوف يحدث شيء ما. ويجب أن تكون منتبهة، مستعدة له عندما يحدث.

قاد دايسون السيارة في شارع منحدِر. كان كل بيت في هذا الشارع أخفض من البيت الذي قبله فشكّلت سقوف تلك البيوت خطًّا يشبه أسنان منشار أسود على خلفية السماء التي بدأ الضوء ينحسر عنها. كان فرانسيس كارتر -أو ديفيد باركر- قد استأجر شقة من غرفة نوم واحدة في قبو بيت مشترك كبير.

فهل ينسجم هذا مع ما لديهم من معلومات؟

كان هذا مقنعًا من بعض النواحي، لكنه غير مقنع من نواحٍ أخرى. إن كان باركر رجلهما، فمن المؤكد أنه يريد مكانًا له وحده، من أجل الخصوصية. لكن، في الوقت نفسه، هل يمكن حقًّا أن يكون قد احتفظ في هذا المكان بطفل مدة شهرين كاملين من غير أن يراه أو يسمعه أحد، أم أن نيل كان محتجَزًا في مكان آخر؟

أبطأت السيارة حركتها.

ستكتشفين الأمر بعد قليل. توقّف دايسون تحت واحد من مصابيح الشارع بدا نوره القويّ طاغيًا على كل لون آخر. ترجّل الاثنان من السيارة. كان المبنى المقصود مؤلّفًا من أربعة طوابق؛ وكان محصورًا بين البناءين المجاورين له. لا ضوء في واجهة المبنى. جدار قرميدي منخفض له بوابة معدنية صدئة فتحتها أماندا بهدوء قبل أن تخطو في الممرّ الذي من خلفها. كانت إلى يسارها حديقة في حالة فوضى... حديقة صغيرة مهملة من بعدها درجات صاعدة إلى المدخل. لكن، بعد الحديقة مباشرة، كانت هناك درجات أخرى نازلة تحت مستوى الأرض إلى مساحة لا تكاد تكفي لوقوف شخص واحد. نظرت أماندا من الأعلى فرأت نافذة أمامية في تلك الشقة. يجب أن يكون الباب المفضي إلى شقة باركر تحت مدخل البناء مباشرة. إنه محجوب عن الأنظار.

تقدّمت دايسون ونزلت تلك الدرجات. الحديقة ترتفع عن يسارها ويحلّ محلّها جدار قرميدي يلقي بظلّه على السلم. كان الهواء هنا أكثر برودة فأحسّت كما لو أنها تنزل قبرًا. كانت النافذة الأمامية مربّعًا قذرًا أسود اللون امتدّت شباك العنكبوت عند زواياه. كان باب شقّة باركر شبه مختفٍ في الظلال.

دقّت الباب بقوة، وصاحت: «سيد باركر؟ ديفيد باركر؟».

لا إجابة.

انتظرت بضع لحظات، ثم دقّت الباب من جديد.

صاحت: «ديفيد باركر؟ هل أنت هنا؟».

ومن جديد، لم يجبها غير الصمت. كان دايسون إلى جانبها. وضع يديه فوق عينيه وحاول النظر عبر زجاج النافذة.

«لا أستطيع رؤية أي شيء»... ابتعد عن إطار النافذة المتّسخ... «ماذا نفعل الآن؟».

جرّبت أماندا إدارة مقبض الباب ففوجئت عندما تحرّك مصدرًا صوت صرير. انفتح الباب قليلًا. وعلى الفور، هبّت من داخل الشقّة رائحة عفونة ثقيلة.

قال دايسون: «ليس آمنًا أن يترك بابه غير مقفل في هذا الحي».

قال هذا لأنه لم يكن قريبًا بما فيه الكفاية لكي يشمّ الرائحة التي شمّتها أماندا. قالت في نفسها: غير آمن على الإطلاق! لكن ربما ليس بالمعنى الذي يقصده دايسون. كانت الغرفة غارقة في ظلام

دامس؛ وكان ذلك الإحساس في معدتها أقوى من أيّة لحظة مضت. كان يخبرها بأن هناك شيئًا خطيرًا ينتظر في الداخل.

قالت لدايسون: «ابق متأهبًا».

ثم أخرجت مصباحها الكاشف وخطت إلى الداخل بحذر بعد أن رفعت يدها فوضعت كم معطفها على أنفها وفمها لحمايتهما، وراحت اليد الأخرى تحرّك المصباح ببطء في أرجاء الغرفة. كان الهواء مشبعًا بالغبار فبدا كما لو أن ذرّات رمل تحوم في شعاع الضوء. رأت لمحات من أشياء مختلفة: قطع أثاث رمادية كسيحة، وقطع ملابس مبعثرة مرمية على السجادة العتيقة؛ وأوراق متناثرة على سطح طاولة خشبية متداعية. كانت بقع الرطوبة منتشرة على السقف والجدران. ورأت زاوية مطبخ عند الجدار إلى يمينها. وعندما جرى شعاع الضوء على امتداد الأطباق والآنية القذرة هناك، رأت أماندا أشياء تتحرّك فتلقي بظلالها الكبيرة على الجدار وهي هاربة لكي تختبئ.

صاحت: «فرانسيس».

كان واضحًا أن ما من أحد يعيش هنا الآن. لقد صار المكان مهجورًا. تركه شخص ما، وأغلق الباب من خلفه من غير أن يهتمّ بإقفاله، ثم لم يعد. ضغطت على مفتاح النور أكثر من مرة. لا شيء! كانت أجرة المكان مدفوعة مقدمًا، لسنة كاملة. لكن من الواضح أن الفواتير غير مدفوعة.

توقّف دايسون إلى جوارها. قال: «يا إلهي».

قالت له: «انتظر هنا».

راحت تسير بخطواتٍ حذرة بين تلك الأشياء المتناثرة في الغرفة. كان في آخر الغرفة بابان. فتحت واحدًا منهما فاتضح أنه باب الحمام. بدأت تجول بمصباحها جيئة وذهابًا وهي تحاول منع نفسها من التقيؤ. كانت الرائحة هنا أسوأ كثيرًا مما هي في الغرفة الأولى. رأت المغسلة عند الجدار المقابل للباب؛ وكانت نصف ممتلئة بماء قذر وقد تناثرت على الأرض من حولها مناشف مبللة علت سطوحها بقع من العفن.

أغلقت الباب وانتقلت إلى الباب الثاني. لا بد أن هذا هو باب غرفة النوم. استعدّت لما قد تجده هناك، ثم أدارت مقبض الباب وفتحته ووجهت ضوء مصباحها إلى داخل الغرفة.

«هل وجدت شيئًا؟».

تجاهلت السؤال، وخطت بحذر عبر ذلك الباب.

كان الهواء هنا مشبعًا بالغبار أيضًا، لكن من الواضح أن هذه الغرفة لم تتعرّض لذلك القدر من الإهمال الذي رأته في بقية أنحاء الشقة. كانت السجادة ناعمة، وبدت لها أكثر جدّة من بقية قطع الأثاث. لم تجد في هذه الغرفة أثاثًا، لكنها رأت آثار قطع الأثاث على السجّادة: مستطيل كبير تشكّل تحت ما يجب أن يكون صندوقًا للدروج، ومربع واحد كان أثرًا لشيء لم تستطع

معرفته، وأربعة مربعات صغيرة يسمح التباعد بينها بتصوّر أنها آثار قوائم طاولة كبيرة كانت موضوعة عند أحد الجدران. كانت تلك المربّعات عميقة... لا بد أن شيئًا ثقيلًا كان موضوعًا على تلك الطاولة.

إلا أنها لم تجد آثارًا واضحة تشير إلى وجود سرير.

ثم لاحظت شيئًا فأعادت تسليط ضوء المصباح على الجدار. رأت أن طلاء ذلك الجدار أحدث عهدًا من طلاء بقية الشقّة. لم يكن الجدار مطليًا فحسب، بل كان عليه شيء مضاف إلى الطلاء. رسوم مضافة بعناية إلى أسفل الجدار. أوراق عشب بدت كأنها نامية من الأرض، وفيها أزهار بسيطة متناثرة هنا وهناك، ونحلات، وفراشات تحوم فوق تلك الأزهار.

تذكّرت الصور التي رأتها، صور الغرفة الملحقة ببيت فرانك كارتر. أوه، يا إلهي!

أدارت ضوء المصباح بحركة بطيئة.

على مقربة من السقف، أطلّت عليها شمس غاضبة لها عينان سوداوان.

49

كان أبوك يحب هذه الكتب عندما كان صغيرًا.

كاد بيت يقول هذه الجملة وهو يجثو إلى جانب سرير جيك ويتناول الكتاب. كان ضوء غرفة النوم خافتًا، وبدا جيك صغيرًا جدًّا وهو مستلقٍ تحت أغطيته… أحسّ بيت بأنه انتقل في تلك اللحظة فعاد إلى زمان آخر. تذكّر كيف كان يقرأ لتوم عندما كان ولدًا صغيرًا. كانت كتب ديانا واين جونز من بين الكتب المفضّلة لدى ابنه.

«قوة الثلاثة».

لم يستطع تذكر محتويات الكتاب، لكن غلافه بدا له على الفور مألوفًا. أحسّ تنميلًا عند أطراف أصابعه عندما لمسه. كانت تلك طبعة قديمة جدًا. حوافّ الغلاف متآكلة، وكعبه مهترئ، وعنوانه شبه مختفٍ خلف الغضون المرتسمة على الورق. هل يكون هو نفسه الكتاب الذي قرأ منه لابنه قبل تلك السنوات كلّها؟ لا بد أنه الكتاب نفسه! لقد احتفظ به توم؛ وهو الآن يقرأ منه لابنه. ليست القصة وحدها هي ما انتقل عبر الزمن، من الأب إلى الابن، بل الصفحات نفسها التي تحملها.

أحسّ بيتْ كما لو ذلك كان أعجوبة.

كان أبوك يحب هذه الكتب عندما كان صغيرًا.

لكنه تمالك نفسه فلم يقل هذه الجملة. لم يكن جيك على علم بأن هناك قرابةً تربطه مع بيت؛ ولم يكن بيت في موقع يسمح له بالكشف عن ذلك… لن يكون في ذلك الموقع أبدًا. لا بأس في هذا. إن كان يحب الزعم بأنه تغيّر عبر السنين ولم يعد ذلك الأب الفظيع الموجود في أسوأ ذكريات توم، فهو أيضًا غير قادر على أن يزعم لنفسه الفضل في أمور أحسن من ذلك.

إن كان ذلك الرجل قد ذهب، فينبغي أن يكون قد ذهب كلّه. لقد حلّ محلّه رجل جديد.

«والآن…».

جعل ضوء الغرفة الخافت صوته رقيقًا، لطيفًا.

«أين وصلنا في الكتاب؟».

وبعد ذلك، جلس بيتْ في الأسفل، وسط الصمت. حتى هذه اللحظة لم يمس الكتاب الذي أتى به معه. كان الدفء الذي تشرّبه في الأعلى قد رافقه إلى غرفة الجلوس. أراد أن يستمتع به بعض الوقت.

حتى هذه اللحظة، كان قد مر عليه زمن طويل وهو يدفن نفسه في الأُلهيات: كان يستخدم الكتب، والطعام، والتلفزيون -شيء أشبه بطقوس يومية- شيء يشبه أن يطقطق المرء بأصابعه عند ناحية من ذهنه حتى يشغله فلا يلتفت إلى اتجاهات أكثر خطورة. لكن هذا الشعور لم يكن لديه الآن. كانت الأصوات التي تغزوه عادة صامتة في هذه اللحظة. الليلة، لم يكن ذلك الدافع إلى الشرب حيًّا. لا يزال قادرًا على الإحساس بوجوده مثلما تستمرّ شمعة في إطلاق قليل من الدخان بعد إطفائها على الرغم من أن النار والضوء قد اختفيا.

كانت القراءة لجيك أمرًا جميلًا جدًّا. كان الصبي هادئًا، منتبهًا. وبعد صفحة أو صفحتين، قرّر أن يقرأ بنفسه. صحيح أن قراءته كانت متعثّرة، لكن من الواضح أن ذخيرته من المفردات جيّدة. كان عدم الإحساس بالسلام في تلك الغرفة أمرًا مستحيلًا. مهما يكن مقدار الضرر الذي ألحقه بيتْ بطفولة توم، فإن ابنه لم ينقل ذلك إلى صغيره.

صعد بيتْ وتفقّد جيك بعد ربع ساعة فوجده يغط في نوم عميق. ظل واقفًا هناك لحظة معجبًا بذلك الصفاء والهدوء الظاهرين على الصغير.

هذا ما تخسره عندما تشرب.

لقد قال هذه الجملة لنفسه مرّات كثيرة وهو ينظر إلى صورة سالي وعقله يدور من حول ذكريات حياة خسرها. كان هذا كافيًا، معظم الأحيان؛ لكنه لم يكن كافيًا في أحيانٍ أخرى. لقد كانت هذه الأشهر الأخيرة حافلة باختبارات قاسية. لكنه تمكّن من المقاومة، على نحو ما. غمرته سعادة كبرى وهو ينظر إلى جيك النائم كما لو أنه تمكّن من تفادي رصاصة لم يكن يعرف أنها قادمة في اتجاهه. صحيح أنه لم يكن واثقًا من المستقبل، لكنه يعرف -على الأقل- أن المستقبل موجود.

انظر، هذا ما تكسبه بالتوقّف عن الشرب.

كانت تلك الفكرة أفضل كثيرًا من سابقتها. إنه الفارق بين الندم والانفراج، بين موقد بارد امتلأ رمادًا ميتًا وبين نار لا تزال حية مشتعلة. لم يفقد هذا! لعلّه لم يعثر عليه كلّه حتى الآن، لكنّه لم يفقده.

عاد إلى الأسفل فقرأ بعض الوقت، لكنَّ أفكارًا عن التحقيق كانت تشوّش تركيزه فظلّ يتفقّد هاتفه بحثًا عن أخبار من أماندا. لم يجد شيئًا. يجب أن تكون أماندا قد وصلت الآن. ولا بد أنها احتجزت فرانسيس كارتر أو أنها تستجوبه. تمنّى أن يكون هذا ما حدث. لا بد أن شدّة انشغالها الآن لا تسمح لها بأن تكتب له شيئًا... الانشغال هو الوجهة الصحيحة.

فرانسيس كارتر.

تذكّر فرانسيس الصبي بكل وضوح. مع أن فرانسيس كارتر صار الآن شخصًا مختلفًا تمامًا: رجل ناضج تشكّل من ذلك الصبي، لكنه مختلف عنه. لم يجلس بيت مع الصبي إلا مرات قليلة منذ عشرين عامًا. في أكثر الأحيان، كان يقابله أفراد من الشرطة تلقوا تدريبًا خاصًا. كان فرانسيس

صغيرًا شاحبًا مذعوّرًا ينظر إلى الطاولة بعينين مسبلتَيْن ولا يجيب على أكثر الأسئلة إلّا بكلمة واحدة. كانت أبعاد الأذى الذي أصابه نتيجة معاناة العيش مع أبيه واضحة تمامًا. كان طفلًا ضعيفًا هشًّا يعيش في جحيم.

عادت إليه كلمات فرانك كارتر.

كان قميصه يغطّي وجهه فلم أستطع رؤيته جيّدًا. هكذا أحب أن يكون الأمر.

لقد كان الأطفال كلّهم سواء عنده... أي واحد منهم يمكن أن يفي بالغرض! ولم يكن يريد رؤية وجوههم. لكن، لماذا؟ تساءل بيتْ في نفسه: هل يمكن أن يكون ذلك لأن كارتر أراد تخيّل ابنه في أولئك الضحايا؟... صبي لم يكن قادرًا على إيذائه من غير إلقاء القبض عليه، فكان لا بد له من ممارسة غضبه على أطفال آخرين بدلًا منه؟

ظلّ بيت برهة جالسًا في هدوء تام.

إن كان الأمر هكذا، فكيف يمكن أن يكون شعور الطفل استجابة لذلك؟ لعلّه يشعر بأنّ لا قيمة له، وأنه يستحق الموت أيضًا. لعلّه شعور بالذنب تجاه من ماتوا بدلًا منه. لعله رغبة شديدة في التعويض عمّا حدث. لعله حافز يدفعه إلى مساعدة الأطفال الذين مثله، فلعله يستطيع أن يبدأ شفاء نفسه عندما يفعل ذلك!

هذا رجل حذر!... هذا ما قاله كارتر عن الرجل الذي رآه في الصورة عندما وضعها بيت أمامه. لقد ابتسم له.

كل ما في الأمر هو أنك لا تصغي جيدًا، يا بيتر!

لقد استمر احتجاز نيل سبنسر شهرين كاملين، لكنه بدا في حال حسنة بعد تلك الفترة كلّها. لقد اعتنى به شخص ما... إلى أن حدث شيء غير مواتٍ فقُتل نيل وألقي بجثته في موقع اختطافه نفسه. تذكّر بيت ما فكّر فيه عندما جرى اكتشاف الجثة في الأرض البور تلك الليلة. وقتها، قال في نفسه إن هذا أمر شبيه بأن يعيد شخص ما هدية لم يعد راغبًا فيها لكنّه صار الآن يفكّر في الأمر بطريقة مختلفة.

لعلّ ذلك كان شيئًا يشبه تجربة فاشلة.

بدأ جيك يصرخ في الأعلى.

50

فتحت كارين عينيها على اتساعهما، ثم بدأت تشرح لي الوضع كلّه. لقد عادت السنة الماضية لتعيش في فيذربانك. وكان وجود أمها في القرية السبب الأول في اختيارها العيش فيها. صحيح أن العلاقة بينهما لم تكن في أحسن أحوالها، لكن أمّها تحبّ آدم مما جعل كارين ترى أن معونتها سوف تكون عاملًا مساعدًا لها ريثما تقف على قدميها من جديد.

«والد آدم لا يظهر في المشهد!».

«وهل تظنّ بأنني يمكن أن أخرج معك لو كان موجودًا في المشهد؟». قالت هذا مبتسمة، فرفعت كتفيَّ عاجزًا عن الإجابة.

تركتني وشأني.

«لا، ليس موجودًا في المشهد. قد يكون هذا صعبًا على آدم، لكن هذا يكون أحيانًا أفضل للأطفال، حتى إن لم يدركوا الأمر في وقته. لقد كان براين -هذا اسم زوجي السابق- لنقل إنه كان مثل أبيك من بعض النواحي... بل من نواحٍ كثيرة».

تناولت جرعة من كأسها. لم يكن الصمت بيننا مزعجًا؛ وأحسست بأن تلك هي النقطة الطبيعية للكف عن الحديث في ذلك الأمر. هناك أحاديث ينبغي لها أن تنتظر... هذا إذا كان لها أن تكون أصلًا. وأما الآن، فقد رحت أنظر إلى الأطفال يلعبون في الزاوية القصيّة من الحديقة. كان المساء قد بدأ يحلّ. صار الهواء أكثر ظلمة. وراحت الحشرات تلمع في الأشجار التي من حولنا.

إلا أن الجو لا يزال دافئًا. لا يزال لطيفًا.

ولكن... التفتُّ الآن في اتجاه آخر. لقد اكتشفت بوصلتي الداخلية اتجاهاتي. لم أكن بعيدًا جدًّا عن جيك: لعلّها بضع مئات من الأمتار فحسب، في خط مستقيم. لكن البعد بدا لي كبيرًا جدًا. نظرت إلى الأطفال من جديد وقلت في نفسي إن هذا الإحساس لم يأتِ نتيجة حلول الظلام فحسب، بل لأن الضوء بدا لي غير طبيعي، على نحو ما. بدا لي كل شيء غريبًا، في غير محلّه.

قالت كارين وهي تبحث في حقيبة يدها: «أوه، تذكّرت الآن. لدي شيء. هذا محرج قليلًا، لكن... هل توقّع لي هذا الكتاب؟».

إنه كتابي الأخير. ذكرتني رؤيته بالوقت الطويل الذي مضى من غير أن أنجز شيئًا. أصابني ذلك بقدر طفيف من الخوف. لكن من الواضح أنها أرادت أن يكون هذا لفتة لطيفة... لفتة فيها بعض السخف أيضًا... وهكذا أرغمت نفسي على الابتسام وقلت: «طبعًا».

ناولتني قلمًا. فتحت الكتاب على صفحة العنوان الداخلية، وبدأت أكتب.

إلى كارين.

توقّفت. لم أستطيع التفكير في شيء أكتبه بعد ذلك.

كتبت: يسعدني حقًّا أنني التقيتك. آمل ألا تجدي هذا الكتاب تافهًا.

عندما توقّع كتبًا من أجل الناس، ينتظر بعضهم وقتًا قبل قراءة ما كتبته لهم. لكن كارين لم تكن من أولئك الناس. ضحكت عندما رأت ما كتبته لها.

«أنا واثقة من أنني لن أجده كتابًا سيّئًا. على أية حال، ما الذي يجعلك تظن أنني سأقرأه؟ سوف أبيعه على الفور عبر الانترنت، يا صديقي».

«لا بأس بهذا، لكنّي لا أظنّك تعتزمين التقاعد الآن».

«لا تقلق».

ازداد الظلام من حولنا. نظرت إلى ملعب الأطفال من جديد، فرأيت طفلة صغيرة في فستان مخطط بالأزرق والأبيض. كانت واقفة تنظر إليَّ أيضًا. التقت عيوننا لحظة فتراجع كل شيء آخر في تلك الحديقة إلى خلفية المشهد. ثم ابتسمت لي وجرت صوب واحد من الجسور المصنوعة من الحبال. جرت خلفها طفلة صغيرة أخرى ضاحكة.

هززت رأسي.

سألتني كارين: «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير».

«همم. لست متأكدة من أنني أصدقك. هل هو جيك؟».

«أظن هذا».

«هل أنت قلق عليه؟».

«لست أدري. ربما. قد لا يعني هذا شيئًا، لكنّها المرّة الأولى التي أخرج فيها مساءً من غيره. إنني أمضي الآن وقتًا طيّبًا... صدقًا. لكني أشعر...».

«شعور غريب مزعج».

«نعم، قليلًا».

«إنني أفهمك»... ابتسمت لي ابتسامة تعاطف... «كان الأمر هكذا بالنسبة إلي عندما بدأت أترك آدم مع أمي. كأن هناك شيئًا يربط بالبيت. تخرج فتشعر أنك تشدّه حتى يكاد ينقطع. تحسّ

في داخلك حاجة إلى العودة.

أومأت برأسي موافقًا على الرغم من أن إحساسي بالأمر كان أكثر من ذلك... أكثر كثيرًا. كان في داخلي إحساس بأن هناك أمرًا خاطئًا إلى حد فظيع. لكن، ربما كنت أبالغ كثيرًا في ذلك الشيء الذي وصفَتْه لي وصفًا دقيقًا.

قالت كارين: «هذا أمر عادي ولا بأس فيه. صدّقني. الأيام الأولى. فلننه كأسينا حتى تستطيع العودة إلى البيت. ربما نتمكّن من فعل هذا من جديد، في وقت ما، على افتراض أنك تريد الخروج معي».

«أريد، بالتأكيد».

«جيّد».

كنت قد اتّفقت مع كارين على اللقاء في مقهى يبعد بضع شوارع عن بيتي، على مقربة من المدرسة. كان ذلك هو المقهى المحلّي في القرية. ببساطة، كان اسمه فيذربانك، فأحسست بقدر غير قليل من غرابة وضعي عندما وصلت. كانت أمسية دافئة. وكانت حديقة البيرة الملاصقة للشارع غاصّة بالناس. وعبر نوافذ الواجهة الكبيرة، رأيت أن الزحام داخل المقهى كان شديدًا بدوره. كان ذلك شبيهًا بما أحسسته عندما دخلت باحة المدرسة في اليوم الأول... أحسست كما لو أنني أدخل مكانًا حيث يعرف كلّ شخص الأشخاص الآخرين. كنت شخصًا لا ينتمي إلى ذلك المكان، ولن يكون منتميًا إليه أبدًا.

رأيت كارين عند البار، فاتّجهت إليها عبر الزحام. أحاطت بي من كل جانب أجساد حارّة وضحكات حارّة. الليلة، لم يكن معطفها الضخم موجودًا. كانت في بنطلون جينز وقميص أبيض. شعرت بمزيد من التوتّر عندما صرت إلى جانبها.

قلت لها محاولًا أن يعلو صوتي ذلك الضجيج: «مرحبًا».

«مرحبًا»... ابتسمت لي، ثم مالت في اتجاهي وقالت... «توقيتك ممتاز. ماذا أطلب لك؟».

نظرت إلى مضخّات البيرة القريبة فاخترت واحدة منها لا على التعيين. دفعتْ ثمن الشراب، وناولتني كأسي، ثم سارت مبتعدة عن البار وأشارت إلي بأن أتبعها عبر الزحام. سارت في اتجاه عمق المقهى. سرت خلفها متسائلًا إن كانت توقّعاتي لهذه الأمسية خاطئة تمامًا... تساءلتُ إن كانت تأخذني لملاقاة مجموعة من أصدقائها. لكن، كان هناك باب آخر خلف البار فتَحَتْهُ فعبرناه إلى حديقة أخرى. كانت حديقة منعزلة خلف المقهى تحيط بها الأشجار من كل جانب. رأيت فيها طاولات خشبية مدوّرة موزّعة على الأرض المعشّبة. رأيت أيضًا مساحة لعب صغيرة فيها بضعة أطفال يتسلّقون جسورًا منخفضة مصنوعة من الحبال بينما كان أهلهم جالسين يشربون على مقربة منهم. كان المكان أقل ازدحامًا، فقادتني كارين إلى طاولة خالية قريبة من آخر الحديقة.

قلت: «كان من الممكن أن نجلب طفلينا معنا».

«إن كنا مصابين بالجنون، نعم»... قالت هذا وجلست... «هذا على افتراض أنك لست شخصًا غير مسؤول إلى حدٍّ لا يصدّق، فإنني أظنّك قد تمكّنت من العثور على من يكون مع طفلك الآن».

جلست إلى جانبها وقلت: «نعم. إنه أبي».

رفرفت عيناها دهشة: «واو! بعد كل ما قلته لي، يبدو هذا أمرًا غريبًا».

«صحيح. إنه أمر غريب. في الحالة العادية، ما كنت لأطلب منه ذلك أبدًا؛ لكن... حسنًا... كنت راغبًا في الخروج لتناول شراب. المتسولون لا يضعون شروطًا».

رفعت حاجبيها.

احمرّ وجهي: «أعنيه هو، لا أنت».

«ها! بالمناسبة، هذا كلّه كلام غير رسمي»... وضعت يدها على ذراعي، ثم أبقتها عليها بضع ثوانٍ أكثر مما هو مألوف... «على أيّة حال، يسرني أنك استطعت القدوم».

«يسرّني أيضًا».

«في صحتك».

قرعنا كأسينا.

«هل يعني هذا أنك لست قلقًا في ما يتعلق بأبيك؟».

«أبي؟»... هززت رأسي نفيًا... «صدقًا، لا. ليس على هذا المستوى. لست أدري كيف هو إحساسي تجاه هذا الأمر، إذا أردت الصدق. هذا ليس شيئًا دائمًا. بل إنه ليس أي شيء في حقيقة الأمر».

«صحيح. هذه طريقة منطقية للنظر إلى المسألة. يبالغ الناس في القلق تجاه طبيعة الأشياء. يكون من الأفضل أحيانًا أن يتقبّلها المرء. ماذا عن جيك؟».

«أظنّه معجب بأبي أكثر من إعجابه بي».

«أنا واثقة من أن هذا غير صحيح».

تذكّرت كيف كانت حالة جيك قبل خروجي فحاولت مقاومة الإحساس بالذنب التي أتت به تلك الذكرى.

قلت: «ربما».

«مثلما قلت لك سابقًا، أنت مفرط في القسوة على نفسك».

«قلت من جديد: «ربما».

أخذت رشفة من كأسي. ظل جزء مني متوتّرًا، لكني أدركت الآن أن ذلك التوتر لا علاقة له بقضاء الوقت مع كارين. والحقيقة أنني دهشت لمدى الارتياح الذي أحسسته لوجودي معها، ولأنه بدا طبيعيًا جدًا أن أكون جالسًا على مقربة شديدة منها... أقرب قليلًا مما يكون الأصدقاء عادة. لا، كنت متوترًا لأنني لا أزال قلقًا على جيك. من الصعب أن أتوقّف عن التفكير فيه، ومن الصعب أن أنفض عني ذلك الإحساس الداخلي الذي يقول لي إن علي أن أكون في مكان آخر، على الرغم من رغبتي في أن أكون موجودًا هنا، فذلك أكثر أهمية لي بكثير!

أخذت رشفة أخرى من كأسي وقلت لنفسي إن علي ألا أكون غبيًا.

«قلتِ لي إن أمك ستكون مع آدم».

«صحيح».

كانت تنظر إلي. عيوننا في لحظة لقاء. والمسافة بيننا زاخرة بالاحتمالات. أدركت أن هذه هي اللحظة التي أستطيع فيها أن أميل صوبها من أجل قبلة. إذا ملت صوبها، فسوف تميل صوبي أيضًا. سيغمض كل منا عينيه عندما تلتقي شفاهنا؛ وسوف تكون قبلتنا رقيقة مثل نسمة. كنت أعرف أيضًا أنني إذا لم أفعل ذلك، فسوف يكون على واحد منا أن يحوّل عينيه جانبًا. لكن اللحظة وُجدت، وسيعرف كل منا أنها وجدت، وسوف تتكرّر من جديد في وقت ما.

لكن من الممكن أن يحدث ذلك الآن.

هممت بفعل ذلك، لكن هاتفي بدأ يرن.

51

حدث الأمر بعد الظهر. كان عائدًا من المدرسة مع بابا. عادة ما تأتي ماما لأخذه من المدرسة في ذلك اليوم لأن من المفترض أن يكون أحد أيام بابا في العمل. لكن ما حدث كان مختلفًا.

كان بابا يجني المال من كتابة القصص؛ وكان الناس يدفعون له من أجل قراءتها. هذا ما كان جيك -شخصيًا يراه أمرًا متميّزًا إلى حد استثنائي. وكان بابا يوافقه أحيانًا... نعم، إنه كذلك! فهو ليس مضطرًا إلى ارتداء بدلة رسمية والذهاب بها إلى المكتب كل يوم حيث يفعل ما يقال له أن يفعله، مثلما يحدث مع كثير من الآباء والأمهات الآخرين. لكنه كان يجد صعوبة في الأمر أيضًا، لأن هذا العمل لا يبدو عملًا في نظر الآخرين.

لم يكن جيك يعرف تفاصيل كثيرة عن هذا الأمر؛ لكنّه أدرك إدراكًا غائمًا أنه قد سبّب مشكلات بين أبويه، في لحظة ما، فصار بابا يأخذه إلى المدرسة ويعيده منها أكثر الأحيان. يعني هذا أنه لم يكن يكتب قصصًا كثيرة. كان الحل في زيادة عدد المرّات التي تأخذه بها ماما من المدرسة. وكان من المفترض أن يكون هذا اليوم دورها. لكن بابا أتى وقال له إن ماما لا تشعر بأنها على ما يرام فكان عليه أن يأتي بدلًا منها.

لقد أوضح له الأمر بهذه الطريقة: كان عليه أن يأتي بدلًا منها.

سأله جيك: «هل هي بخير؟».

قال بابا: «إنها بخير. لكنها شعرت بشيء من الإرهاق بعد عودتها من العمل فاستلقت في السرير».

صدق جيك بأن ماما بخير... بالطبع، هي بخير! لكن بابا بدا أكثر توترًا من المعتاد فخشي جيك أن يكون سير العمل في القصة التي يكتبها متعثّرًا بعض التعثّر، وأن يكون اضطراره إلى القدوم حتى يأخذ جيك من المدرسة... أمممم! حسنًا... كيف يكون عكس عبارة ’قد جعل ما هو حسن أحسن’؟

كثيرًا ما كان جيك يشعر كما لو أنه مشكلة بالنسبة إلى بابا... كما لو أن الأمور ستكون أسهل كثيرًا لو أنه غير موجود. وفي السيارة، سأله بابا الأسئلة المعتادة عن نهاره، وكيف جرت الأمور في المدرسة. وما فعله هناك. وكعهده دائمًا، بذل جيك أقصى جهده لتفادي الإجابة. لم يكن لديه شيء مثير يقوله؛ ثم إنه لم يكن يظن بأن بابا مهتم بالأمر حقًّا.

توقفت السيارة أمام البيت.

«هل أستطيع الدخول ورؤية ماما؟».

كان لديه نصف توقّع بأن يقول له أبوه لا، لكنه لم يكن يعرف سبب توقّعه هذا -ربما يرفض لأن هذا شيء يريد جيك حقًّا أن يفعله، وسوف يقول له لا لمجرد إفساد متعته. لكن ذلك كان غير منصف تمامًا لأن بابا اكتفى بأن ابتسم وداعب شعره.

قال له: «يا صاحبي، عليك فقط أن تكون لطيفًا معها. هل اتفقنا؟».

«سأكون لطيفًا معها».

كان الباب غير مقفل. دخل جيك راكضًا من غير أن يخلع حذاءه. عادة ما يكون هذا شيئًا توبّخه أمه عندما يفعله لأنها تحب أن يظلّ البيت نظيفًا مرتبًا، لكنّ حذاءه لم يكن وسخًا؛ وقد أراد أن يراها سريعًا وأن يحاول جعلها تشعر بأنها في حال أفضل. عبر المطبخ راكضًا ودخل غرفة الجلوس.

... ثم توقّف في مكانه.

أحسّ بأن هناك شيئًا غير صحيح. كانت الستائر في آخر الغرفة مفتوحة. وكانت أشعة شمس ما بعد الظهيرة تدخل الغرفة بزاوية مائلة فتنير نصفها. بدا ذلك لطيفًا، مسالمًا، وكان كل شيء ساكنًا، صامتًا. لكن تلك هي المشكلة! حتى عندما يختبئ أحد منك حتى لا تراه، فعادةً ما تظلّ قادرًا على الإحساس بأنه موجود في مكان ما من حولك لأن الناس يشغلون حيزًا في الفراغ، ولأن هذا يغيّر الجو على نحو ما. لكن البيت في تلك اللحظة لم يكن كذلك على الإطلاق.

أحسّ كما لو أن البيت خالٍ.

كان بابا لا يزال في الخارج. لعلّه يفعل شيئًا متعلّقًا بالسيارة. سار جيك بخطوات بطيئة فعبر غرفة الجلوس؛ لكن ذلك كان كما لو أن الغرفة تسير إلى الخلف مارّة به. كان الصمت ضخمًا فأحسّ بأنه قد يجرحه إذا لم يكن حذرًا.

كان الباب الذي إلى جانب النافذة مفتوحًا. يؤدّي هذا الباب إلى فسحة صغيرة أسفل السلم. ومع اقتراب جيك، صار قادرًا على رؤية مزيدًا من التفاصيل.

الزجاج المغشّى على الباب الخلفي.

كان صوت أنفاسه الصوت الوحيد المسموع في تلك اللحظة.

ورق الجدران الأبيض.

كان يقترب ببطء شديد حتى كأنه لا يكاد يتحرّك من مكانه.

درابزين السلّم الخشبي المزخرف.

نظر إلى الأرض.

ماما... «بابا!».

صرخ جيك مناديًا أبيه حتى قبل أن يستيقظ تمامًا، ثم اختبأ كلّه تحت الغطاء وصاح من جديد. كان قلبه الصغير ينبض عنيفًا. لم يأته هذا الكابوس منذ كانا يعيشان في البيت القديم، فكانت صدمته أكبر كثيرًا بعد هذا الغياب.

ظلّ منتظرًا في سريره.

لم يكن متأكّدًا من الوقت، أو من الزمن الذي مر عليه وهو نائم، لكن من المؤكّد أنه وقت طويل إلى الحدِّ الكافي لأن يكون بابا قد عاد إلى البيت. بعد لحظة، سمع صوت خطوات منتظمة تصعد السلّم.

غامر جيك بإخراج رأسه من تحت الغطاء. كان مصباح الممرّ لا يزال مضاء. امتد ظل طويل عبر الغرفة عندما دخلها شخص ما.

قال له الرجل بصوت هادئ: «ماذا؟ ما الأمر؟».

تذكّر جيك... إنه بيتْ! كان يحب بيتْ حقًّا، لكن الحقيقة تظل أن بيت ليس بابا، وأن بابا هو الشخص الذي يريده ويحتاج إلى دخوله لتفقّده في هذه اللحظة.

كان بيتْ متقدّمًا في السنّ، لكنه جلس متصالب الساقين على الأرض إلى جانب سريره بحركة سريعة حاسمة.

قال له: «ما الأمر؟».

«رأيت حلمًا سيئًا. أين بابا؟».

«لم يعد بعد. الأحلام السيئة مخيفة، أليس كذلك؟ ماذا كان هذا الحلم؟».

هز جيك رأسه. لم يخبر بابا أبدًا بما يراه في ذلك الكابوس. لم يكن يعرف إن كان سيخبره في يوم ما.

هز بيتْ رأسه: «لا بأس. لا بأس. هل تعرف أنني أرى أحلامًا سيئة، أنا أيضًا؟ الحقيقة أنني أراها كثيرًا. لكنّي أظن أن وجودها ليس مشكلة».

«كيف لا يكون مشكلة؟».

«لأن هناك أشياء سيئة تحدث لنا في الحياة الحقيقية، لكننا لا نريد التفكير فيها. وهكذا فإنها تصير مدفونة عميقة في رؤوسنا».

«مثلما يحدث عندما يستولي على ذهنك لحن ما فلا يتركك؟».

«صحيح، أظنّ بأن الأمر هكذا. لكن على هذا الأفكار أن تخرج في آخر المطاف. قد تكون الأحلام السيئة الأسلوب الذي تستخدمه أدمغتنا للتعامل مع هذا الأمر. إنها تفتت الأفكار السيئة إلى قطع صغيرة، ثم إلى قطع أصغر، حتى لا يبقى شيء منها».

فكّر جيك في هذا. لقد أخافه الكابوس أكثر من أي وقت مضى كما لو أن عقله يبنيه ويزيده بدلًا من أن يفتّته! لكن الكابوس ينتهي دائمًا عند النقطة نفسها قبل أن يستطيع حقًّا أن يرى ماما راقدة على الأرض. لعل بيتْ محقّ! ولعل عقله خائف جدًا بحيث يعتقد بأن لا بد له من الاستعداد لرؤية ذلك المشهد قبل أن يبدأ تفتيته.

قال بيتْ: «أعرف أن هذا لا يجعل الأمر أكثر سهولة. لكنّك تفهم هذا. لا يستطيع الكابوس أبدًا أن يسبّب لك أي ضرر. لا شيء يستحقّ الخوف منه».

قال جيك: «أعرف هذا. لكن، أريد بابا».

«سوف يعود قريبًا. أنا متأكد من هذا».

«أريده الآن»... مع عودة الكابوس، وقبله عودة الفتاة الصغيرة والتحذير الذي سمعه منها في وقت سابق من هذا اليوم، كان جيك واثقًا جدًّا من أن هناك شيئًا خاطئًا... «هل تستطيع الاتصال به لجعله يعود إلى البيت؟».

ظل بيتْ صامتًا لحظة.

قال جيك: «من فضلك! لن يزعجه هذا».

قال بيتْ موافقًا: «أعرف أنه لن يزعجه»، ثم أخرج هاتفه من جيبه.

ظل جيك ينظر إلى بيتْ قلقًا وهو يفتح الهاتف ويضغط على شاشته ثم يضعه على أذنه. من الأسفل، جاء صوت فتح باب البيت.

ألغى بيتْ المكالمة: «آه... ها هو أبوك قد أتى. أظنّك ستكون مرتاحًا الآن. هل تستطيع أن تبقى وحدك لحظة حتى أنزل وأطلب منه أن يأتي إليك؟».

قال جيك في نفسه: لا، لا أستطيع!

لم يكن يريد أن يبقى هنا ثانية واحدة، في هذه الظلمة، وحده. لكن بابا، على الأقل، عاد إلى البيت الآن. أحسّ جيك بارتياح كبير لهذه الفكرة.

«لا بأس».

نهض بيت واقفًا وخرج من الغرفة. سمع جيك صرير درجات السلم تحت وقع خطواته؛ ثم سمعه ينادي باسم بابا.

حدّق جيك في المساحة المنارة من الممر التي يستطيع رؤيتها من سريره؛ وراح يصغي بكل انتباه. مرت بضع ثوانٍ لم يسمع فيها شيئًا غير الصمت. ثم سمع شيئًا لم يستطع فهمه. كان ذلك حركة من نوع ما تشبه صوت قطعة أثاث تزاح من مكانها. سمع صوت أشخاص يتكلّمون، لكنه سمع أصواتًا ولم يميّز كلمات مثلما يحدث عندما تبذل جهدًا كبير في فعل شيء ما فيؤدّي ذلك الجهد إلى إصدار ضجيج فحسب.

صوت قوي آخر. شيء ثقيل يسقط على الأرض. ثم خيّم الصمت من جديد.

فكّر جيك في أن ينادي بابا، لكن قلبه عاد ينبض في صدره بقوة شديدة، تمامًا مثلما كان ينبض لحظة استيقاظه من الكابوس. كان رنين الصمت في أذنيه شديدًا. إلى درجة أحسّ معها كما لو حلمه قد عاد إليه وصار في داخله... كأنه عاد إلى غرفة الجلوس في بيتهم القديم.

عاد ينظر إلى الممر الخالي، وينتظر.

مرت بضع ثوانٍ، ثم سمع صوتًا جديدًا. وقع خطوات على السلم من جديد. شخص يصعد السلم، لكنه يتحرّك ببطء وحذر كما لو أنه خائف من الصمت، مثله.

ثم سمع شخصًا يهمس له.

52

«أنا واثقة من أن كل شيء على ما يرام». كانت كارين تسير خلفي بخطوات سريعة. حاولت أن تجعل جملتها خفيفة، مرحة. لا شك في أنها كانت محقّة كنت شبه متأكد من أنني أبالغ في ردّة فعلي، ومن أنني أسير بسرعة كبيرة تجعلها غير قادرة على اللحاق بي. لقد أتت من غير أن نناقش ذلك. لو لم تكن معي الآن، لكنت عائدًا جريًا. لأن... صحيحٌ أنها محقّة؛ ومن المرجح تمامًا ألا يكون هناك أي سبب للقلق؛ لكن إحساسًا عميقًا كان في قلبي. كنت واثقًا من أنني سأجد شيئًا سيّئًا جدًّا عندما أصل إلى البيت.

أخرجت هاتفي وحاولت الاتصال بأبي. لقد اتّصل بي عندما كنت في المقهى، لكنه أنهى الاتصال قبل أن أتمكّن من الرد. يعني هذا أن شيئًا يجب أن يكون قد حدث هناك. لكني حاولت إعادة الاتصال به فلم يجبني. رُن هاتفه مرة بعد مرة، ولم يجبني. لم يجبني حتى الآن.

«اللعنة على هذا».

ألغيت الاتصال لأننا بلغنا بداية شارعي. لعلّه اتصل بي عن طريق الخطأ. أو لعلّه غير رأيه وقرّر أن ما من داعٍ للاتصال بي. لكني تذكّرت كم كان دقيقًا، وكم بدا لي مسرورًا -سرورًا هادئًا بأن أطلب منه رعاية جيك وبأن أدعه يدخل حياتنا، وإن يكن ذلك دخولًا محدودًا جدًا. لم يكن ليتّصل معي لو أنه وجد إمكانية لعدم الاتصال. ما كان ليتّصل لو لم يكن لديه سبب مهم.

كان الحقل الممتد إلى يميني غارقًا في ظلمة المساء. لم أر أحدًا هناك في تلك اللحظة، لكن الظلام لا يسمح بالرؤية حتى نهاية الحقل. بدأت أسير بسرعة أكبر على الرغم من إدراكي بأنني قد أبدو في نظر كارين شخصًا مجنونًا تمامًا. لكنّ الذعر قد بدأ يصيبني، مهما يكن ذعرًا غير منطقي.

هذا أمر أكثر أهمية مما قد تظنّه كارين!

جيك...

بلغت الممر المفضي إلى البيت.

كان باب البيت مفتوحًا وقد امتدّت مساحة من الضوء عبر الممر.

إذا تركت الباب نصف مفتوح...

عندها، بدأت أجري.

سمعتها تصيح من خلفي: «توم...» بلغت الباب، لكنّي توقّفت عند العتبة. رأيت آثار أقدام مدماة على الدرجات الخشبية الأولى.

صحت داخل البيت: «جيك».

كان البيت صامتًا. خطوت بحذر فدخلت ونبضات قلبي تصطخب عنيفة، سريعة، في أذني.

لحقت بي كارين.

«ماذا...؟ يا إلهي».

نظرت إلى يميني، إلى غرفة الجلوس، فكان المشهد الذي ينتظرني هناك مشهدًا غير مفهوم على الإطلاق. رأيت أبي مستلقيًا على جنبه. كان ظهره في اتجاهي. وكان شبه متكوّر على الأرض عند النافذة كما لو أنه نائم هناك. لكنه كان محاطًا بالدم. هززت رأسي. رأيت دمًا على امتداد جسده. ثم رأيته متجمّعًا حول رأسه. كان ساكنًا تمامًا. بقيت لحظة ساكنًا مثله غير قادر على استيعاب ما أراه.

وإلى جانبي، شهقت كارين شهقة حادة مصدومة. استدرت قليلًا فرأيتها شاحبة اللون. كانت عيناها متسعتين وقد غطت فمها بيدها. قلت في ذهني... جيك!

«توم...».

لكني لم أسمع شيئًا بعد ذلك لأن تفكيري بابني أعادني إلى الحياة ودفعني إلى الحركة. تجاوزتها، التففت من حولها، وصعدت إلى الأعلى بأسرع ما استطعت. كنت أتوسل، أقول في نفسي: أرجوك!

«جيك!».

رأيت الدم في فسحة السلم العلوية أيضًا، كانت آثارًا مدماة لحذاء الشخص الذي أقدم على تلك الفعلة الشنيعة في الأسفل. شخص ما هاجم أبي، ثم صعد إلى الأعلى، صعد حتى...

غرفة ابني، دخلت الغرفة. كان غطاء السرير مطويًا بعناية. لم يكن جيك هناك. لم أر أحدًا هناك. وقفت بضع لحظات متجمّدًا في مكاني. أحسست بالرعب وخزًا على جلدي.

في الأسفل، كانت كارين قد بدأت تتكلّم في هاتفها، تتكلّم متوتّرة، مسرعة. الإسعاف. الشرطة. حالة طارئة. خليط من الكلمات لم يكن له أي معنى في تلك اللحظة. أحسست بأن عقلي سيعجز عن التفكير كما لو أن جمجمتي قد انفتحت فجأة وغرق دماغي في بحر غير مفهوم من رعب من كل شكل ولون.

تقدّمت من السرير.

لقد اختفى جيك! لكن ذلك مستحيل... لا يمكن أن يختفي جيك!

لا يمكن أن يحدث هذا!

كانت رزمة الأشياء الخاصّة على الأرض عند السرير. عندما انحنيت والتقطتها أدركت أنه لا يمكن أن يذهب بإرادته إلى أي مكان من غيرها، فصدمني الواقع بكلّ قوّته.

الرزمة هنا، وجيك ليس هنا.

لم يكن هذا كابوسًا. لقد كان يحدث حقًّا.

لقد اختفى ابني.

عندها، حاولت أن أصرخ.

الجزء الخامس

53

الساعات الثماني والأربعون التي تعقب اختفاء طفل هي الساعات الأكثر أهمية.

عندما اختفى نيل سبنسر، ضاعت عبثًا أول ساعتين بعد اختفائه لأن أحدًا لم يعرف بذلك؛ وأما في حالة جيك كينيدي، فقد بدأت التحرّيات بعد دقائق معدودة من وصول أبيه وصديقته إلى البيت. في ذلك الوقت، كانت أماندا مع دايسون في مركز شرطة على مسافة خمسين ميلًا، عادا بأقصى سرعة ممكنة.

نظرت أماندا إلى ساعتها عندما وصلت إلى بيت توم كينيدي. لم تتجاوز الساعة العاشرة ليلًا إلا قليلًا. كانت كل آلية من آليات العمل التي تنطلق عند اختفاء طفل قد بدأت حركتها بالفعل. وكان البيت ذو المظهر القديم مضاء كلّه. كان يمور بالحركة، وظلال أشخاص تلوح من خلف ستائره. وعلى امتداد الشارع، كان أفراد الشرطة واقفين عند أبواب البيوت يتحدّثون مع الجيران. تحرّك ضوء مصباح كاشف عبر الحقل الواقع إلى الجهة الأخرى من الطريق. كانوا يأخذون إفادات الناس، ويستخرجون محتويات كاميرات المراقبة. بدأت فرق البحث تفتيش المنطقة المحيطة.

لو كانت الظروف مختلفة، لكان بيتْ نفسه قد خرج الآن مع فرق البحث. لكنه ليس هنا الآن، بالطبع! حاولت أماندا أن تحافظ على هدوئها، فأخرجت هاتفها واتصلت بالمستشفى لتسأل عن أخباره، ثم استمعت إلى تلك الأخبار بأقصى ما استطاعته من التجرّد. لا يزال بيتْ فاقدًا وعيه، ولا تزال حالته حرجة. يا إلهي! تذكّرت كم كانت بنيته تبدو ممتازة بالنسبة إلى رجل في سنّه. لكن، على الرغم من ذلك، لم تفده بنيته القوية كثيرًا هذه الليلة. لعل انتباهه لم يكن مركّزًا، لسبب ما، فأخذه المهاجم على غفلة. لقد أصابته بضعة جروح، كان واضحًا أنها حدثت أثناء دفاعه عن نفسه، لكنه تلقّى أيضًا عدة طعنات في جنبه ورقبته ورأسه. كان الهجوم عنيفًا إلى حدٍّ غير ضروري. واضح أنه كان محاولة للقتل. سوف تكشف الساعات القادمة اذا كانت محاولة ناجحة. قالوا إنه سينجو إذا تمكّن من اجتياز هذه الليلة. كان أملها أن تسعفه لياقته الجسدية في التعافي بعد أن فشلت في صدِّ الهجوم.

قالت في نفسها: أنت قادر على هذا، يا بيت!

سوف يجتاز هذه المحنة. عليه أن يجتازها.

وضعت الهاتف، ثم أجرت تفقّدًا سريعًا لملف القضية على الإنترنت علّها تجد تطوّرات جديدة. لا تطوّرات حتى الآن! لقد أخذ أفراد الشرطة إفادات توم كينيدي والمرأة التي كانت في الخارج معه. اسمها كارين شو. عرفت أماندا هذا الاسم لأن شو كانت مراسلة صحافية محلّية لأخبار الجرائم. بحسب ما قاله كل من توم وكارين، فقد التقيا لتناول شراب... كصديقين. كان

طفلاهما في السنة نفسها في المدرسة. وبالتالي، فقد يكون هذا كل ما في الأمر حقًّا. لكنّ أماندا تمنّت -لمصلحة الجميع- أن تكون شو أكثر جدارة بالثقة من معظم من يعملون في مهنتها؛ الآن خاصّة.

لا تزال حتى الآن جاهلة سبب وجود بيتْ في البيت.

تذكّرت كم بدا لها منتعشًا بعد الظهر عندما قرأ الرسالة التي تلقاها ثم بدأ يرتّب أموره. في ذلك الوقت، اعتقدت أن لديه موعدًا مع امرأة ما. وأما في الواقع، فلا بد أن ذلك كان متعلّقًا بذهابه إلى بيت توم كينيدي. كيفما يكن الأمر، تظلّ حقيقة أن بيت مشارك في القضية، ولا يجوز له أن يذهب إلى ذلك البيت إلا لأمر متعلّق بالتحقيق. كان هذا خرقًا لما تقتضيه المهنية.

لكن ما كان يزعجها أكثر من ذلك هو معرفتها بأنها هي من دفعه إلى الذهاب. لقد أرادت أن يكون سعيدًا. لو لم تضغط عليه لما ذهب... ولبقي حيًا!

إنه لا يزال حيًا!

كان لا بد لها من التعلّق بهذا. وأكثر من أي شيء آخر، كان على أماندا الآن أن تتمسّك بمهنيتها وبتركيزها. لا يجوز أن تعبّر عن مشاعرها. الإحساس بالذنب. الخوف. الغضب!... إذا تراخت، فسوف يخرج شيء من هذا عن السيطرة، ويجر معه بقية الأشياء مثل كلاب مربوطة بسلسلة واحدة. لن يكون هذا أمرًا حسنًا على الإطلاق.

بيتْ لا يزال حيًا.

جيك كينيدي لا يزال حيًّا.

لن تفقد أيًّا منهما. لكنها غير قادرة الآن على فعل أي شيء إلا في ما يتعلّق بواحد منهما.

وهكذا، أغلقت الجهاز آخر الأمر، ثم خرجت من السيارة.

في داخل البيت، سارت أماندا بخطوات حذرة فوق بقع الدم الجاف على درجات السلّم. ثم دخلت باب البيت بالحذر نفسه وهي تعدّ نفسها لرؤية المشهد التالي الذي كانت تعرف أنه في انتظارها.

كان عدد من عناصر التحقيق في مسرح الجريمة يعملون هناك... يقيسون، ويحلّلون، ويلتقطون الصور. لكنها أخرجتهم من دائرة انتباهها وركزت على طاولة القهوة المقلوبة وعلى (لا مفر من هذا) الدم المتناثر على قطع الأثاث والمتجمّع على الأرض. كانت كمية الدم كبيرة فاحت رائحتها في الهواء. في ما مضى، جعلها عملها ترى -وجهًا لوجه- ما هو أسوأ من هذا. لكنّ معرفتها بأن بيتْ قد تعرض للهجوم هنا، كانت تعني أن ما تراه الآن أمر لا سبيل إلى قبوله.

نظرت إلى عناصر الشرطة لحظة، كان عملهم ذو طبيعة قاتمة، وكان شاملًا كما لو أنهم يتعاملون مع الغرفة على أنها مسرح جريمة قتل... كما لو أنّ كلّ شخص هنا يعرف حقيقة لا يزال

عليها أن تدركها.

مضت إلى الغرفة الإضافية. كانت رفوف الكتب ممتدة على الجدران. ولا يزال هناك عدد من الصناديق على الأرض لم تفتح بعد. كان توم كينيدي يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بين تلك الصناديق... كان يسير في خطّ محدّد مثلما يفعل حيوان محبوس. كانت كارين شو جالسة على كرسي عند طاولة الكمبيوتر. كانت ممسكة مرفق ذراعها بيدها وقد وضعت يدها الأخرى على فمها وهي تنظر إلى الأرض.

لاحظ توم دخول أماندا فتوقف. عرفتِ التعبير الذي على وجهه. يتعامل الناس مع هذه الأوضاع بطرق مختلفة -يحلّ على بعضهم هدوء غير طبيعي، ويلهي بعضهم الآخر نفسه بالحركة والنشاط- لكن، وفي كل حالة من تلك الحالات، لا يكون الهدف من ذلك السلوك إلا إلهاء النفس ونقلها إلى حالة أخرى. في هذه اللحظة، كان توم كينيدي مذعورًا، وكان يحاول السيطرة على ذعره. إذا كان غير قادر على التحرك في اتجاه ابنه، فهو في حاجة إلى الحركة في أي اتجاه. بدأ جسمه يرتعش من كثرة السير.

قالت له: «توم، أعرف أن هذا صعب. أعرف أنه مخيف لك. لكني أريدك أن تصغي إلى ما أقوله، وأريدك أن تصدّقني. سوف نعثر على جيك. أعدك بهذا».

نظر إليها. كان واضحًا أنه لا يصدّقها. ولعل ذلك كان وعدًا لا تستطيع الوفاء به. لكنها كانت تعني ما تقول. كان تصميمها يغلي في داخلها. لن تتوقّف، ولن تستريح، إلى أن تجد جيك وتلقي القبض على الرجل الذي أخذه... الرجل الذي أخذ نيل سبنسر من قبله... الرجل الذي ألحق ذلك الأذى كله ببيتْ.

لن أسمح بخسارة طفل آخر.

«نظنّ أننا نعرف من أخذه. وسوف نعثر عليه. كما قلت لك، إنني أعطيك كلمتي. تتركّز الآن جهود كلّ عناصر الشرطة المتوفرين على الإيقاع بهذا الرجل والعثور على ابنك. سوف نعيده إلى البيت سالمًا».

«من هو؟».

«لا أستطيع إخبارك الآن».

«إن ابني وحيد معه».

كان واضحًا لها من وجهه أنه يتخيّل الآن كل احتمال مرعب... شريطٌ من أسوأ ما يمكن تخيّله من أهوال كان يجري في ذهنه.

قالت له: «أعرف، يا توم... أعرف أن هذا شديد الصعوبة. لكنّي، أريدك أيضًا أن تتذكّر -على افتراض أنه الرجل نفسه الذي أخذ نيل سبنسر- أن نيل تلقّى معاملة طيبة أول الأمر».

«ثم قتل».

لم يكن لديها ما تستطيع الرد به على ذلك. تذكّرت الشقّة المهجورة التي زارتها قبل بضع ساعات؛ وتذكّرت كيف أعاد فرانسيس كارتر رسم ما كان أبوه قد رسمه في الغرفة الملحقة ببيته. لا بد أنه رأى ما جرى هناك عندما كان طفلًا. الظاهر أنه لم يستطع أن يفلت من تلك الغرفة حقًّا... لقد ظل جزءٌ منه عالقًا فيها، غير قادر على مغادرتها والتحرّك قدمًا. صحيح أنه اهتمّ بنيل سبنسر حينًا من الزمن، لكنّ دافعًا مظلمًا نشأ لديه بعد ذلك؛ وما من سبب يجعلها تطمئن إلى أنه سيكون مسيطرًا على ذلك الدافع مع جيك بأكثر مما كان مسيطرًا عليه مع نيل. بل أكثر من ذلك؛ الحقيقة أنه ما إن ينكسر السدّ حتى يصير لدى القتلة من هذا النوع ميل متزايد إلى القتل.

لكنها لم تكن مستعدّة للتأمل في تلك الفكرة الآن.

وأما توم، فلم يكن متمتّعًا بتلك الرفاهية!

«لماذا جيك؟».

«لا نعرف هذا على وجه اليقين».

كان القنوط الذي في صوته مألوفًا. عندما يكون المرء في مواجهة المأساة والخوف، فمن الطبيعي أن يبحث عن تفسير... أن يفتش عن أسباب عدم التمكن من درء المأساة والتخلّص من الألم، أو عن طرق كان يمكن بها تجنّب تلك الأهوال... تفكير يدفع المرء إلى الإحساس بالذنب... «نعتقد أن المشتبه فيه قد يكون لديه اهتمام بهذا البيت مثلما كان نورمان كولينز مهتمًا به. من المرجح أنه قد اكتشف أن ابنك يعيش هنا؛ ولعلّه أتخذه هدفًا له نتيجة ذلك».

«أنت تعنين أن تفكيره قد تثبّت عليه».

«صحيح».

بضع لحظات من الصمت.

قال توم: «كيف هو؟».

ظنّت أماندا أنه لا يزال يتحدّث عن جيك، ثم أدركت أنه ينظر إلى ما خلفها، إلى باب البيت، ففهمت أنه يسأل عن بيتْ.

قالت له: «إنه في العناية المركّزة. هذا آخر ما سمعته. لا تزال حالته حرجة. لكن... بيتْ مقاتل. إن كان هناك من يستطيع اجتياز هذا، فهو بيتْ».

أومأ توم برأسه وكأن ما قالته قد تجاوب مع شيء في نفسه. لا معنى لهذا لأنه لا يكاد يعرف بيتْ أصلًا. تذكّرت من جديد كم كان بيت مسرورًا بعد الظهر... وكيف بدا لها فجأة كما لو أن الحياة قد دبّت فيه.

قالت: «لماذا كان هنا؟ لا يجوز أن يكون هنا».

«لقد كان مع جيك أثناء غيابي».

«لكن، لماذا بيتْ؟».

سكت توم. راحت تنظر إليه. كان واضحًا لها أنه يفكّر في شيء يقول لها وأنه يختار كلماته بعناية. انتبهت فجأة إلى أنها قد رأت هذا من قبل: ميلان رأس توم كينيدي، وزاوية حنكه. ذلك التعبير الجادّ في وجهه. كان واقفًا أمامها في تلك اللحظة وقد أنار المصباح الذي فوقه وجهه الخالي من التعبير... بدا توم كينيدي شديد الشبه ببيت!

قالت في نفسها: يا إلهي!

لكنه هزّ رأسه وتحرّك قليلًا فاختفى ملمح التشابه ذاك.

«لقد ترك لي بطاقته. قال لي أن أتصل به إذا كنت في حاجة إلى أي شيء. ثم إنه... هو وجيك... حسنًا... جيك يحبّه. يحبّ كل منهما الآخر».

بلغ نهاية هذا الشرح، لكن أماندا واصلت التحديق فيه. صحيح أنها لم تعد قادرة على رؤية التشابه رؤية مباشرة في هذه اللحظة، لكنّها لم تتخيّله ولم يكن شيئًا اختلقه عقلها! كانت قادرة على استعادته، لكنها قرّرت أن ذلك غير مهم غير مهم في هذه اللحظة. إن كانت محقّة في ما ظنته، فإن التعامل مع عقابيل ذلك يمكن أن ينتظر الآن.

وأما في هذه اللحظة، فالحقيقة أن عليها العودة إلى المركز لكي تتمكّن من الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها بأحسن ما تستطيع.

قالت له: «لا بأس... ما سيحدث الآن هو أنني ذاهبة لكي أعثر على ابنك وأعيده إلى البيت».

«وأنا، ماذا أفعل؟».

التفّت أماندا إلى الخلف، في اتجاه غرفة الجلوس. كان واضحًا من غير كلام أن توم لا يستطيع البقاء هنا الليلة.

«أليس لديك أقارب في المنطقة؟».

«لا».

قالت كارين: «يمكنك أن تأتي إلى بيتي. لا مشكلة في هذا».

لم تكن قد تكلّمت قبل هذه اللحظة.

نظرت أماندا إليها: «هل أنت واثقة من هذا؟».

«أجل».

رأت أماندا في وجه كارين أنها مدركة خطورة الوضع. ظل توم صامتًا في تلك اللحظة. كان يفكّر في العرض. على الرغم من تحفّظات أماندا تجاه الصحافيين، فقد تمنّت كثيرًا أن يقبل عرض كارين. ليست في حاجة إلى أي انشغال إضافي... أن تعمل الآن على ترتيب أمر إقامته في البيت الآمن من جديد. كان واضحًا أنه أراد أن يقول نعم -كان واضحًا أنه رجل موشك على الانهيار- فقررت أماندا أن تشجّعه.

«لا بأس إذًا»... ناولته بطاقتها... هذه أرقامي. خط مباشر. وعلى أية حال، سيكون تكليف عنصر ارتباط للشؤون العائلية أول ما أفعله صباح غد. وأما الآن... إذا كنت في حاجة إليّ... فاتصل بي. إن لدي رقم هاتفك أيضًا. في حالة حدوث أيّة تطورات، مهما تكن، بما يشتمل أيضًا على وضع بيتْ... فسوف أخبرك بها فورًا».

ترددت لحظة، ثم خفضت صوتها قليلًا: «سأخبرك في اللحظة نفسها، يا توم، أعدك بهذا».

54

انتهى النهار وحلّ محلّه ليل لطيف البرودة.

وقف الرجل في الممر أمام بيته. كان يدفئ يديه بفنجان كبير من القهوة. كان باب بيته الأمامي الآن مفتوحًا من خلفه. وكان داخل البيت صامتًا، مظلمًا. كان العالم في غاية الهدوء فتخيّل أنه قادر على سماع صوت البخار المتصاعد من فنجانه.

لقد اتخذ مسكنًا له من هذا البيت الواقع في شارع غير مطروق في منطقة لا تلقى إقبالًا من الناس. إنه على مسافة بضعة أميال من فيذربانك. كان جزء من ذلك عائد إلى أسباب مالية؛ لكن الجزء الأكبر كان عائدًا إلى إصراره على الخصوصية والعزلة. البيت المجاور له خالٍ من السكان، وليس لدى سكان البيت الآخر أي اهتمام بغيرهم من الناس، حتى عندما يكونون صاحين من الشراب. كانت النباتات على جانبي الممرّ أمام البيت مفرطة النمو مما يعني أنها تحجب دخوله وخروجه عن الأنظار. ولم تكن في الشارع حركة سيّارات على الإطلاق. ليس هذا شارعًا يأتي الناس إليه، ولا شارعًا يمرون عبره إلى مكان آخر. يمكن القول ببساطة إنه مكان يتحاشاه المرء.

وكان فرانسيس يحبّ أن يفكّر في أن وجوده هنا قد ساهم في هذا الوضع. إذا وجدت نفسك تقود سيارتك في هذا الشارع لسبب ما، فسوف تفهم من غير تفكير أنه ليس مكانًا مناسبًا لأن تطيل البقاء فيه.

بالطبع، هذا يشبه كثيرًا بيت جيك كينيدي السابق.

البيت المخيف!

تذكّر الرجل خوفه من ذلك البيت عندما كان طفلًا. تبيّن له أن الأطفال الآخرين جميعًا يعرفون أن ذلك المكان خطير، على الرغم من أن أحدًا منهم لم يعرف سببًا لذلك.

قال بعضهم إنه مسكون. وزعم بعضهم الآخر أن قاتلًا كان يعيش هناك في ما مضى... وبالطبع، لم يكن لديهم ما يؤيّد ذلك؛ فقد اختلقوا تلك القصص نتيجة المظهر المخيف لذلك البيت. لو لم يحدّثوا فرانسيس بهذه الأحاديث، لكان قادرًا على إخبارهم بالسبب الحقيقي الذي يجعله بيتًا مخيفًا. لكنه لم يكن لديه من يخبره بهذا.

بدا له أن زمنًا طويلًا جدًّا قد مرّ على ذلك. وتساءل في نفسه إن كانت الشرطة قد تمكّنت من العثور على بقايا حياته القديمة هناك، أم إنها لم تعثر عليها بعد. إن كانوا قد عثروا عليها، فلا أهمّية للأمر. لم يترك خلفه شيئًا غير الغبار. تذكّر كم كان الأمر سهلًا... وكم كان بسيطًا، على مستوًى ما، أن يصير المرء شخصًا آخر إن هو أراد ذلك. لم يكلّفه الحصول على وثيقة شخصية

جديدة من رجل يعيش على مسافة ستين ميلًا إلى الجنوب من هذا المكان إلا أقل من ألف باوند. ومنذ ذلك الوقت، راح يبني قوقعة من حول نفسه حتى يتمكّن من بدء تحوّله... تمامًا مثلما تظهر حشرة ناضجة من شرنقتها: حيّة، قويّة، لا تشبه اليرقة التي كانتها.

لكن آثارًا بقيت من ذلك الصبي المذعور الكاره لما حوله الذي كانه في يوم من الأيام. لم يعد فرانسيس اسمه منذ سنين؛ لكنه لا يزال يرى نفسه فرانسيس. لا يزال يتذكّر كيف كان أبوه يجعله يرى الأشياء التي يفعلها بالأولاد الآخرين. وقد فهم فرانسيس من تعبير وجه أبيه... فهم جيّدًا جدًّا... أن الرجل كان يكرهه، ولو استطاع لفعل به الأمر نفسه. لم يكن الأولاد الذين قتلهم إلا بدلاء عن الطفل الذي كرهه أكثر من الجميع. كان فرانسيس واعيًا تمامًا بمدى انعدام قيمته... وكم كان طفلًا مقزّزًا!

لم يستطع إنقاذ الأطفال الذين يراهم يقتلون خلال تلك السنين، تمامًا كما لم يستطع مساعدة الطفل الذي كانه في يوم ما، ولم يستطع إشاعة الراحة في نفسه. لكنه يستطيع التعويض عن ذلك! إن في العالم كثير من الأطفال الذين يشبهونه... هم كثيرون جدًّا... ولم يفت بعد وقت إنقاذهم وحمايتهم.

هو وجيك، سيكونان في أحسن حال.

شرب فرانسيس جرعة من قهوته، ثم رفع رأسه ونظر إلى سماء الليل وإلى تشكيلات نجومها التي لا معنى لها. ذهبت أفكاره إلى العنف الذي عاشه في البيت. لا يزال جلده يتذكّر وخزات النشوة لرؤية ذلك. كان يعرف أن هذا إحساس ينبغي على عقله أن يبتعد عنه. كان يعرف مسبقًا أن ذلك المساء سيشتمل على مواجهة جسدية. وقد فاجأه كم بدا الأمر طبيعيًا عندما جاء. لقد قَتل مرةً، فصار سهلًا عليه أن يقتل من جديد. كان ذلك كما لو أن ما اضطر إلى فعله بنيل سبنسر قد أدار مفتاحًا في داخله فحرّر رغبات لم يكن يدرك وجودها لديه إلا إدراكًا غائمًا.

كان ذلك ممتعًا... ألم يكن ممتعًا؟

اندلق بعض القهوة على يده. نظر إليها فوجدها ترتعش ارتعاشًا خفيفًا.

أرغم نفسه على أن يهدأ من جديد.

لكنّ جزءًا منه لم يكن راغبًا في ذلك. صار من الأسهل عليه كثيرًا أن يتذكّر الآن ما فعله بنيل سبنسر؛ ولم يعد قادرًا على إنكار حقيقة أنه وجد متعة في الإقدام على القتل. كل ما في الأمر أنه كان يخشى الإقرار بذلك قبل الآن. عندما يتذكّر تلك اللحظة، يستطيع تخيّل أن أبيه كان موجودًا معه.

... كان يراقبه.

... ويومئ برأسه موافقًا، مستحسنًا.

أنت تفهم الآن، أليس كذلك، يا فرانسيس؟ أجل. صار الآن يفهم السبب الذي جعل أباه يكرهه ذلك الكره كلّه. كان يكرهه لأنه كائن لا قيمة له أبدًا. لكنه لم يعد كذلك! يتساءل الآن كيف يمكن أن يكون الأمر إذا استطاع أن ينظر في عينيّ أبيه. يتساءل إن كان كل منهما قد صار قادرًا على مسامحة الآخر على ما كانه في ضوء ما صارا عليه بعد ذلك.

أنا مثلك... ألا ترى؟

ليس لك أن تكرهني بعد الآن.

هز فرانسيس رأسه. يا إلهي... ما هذا التفكير؟ ما حدث مع نيل كان غلطة. هز رأسه لكي يتمكّن من التركيز... إن لديه جيك الآن. عليه أن يعتني به.

عليه أن يحافظ على أمانه. عليه أن يحبّه.

لأن... لأن هذا ما يريده الأطفال جميعًا، وهذا ما يحتاجون إليه، أليس كذلك؟... أن يحبهم أهلهم أكثر من أي شيء آخر. آلمه قلبه لتلك الفكرة.

إنهم يريدون ذلك أكثر من أي شيء آخر.

أخذ جرعة أخرى من قهوته، لكنّه كشّر بعد ذلك: لقد بردت! سكب ما بقي منها بين الأعشاب عند عتبة البيت، وعاد إلى الداخل تاركًا العالم الصامت في الخارج متّجهًا إلى العالم الصامت في الداخل.

حان وقت الذهاب إلى الصّبي لكي يتمنّى له ليلة طيّبة.

لا مزيد من الأخطاء.

لكنه سار صاعدًا إلى جيك وظلّ يفكر في إقدامه على قتل نيل سبنسر وكيف جعله ذلك يشعر بالسرور.

أنا مثلك... ألا ترى هذا؟

بعد كلّ حساب... لعلها لم تكن غلطة فظيعة حقًّا!

55

عندما يستيقظ المرء من كابوس، يفترض أن يصير كلُّ شيء على ما يرام.

لكن، ليس في هذه المرّة!

كان جيك حائرًا عندما فتح عينيه. النور في الغرفة زائد! كان المصباح مضاء. هذا شيء غير صحيح! ثم أدرك أنه ليس في غرفته على الإطلاق، بل في غرفة طفل آخر. وهذا أيضًا ليس على ما يرام. لكن ذهنه كان مشوّشًا فلم يستطع أن يدرك شيئًا غير ذلك الإحساس بالانقباض لأن كل شيء غير صحيح من حوله. دار العالم به عندما انتصب جالسًا في السرير. ثم أتته الذكرى فاشتد انقباض قلبه سريعًا وبث الألم في جسده كلّه.

يجب أن يكون الآن في البيت. وقد كان في البيت عندما نام. لكن، جاء ذلك الرجل وصعد السلم، ثم دخل غرفته، وكان هناك شيء يغطّي وجهه. وبعد ذلك...

لا شيء! إلى أن استيقظ فوجد نفسه هنا.

لعلّ ذلك حدث منذ عشر دقائق! في البداية، ظنّ أن هذا يجب أن يكون كابوسًا آخر -كابوس جديد- لأن إحساسه به كان مثل إحساسه بذلك الكابوس. لكنه عرف، حتى قبل أن يقرص نفسه جزِعًا، أن ما هو فيه الآن حقيقي جدًّا، وليس كابوسًا! كان خوفه شديدًا، أشد مما يكون وقت الكابوس. لو كان نائمًا، ولو كان هذا كابوسًا، فمن المفترض أن يكون قد استيقظ منه الآن. تذكّر سماعه شيئًا عن الرجل الذي أخذ نيل سبنسر وآذاه؛ ثم تساءل إن كان هذا يمكن أن يكون كابوسًا في نهاية الأمر، لكنه ليس من ذلك النوع من الكوابيس الذي يستيقظ المرء منها. العالم مليء بأشخاصٍ سيئين! العالم مليء بأحلام سيئة لا تأتي كلّها عندما يكون المرء نائمًا!

التفت ونظر إلى جانبه. كانت الفتاة الصغيرة هناك... كانت معه!

«أنتِ هنا!».

«ششش. اخفض صوتك»... نظرَت من حولها في تلك الغرفة الصغيرة، ثم ابتلعت ريقها بصعوبة... «لا ينبغي أن تتركه يعرف بوجودي هنا».

بالطبع، لم يكن يريده أن يعرف بوجودها كان يدرك هذا في أعماقه. وكان امتنانه لرؤيتها هنا كبيرًا إلى حدٍّ جعله حريصًا على عدم إفساد ذلك. لقد كانت محقّة، بالطبع! لن يكون ذلك الرجل مسرورًا إن سمعه يتحدّث مع أيّ كان. سيكون ذلك...

همس: «... سيّئًا جدًّا».

أومأت برأسها بحركة جادّة.

قال لها: «أين أنا؟».

«لست أدري أين أنت، يا جيك. أنت حيث أنت، وهكذا... فهو المكان الذي أنا فيه الآن أيضًا».

«ألأنّكِ لن تتركيني أبدًا؟».

«لن أتركك أبدًا... أبدًا!»... نظرت حولها من جديد... «وسوف أفعل كل ما أستطيعه حتى أساعدك. لكني غير قادرة على حمايتك. هذا وضع خطير جدًّا. أنت تعرف هذا، ألا تعرفه؟ الأمر ليس على ما يرام أبدًا... أبدًا».

أومأ جيك برأسه. كل شيء خاطئ؛ وهو غير آمن. فجأة، صار ذلك كثيرًا عليه، كثيرًا جدًّا.

«أريد بابا».

لعل قول ذلك كان شيئًا يظهره بمظهر الضعيف الخائف، لكنه قاله فلم يعد قادرًا على إيقاف نفسه. كرّره مرّة بعد مرّة، ثم بدأ يبكي مفكّرًا في أنك إذا أردت شيئًا ما بقوة... إذا أردته بالقوة الكافية... فقد يتحقّق. لكنه لن يتحقّق! أحس كما لو أن المسافة بينه وبين بابا الآن تعادل العالم كله.

وضعت يدها على كتفه: «أرجوك، حاول ألا تصدر أي صوت. عليك أن تكون شجاعًا».

«أريد بابا».

«سوف يجدك. أنت تعرف أنه سيجدك».

«أريد بابا».

«هيا يا جيك. أرجوك»... شدّت يدها على كتفه بحركة كانت في منتصف المسافة بين خوفها ومحاولتها جعله يطمئن... «أريدك أن تهدأ».

حاول أن يتوقّف عن البكاء.

«هذا أفضل».

أزاحت يدها عن كتفه، ثم ظلّت برهة صامتة. كانت تصغي.

«أظن أن الخطر بعيد في هذه اللحظة. ما علينا فعله الآن هو محاولة معرفة كل ما نستطيع معرفته عن مكان وجودنا. قد يفيدنا ذلك في التوصّل إلى طريقة للخروج من هذا المكان. هل فهمت؟».

أومأ برأسه. كان لا يزال مذعورًا!... لكنّ كلامها منطقي!

نهض واقفًا ونظر في الغرفة.

كان ارتفاع أحد جدران الغرفة لا يتجاوز مستوى الصدر. وبعد ذلك يصير مائلًا إلى الداخل مثلما تكون السقوف. يعني هذا أنه موجود في عليّة أحد البيوت. لم يكن في عليّة قبل الآن. كان يتخيّل أن تلك الأماكن مظلمة، كثيرة الغبار، لها أرضيات خشبية عارية، وفيها صناديق من الورق المقوّى، وعناكب؛ لكنه رأى في هذه العِلّيّة سجّادة أنيقة. كانت جدرانها مطليّة بلون أبيض ناصع وقد رسمت عليها أعشاب تبدو كأنها نابتة من الأرض، وفراشات ونحلات تحوم فوق تلك الأعشاب. لعل ذلك الرسم يمكن أن يكون لطيفًا لولا الضوء الفظّ الآتي من مصباح عارٍ في السقف... ضوء يضفي على كل شيء لمسة غير حقيقية كما لو أن أجزاء من ذلك الرسم يمكن أن تدبّ فيها الحياة في أيّة لحظة. رأى صندوقًا كبيرًا مفتوحًا فيه ألعاب أطفال. كان الصندوق عند الجدار المائل. خزانة صغيرة عند الجدار الآخر. نظر من خلفه. كانت على السرير ملاءات بدت له قديمة مهترئة.

إذًا... فقد كان في غرفة طفل آخر. لكن تلك الغرفة لم تبدُ له طبيعية. كما لو أنها ليست غرفة معدّة لكي يعيش فيها طفل حقيقي.

رأى بابًا في الجدار المقابل. سار إليه ودفعه بحركة متوتّرة فانفتح. مرحاض صغير ومغسلة. منشفة معلّقة من حلقة معدنية. وقطعة صابون على المغسلة. أغلق الباب من جديد. استدار فرأى ممرًّا ضيّقًا خارجًا من إحدى زوايا الغرفة. لكن الممرّ لم يستمر إلا مسافة قصيرة، فقد انتهى بجدار آخر. توقّف جيك عند ذلك الجدار فوجد نفسه في أعلى سلّم مظلم. وفي أسفل السلم، رأى بابًا مغلق.

درابزين خشبي مثبّت إلى الجدار...

تراجع جيك سريعًا قبل أن يرى أسفل السلّم جيدًا. جرى عائدًا إلى الغرفة، ثم صعد إلى السرير.

لا، لا، لا!

كان السلم، تقريبًا، مثل السلم الذي كان في بيتهم القديم... يكاد يكون مثله تمامًا.

هذا يعني أن عليه ألا يرى ما هو في...

الآن، ازدادت سرعة نبضات قلبه، ازدادت كثيرًا. أحسّ بأنه غير قادر على التنفّس.

«اجلس، يا جيك».

كان عاجزًا حتى عن الجلوس.

قالت له الفتاة الصغيرة بصوت لطيف: «لا بأس. فقط، تنفّس».

أغمض عينيه وحاول التركيز. كان ذلك صعبًا أول الأمر، لكن الهواء بدأ يدخل، وبدأت نبضات قلبه تبطئ قليلًا.

«اجلس».

فعل مثلما قالت له. وضعت يدها على كتفه من جديد، ظلّت برهة صامتة من غير صوت ومن غير أن تقول شيئًا. مجرّد همهمة مطمئنة خفيضة. أبعدت يدها عندما استطاع السيطرة على تنفّسه من جديد، لكنها ظلّت صامتة ولم تقل شيئًا. كان يعرف أنها تريد منه النزول وتفقّد الباب الذي في الأسفل؛ لكن فعل ذلك كان مستحيلًا تمامًا. لا يمكن أن يذهب أبدًا. كان السلم خارج أيّة حدود يمكن أن يبلغها. لن يكون للأمر أهمّية، حتى إذا...

قالت له: «على أيّة حال، أظنّه سيكون مقفلًا».

أومأ جيك برأسه وقد شعر بشيء من الانفراج لأنها كانت محقّة، ولأن ذلك يعني أنه ليس مضطرًا إلى النزول إلى ذلك الباب. لكن، ماذا لو جعله ذلك الرجل ينزل؟ كان التفكير في هذا أكثر مما يطيقه الآن. كان الأمر مخيفًا جدًّا. لن يتمكن من فعل ذلك، ولم يتوقّع أن يحمله الرجل إلى الأسفل.

سألته الفتاة الصغيرة: «هل تتذكّر ما كتبه لك أبوك في تلك المرة؟».

«أتذكر».

«إذًا، قله لي».

«حتى عندما نتشاجر، فإن كلًا منّا يظلّ يحبّ الآخر كثيرًا».

قالت: «هذا صحيح. لكن هذا الرجل!... إنه ليس كذلك».

«ماذا تعنين؟».

«أظنّ أن ما يتعيّن عليك فعله هنا هو أن تكون ولدًا طيبًا جدًّا، جدًّا! أظن أنه لا يجوز أن تغامر بحدوث أيّة مشاجرة بينكما».

قال في نفسه إنها محقّة. إذا أساء السلوك هنا، فلن يكون الأمر مثلما هو مع بابا. فلن تعود الأمور إلى مجاريها بعد قليل من الكلمات. إنْ غضب الهامس منه، فقد ينتهي الأمر نهاية سيئة جدًّا.

وقفت الفتاة فجأة.

«ادخل سريرك. بسرعة».

بدا عليها ذعر شديد عرف منه أنه لا وقت لديه لكي يسألها عن السبب. أزاح الأغطية واندسّ في الفراش. وما إن صار مستلقيًا على الفراش الصغير الغريب حتى سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب أسفل الدرج.

إن الرجل قادم.

قالت بنبرة ملحّة: «أغمض عينيك. تظاهر بأنك نائم».

أغمض جيك عينيه. عادة، يكون من السهل عليه أن يتظاهر بالنوم -إنه يفعل ذلك في البيت- طيلة الوقت، لأنه يعرف أن بابا يتفقّده قبل أن ينام. لم يكن يريد أن يجعل الأمور صعبة. لكن التظاهر بالنوم هنا ليس سهلًا. سمع صرير درجات السلّم فأرغم نفسه على التنفّس ببطء وانتظام مثلما يتنفّس النائم. خفّف الضغط على عينيه لأن النائم لا يغمض عينيه بقوة... ثم...

ثم صار الرجل في الغرفة.

سمع جيك صوت تنفّسه الهادئ، ثم أحسّ بالرجل وجودًا مخيفًا على مقربة منه. بدأ جلد وجهه يحكّه، وأدرك أن الرجل صار قبالة سريره تمامًا. أدرك أنه واقف ينظر إليه. إنه يحدّق فيه. أبقى جيك عينيه مغمضتين. إذا كان نائمًا، فهذا يعني أنه ليس سيّئ السلوك، أليس كذلك؟ ما من مخاطرة بأن يحدث أي خلاف بينهما. لقد نام مثلما ينام أي ولد طيب، حتى من غير أن يقال له ذلك.

مرّت بضع لحظات من الصمت.

همس الرجل: «انظر إليك، ما أحلاك!».

بدا العجب في صوته كما لو أنه -لسبب ما- لم يتوقّع وجود طفل صغير هنا. أرغم جيك نفسه على عدم الإتيان بأية حركة عندما أزاح الرجل خصلة شعر انسدلت على وجهه.

«في غاية الكمال».

كان صوته مألوفًا، أليس كذلك؟ هذا ما ظنّه جيك، لكنه لم يكن واثقًا منه. ثم إنه لم يكن ليفتح عينيه حتى يتحقّق من الأمر. انتصب الرجل واقفًا ثم ابتعد عنه بخطوات هادئة.

«سوف أعتني بك يا جيك».

سمع صوت تكّة صغيرة فازدادت الظّلمة شدّة من خلف جفنيه المسدلين.

«أنت في أمان الآن، أعدك بهذا».

ظلّ جيك على تنفّسه الهادئ المستقرّ بينما كان الرجل ينزل السلم. ثم سمع صوت إغلاق الباب من جديد وصوت المفتاح يدور في قفله. لم يجرؤ على فتح عينيه حتى في تلك اللحظة. كان يفكّر في ما قالته الفتاة الصغيرة عن بابا... ويفكّر في أنه سيجده.

... «حتى عندما نتشاجر، فإن كلًا منّا يظلّ يحبّ الآخر كثيرًا». كان يصدّق هذا. ولهذا السبب، لم يكن أي شجار بينهما أمرًا خطيرًا. إن بابا يحبّه ويريد أن يكون في أمان دائمًا. مهما غضب كلٌّ منهما من الآخر، فهما يتصالحان دائمًا ويعودان إلى المكان نفسه من جديد كما لو أن شيئًا لم يحدث.

لكنه كان يعرف في قرارة نفسه أنه يجعل حياة بابا شديدة الصعوبة. كان يعرف أنه يعطّله ويلهيه بدلًا من أن يساعده. تذكّر كيف خرج الليلة من غيره. عند ذلك تساءل في نفسه عمّا إذا كان بابا، في هذه اللحظة، يشعر بالسرور لأنه لم يعد مضطرًا إلى الانشغال بجيك والقلق عليه.

لا! سوف يجده بابا.

وأخيرًا، فتح جيك عينيه. كانت الغرفة الآن غارقة في ظلمة دامسة عدا الفتاة الصغيرة التي كانت واقفة إلى جانب السرير مضيئة كلّها. كانت مضيئة مثل نور شمعة، لكن الضوء لم يكن يخرج منها... لم يكن يشع في غرفة العلّيّة الصغيرة تلك.

همست له: «ما الذي نفعله، يا جيك؟».

«لست أدري».

«ما الذي نكونه؟».

فهم الآن. أجابها همسًا: «شجاعَين... نكون شجاعَين».

56

استيقظتُ مترنّحًا وقد جعلني ما يحيط بي أحس تشوشًا واضطرابًا. كانت الغرفة من حولي مظلمة، غير مألوفة، مليئة بظلال غريبة. أين أنا؟ لم تكن لدي أيّة فكرة عن ذلك غير أنني لم أكن في المكان الذي يجب أن أكون فيه. كائنًا ما كان ذلك المكان، فإن من المفترض أن أكون في مكان آخر، ومن المفترض أن علي بالتأكيد أن أكون... إنها غرفة المعيشة في بيت كارين.

تذكّرت الآن. لقد اختفى جيك!

جلست لحظة على الأريكة في سكون تام وراح قلبي يخفق عنيفًا.

لقد أُخذ ابني منّي.

بدت الفكرة غير حقيقية، لكنّي أدركت أنها الحقيقة، فكانت وخزات الذعر التي أتاني بها هذا الإدراك أشبه بحقنة من الأدرينالين ذهبت على الفور ببقايا النوم كلّها. كيف استطعت أن أنام في هذه الحالة؟ لقد كنت مستنفد القوى، لكن الرعب الذي راح الآن يهدر في داخلي كان شيئًا لا يكاد يمكن احتماله. لعلّي كنت محطّمًا شديد التعب فغاب ابني عن ذهني برهة!

تفقّدت هاتفي. قاربت الساعة السادسة صباحًا. هذا يعني أنني لم أنم طويلًا. ذهبت كارين إلى فراشها في ساعات الصباح الأولى. كانت مصرّة على البقاء ساهرة معي عسى أن تأتينا أخبار ما. لكن حوادث ذلك المساء تركت عليها أثرًا ساحقًا، مثلي، فتمكّنتُ آخر الأمر من إقناعها بأن على واحد منا أن يحظى بشيء من الراحة. قبل أن تصعد إلى غرفتها، قالت لي أن أوقظها في حال حدوث أيّة تطوّرات. لكني لم أتلق أية رسائل أو اتصالات منذ ذلك الوقت. لم يتغيّر في الوضع أي شيء. لم يتغيّر شيء سوى أن بضع ساعات أخرى قد مضت على وجود جيك مع من أخذه.

نهضت واقفًا فضغطت على مفتاح النور، ثم رحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا. أحسست بأن مشاعري ستغلبني إذا بقيت ساكنًا ولم أتحرك. ظلّت حاجتي الموجعة إلى أن أكون مع جيك تصطدم مع حقيقة أنني غير قادر على الوصول إليه، فراح قلبي يتلوّى في صدري تحت وطأة ذلك التوتر.

كنت أتخيّل وجهه من غير انقطاع؛ وكانت الصورة حيّة إلى حد يجعلني أشعر حين أغمض عينيَّ بأنني قادر على مد يدِي ولمس جلد وجنته الناعم. كنت أعرف أنه خائف جدًّا في هذه اللحظات. لا بد أنه يحسّ ضياعًا وحيرة وذعرًا. لا بد أنه يتساءل عن مكان وجودي وعمّا يمنعني من العثور عليه.

هذا... إن كان لا يزال موجودًا!

هززت رأسي. لا يجوز أن أفكّر هكذا! لقد قالت لي المحقِّقة بيك إنهم سيجدونه وإن علي أن أسمح لنفسي بتصديق كلامها لأن... إن لم أصدّق كلامها... إن كان ابني قد مات... فما من وجود لأي شيء بعد ذلك. سيكون ذلك نهاية العالم: ضربة مطرقة مسدّدة إلى رأس الحياة تسحق كل تفكير منطقي. بعد ذلك، لن يكون أي شيء موجودًا... إلا العدم.

إنه حيّ!

تخيّلته يناديني وأنني قادر على نحو ما على سماع صوته في قلبي. لكن ذلك لم يبدُ لي خيالًا، بل كان أقرب إلى صوت حقيقي يناديني على موجة أكاد أستطيع استقبالها، لكن ليس تمامًا. إنه حي. ما من طريقة تجعلني أعلم ذلك علم اليقين. لكن حوادث كثيرة غير متوقّعة جرت في الآونة الأخيرة... فلماذا يكون ذلك مستحيلًا؟

لا أهمية للأمر، حتى إن كان مستحيلًا. إنه حي. لا أزال أستطيع الإحساس به. هذا يعني أنه يجب أن يكون حيًّا.

وهكذا، رحت أصوغ الكلمات في رأسي، أصوغها بدقّة ووضوح، ثم أطلقتها في الكون بأقوى ما استطعت آملًا أن تصله رسالتي، آملًا أن يستطيع قلبه التقاطها والإحساس بنبضها.

أحبك، يا جيك! وسوف أعثر عليك!

عادت الحياة إلى البيت بعد وقت قصير من ذلك.

قبل أن ننام، كانت كارين قد قالت لي أن أذهب إلى المطبخ وأتناول أيّ شيء أريده. وكنت في تلك اللحظة متّكئًا إلى طاولة المطبخ المرتفعة أشرب قهوتي، وأنظر إلى ضياء الفجر يتخلّل الأفق عندما بدأت ألواح الأرضية الخشبية في الأعلى تصر فوق رأسي. شغّلتُ غلاية الماء من جديد. وبعد بضع دقائق، نزلت كارين وقد ارتدت ملابسها. لكن الإرهاق لا يزال ظاهرًا عليها.

سألتني: «هل من جديد؟».

هززت رأسي.

«ألم تتصل بهم؟».

«لم أتّصل بعد». كنت متردّدًا في الاتصال. إذا لم أزعجهم باتصالي، فإنهم سيكونون أكثر قدرة على التركيز للعثور على جيك. ومن ناحية أخرى، كنت متردّدًا في الاتصال لأنني لا أريد أن أسمع شيئًا لست راغبًا في سماعه. لو كان هناك شيء لأخبروني به.

غلى الماء. وضعت كارين ملعقة من القهوة الفورية في فنجان.

قلت لها: «ماذا قلتِ لآدم؟».

«لا شيء. يعرف أنك هنا وأنك نمت على الأريكة. لكنّي لم أقل له أي شيء آخر».

«سأظلّ بعيدًا عن طريقه».

«لست مضطرًّا إلى هذا».

على الرغم من ذلك، بقيت في المطبخ بعد نزول آدم. أعدّت كارين له طعام الإفطار فتناوله في غرفة الجلوس وهو يشاهد التلفزيون. كان ضوء النهار قد ازداد تألّقًا خارج نافذة المطبخ. صباح جديد. رحت أصغي إلى صوت التلفزيون القادم من الغرفة الأخرى وقد اعترتني الدهشة لاستمرار الحياة. تظلّ الحياة مستمرّة دائمًا! لكنك لا تلاحظ كم يكون هذا مدهشًا إلا عندما يكون جزء منك قد تركك وظلّ وراءك.

أعطتني كارين مفتاح البيت قبل أن تخرج مع آدم.

قالت لي: «متى يأتي عنصر الاتصال المكلّف بالتواصل معك؟».

«لست أدري».

وضعت يدها على ذراعي: «توم، اتصل بهم».

«سأتّصل».

نظرت إليَّ برهة. كان وجهها جادًا، حزينًا. ثم مالت صوبي وقبلتني على خدي. وقالت: «سأذهب بالسيارة، وسأعود سريعًا».

«حسنًا».

جلست على الأريكة بعد إغلاق الباب من خلفهما. كان هاتفي أمامي... نعم، أستطيع الاتصال بالشرطة؛ لكن، لو كان لدى المحقّقة بيك أيّة أخبار جديدة لاتصلت بي. لا أريد أن تخبرني بما أعرفه أصلًا.

لا أريد أن تخبرني بأن جيك لا يزال هناك!

لا أريد أن تخبرني بأن جيك لا يزال في خطر!

بدلًا من الاتصال، تناولت الشيء الذي جلبته معي من البيت. رزمة الأشياء الخاصّة العزيزة على ابني.

على الرغم من عجزي عن أن أكون معه جسديًّا، فإنني أعرف طريقة تسمح لي بأن أشعر بالقرب منه. كنت مدركًا ثقل ما في يدي؛ وكنت مدركًا أهميته. لم يقل لي جيك في يوم من الأيام إنه لا يحق لي أن أنظر في هذه الرزمة. لكن، لم يكن عليه أن يقول لي هذا! إن مجموعة الأشياء هذه خاصّة به، لا بي! وقد صار كبيرًا إلى حد يجعل من حقّه أن تكون لديه أسراره الخاصّة به. لهذا، لم أقدِم قبل الآن على إساءة استخدام ثقته بي مهما كان ذلك مغريًا بعض الأحيان.

سامحني، يا جيك!

فتحت المشبك الذي يغلق الرزمة.

إنني في حاجة إلى الإحساس بالقرب منك.

57

كان البيت صامتًا بعد أن استيقظ فرانسيس في الصباح.

ظلّ برهة مستلقيًا في فراشه في هدوء تام، ينظر إلى السقف، ويصغي. لا صوت على الإطلاق، ولا حركة يستطيع الشعور بها. لكنه كان قادرًا على إحساس بوجود الصبي فوقه مباشرة... بدا البيت أكثر امتلاء، وكان يعطي إحساسًا بما صار فيه من إمكانيات.

إن فيه الآن شيئًا جديدًا!

إن هناك طفلًا في الأعلى!

كان الهدوء والسلام أمرين مشجّعين لأن... بالطبع... هكذا ينبغي أن تكون الأمور! يعني هذا أن جيك قد فهم الوضع، وأنه مسرور به. بل لعلّه متحمّس أيضًا لكونه قد صار في بيته الجديد.

عاد تفكير فرانسيس إلى مدى سهولة استقرار الصبي في بيته الليلة الماضية... كان نائمًا، مرتاحًا، عندما صعد لتفقّده. في حالة نيل سبنسر، كان هنالك كثير من البكاء والصراخ... أول الأمر... وعلى الرغم من أن فرانسيس كان ينام أحيانًا في الليل، ويُحرم من النوم في أحيان أخرى، فقد كان مسرورًا بأنه أضاف إلى جدران العلّية طبقة عازلة للصوت. لقد كان شديد الصبر مع نيل، واعتبر تلك الفترة مقدّمة لا بد منها. لكنه أدرك الآن أن نيل كان ولدًا سيئًا منذ البداية، وأن الأمر ما كان يمكن أن يفضي إلى نهاية مختلفة.

لعل جيك طفل مختلف حقًّا!

أتاه صوت أبيه: إنه ليس مختلفًا، يا فرانسيس...!

إنهم متشابهون جميعًا.

كلّهم أوغاد كريهون صغار يخيّبون أملك آخر الأمر.

قد يكون هذا صحيحًا. لكنه أبعد تلك الفكرة عن رأسه الآن. عليه أن يمنح جيك فرصة. لن يمنحه فرصًا كالتي منحها لنيل سبنسر هذا واضح لكنها فرصة لتقدير البيت الجديد والاستمتاع به، البيت الذي يجد فيه الرعاية ويجد من يهتم به حقًّا.

دخل فرانسيس لكي يستحمَّ. كان هذا يجعله يشعر بالضعف دائمًا. فعندما يغلق باب الحمام من خلفه ويكون صوت انهمار الماء مرتفعًا في أذنيه، يصير مستحيلًا أن يسمع ما يجري في بقية أنحاء البيت. يغمض عينيه فيتخيّل شيئًا يتسلّل إلى الحمام ويقف خلف ستارة الدوش. أزاح رغوة الصابون عن وجهه بحركة سريعة، ثم فتح عينيه فرأى الماء يسيل في اتجاه المصرف. كان عليه أن

يفتح المصرف من جديد بعد أن انتهى من أمر نيل. إنه قادر على فتحه مرّة أخرى، إن اقتضى الأمر ذلك.

أنت تعرف ما أنت راغب في فعله!

كان قلبه يخفق أسرع من المعتاد، أسرع قليلًا.

أعد لنفسه قهوة وإفطارًا، ثم أجرى مكالمات هاتفية كان عليه إجراؤها، ثم بدأ يحضر طعام جيك. جرف بذراعه الفتات الذي تناثر فوق طاولة المطبخ، ثم وضع شريحتي خبز في آلة التحميص. كانت شريحتا الخبز قديمتان ظهرت على حوافّهما بقع من العفن. لكن ذلك كان جيّدًا بما فيه الكفاية. لم تكن لدى فرانسيس أيّة فكرة عما يحبّ جيك أن يشربه. لكن، كانت لديه علبة مفتوحة من عصير البرتقال... العلبة التي لم تسنح لنيل فرصة إنهائها. ستكون وافية بالغرض.

ابدأ مثلما تنوي الاستمرار!

حمل الطبق وعلبة العصير، وصعد إلى الأعلى. توقّف عند فسحة السلم وألصق أذنه بباب العلّية.

صمت.

لكنه لم يكن واثقًا تمامًا. ظن أنه سمع شيئًا. هل كان جيك يهمس بشيء لأحد ما؟ إن كان كذلك، فلا بد أن همسه كان منخفضًا إلى حد جعل من المستحيل على فرانسيس أن يفهم أيّة كلمة. كان مستحيلًا أيضًا أن يكون على ثقة من أنه سمع همسًا.

ظلّ فرانسيس يصغي منتبهًا.

صمت.

ثم... صوت همس من جديد.

انتصب شعر رقبته. ما من أحد آخر هناك... ما من أحد يمكن أن يكلّمه جيك... لكنَّ ذعرًا غير منطقي داهم فرانسيس فجأة... لعل هناك أحدًا! لعلّه أتى بهذا الطفل إلى بيته فجاء معه على نحو ما شخص آخر، أو شيء آخر! أمر خطير!

لعلّه يتكلّم مع نيل!

لكن هذا سخف. لم يكن فرانسيس مؤمنًا بوجود الأشباح. عندما كان طفلًا، كان يذهب أحيانًا يقف على مقربة من باب الغرفة الملحقة ببيت أبيه، ويتخيّل أن واحدًا من أولئك الأولاد واقف إلى الناحية الأخرى من الباب... ولد شاحب متوهّج... ينتظره صابرًا. بل كانت تمر به أحيانًا

أوقات يتخيّل فيها أنه يسمع صوت أنفاس من خلف الباب الخشبي. لكن هذا كلّه لم يكن حقيقيًا. لا وجود للأشباح إلا في رأسك. إنهم يتكلّمون من خلالك، لا معك!

أدار قفل الباب، ثم فتحه، وصعد درجات السلّم بهدوء غير راغب في إخافة الطفل. لكن صوت الهمس توقّف، فضايقه ذلك. لم تعجبه فكرة أن تكون لدى جيك أسرار يخفيها عنه.

وفي العلّية، كان الصبي جالسًا على السرير واضعًا يديه على ركبتيه. سرّ فرانسيس لرؤية أنه قد ارتدى ملابس اختارها لنفسه من المجموعة التي وضعها فرانسيس في الدروج. لكن سروره تناقص عندما رأى أنه لم يمدّ يده إلى صندوق الألعاب. ماذا؟... أليست جيّدة بما فيه الكفاية؟ يحتفظ فرانسيس بهذه الألعاب منذ زمن طويل. وقد تعني له الكثير. ينبغي أن يكون الصبي شاكرًا لأنه يحظى بفرصة اللعب بها. بحثت عيناه عن البيجاما التي كان جيك يرتديها فرآها مطوية بعناية على طرف السرير. هذا أمر جيّد! سوف يكون في حاجة إلى هذه البيجاما عندما يعيد الصبي في وقت لاحق!

قال مبتهجًا: «صباح الخير، يا جيك. أرى أنك قد ارتديت ملابسك».

«صباح الخير. لم أستطع العثور على ملابس المدرسة».

«فكّرت في أنك يمكن أن تتغيّب عنها هذا اليوم».

أومأ جيك برأسه: «هذا شيء لطيف. هل سيأتي بابا حتى يأخذني من هنا؟».

«حسنًا... هذا سؤال معقّد»... اقترب فرانسيس من السرير. بدا له الصبي هادئًا على نحو يكاد يكون مريبًا... «وأظنك لست في حاجة إلى التفكير في هذا الأمر حاليًّا. كل ما عليك معرفته هو أنّك آمن الآن». «حسنًا».

«أريد أن تعرف أيضًا أنني سأعتني بك».

«شكرًا».

«مع من كنت تتكلّم؟».

بدت الحيرة على الصبي: «لا أحد».

«بل كنت تتكلم. لقد سمعتك. مع من كنت تتكلّم؟».

«لا أحد».

أحسّ فرانسيس برغبة مفاجئة في ضرب الصبي على وجهه بأقصى قوة: «نحن لا نكذب في هذا البيت».

«أنا لا أكذب»... نظر جيك جانبًا... ولوهلة... انتاب فرانسيس إحساس غريب بأنه يسمع صوتًا غير موجود في حقيقة الأمر... «ربما كنت أكلّم نفسي. أعتذر إن كان الأمر هكذا. يحدث لي هذا عندما أفكر في بعض الأشياء. إنني أسهو عن نفسي».

ظلّ فرانسيس صامتًا. كان يفكّر في تلك الإجابة. بدا له أنها معقولة إلى حدٍّ ما. يحدث له هو أيضًا أن يغرق في عالم الأحلام. يعني هذا أن جيك مثله. هذا جيد من إحدى النواحي لأنه يتيح له شيئًا يمكن أن يصلحه.

قال لجيك: «سوف نعمل على هذا الأمر معًا. خذ... أحضرت لك طعام للإفطار».

أخذ جيك الطبق وعلبة العصير، ثم شكره من غير أن يطلب منه ذلك. كان هذا أمرًا حسنًا آخر. لعلّه تعلّم بعض آداب السلوك من مكان ما. لكنّه نظر إلى الطبق الذي كان في يده ولم يبدأ الأكل. لاحظ فرانسيس أن العفن لا يزال ظاهرًا. من الواضح أن هذا لم يعجب الصبي.

كان الخبز المتعفّن جيّدًا بما فيه الكفاية في نظر فرانسيس أيام طفولته.

«ألست جائعًا، يا جيك؟».

«لست جائعًا».

«عليك أن تأكل إذا كنت تريد أن تنمو وتصير كبيرًا وقويًا». ابتسم فرانسيس ابتسامة صابرة... «وماذا تريد أن تفعل في ما بعد؟».

ظلّ جيك صامتًا بعض الوقت.

«لست أدري. ربما أحبّ أن أرسم قليلًا».

«نستطيع أن نفعل ذلك. سوف أساعدك في الرسم».

ابتسم جيك وقال: «شكرًا، يا...».

لكنه نطق اسم فرانسيس بعد ذلك، فحلّ على فرانسيس سكون تام. إن الصبي يعرفه... بالطبع... لكن رفع الكلفة غير جائز في بيت جيّد. الطفل في حاجة إلى تربية. ينبغي أن تكون المقامات محفوظة في البيت.

قال فرانسيس: «سيدي... هذا ما ستدعوني به هنا. هل فهمت؟».

أومأ جيك برأسه.

«لأننا نظهر احترامنا لمن هم أكبر منا في هذا البيت. هل تفهم هذا؟».

أومأ جيك برأسه من جديد.

«ونحن نقدّر الأشياء التي يفعلونها من أجلنا»... أشار فرانسيس بيده إلى طبق الطعام... «لقد تحمّلتُ مشقات كثيرة. كل طعامك، من فضلك».

للحظة واحدة، اختفى الهدوء المريب من وجه جيك، فبدا الصبي كما لو أنه موشك على البكاء. أشاح بوجهه جانبًا من جديد.

شدّ فرانسيس قبضة يده.

كان يقول في نفسه: جرّب أن تعصاني مرّة!

مرّة واحدة فقط!

لكن جيك عاد ينظر إليه وقد استعاد وجهه هدوءه. تناول واحدة من شريحتي الخبز. عندما رفعها في الضوء، صار العفن واضحًا على حافّتها.

قال جيك: «نعم، يا سيدي».

58

أحسست بأنني أعتدي على ابني عندما فتحت الرزمة ونظرت في محتوياتها.

كانت مجموعة من الأوراق والمواد والأشياء الصغيرة... مجموعة لها تداخلات كثيرة مع ذكرياتي. كان أول ما رأيته سوارًا مطاطيًا ملوّنًا ممتّطًا عند قفله البلاستيكي لأن ريبيكا كانت تدخله في يدها من غير أن تفتح القفل. كان هذا السوار من مهرجان موسيقي ذهبنا إليه أول أيام علاقتنا، أي قبل زمن طويل لا من ولادة جيك فحسب، بل من تفكيرنا في إنجابه. ذهبتُ مع ريبيكا إلى مخيم مع بعض الأصدقاء (تباعد ما بيننا ببطء على مر السنين التي تلت ذلك)، وأمضينا عطلة نهاية الأسبوع في الشرب والرقص من غير أن نعبأ بالمطر أو بالبرد. كنا شبابًا لا يشغل بالنا شيء. نظرت إلى ذلك السوار فبدا لي تميمة باقية من زمن جميل.

جيك... هذا اختيار رائع!

رأيت مغلّفًا بنيًا صغيرًا فعرفته. غامت عيناي قليلًا عندما فتحته وأفرغت محتوياته في راحة يدي. إنه سن... سن صغيرة إلى حد غير معقول. أحسست بها مثل نسمة على جلد يدي. إنها السن الأولى التي سقطت من أسنان جيك. كان ذلك بعد وقت قصير من موت ريبيكا. تلك الليلة، دسست مالًا تحت وسادته، ومعه رسالة من جنّيّة الأسنان تقول له فيها إنها تريد أن يحتفظ بهذه السن لأنها ذات أهمية خاصّة. لم أرها منذ ذلك الوقت، لم أرها إلا الآن.

أعدت السن بعناية إلى المغلف، ثم فتحت ورقة مطوية فتبين لي أنها شيء رسمته من أجله: محاولة بدائية لرسمنا واقفين معًا جنبًا إلى جنب؛ ومن تحت الرسم هذه الكلمات:

حتى عندما نتشاجر، فإن كلًا منا يظلّ يحبّ الآخر كثيرًا.

انهمرت دموعي في تلك اللحظة. لقد عرفنا مشاجرات كثيرة على مر السنين. إننا متشابهان كثيرًا، لكنّ كلًا منا عاجز عن فهم الآخر. يمدّ كل منا يده إلى الآخر، لكنه يخطئها دائمًا... يخطئها على نحو ما. لكن، يا إلهي... هذا حقيقي جدًا. لقد أحببته في كل ثانية من تلك السنين. لقد أحببته كثيرًا. وكنت آمل أن يعرف ذلك أينما يكن في هذه اللحظة.

تابعت النظر إلى بقية الأشياء، واحدًا بعد الآخر. بدا لي كل شيء منها مقدسًا عند لمسه، لكنّ بعض تلك الأشياء كان يبدو لي غامضًا. وجدت بضع أوراق أخرى كان لبعضها معنى واضح لي (واحدة من دعوات الحفلات القليلة التي تلقّاها)... لكن أكثر تلك الأشياء كان غير مفهوم. بطاقات وإيصالات عتيقة حالت ألوانها؛ وملاحظات صغيرة بيد ريبيكا. أشياء كان من الواضح أنها لا معنى لها، فلم أستطع إدراك السبب الذي جعل جيك يهتم بها ويعتبرها أشياء خاصّة. لعلّه أحب صِغَر تلك الأشياء وعدم أهميتها الواضح. إنها أشياء خاصة بعالم الكبار ليست لديه الخبرة

الكافية لمعرفة معانيها. لكن أمّه اهتمت بها وحفظتها لديها... فلعله يصير قادرًا على فهم أمه فهمًا أفضل إذا درس تلك الأشياء زمنًا كافيًا!

ثم أتت ورقة أقدم كثيرًا من غيرها. كانت ورقة منتزعة من دفتر ذي سلك. زاويتها مشقوقة. فتحتها فعرفت خط ريبيكا على الفور. إنها قصيدة كتبتْها بيدها! استنادًا إلى أن حبرها قد صار باهتًا جدًا، أظنّها كتبتها في مراهقتها. بدأت أقرأ القصيدة.

إذا تركت الباب نصف مفتوح، فسرعان ما ستسمع صوت الهمس.

وإذا لعبت في الخارج وحيدًا، فسرعان ما تصير عاجزًا عن العودة إلى البيت.

إذا تركت النافذة غير مقفلة، فسوف تسمعه ينقر على زجاجها.

وإذا أحسست بالوحدة والكآبة والحزن، سيأتي إليك الهامس.

قرأت القصيدة من جديد فأحسست كما لو أن الغرفة من حولي بدأت تختفي. أعدت النظر إلى الخط حتى أتأكد منه. كنت واثقًا من أنه مكتوب بيد ريبيكا. خط أقل نضجًا من الخط الذي ألفته... لكني أعرف خط زوجتي.

من هنا، حفظ جيك تلك الجملة.

من أمّه.

تعرفها ريبيكا منذ كانت صغيرة؛ وقد كتبتها بيدها. أجريت بعض الحسابات في ذهني فأدركت أن ريبيكا كانت في الثالثة عشرة من عمرها عندما ارتكب فرانك كارتر جرائمه. لعل جرائم القتل التي ارتكبها كانت من الأشياء التي يمكن أن تلفت انتباه فتاة في تلك السن.

لكن هذا لا يفسّر سماعها بهذا الأمر!

وضعت الورقة جانبًا.

كان في الرزمة عددٌ من الصور... صور قديمة جدًا لا بد أنها ملتقطة بآلة تصوير من النوع القديم. تذكّرت أنني كنت أفعل الشيء نفسه في العطلات عندما كنت طفلًا، وكيف فعلنا -أنا وأمي ما فعلته ريبيكا ووالديها بهذه الصور: كتابة التاريخ مع كلمات توضيحية على ظهر كل واحدة منها.

2 آب 1983 ريبيكا عندما صار عمرها يومين.

قلبت الصورة فرأيت امرأة جالسة على أريكة وفي حضنها طفلة رضيعة. هذه والدة ريبيكا. لم أعرفها إلا فترة قصيرة: امرأة متحمّسة لديها حبٌّ للمغامرات ورثته عنها ابنتها. تبدو في الصورة شديدة الإرهاق، لكنها مسرورة. الرضيعة نائمة ملفوفة في بطانية صوفية صغيرة صفراء. عرفت

من تاريخ الصورة أن الرضيعة يجب أن تكون ريبيكا، لكني لم أستطع تصديق أنها كانت صغيرة الحجم إلى هذا الحد.

21 نيسان 1987 لعبة بوهستيكس(4).

في هذه الصورة ريبيكا وأبوها واقفان على جسر من ألواح خشبية. وفي خلفية الصورة نباتات خضراء كثيفة يانعة. أبوها يحملها حتى تتمكن من رمي عصاها في الماء الجاري من تحتهما. هي مبتسمة، وجهها في اتجاه التصوير. لم تكن قد بلغت الرابعة من العمر، لكنّي استطعت أن أرى فيها ملامح المرأة التي ستكونها. حتى في ذلك الوقت، كانت لها تلك الابتسامة التي لا أزال قادرًا على تخيلها بكل وضوح.

3 أيلول 1988 أول أيام المدرسة.

ريبيكا طفلة صغيرة في تلك الصورة. إنها مرتدية كنزة زرقاء وتنورة رمادية ذات كسرات. وهي واقفة باعتزاز أمام... أمام مدرسة روز تيراس!

بقيتُ عدّة ثوانٍ أنظر إلى الصورة.

أعرف المدرسة. ومن المؤكّد أن هذه صورة ريبيكا لكن الأمرين غير منسجمين معًا. إلا أنني لست مخطئًا في هذا، ولا في ذاك. إنها درجات المدرسة نفسها، سياجها نفسه. كلمة بنات منقوشة على حجر أسود فوق الباب. وهناك كانت زوجتي، وهي طفلة، واقفة.

أول أيام المدرسة!

هذا يعني أن ريبيكا قد عاشت هنا، في فيذربانك! صعقني هذا الاكتشاف. كيف لم أكن أعرف هذا؟ لقد زرنا والدَي ريبيكا في الساحل الجنوبي عدة مرات قبل موتهما. كنت أعرف معرفة غائمة أنهما انتقلا عندما كانت صغيرة... هناك كان موطنها، بالتأكيد؛ وقد كانت تعتبر نفسها من هناك. لكن من الممكن -ببساطة- أن يكون ذلك المكان هو حيث كبرت وعاشت مراهقتها، وحيث صار لها أصدقاء وصارت في حياتها قصص ظلّت تحملها عندما صارت امرأة ناضجة. لقد كان الدليل أمامي مباشرة. عاشت ريبيكا هنا عندما كانت طفلة. أو، على الأقل، عاشت في منطقة قريبة تتيح لها أن تذهب إلى هذه المدرسة.

إذًا... من الطبيعي أن تكون قد سمعت بتلك الأغنية عن الهامس!

تذكّرت كم كان تركيز جيك على بيتنا الجديد شديدًا عندما رآه على الإنترنت، وكيف صارت البيوت الأخرى التي ظهرت لنا ضمن نتائج البحث غير مرئية بالنسبة إليه بعد أن رأى الصور. لا يمكن أن يكون هذا مصادفة. أسرعت فقلبت بقية الصور التي يحتفظ بها. كان أكثرها لقطات مأخوذة في العطلات. كان عدد غير قليل من الأماكن مألوفًا لي: ريبيكا تأكل الآيس كريم في نيو رود سايد. ريبيكا على أرجوحة في الحديقة المحلّية. ريبيكا على دراجة ثلاثية العجلات على رصيف الشارع الرئيسي.

وبعد ذلك...

وبعد ذلك، صورة بيتنا الجديد!

كانت رؤية هذه الصّورة مفاجئة جدًّا مثلما كانت رؤية صورة المدرسة. ريبيكا واقفة في مكان يستحيل أن تكون واقفة فيه... هنا! كانت واقفة على الرصيف أمام بيتنا الجديد وقد دفعت بإحدى قدميها إلى الخلف حتى صارت على الممر. البيت من خلفها، بزواياه الغريبة ونوافذه المتناثرة... يبدو مخيفًا من خلف الفتاة الصغيرة التي كانت قريبة من مدخله إلى الحدّ الكافي للفوز في ذلك التحدّي.

البيت المخيف في القرية. كان الاقتراب منه تحدّيًا بين الأطفال... التقاط الصور معه، وأشياء من هذا القبيل! هذا هو السبب الذي جعل البيت يقفز قفزًا إلى جيك عندما رآه. هذا لأنه رآه من قبل... رآه، ورأى أمّه واقفة أمامه.

عند ذلك، نظرت جيّدًا إلى صورة ريبيكا. بدا لي أنها في السابعة أو الثامنة من العمر. كانت مرتدية فستانًا ذا مربعات زرقاء وبيضاء. وكان الفستان قصيرًا إلى حد يسمح برؤية خدوش على ركبتها. لا بد أن الريح كانت شديدة في ذلك اليوم الذي التقطت فيه الصورة لأن شعرها كان مائلًا إلى أحد الجانبين.

إنها الفتاة نفسها التي رسمها جيك معه في نافذة البيت في واحدة من رسومه.

غالبت دموعي لمنعها من الانهمار من جديد بعد أن فهمت أخيرًا.

مهما يكن الأمر غريبًا، فقد كدت أبدأ تصديق أن لصديقة ابني الخفية وجودًا خارج مخيّلته. أظنّ أن الأمر هكذا. لم يكن جيك يرى أشباحًا، ولا أرواحًا. لقد كانت صديقته المتخيّلة هي نفسها الأم التي اشتاق إليها كثيرًا، فاستدعاها على صورة فتاة صغيرة من سنّه. لقد جعلها شخصًا يستطيع اللعب معه مثلما كانت أمّه تلاعبه دائمًا... جعلها شخصًا قادرًا على مساعدته في مواجهة العالم الجديد المخيف الذي وجد نفسه فيه.

قلبت الصورة لأرى ما كان مكتوبًا عليها.

1 حزيران 1998 أنا شجاعة!تذكّرت كيف كان جيك يجري من غرفة إلى أخرى عندما انتقلنا إلى هذا البيت كأنه يبحث عن شخص ما. انكسر قلبي حزنًا عليه عندما فهمت الأمر. لقد خذلته خذلانًا كبيرًا. سيكون الأمر صعبًا عليه بصرف النظر عن أي شيء. لكنّي كنت قادرًا على فعل المزيد، وكان علي أن أفعل المزيد، لمساعدته في تجاوز ذلك. لو كنت أكثر انتباهًا، وأكثر حضورًا، وأقل غرقًا في معاناتي...! لكنّي لم أكن كذلك! هذا ما أرغمه على العثور على العزاء في الذكريات.

وضعت الصورة من يدي.

أنا في غاية الأسف، يا جيك!

وبعد ذلك، تابعت البحث في الأشياء التي يحتفظ بها. كان النظر إلى كل واحد منها مؤلمًا لي. لكنّي صرت الآن واثقًا من أنني فقدت ابني إلى الأبد، وأنني لن أكون قريبًا منه أكثر مما أنا الآن... طيلة ما بقي من حياتي.

تجمدت من جديد عندما فتحت آخر ورقة مطوية محفوظة لديه ورأيت ما فيها. ظللت لحظات حتى فهمت ما رأيته... حتى فهمت معناه.

عندها، تناولت هاتفي وانطلقت في اتجاه باب البيت.

59

قالت أماندا: «مهلك، مهلك! ماذا وجدت؟».

لقد ظلّت تعمل من دون توقّف طيلة الليل، فصارت الآن -قاربت الساعة التاسعة صباحًا تحسّ بكل دقيقة من تلك الفترة. تجاوز جسدها حدود التعب. كانت عظامها تؤلمها. وصار تفكيرها مشوّشًا، متداخلًا. كان آخر ما يلزمها الآن أن يتّصل بها توم كينيدي ويقول لها كلامًا غير مفهوم، خاصّة وأنه بدا لها مشتّت الذهن غير قادر على التركيز.

قال: «لقد قلت لك. صورة».

«صورة فراشة».

«صحيح».

«من فضلك، تمهّل قليلًا واشرح لي معنى ذلك؟».

«لقد وجدتها في رزمة جيك، رزمة الأشياء الخاصّة».

«رزمة ماذا؟».

«إنه يجمع بعض الأشياء يحتفظ بها. أشياء لها معنى بالنسبة إليه. لقد كانت هذه الصورة هناك. إنها واحدة من الفراشات التي كانت في المرأب».

«حسنًا...».

نظرت أماندا من حولها في غرفة العمليات التي تمور بالحركة. بدا لها مشهدها الآن في حالة فوضى، مثل محتويات رأسها.

ركّزي! هناك صورة لفراشة. من الواضح أنها تعني شيئًا لتوم كينيدي. لكنها ما زالت غير قادرة على إدراك السبب.

«هل رسم جيك هذه الصورة؟».

«لا! هذه هي النقطة المهمة. إنها متقنة إلى حد يتجاوز قدرة جيك. يبدو أن شخصًا كبيرًا قد رسمها. إلا أن جيك رسم تلك الفراشات. رسمها في الليلة التي أعقبت اليوم الأول في المدرسة. أظن أن أحدًا أعطاه إياها لكي ينقلها. وإلا، فكيف يمكن أن يكون قد رآها؟ كانت تلك الفراشات في المرأب، أليس هذا صحيحًا؟».

«في المرأب».

«هذا يعني أنه رآها في مكان آخر. لا بد أنه رآها في مكان آخر. لقد رسمها شخص ما وأعطاه إياها، رسمها شخص رآها بنفسه».

«هل تعني أن الشخص الذي رسمها دخل إلى مرأب بيتك؟».

«... أو إلى البيت نفسه. هذا ما قلتوه لي، أليس كذلك؟ قلتم إن هناك أشخاصًا آخرين مثل نورمان كولينز كانوا يعرفون بوجود جثة الصبي هناك. قلتم إن الرجل الذي تظنّون أنه أخذ جيك واحد من أولئك الناس».

ظلّت أماندا صامتة برهة. كانت تفكّر في ذلك. صحيح... هذا ما كانوا يفكّرون فيه. صحيح أن اكتشاف توم كينيدي قد لا يعني أي شيء، لكن الليل كلّه لم يأتها بشيء آخر يمكن أن تعمل عليه.

قالت له: «من رسم تلك الصورة؟».

«لست أدري! تبدو حديثة العهد. ولهذا أظن أن أحدًا في المدرسة قد رسمها. لقد جلبها جيك إلى البيت بعد يومه الأول في المدرسة. ولهذا، فقد نسخها».

المدرسة!

في الأيام التي أعقبت اختفاء نيل سبنسر، تحدّثوا مع كل من كانت له أيّة درجة من العلاقة المنتظمة مع الصبي؛ وكان معلمو المدرسة ومعلماتها من بينهم. لكنهم لم يجدوا شيئًا مثيرًا للشبهات في ما يتعلّق بأي منهم. وبالطبع، لم يذهب جيك إلى المدرسة إلا بضعة أيام. حتى مع افتراض أن لتلك الصورة أي معنى، فمن الممكن أن تكون قد أتت من أي مكان.

«لكنك لست واثقًا من هذا».

قال توم: «لست واثقًا. لكنّ هناك شيئًا آخر أيضًا، في ذلك المساء، كان جيك يتحدّث مع شخص غير موجود. أنت تعرفين أنه يفعل ذلك، صحيح؟ إن له أصدقاء يتخيّلهم. لكنّه قال في تلك المرة إنه كان يتحدّث مع 'الصبي الذي في الأرض'. فكيف يمكن أن يكون قد عرف بذلك، وبتلك الفراشات، إلا إذا كان هناك شخص قد أخبره به؟».

«لا أعرف».

قاومت رغبتها في الإشارة إلى أن ذلك قد يكون مصادفة فحسب. وحتى إذا لم يكن مصادفة، فما من سبب يدعو إلى التركيز على المدرسة. بدلًا من ذلك، تحوّلت إلى ما بدا لها أمرًا أكثر أهمية الآن.

«لماذا لم تفكّر في قول هذا من قبل؟».

صمت توم. لعلّ تلك ضربة لا يجوز توجيهها إليه: رجل ابنه مفقود!... ثم إن هناك أشياء لا يصير لها معنى إلا عند إعادة التفكير فيها بعد مضي وقت! صورٌ، وأصدقاءٌ متخيّلون. وحوش تهمس من خلف النوافذ. غالبًا، لا يصغي الكبار جيّدًا إلى الأطفال! لكن، لو أن توم كينيدي أخبرهم بهذا قبل الآن، ولو أنها أصغت إليه، فلربما كانت الأمور الآن مختلفة. لعلّها لم تكن لتجد نفسها جالسة هنا، مرهقة، وبيت في المستشفى، وجيك كينيدي مفقود! كانت غير قادرة على إخفاء النبرة الاتهامية في صوتها.

«توم... لماذا لم تقل شيئًا؟».

«لم أكن أعرف معنى هذا».

«حسنًا... لعله لا يعني شيئًا. لكن، أوه، انتظر لحظة».

ظهرت إشارة تنبيه على شاشة هاتفها. فتحت أماندا الرسالة. إنها عنصر الارتباط ليز بامبر. لقد وصلت إلى بيت كارين شو، لكنّ أحدًا لم يفتح لها الباب. عبست أماندا ووضعت الهاتف على أذنها من جديد. الآن، بعد أن توقّف توم عن الكلام، صارت قادرة على سماع صوت حركة الشارع.

سألته: «أين أنت الآن؟».

«أنا في طريقي إلى المدرسة».

يا إلهي! قالت له محذّرة: «لا تذهب إلى المدرسة، أرجوك».

«ولكن...».

«من غير ولكن. لن يكون هذا مفيدًا».

أغمضت عينيها ودعكت جبينها. بم يفكر؟ لكن ابنه مفقود... يعني هذا أنه غير قادر على التفكير السليم.

قالت له: «اصغ إليّ، اصغ إليّ الآن. عليك أن تعود إلى بيت كارين شو. سوف تجد هناك الرقيب ليز بامبر. إنها في انتظارك. سوف أطلب منها أن تأتي بك إلى مركز الشرطة حتى نناقش مسألة الصورة. هل فهمت؟».

لم يجبها. تخيّلته يفكّر في ما قالته له. تخيّلته ممزقًا بين تصميمه على إنقاذ جيك وبين النبرة الآمرة في صوتها.

«توم... علينا ألا نجعل الأمور تزداد سوءًا».

قال: «لا بأس»، ثم أنهى الاتصال.

اللعنة على هذا!

لم تكن تعرف إن كان عليها أن تصدّقه أم لا؛ كانت غير قادرة الآن على فعل أي شيء آخر. كتبت لليز رسالة أبلغتها فيها بأوامرها، ثم استندت إلى ظهر مقعدها وراحت تدلّك وجهها حتى تعيد إليه شيئًا من الحياة.

وردَ تقرير آخر إلى مكتبها. فتحت عينيها لكنه لم يكن أكثر من أقوال شهود لا فائدة منها. لم ير أو يسمع أحد من الجيران شيئًا. بطريقة ما، تمكّن فرانسيس كارتر -أو ديفيد باركر، أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه على نفسه- من دخول البيت والشروع في قتل شرطي مخضرم، واختطاف طفل، ثم اختفى من غير أن يلفت انتباه أحد إليه. هذا ما يسمونه حظ الشيطان... حرفيًا! لكنّه ليس حظًّا فحسب... بالطبع! لعلّه كان طفلًا ضعيفًا هشًّا منذ عشرين عامًا، لكن من الواضح الآن أنه كبر خلال تلك السنين فصار رجلًا خطيرًا مختلًّا. صار شخصًا ماهرًا في التحرّك من غير أن يلاحظه أو ينتبه إليه أحد.

تنهّدت.

إذًا... عليها أن تدقّق في أمر المدرسة.

فلنلق نظرة أخرى!

60

عُد إلى بيت كارين شو!

لوهلة، أحسست أنّني سوف أفعل ذلك حقًّا. فبعد كل حساب، المحقِّقة بيك من الشرطة؛ والغريزة تدفعني إلى تنفيذ ما تقوله الشرطة لي. ثم إن كلماتها قد لسعتني. لقد فشلتُ في كل شيء؛ وهناك أشياء كثيرة لم أخبر الشرطة بها؛ كما أن محاولتي حماية جيك، لم تؤدِ إلى تغيير حقيقة أنني كنت قادرًا على الحيلولة دون حدوث هذا لو أنّي تكلّمت.

هذا يعني أنه مفقود بسببي أنا! لم أكن قادرًا على لوم المحقِّقة بيك لأنها لم تأخذ كلامي على محمل الجد في ضوء ذلك... لكنّها لم تر ما رسمه جيك. لقد أعطاه شخص ما تلك الصورة حتى ينسخها؛ وقد حدث ذلك قبل اختفائه بفترة وجيزة.

فلماذا يحتفظ جيك بالصورة؟ ما الشيء الخاص فيها حتى يحتفظ بها؟ تذكّرت ما حدث بعد يومه الأول في المدرسة. لقد تشاجرنا. تذكّرت الكلمات التي قرأها على شاشة كمبيوتري. تذكّرت المسافة التي كانت بيننا. لم أستطع العثور إلا على سبب واحد لوجود تلك الصورة في رزمة الأشياء الخاصّة، ألا وهو أن جيك قد قرر الاحتفاظ بها لأن شخصًا ما قد أظهر له لطفًا وتفهمًا لم يجدهما عندي.

هذه الفكرة هي ما جعلني أتّخذ قراري.

وصلت إلى المدرسة في الوقت المناسب تمامًا. كانت أبوابها لا تزال مفتوحة. وكان بعض الأطفال وأهاليهم لا يزالون يتجولون في باحتها. كنت أفكّر في الذهاب إلى الإدارة -سأذهب إن كان هذا ضروريًا لكنّ للإدارة بابًا مغلقًا يفصلها عن بقية المدرسة. ولكن... أستطيع الذهاب مباشرة إلى صف جيك، إن أردت. عبرت البوابة جريًا. قلبي يخفق. مررت بكارين التي كانت في طريق الخروج.

«توم...».

«دقيقة واحدة».

كانت السيدة شيلي واقفة عند الباب المفتوح تنتظر دخول آخر الأطفال إلى صفها. بدت كأنها شعرت بالخطر عندما رأتني. أدركتُ أن مظهري كان ناطقًا بالاهتياج الشديد الذي كنت أحسّه.

«سيد كينيدي...».

«من رسم هذه؟»... فتحت الورقة أمامها وجعلتها ترى صورة الفراشة... «من رسمها؟».

«أنا لست... أنا لا...».

قلت لها: «جيك مفقود. هل تفهمين هذا؟ لقد أخذ أحدهم ابني. عاد جيك إلى البيت بهذه الصورة بعد يومه الأول في المدرسة. يجب أن أعرف من رسمها». هزت رأسها. لقد غمرتها بمعلومات كثيرة يصعب عليها استيعابها. كنت أقاوم رغبتي في الإمساك بها وهزّها هزًّا لمحاولة جعلها تدرك مدى أهمية الأمر. ثم أدركت أن كارين قد صارت واقفة إلى جانبي. وضعت يدها بلطف على ذراعي.

قالت لي: «توم... حاول أن تهدأ».

«أنا هادئ»... لم تفارق عيناي السيدة شيلي وأنا أشير إلى صورة الفراشة... «من رسم هذه الصورة لجيك؟ هل رسمها طفل آخر؟... هل رسمها معلّم؟... هل أنت من رسمها؟».

«لست أدري!... كانت مضطّربة، مرتبكة؛ لقد أخفتها... «لست واثقة. قد يكون جورج هو من رسمها».

اشتدت قبضتي على الورقة: «من هو جورج؟».

«إنه واحد من المعلمين المساعدين لدينا. ولكن...».

«هل هو هنا الآن؟».

«ينبغي أن يكون هنا».

التفتت السيدة شيلي التفاتة سريعة إلى الخلف، فكان ذلك كل ما يلزمني من وقت لكي أتجاوزها وأدخل الممر الذي خلفها... «يا سيد كينيدي...».

صاحت كارين: «يا توم...».

تجاهلتهما وألقيت نظرة جانبية سريعة داخل غرفة الملابس حيث كان التلاميذ الذين من صف جيك يعلّقون معاطفهم وأشياءهم -حيث كان ينبغي أن يكون جيك الآن- ثم بدأت أجري فتجاوزت الزاوية ودخلت الممرّ الرئيسي الذي كان غاصًّا بأطفال يسيرون الهوينا في اتجاه غرف الصفوف الموزّعة على جانبي الممر.

شققت طريقي بينهم، ثم توقّفت في وسطهم. كان ذلك الممر يدور من حولي وأنا أنظر هنا وهناك غير عارف الغرفة التي يمكن أن تكون غرفة صف جيك... حيث يمكن أن أجد جورج. كنت أعرف في أعماقي أن وجودي هنا قد يسبّب مشكلة لي، لكن هذا أمر لا أهمية له. لا أهمية له لأن حياتي ستنتهي إذا لم أعثر على جيك؛ وإذا كان جورج هنا فهذا يعني أنه غير قادر الآن على إيذاء...

رأيت آدم!

رأيت ابن كارين يضع زجاجة الماء على طاولة ذات عجلات في آخر الممر، ثم يدخل الغرفة التي هناك. جريت في اتجاهه منتبهًا إلى أن موظفة الاستقبال ومعها شخص كبير السن -أحد المستخدمين في المدرسة- كانا قادمين في اتجاهي عبر واحد من الممرات البعيدة. لا بد أن السيدة شيرينغ قد استدعتهما. من المؤكد أن قيام شخص باقتحام المدرسة يستلزم تدخلًا ما.

صاحت موظفة الاستقبال: «يا سيد كينيدي!».

لكنّي بلغت باب غرفة الصف قبلهما، فدخلتها سريعًا محاولًا -نصف واعٍ- عدم الاصطدام بأحد الأطفال في طريقي. كانت الغرفة مهرجانًا من الألوان: جدرانها مطليّة بالأصفر وعليها ما حسبته مئات الأوراق الكبيرة المصفوفة بعضها فوق بعض: جداول الضرب، وصور الأعداد وأنواع الفاكهة، ورسوم صغيرة لأشخاص يؤدّون أعمالًا منتمية إلى مهن مختلفة، كُتب اسم كل واحدة منها عند صاحبها. نظرت عبر بحر الطاولات والكراسي الصغيرة باحثًا عن شخص كبير. رأيت امرأة متقدّمة في السن واقفة في آخر الغرفة تنظر إليّ حائرة. كانت تثبت أوراقًا على لوحة ذات مشبك؛ لكنها كانت الشخص الكبير الوحيد الذي استطعت رؤيته.

وعندها، أحسست بيد على ذراعي.

استدرت فوجدت مستخدم المدرسة العجوز واقفًا إلى جانبي وقد ارتسم على وجهه تعبير صارم.

«لا يجوز أن تكون هنا».

«لا بأس».

كنت أقاوم رغبتي في إبعاد يده عني. لا معنى لهذا -كائنًا من كان جورج، فهو ليس هنا الآن- لكن قنوطي عند إدراك ذلك جعلني أزيح يد الرجل عن ذراعي.

«لا بأس».

خرجنا من الغرفة فأغلق المستخدم الباب بقوّة. كانت السيدة شيرينغ آتية في اتجاهي. هاتفها في يدها. لا أدري إن كانت قد استخدمته لكي تطلب الشرطة. إن كانت قد فعلت هذا، فلعلهم يبدأون الآن التعامل مع كلامي بشيء من الجدية.

«يا سيد كينيدي...».

«أعرف، لا يجوز أن أكون هنا».

«لقد اقتحمت المدرسة».

«إذًا، اكتبي اسمي في المساحة الصفراء».

بدأت تقول شيئًا، لكنها منعت نفسها. بدا على وجهها القلق... أكثر من أي شيء آخر.

«هل قلت لي إن جيك مفقود؟».

أجبتها: «صحيح. أخذه أحدهم الليلة الماضية».

«يؤسفني هذا. لا أستطيع تخيّل ما... أفهم أنك مضطرب».

لم أكن واثقًا من قدرتها على فهم حالتي. كان الذعر مثل سلك كهربائي نابض في داخلي. قلت لها: «يجب أن أعثر على جورج».

«هو ليس هنا».

إنه صوت موظفة الاستقبال. كانت واقفة إلى جانبي وقد طوت ذراعيها على صدرها. بدت تسامحًا تجاهي، وأقل تفهّمًا لي، من السيدة شيرينغ.

سألتها: «أين هو؟».

«حسنًا، أظنه في بيته. لقد اتصل منذ فترة وقال إنه مريض».

ازداد إحساسي بالخطر... لا يمكن أن تكون هذه مصادفة. معنى هذا أنه مع جيك في هذه اللحظة».

«أين هو بيته؟».

«لا يحق لي الكشف عن معلومات خاصّة بالعاملين في المدرسة».

فكّرت في تجاوزها والذهاب إلى مكاتب الإدارة. كان مستخدم المدرسة واقفًا هناك، معترضًا الطريق. لكنه رجل في الستينات من عمره... أستطيع التغلب عليه إن أردت ذلك. ستأتي الشرطة وسيكون علي أن أجيب عن أسئلتها. لكن الأمر يستحق ذلك إن أتيح لي الوقت الكافي في الإدارة حتى أفتش في الخزائن وأعثر على المعلومات التي تلزمني. إلا أن محاولتي لن تكون مفيدة إذا لم أعثر على عنوان جورج. لن يكون مفيدًا لجيك أن ينتهي بي الأمر محتجزًا لدى الشرطة.

قلت لها: «هل تستطيعون إعطاء الشرطة هذه المعلومات؟».

«بالطبع».

استدرتُ وسرت عبر الممر عائدًا من حيث أتيت. ساروا من خلفي لكي يتأكّدوا من ذهابي. صرت في الخارج فأغلقوا الباب من خلفي، ثم أقفلوه. كانت باحة المدرسة شبه خالية الآن، لكنّي وجدت كارين في انتظاري عند البوابة. كان القلق باديًا على وجهها.

قالت لي: «ماذا دهاك؟ هل تعرف أن من الممكن اعتقالك بسبب ما فعلته؟».

«يجب أن أعثر عليه».

«هل تعني جورج؟ من هو؟».

«مساعد مدرس. لقد رسم شيئًا لجيك وطلب منه أن ينسخه... صورة فراشة، إنها واحدة من الفراشات التي وجدتها مع جثة الصبي في المرأب».

بدا الشك على وجه كارين. لم ألُمها عندما سمعت نفسي أقول ذلك بصوت مرتفع. لكن، كان من المستحيل أن أجعل الأشخاص الآخرين يفهمون... مثلما حدث لي مع المحقِّقة بيك! كان الشخص الذي أخذ جيك على علم بوجود بقايا جثة الصبي في بيتي. وهذا يعني أنه يعرف بوجود الفراشات... وبالصبي الذي في الأرض. لم يكن ابني مختلًا! لقد كان طفلًا ضعيفًا يشعر بالوحدة، ولا بد أنه عرف بهذه الأشياء من شخص ما... عرفها شخص قادر على الوصول إليه.

إنه شخص قادر على الوصول إليه الآن، في هذه اللحظة!

قلت لكارين: «هم لا يصدقونني أيضًا».

تنهّدت كارين فقلت لها: «أعرف. لكنّي محق، يا كارين! علي أن أعثر على جيك. لا أطيق فكرة تعرّضه لأي أذى. لا أطيق عدم وجوده معي. ولا أطيق أن يكون ذلك كلّه قد حدث نتيجة غلطة مني. ينبغي أن أجده».

ظلّت كارين صامتة لحظة. كانت تفكّر في ذلك. ثم تنهدت من جديد.

قالت: «إنه جورج سوندرز؛ الشخص الوحيد باسم جورج على موقع المدرسة في الإنترنت. بحثت عنه فعثرت على عنوانه أثناء وجودك في المدرسة».

«يا إلهي!».

«قلت لك إنني ماهرة في العثور على الأشياء».

61

«لا أظنّ أنّ من المستحسن أن ترسم هذا».

بدا صوت الفتاة الصغيرة متوتّرًا. كانت تذرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهابًا. ومن حين لآخر، كانت تتوقّف وتنظر إلى ما يرسمه. لم تقل شيئًا قبل الآن؛ لكنها قالت هذا عندما راح يرسم البيت وتفاصيل حديقته مثلما طُلب منه فعله... كان ينسخ الرسم التفصيلي الذي رسمه جورج من أجله. كان ذلك قبل أن يستسلم ويقلع عن المحاولة ويبدأ رسم معركة بدلًا من ذلك.

دوائر ودوائر.

حقول طاقة. أو بوابات. لا يعرف إن كانت هذه أو تلك! لعل هذا لا أهمية له! شيء من أجل الحماية، أو من أجل الهرب. كلاهما وافٍ بالغرض... أي شيء يستطيع أن يجعله آمنًا أو أن يأخذه من هذا المكان، بعيدًا عن جورج، بعيدًا عن ذلك الحضور البشع الذي يستطيع الإحساس بنبضه أسفل السلم، وإن كان غير مرئي الآن. لم يكن واثقًا حتى من أن جورج قد أقفل الباب عندما خرج من الغرفة في الصباح. كان يظنّ بأن الفتاة الصغيرة تريده أن يتسلل إلى الأسفل وأن يجرب فتح الباب. مستحيل! حتى لو كان الطريق سالكًا حتى باب البيت الرئيسي، فإن من غير الممكن أبدًا...

«توقّف يا جيك، أرجوك».

توقف جيك. كانت يده ترتعش ارتعاشًا عنيفًا حتى كاد القلم يفلت من يده. كان يضغط على القلم ضغطًا شديدًا حتى بدأت البوابة التي يرسمها تمزق الورقة.

قال لها: «لقد نقلت الرسم بأحسن ما أستطيع. أنا غير قادر على رسمه».

لقد أعطاه جورج أربع ورقات حتى يرسم عليها. استخدم ثلاثة منها في محاولة نسخ صورة البيت وحديقته. لكن الصورة كانت صعبة عليه. ظنّ بأن جورج قد فعل ذلك عمدًا كان هذا امتحانًا، تمامًا مثلما كان ذلك الطعام المقزز على الإفطار. عندما يكون لديك اختبار في المدرسة، يمكنك الإحساس بأن المعلمين يريدون أن تنجح في الاختبار. لكنه لم يكن يظن أن جورج يريد نجاحه الآن. عندما وضعت السيدة شيلي اسمه في المساحة الصفراء في اليوم الأول من أيام المدرسة، أحسّ جيك بأنها فعلت ذلك من غير أن تكون راغبة فيه. وأما جورج، فقد بدا له أنه ينتظر أية فرصة حتى يضعه في المساحة الحمراء من غير تردّد.

وهكذا، فقد حاول. بذل أقصى ما استطاعه. لم تبق لديه إلا ورقة واحدة فراح يرسم عليها معركة. أمر حسن أن يكون المرء مبدعًا، أليس هذا صحيحًا؟

بابا يحب رسومه دائمًا.

لكنه لا يريد التفكير في بابا، الآن، في هذه اللحظة. بدأ يرسم من جديد، دوائر ودوائر. لعل الفتاة الصغيرة كانت محقة... لكنه لم يستطع جعل نفسه يتوقّف. كان هذا كل ما يقيه من الذعر، حتى مع أن يده قد صارت تبدو له خارجة عن سيطرته. لعل هذا هو الذعر نفسه!

انفتح الباب في أسفل السلم.

دوائر ودوائر.

صوت خطواته تصعد السلم.

ثم صار على الورقة حبر كثير فتمزّقت. نفذ القلم إلى الجهة الأخرى.

قال جيك في نفسه: انفتحت البوابة... أنت الآن في أمان!

دخل جورج الغرفة.

كان مبتسمًا، لكن ابتسامته لم تكن طبيعية. أحسّ جيك كما لو أن جورج قد ارتدى رداء الأبوية، لكنه كان رداء غير مريح، غير مناسب لمقاسه، فكان راغبًا في خلعه عنه بأسرع ما يستطيع. لم يكن جيك يريد رؤية ما تحت ذلك الرداء. نهض واقفًا وقلبه يرتعش بشدّة كشدّة ارتعاش جسده.

سار جورج إليه: «ماذا لدينا الآن؟ فلنر ما أنجزته».

توقّف على مسافة صغيرة منه. صار قادرًا على رؤية الورقة.

اختفت ابتسامته.

«ما هذا، بحق الجحيم؟».

رفرفت عينا جيك مجفلتين عند سماعه يقول هذا. عندما رفرفت عيناه أدرك أن فيهما دموعًا. لقد بدأ البكاء من غير أن يلاحظ ذلك. كان في داخله شيء يدفعه إلى ترك نفسه يبكي وينتحب... كان دافعًا شديد القوة. لكن التعبير الذي رآه على وجه جورج منعه من ذلك. لا يريد جورج مشاعر حقيقيّة! إذا انهار جيك وانتحب، فسوف يكتفي جورج بالانتظار إلى أن ينتهي من ذلك، ثم يعطيه شيئًا يجعله يبكي حقًّا.

«هذا ليس ما قلت لك أن ترسمه».

قالت الفتاة الصغيرة بسرعة: «دعه يرى الأوراق الأخرى».

دعك جيك عينيه ثم أشار إلى الرسوم التي قيل له أن ينجزها.

أريد بابا!

كانت هاتان الكلمتان تغليان في داخله... تهدّدان بالخروج من فمه.

قال: «لقد بذلت أقصى جهدي. لم أستطع إنجاز الرسم».

نظر جورج إلى الأوراق وراح يدقّق في ما رسمه جيك من غير أي تعبير على وجهه. ظلت الغرفة صامتة بضع ثوانٍ. كان هواؤها عابقًا بالخطر.

«هذه ليست جيّدة كما ينبغي لها أن تكون».

على الرغم من نفسه، أحسّ جيك بأن هذه الكلمات قد لسعته. يعرف أنه غير ماهر في الرسم؛ لكن بابا يقول دائمًا إن رسوم جيك تعجبه، لأن...

«بذلت كل جهدي».

«لا يا جيك. من الواضح أنك لم تبذل جهدك. أقول هذا لأنك استسلمت... ألم تستسلم؟ كانت لديك ورقة أخرى حتى تحاول من جديد، لكنك قررت أن ترسم... أن ترسم هذا»... أشار جورج بيده إلى رسم المعركة بحركة ناطقة بالازدراء... «إن الأشياء في هذا البيت تكلف مالًا. ونحن لا نهدرها عبثًا».

قالت الفتاة الصغيرة لجيك: «قل إنك آسف».

«أنا آسف، يا سيدي».

«أسفك غير كافٍ، يا جيك. غير كافٍ على الإطلاق».

كان جورج واقفًا ينظر إليه بجدّية تامة. كان الأمر كما لو أنه يبذل جهدًا لكي يضبط نفسه. كانت يداه ترتجفان. أدرك جيك أن الرسم لم يكن إلا ذريعة. ففي أعماقه، كان جورج راغبًا في أن يغضب منه. كانت يداه ترتعشان لأنه يحاول تقرير ما إذا كان هذا الذي فعله جيك مخالفة كافية لمعاقبته.

لقد اتخذ قراره... «هذا يعني أنك ستنال عقوبة».

عند ذلك، صار جورج ساكنًا سكونًا تامًّا. لقد خلع زيه التنكّري. رأى جيك كيف سقط عنه كل ما كان يتظاهر به من طيبة ولطف، فقد كانت تلك أشياء يدعيها، أشياء يستطيع أن يرميها جانبًا بسهولة مثل سهولة خلع قميص يرتديه. الآن، رأى وحشًا واقفًا أمامه.

وقد كان وحيدًا هنا، مع ذلك الوحش.

وسوف يؤذيه.

تراجع جيك حتى لمست ربلتا ساقيه حافة السرير الصغير.

«أريد بابا».

«ماذا قلت؟».

«بابا! أريد بابا».

بدأ جورج يقترب منه، لكن جيك قفز في مكانه عندما سمع صوت جرس إنذار ينطلق في مكان ما في الأسفل. توقف جورج في مكانه. وببطء شديد، أدار رأسه ونظر في اتجاه السلم. ظلّت بقية جسده في اتجاه جيك.

أدرك جيك أن هذا ليس جرس إنذار.

هناك من يقرع جرس الباب.

62

كان فرانسيس يغلي غضبًا. نزل إلى الطابق الأول ودخل غرفة نومه مسرعًا، فارتدى ثوبًا طويلًا أبيض. من المفترض أنه مريض في البيت. أرغم نفسه أيضًا على الهدوء إلى حد يسمح له بإخفاء الغضب الذي كان يحسّه. إلا أن إبقاء ذلك الغضب على مقربة من السطح كان أمرًا حسنًا. هكذا يكون قريب المتناول، فقد يحتاجه.

جرس الباب اللعين!

لا يزال جرس الباب مستمرًا.

اتجه فرانسيس إلى الباب. كان واثقًا من أن الشرطة ليست هي من يقرع بابه. لو كان لديهم ما يجعلهم يأتون إليه، فسوف يكون وصولهم أقل تهذيبًا... أقل تهذيبًا حتى من هذا الجرس الذي لا يكف عن الرنين. نظر عبر عدسة الباب؛ وكان صوت الجرس يرن في أذنيه مرتفعًا من غير انقطاع. رأى الدرجات التي أمام الباب، والحديقة، ورأى توم كينيدي يضغط على مفتاح الجرس وقد بدا على وجهه تصميم جامح. تراجع فرانسيس عن الباب قليلًا. كيف استطاع كينيدي أن يجده؟ ما الذي يمكن أن يكون قد أتى به إليه بدلًا من أن تأتي الشرطة؟

ثم لماذا، أصلًا، يريد أن يستعيد ابنه؟ تراجع فرانسيس خطوة. لا حاجة إلى فتح الباب من المؤكد أن كينيدي سينصرف بعد قليل. من الجنون الظن بأن الرجل يمكن أن يطيل البقاء هنا.

لكن رنين الجرس ظل مستمرًا.

فكر فرانسيس مجدّدًا في ذلك التعبير الذي رآه على وجه الرجل فتساءل إن كان كينيدي مجنونًا حقًّا. أهذا ما يفعله فقد طفل بالرجل، حتى إذا كان طفلًا يعيش إهمالًا واضحًا، مثل جيك؟ أو... لعله أخطأ الحكم على الأشياء!

أسند جبينه إلى الباب. لا تفصله الآن عن الرجل الذي في الخارج إلا إنشات قليلة. أحس بحضور كينيدي وخزًا في مقدّمة جمجمته. أيعقل أن يكون جيك طفلًا محبوبًا؟ أيعقل أن يكون والده مهتمًا بأمره هذا الاهتمام كلّه بحيث دفعه اختطافه إلى هذا السلوك المتطرّف؟ جعلت هذه الفكرة اليأس والإحساس بالخسارة ينفجران انفجارًا في قلب فرانسيس. إن كان هذا صحيحًا، فهو ليس منصفًا أبدًا! لا شيء من هذا منصف أبدًا! لا أهمية للصبية الصغار في نظر أحد؛ لا أهمية لهم إلى هذا الحد أبدًا. لقد عرف هذا طيلة حياته، عرفه في أعماقه، لكنه صار الآن واثقًا منه. لا قيمة للأولاد الصغار. وهم لا يستحقون شيئًا غير...

استمرّ رنين الجرس.

صاح بصوت مرتفع: «قادم».

لا بد أن كينيدي قد سمعه، لكنه لم يتوقّف عن الضغط على مفتاح الجرس. ذهب فرانسيس مسرعًا إلى المطبخ فاختار من على الرف سكينًا حادة صغيرة دسّها في جيبه. صمتَ الجرس أخيرًا. أزاح فرانسيس إحساسه بالخسارة جانبًا، خبّأه في داخله، واستعاد غضبه من جديد. لكنه أبقاه غير ظاهر.

تخلّص منه!

تدبّر أمر الصبي أيضًا!

ثم ارتدى أفضل وجه عنده وعاد إلى الباب.

63

«أنا قادم».

فوجئت كثيرًا عندما سمعت هذا الصوت الذي أتاني من خلف الباب المغلق فنسيت أن أرفع إصبعي عن مفتاح الجرس.

كنت قد فقدت الأمل في أن يجيب أحد جرس الباب. وفي تلك اللحظة، كان الأمر كما لو أنه ليس لدي مكان آخر أذهب إليه أو شيء آخر أفعله. بل حتّى لم أكن أعرف كم من الوقت مضى وأنا واقف هناك. لكنّي كنت شديد الإصرار على قرع ذلك الجرس كما لو أن الضغط على مفتاحه يمكن، بطريقة من الطرق، أن ينقذ جيك.

رجعت إلى الخلف خطوة، ثم استدرت ونظرت إلى كارين. كانت تنتظرني في السيارة وتنظر إلي قلقة وقد وضعت هاتفها على أذنها. لقد أصرت على الاتصال بالشرطة فأعطيتها رقم هاتف المحقّقة بيك. نظرت كارين إليّ وهزّت رأسها.

استدرت صوب الباب من جديد من غير أية فكرة عمّا قد يحدث بعد ذلك. كنت في حالة هياج جديد منذ أن رأيت محتويات رزمة الأشياء الخاصّة؛ ثم صرت هنا من غير أن أعرف ما يمكن أن أقوله لجورج سوندرز، أو ما يمكن أن أفعله.

سمعت صوت المفتاح في القفل.

عاودتني ذكرى رؤية أبي الليلة الماضية. تذكّرت الإصابات التي لحقت به. لقد كان رجلًا قويًا، صاحب قدرة جسدية جيّدة... لكن من هاجمه تغلب عليه من غير صعوبة. كان أبي غير مسلّح، وربما فاجأه الهجوم... لكن، حتى في تلك الحالة...! فماذا عنّي أنا، وما الذي أستطيع فعله؟

لم أكن قد فكّرت في هذا الأمر بشكل كافٍ.

فُتح الباب. كنت أتوقع أن سوندرز يستخدم سلسلة الباب بحيث يكون نصف ظاهر لي... بل ربما أجده ينظر نظرة المذنب. لكنه فتح الباب كلّه، بكلّ ثقة، ففاجأتني رؤيته. كان شخصًا عادي المظهر من كل ناحية. توقّعت أن يكون في العشرينات، لكنه بدا أصغر من ذلك. كان مظهره موحيًا بشيء طفولي ناعم. لا أظنني رأيت شخصًا يبدو مسالمًا إلى هذا الحد.

قلت: «هل أنت جورج سوندرز؟».

أومأ برأسه بحركة ناعسة، ثم جذب الثوب الذي عليه كأنه يتدثّر به. كان شعره الأسود فوضويًا مشعثًا؛ وكان تعبير وجهه موحيًا بأنه قد استيقظ الآن من نومه، وكان مشوشًا ومنزعجًا

بعض الشيء لأنني أيقظته.

«أنت تعمل في مدرسة روز تيراس، هذا صحيح؟».

نظر إلي مضيّقًا عينيه: «نعم، صحيح».

«ابني يذهب إلى تلك المدرسة. أظنّك واحدًا من معلميه».

«أوه. أنا لست معلّمًا، أنا مساعد معلّم».

«السنة الثالثة، جيك كينيدي».

«صحيح. أظنّه في صفّي. لكني أعني أن معلّمة الصفّ هي الشخص الذي يجب أن تتحدّث معه».

عبس قليلًا، لكن ذلك كان نتيجة حيرته الناعسة لا نتيجة تشكّكه... كما لو أن الفكرة لم تخطر في ذهنه إلا الآن... «ويجب أيضًا أن يكون الحديث في المدرسة. كيف حصلت على عنواني؟».

نظرت إليه، كان شاحب الوجه، وكان يرتعش قليلًا على الرغم من دفء ذلك الصباح. بدا لي أنه مريض حقًّا. وبدا لي أن وجودي قد أربكه. لكنّي لم أر في ذلك الارتباك شيئًا يخصّني أنا تحديدًا. كان منزعجًا لأن واحدًا من أهالي الطلاب قد أتى إلى بيته.

قلت له: «الأمر غير متعلّق بأدائه المدرسي».

«فما الأمر إذًا؟».

«جيك مفقود».

هز سوندرز رأسه... لم يستوعب ما قلته.

قلت: «لقد أخذه أحدهم. مثلما حدث مع نيل سبنسر».

بدا عليه فزع حقيقي عندما سمع هذا: «أوه، يا إلهي! أمر مؤسف جدًا. متى حدث هذا؟».

«الليلة الماضية».

قال من جديد: «أوه، يا إلهي!»... ثم أغمض عينيه ودعك جبهته... «هذا أمر فظيع. شيء فظيع. الحقيقة أنه لم يكن لدي احتكاك كبير مع جيك. لكنه يبدو لي طفلًا لطيفًا».

قلت في نفسي: إنه طفل لطيف. بعد أن قال سوندرز هذا، بدأت أشك في وجاهة اشتباهي فيه. لقد كان الدليل الذي قادني إليه واهيًا؛ ثم إن سوندرز نفسه يبدو شخصًا لا يمكن أن يؤذي ذبابة... بل حتى لا يستطيع أن يؤذي ذبابة. بدت عليه دهشة حقيقية عندما سمع أن جيك مختطف كان انزعاجه وحزنه واضحين!

أخرجت صورة الفراشة: «هل رسمت له هذه؟».

نظر سوندرز إلى الصورة: «لا، لم أرسمها».

«ألم ترسمها؟».

«لا، لم أرسمها».

كنت رافعًا الورقة أمامه بيدين مرتجفتين؛ وكانت استجابته مثل استجابة أي شخص يجد أمامه رجلًا مثلي واقفًا ببابه.

قلت: «وماذا عن الصبي الذي في الأرض؟».

«ماذا؟».

الصبي الذي في الأرض.

نظر إليّ وقد بدا عليه خوف واستياء واضحان. كان هذا خوف شخص يدرك تدريجيًا أنه يواجه اتهامًا نتيجة شيء ما. إن كان يصطنع هذا التعبير اصطناعًا، فهو ممثل استثنائي!

قلت في نفسي: إنني مخطئ!

لكن، حتى إن كنت مخطئًا...!

نظرت إلى ما خلفه وصحت: «جيك!».

«ماذا تفعل؟».

ملتُ في اتجاه إطار الباب، صار صدري في محاذاة صدر سوندرز. صحت من جديد: «جيك».

لا إجابة.

ابتلع سوندرز ريقه بعد بضع ثوانٍ من الصمت. كان صوت ابتلاع ريقه قويًا... استطعت سماعه.

«يا سيد... كينيدي...».

«ماذا؟».

«أدرك أنك غاضب. أدرك هذا حقًّا. لكنك تخيفني. لا أفهم ما يجري، لكني أعتقد حقًّا بأن عليك الآن أن تذهب».

نظرت إليه، كان الخوف واضحًا في عينيه. ظننته خوفًا حقيقيًا. بدا جسده كلّه خائفًا. كان من ذلك النوع من الخوافين الذين يتجمّع الواحد منهم على نفسه بمجرد أن ترفع صوتك. كان واضحًا أنني أخفته بالفعل.

لقد كان سوندرز صادقًا.

جيك ليس هنا، وأنا...

وأنا...

هززت رأسي، ثم تراجعت خطوة.

وأنا قد خسرت الآن!... خسارة تامّة! كنت مخطئًا في مجيئي إلى هذا المكان. كان علي أن أفعل ما قيل لي وأن أعود إلى بيت كارين قبل أن أسبب مزيدًا من الضرر، قبل أن أفسد الأمر كله بأكثر مما أفسدته من قبل.

قلت له: «إنني آسف».

«يا سيد كينيدي...».

«إنني آسف. سوف أذهب الآن».

64

انتظر هنا!

ما الخيار الذي كان لديه؟ لا شيء! جلس جيك على السرير ممسكًا حافّته بيديه. لم يقفل جورج الباب الذي في أسفل السلم عند خروجه. كان رنين الجرس لا يزال مستمرًا في تلك اللحظة. ثم استمر الصوت بعد ذلك دقيقة كاملة، أو أكثر، قبل أن يتوقّف آخر الأمر. افترض جيك أن جورج قد ذهب وفتح الباب، وأنه يتحدّث الآن مع الشخص الذي عند بابه. لولا هذا، لكان قد عاد... بالتأكيد! سيفعل ما كان قد اعتزم فعله قبل أن يأتي أحد ويقرع جرس الباب.

قال في نفسه: «قد لا يفعل ذلك إن كنت ولدًا مطيعًا».

إذا ظلّ منتظرًا هنا، فقد يحبّه جورج من جديد.

«تعرف أن هذا غير صحيح، يا جيك».

التفت فرأى الفتاة الصغيرة جالسة على السرير إلى جانبه. عاد وجهها جادًّا من جديد. لكن وجهها بدا له الآن مختلفًا. بدت مذعورة، لكنّها مليئة أيضًا بتصميم هادئ.

قالت له: «إنه رجل شرير. وهو يريد إيذاءك. سوف يؤذيك إذا سمحت له بذلك».

كاد جيك يبكي.

«كيف أستطيع منعه؟».

ابتسمت له ابتسامة ناعمة كما لو أن كلًا منهما يعرف إجابة هذا السؤال. لا، لا، لا! نظر جيك إلى زاوية الغرفة حيث الممر المفضي إلى السلم. لا يمكن أبدًا أن يجرؤ على النزول. لا يستطيع مواجهة ما قد يكون في انتظاره هناك، في أسفل السلم.

«لا أستطيع فعل هذا».

«لكن، ماذا لو كان بابا هو من يقرع الجرس؟».

هذا، بالضبط، ما كان جيك لا يكاد يجرؤ على التفكير فيه. لم يكن يجرؤ على التفكير في أن بابا يريد أن يجده، وفي أنه قد وجده، وفي أنه في الأسفل الآن.

كان ذلك أكثر من أن يجرؤ على الأمل فيه.

«سيصعد بابا ويأخذني».

«لن يصعد إلا إذا عرف أنك هنا. قد لا يكون واثقًا من أنك هنا». فكَّرتْ قليلًا، ثم قالت: «قد يكون عليك ملاقاته في منتصف الطريق».

هز جيك رأسه، هذا أكثر مما يستطيعه.

«لا أستطيع النزول».

ظلّت الفتاة الصغيرة صامتة قليلًا، ثم قالت بصوت خافت: «أخبرني عن ذلك الكابوس».

أغمض جيك عينيه.

«إنه عثورك على ماما، أليس كذلك؟».

«صحيح».

«وأنت لم تخبر به أحدًا من قبل، ولا حتى من بابا. هذا لأن الكابوس يخيفك كثيرًا. لكنك تستطيع إخباري الآن».

«لا أستطيع».

قالت هامسة: «بل تستطيع. وسوف أساعدك. دخلت غرفة الجلوس فشعرت بأن البيت خالٍ. بابا ليس معك، أليس هذا صحيحًا؟ إنه لا يزال في الخارج. وهكذا، فإنك تعبر غرفة الجلوس».

قال جيك: «توقّفي».

«اليوم مشمس».

أغمض عينيه بشدّة، لكن هذا لم يساعده. لقد تذكّر شعاع الشمس الداخل عبر النافذة الخلفية في بيتهم القديم.

«أنت تسير بخطوات بطيئة جدًّا لأنك تحسّ بأن هناك شيئًا غير طبيعي. هناك شيء مفقود. أنت تشعر بهذا».

صار الآن قادرًا على رؤية الباب الخلفي، والجدار، ودرابزين السلّم.

تكشّف له ذلك كلّه على مراحل. وعندها... قالت الفتاة الصغيرة: «وبعد ذلك تراها، ألا تراها؟».

لم يكن هذا كابوسًا، ولا سبيل إلى استيقاظه منه أو إلى منع الصور من الظهور له. نعم، لقد رأى ماما. كانت راقدة في أسفل السلم. رأسها مائلٌ جانبًا، ووجنتها مستندة إلى السجادة. كان وجهها شاحبًا، بل أيضًا مزرقاً قليلًا. كانت عيناها مغمضتين. قال له بابا في ما بعد إن ذلك كان

نوبة قلبية. إلا أنه لم يصدّق الأمر لأن النوبة القلبية تصيب كبار السن. لكن بابا قال إنها تصيب الشباب أحيانًا... إذا كانت قلوبهم...

ثم... سكت جيك وبدأ البكاء. بكيا معًا.

لكن ذلك حدث في ما بعد. في تلك اللحظة، لم يفعل شيئًا غير أن وقف هناك وأدرك ما رآه بطريقة لم يستطع عقله أن يجد لها أي معنى... لأن مشاعره كانت أكبر كثيرًا مما يطيق.

قال: «رأيتها».

«وماذا؟».

«كانت ماما».

ماما فحسب! لم ير وحشًا فظيعًا. كان الشيء الفظيع هو ما يعنيه ذلك، وما جعله يشعر به. في تلك اللحظة، أحس كما لو أن جزءًا منه كان راقدًا هناك، وأحسّ بأنه لن يستطيع أبدًا امتلاك كلمات تصف عالم المشاعر التي انفجرت في داخله... عالم ضخم مثل ضخامة الانفجار الكبير الذي صنع الكون.

لكنه لم ير هناك إلا ماما. وما من مبرر لأن يكون خائفًا منها.

وضعت الفتاة الصغيرة يدها على كتفه: «علينا الآن أن ننزل السلم. لا شيء يخيفنا».

فتح جيك عينيه ونظر إليها. كانت لا تزال هناك، وكانت حقيقية أكثر من أي وقت مضى. لم يعرف أحدًا أحبّه هذا الحبّ كلّه.

قال لها: «هل تذهبين معي؟».

ابتسمت: «بالطبع سأذهب. أنا معك دائمًا، أيها الولد الرائع».

نهضت عند ذلك، ثم مدّت يديها فأمسكت بيديه وجذبته حتى نهض على قدميه.

قالت له: «ماذا نكون؟... شجاعَين!».

65

«إنني آسف. سوف أذهب الآن».

ممن كنت أعتذر؟ لست واثقًا من هذا! أظنني كنت أعتذر من سوندرز لأنني أتيت إلى باب بيته واتهمته وأخفته من غير أي دليل حقيقي. لكن اعتذاري كان أكثر من ذلك. كان اعتذارًا من جيك. كان اعتذارًا من ريبيكا. بل كان اعتذارًا من نفسي أيضًا. على نحو ما، خذلت أولئك جميعًا!

نظرت إلى كارين. كانت لا تزال ممسكة بالهاتف عند أذنها، لكنها هزّت رأسها من جديد.

قال سوندرز بحذر: «انظر... لا مشكلة في هذا. وكما قلت لك، أعرف أنك حزين. لا أستطيع تخيّل ما تعانيه الآن... لكن...».

كفَّ عن الكلام.

قلت له: «أعرف».

«أنا مستعد للحديث مع الشرطة. آمل أن تجده... ابنك. وآمل أن يكون الأمر كله غلطة من نوع ما».

«أشكرك».

أومأت له برأسي، وكنت موشكًا على الاستدارة والعودة إلى السيارة عندما سمعت صوتًا قادمًا من مكان ما في البيت، من خلفي. توقفت. ثم استدرت إلى سوندرز من جديد. كان ذلك صوتًا بعيدًا راجفًا... صوت شخص يصيح؛ لكنه صوت غير واضح، بل صوت لا يكاد يكون مسموعًا.

سمع سوندرز ذلك الصوت أيضًا. تغير تعبير وجهه في اللحظة التي أدرت فيها ظهري. لم يعد يبدو مريضًا، أو ناعمًا، أو مسالمًا. بدا كما لو أن وجهه الإنساني لم يكن إلا قناعًا تنكّريًا سقط الآن، فرأيت بدلًا منه شيئًا غريبًا كل الغرابة.

أغلق سوندرز الباب بسرعة.

«جيك!».

أفلحت في صعود الدرجة التي أمام الباب بسرعة كافية وبأن أدخل ساقي فيه حتى لا يتمكّن من إغلاقه. آلمني الباب عندما انطبق على ركبتي، لكني تجاهلت الألم ودفعته. استندت بإحدى يدي إلى إطار، ورحت أضغط على الخشب بظهري بأقصى ما استطعت من قوة. كان سوندرز يلهث

إلى الجانب الآخر من الباب ويضغط عليه حتى يمنعني من فتحه. لكني كنت أكبر منه حجمًا، وكان انفجار الأدرينالين المفاجئ قد زاد من قوتي.

لقد كان جيك في مكان ما داخل هذا البيت. إذا لم أصل إليه فسوف يقتله سوندرز. كنت أعرف أن سوندرز لن يفلت من هذا الأمر. لن يحاول الإفلات منه. لكنّه سيؤذي ابني إذا أفلح في إخراجي.

«جيك!».

اختفت المقاومة على نحو مفاجئ.

لا بد أن سوندرز قد ابتعد عن الباب. فتح الباب دفعة واحدة فاندفعت في غرفة المعيشة... نصف سقوط ونصف اصطدام به. سدّد إلى جنبي ضربة خفيفة عندما اصطدمت به، ثم رجع إلى الخلف متعثّرًا فسقطنا معًا... سقطت فوقه. صار رأسه مائلًا، مضغوطًا على خشب الأرضية. وكانت ذراعي اليمنى فوق حنكه. وكانت يدي اليسرى تثبّت ذراعه اليمنى على الأرض عند المرفق. انتفض جسمه إلى الأعلى محاولًا إبعادي عنه، لكني كنت أضخم منه. صرت واثقًا من أنني قادر على تثبيته.

لكن -عند ذلك- انتفض جسده من جديد فأحسست بيده تضربني عند خاصرتي ضربة خفيفة قاومت ألمها. لم يكن ألمًا عنيفًا، بل مزعجًا، مغثيًا. كان ألمًا عميقًا، داخليًا، غير طبيعي. نظرت فرأيت قبضة يده لا تزال تضغط عند خاصرتي، ثم رأيت الدم وقد بدأ يبلل ثوبه الأبيض.

كانت السكين التي في يده قد انغرست في داخلي. وعندما انتفض من جديد زاعقًا زعيقًا غاضبًا، زعق عالمي كله معه.

جيك!

لست أدري إن كنت قد صحت باسمه أو فكرت به فحسب.

كان سوندرز يكشّر عن أسنانه على مسافة سنتيمترات من وجهي والزبد يتطاير من شدقيه. كان يحاول أن يعضّني. واصلت ضغطي عليه، لكن نظري بدأ يتشظّى عند حواف مجال رؤيتي، وبدأت أرى نجومًا صغيرة. عندما انتفض من جديد، تحرّك نصل السكين مع حركته فانفجرت تلك النجوم في عيني. إذا تركته الآن، فسوف يقتلني ويقتل جيك! ظللت ضاغطًا عليه... بقوة أكبر. تحرّكت السكين من جديد فتحوّل تفجّر النجوم إلى ضوء أبيض لم أعد أرى شيئًا غيره. لكني كنت غير قادر على تركه ينهض. سوف أظل مثبتًا إياه على الأرض... وهو يقتلني.

جيك!

كان الهرج والصياح مستمرين في مكان ما من فوقي. صرت الآن قادرًا على تمييز الكلمات. ابني هناك. وهو يناديني.

جيك!

اختفت النجوم، وغمرني الضوء.

إنني آسف!

66

إن للأدرينالين أسلوبه في إيقاظ المرء. كانت أماندا تقول في نفسها: فرانسيس كارتر، أو ديفيد باركر، أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه على نفسه.

عندما كانت في مركز الشرطة، كانت تستعرض قائمة العاملين في المدرسة باحثة عن رجل في أواخر العشرينيات. يعمل في المدرسة أربعة رجال، بمن فيهم المستخدم. لكن واحدًا فقط من أولئك الرجال كان في عمر قريب مما تبحث عنه. لقد كان جورج سوندرز في الرابعة والعشرين. في حين أن فرانسيس كارتر يجب أن يكون في السابعة والعشرين. لكن، لا حاجة إلا إلى أن يكون العمر تقريبيًا عندما يشتري المرء وثيقة شخصية زائفة.

تحدّث عناصر الشرطة مع سوندرز بعد اختفاء نيل سبنسر، ولم يكن في تلك المقابلة أي شيء مما يلفت النظر. لقد قرأت نصّها. كان سوندرز شخصًا واسع المعرفة، مقنِعًا. لم يكن لديه إثبات لمكان وجوده وقت حدوث الاختطاف بالضبط؛ لكن ذلك لم يكن أمرًا مفاجئًا كثيرًا. ليس له سجل سابق لدى الشرطة. لا شيء يوحي بالخطر، على الإطلاق. لا شيء يستحقّ المتابعة.

إلا أن البحث الجديد كشف الآن عن أن جورج سوندرز الحقيقي قد مات منذ ثلاث سنين.

دخلت سيارة أماندا الشارع. توقّفت في أعلاه عند بيت بدا لها مهجورًا. كان ذلك المكان قبل البيت المستهدف بقليل. وبعد ذلك، توقّفت خلفها شاحنة صغيرة، واقتربت سيارتان أخريان من الجهة المقابلة، فتوقّفتا على مسافة صغيرة في أسفل الشارع. ظلّت السيارات كلّها بعيدة بحيث لا تُرى من البيت. إذا نظر سوندرز الآن من نافذته، فلن يرى شيئًا. كان هذا على سبيل الاحتياط. لا يلزمهم الآن أن يتحصّن الرجل في بيته بحيث ينتهي الأمر إلى حالة احتجاز رهائن. فكّرت أماندا في أن الوضع لن يصل إلى تلك النقطة. إذا حوصر سوندرز، فسوف يقتل جيك كينيدي.

كان هاتفها يهتزّ طيلة الطريق. أخرجته الآن. أربع مكالمات فائتة. كانت المكالمات الأولى الثلاث من رقم مجهول. وكانت المكالمة الرابعة من المستشفى. يعني هذا أن هناك أخبارًا عن بيتْ.

تمزّق شيء في داخلها. تذكّرت كم كان تصميمها كبيرًا الليلة الماضية... تذكّرت تصميمها على عدم خسارة بيت، وعلى العثور على جيك كينيدي. كم كان ذلك التفكير غبيًّا! لكنها وضعت مشاعرها جانبًا، واستجمعت شتات نفسها... إنها قادرة الآن على فعل شيء في ما يتعلّق بهذين الأمرين، واحد فقط.

لن أفقد طفلًا آخر في هذه القضية.

خرجت من السيارة.

كان الشارع صامتًا. بدا الآن كما لو أن المكان مهجور كلّه، كما لو أنه منطقة من البلدة تموت وهي نائمة. سمعت من خلفها صوت انفتاح باب الشاحنة الصغيرة، ثم أعقبه صوت خطوات على الأسفلت. وفي أسفل الشارع، كان أفراد الشرطة يتجمّعون على الرصيف. كانت الخطة أن تذهب إلى البيت أولًا بحيث تبدو قادمة وحدها: ستحاول جعل فرانسيس يفتح الباب ويسمح لها بدخول البيت. في تلك اللحظة، سيتحرّك الجميع، وسيسيطرون عليه خلال ثوانٍ معدودة.

لكن أماندا رأت سيارة كارين شو متوقّفة أمامها. تقدّمت قليلًا في الشارع فرأت باب بيت جورج سوندرز مفتوحًا. بدأت تجري.

«الجميع... تحرّكوا!».

عبرت الحديقة الصغيرة أمام البيت فاجتازت الممرّ، ثم دخلت عبر الباب المفتوح إلى ما بدا لها غرفة معيشة. رأت مجموعة أجساد على الأرض... دم في كل مكان... لكنها لم تدرك على الفور من كان مصابًا ومن لم يكن كذلك.

«ساعديني... أرجوك!».

كان هذا صوت كارين شو. اقتربت أماندا منها. كانت شو راكعة فوق واحدة من ذراعي فرانسيس كارتر محاولة تثبيتها. وبين الاثنين، كان توم كينيدي مستلقيًا فوق فرانسيس كارتر مثبتًا إياه. وأما كارتر نفسه، فقد كان مثبتًا على الأرض وقد أغمض عينيه بشدة. كان يحاول يائسًا أن يتحرّك، لكن وزن الاثنين الضاغط عليه كان كافيًا لجعله عاجزًا عن الحركة.

ومن مكان ما في الأعلى، سمعت أماندا ضجة وصياحًا.

«بابا! بابا».

تدفّق أفراد الشرطة من خلفها... أكثر من عشرة أشخاص... امتلأ المكان بهم.

صاحت كارين: «لا تحرّكوه. إنه مصاب بطعنة سكين».

رأت أماندا ثوب كارتر الأبيض وقد تشبّع دمًا. كان توم كينيدي ساكنًا تمامًا. لم تعرف إن كان حيًّا أم ميتًا.

إذا فقدتُه اليوم أيضًا...

«بابا! بابا!».

على الأقل، لا تزال قادرة على فعل شيء من أجل هذا الصوت. جرت صاعدة إلى الطابق العلوي.

الجزء السادس

67

تذكر بيت سماعه أن حياة المرء تمر خطفًا أمام عينيه عندما يموت.

أدرك الآن أن هذا صحيح. لكن هذا يحدث أيضًا طيلة حياة المرء! كم مضت الأمور سريعًا! عندما كان ولدًا صغيرًا، كان يعجب لِقِصَر حياة الفراشات وحشرات الربيع: لا يعيش بعضها أكثر من أيام معدودة، أو حتى ساعات معدودة!... كان ذلك يبدو له أمرًا يصعب تخيّله. لكنه صار الآن يفهم أن هذا يصح على كل شيء الأمر متعلّق دائمًا بكيفية النظر إليه. تراكمت السنوات أسرع فأسرع مثل أصدقاء تتشابك أذرعهم في دائرة لا تنفك تزداد اتساعًا وتدور أسرع فأسرع مع اقتراب منتصف الليل. ثم -على نحو مفاجئ- ينقضي الأمر.

يتفكّك كل شيء.

يعبر كل شيء خطفًا أمام عيني المرء مثلما يعبر الآن أمام عينيه.

نظر إلى طفل يغفو وديعًا في غرفة ينيرها ضوء خافت آتٍ من الممر. كان الصبي الصغير مستلقيًا على جنبه وشعره منساب خلف أذنيه. كانت يداه مجتمعين معًا أمام وجهه. كل شيء هادئ. طفل دافئ محبوب ينام آمنًا من غير خوف. كتاب قديم، مفتوحة صفحاته، كان على الأرض عند السرير.

كان أبوك يحب هذه الكتب عندما كان صغيرًا.

ثم... ظهر درب ريفي هادئ. الوقت صيف، والعالم متفتّح، مزهر كلّه. نظر من حوله مرفرفًا عينيه. الأسيجة على جانبي الأسفلت الدافئ زاهرة، ضاجة بالحياة؛ والأشجار على الجانبين تلاقت أغصانها في الأعلى فشكّلت أوراقها مظلّة تلون العالم بظلال ليمونية. فراشات ترفرف فوق الحقل. كم كان المكان جميلًا! كانت شدة تركيزه تمنعه من ملاحظة ذلك قبل الآن كان شديد الانشغال بالنظر إلى حد منعه من النظر! الآن، رأى بوضوح شديد كم كان أمرًا عجيبًا أن يسهو عن هذا كلّه فلا يرى منه شيئًا.

وهنا -لمحة خاطفة- كان مشهد بشع كثيرًا فرفض عقله تقبّله. سمع طنين الحشرات تندفع مجنونة عبر هواء ملطّخ برائحة نبيذ، ورأى شمسًا غاضبة تنظر من عُلاها إلى أطفال على الأرض... إلى أطفال لم يعودوا أطفالًا... ثم، على نحو ما، رحمةً به، دار الزمن بسرعة أكبر. عاد إلى الوراء. باب يغلق. وصوت دوران مفتاح في قفله.

لا يجوز أن يكون أحد مضطرًّا إلى رؤية الجحيم، ولا حتى مرة واحدة!

ما من حاجة إلى النظر إلى الداخل بعد الآن.

وها هو شاطئ. الرمل تحت قدميه طري، ناعم كالحرير، دافئ تحت شمس بيضاء ساطعة بدت كأنها تملأ السماء كلّها في الأعالي. وأمامه، كان البحر زاخرًا بريشات فضّية. امرأة جالسة على مقربة شديدة منه حتى أحسّ بالزغب الخفيف على ذراعها يداعب جلده. وبيدها الأخرى، كانت تحمل آلة تصوير توجّهها إليهما معًا. بذل أقصى جهده حتى يبتسم للكاميرا مضيّقًا عينيه أمام وهج نور الشمس. كان في غاية السعادة آنذاك لم يكن يدرك ذلك يومها؛ لكنه كان سعيدًا. كان يحبها كثيرًا، لكنه لم يعرف -لسبب ما- كيف يعبّر عن ذلك الحب. إلا أنه صار يعرف الآن؛ فالأمر في غاية البساطة. عند التقاط الصورة، نظر إلى المرأة وأجاز لنفسه أن يشعر بهذه الكلمة وهو يقولها.

«أحبك».

ابتسمت له.

وها هنا بيتٌ. كان بيتًا لامعًا، بشعًا، نابضًا بالكره، يشبه كثيرًا الرجل الذي يعرف أنه يعيش فيه. ليس راغبًا في دخول البيت، لكن عليه أن يدخله. كان صغيرًا -عاد الآن طفلًا وكان هذا البيت بيته. الباب الخارجي له صرير، والسجادة تتنفّس غبارًا تحت قدميه. الهواء كثيف، ممتلئ ضغينة حتى صار رماديًا. وفي غرفة المعيشة رجلٌ مسنٌ جالس في كرسي ذي ذراعين عند الموقد المفتوح. كان كبير البطن... بطن بارز من تحت سترة قذرة تبلغ فخذيه. تكشيرة على وجه الرجل. دائمًا تكون على وجهه تكشيرة كلما كان هناك شيء ما، مهما يكن.

كم كان ولدًا مخيبًا للآمال. كان واضحًا له كم هو طفل عديم النفع، وكم هو عاجز عن فعل أي شيء يحوز الرضا.

لكن هذا كان غير صحيح.

قال في نفسه: أنت لا تعرفني.

لم تعرفني أبدًا.

في طفولته، كان أبوه لغةً لم يستطع التكلم بها؛ لكنه صار الآن طلق اللسان. كان الرجل يريده شخصًا آخر؛ وكان هذا أمرًا مربكًا. لكنه الآن صار قادرًا على قراءة كتاب أبيه كلّه فأدرك أن ما من شيء من ذلك كان متعلقًا به. وأما الكتاب الخاص به فكان مختلفًا تمام الاختلاف. ما كان عليه إلا أن يكون هو نفسه، لكن فهم هذا استغرق زمنًا استغرق زمنًا طويلًا جدًّا.

وها هي غرفة طفل، غرفة صغيرة لا نوافذ لها ولا يتجاوز عرضها ضعفي عرض سرير لشخص واحد.

يستلقي على السرير ويستنشق عميقًا رائحة الملاءة والوسادة التي بدت فجأة مألوفة له. كانت البطانية الناعمة الصغيرة، بطانية مهدِه، محشورة بين الفراش والجدار الخشبي. مد يده إليها

بحركة غريزية فطوى زاوية قماشها الناعم في قبضة يده وقرّبها من وجهه. أغمض عينيه واستنشق رائحتها.

أدرك أن هذه هي النهاية. تشابكات حياته كلها صارت أمامه، مثل سجادة. رآها الآن بوضوح، وفهمها. صارت كلها جلية عند النظر إليها من هذه النقطة.

تمنّى لو كان يستطيع عيشها من جديد.

وها هو باب يفتح. زاوية ضوء آتٍ من الممر الكالح تسقط على بيتْ، ثم يدخل الغرفة رجل آخر، يدخلها متردّدًا، متحرّكًا ببطء وحذر. إنه يعرج قليلًا كما لو أنه مصاب، وكما لو أن جسده يتألم على نحو ما. يقترب الرجل من السرير ويركع إلى جانبه بصعوبة.

ظل الرجل بعض الوقت ينظر إلى بيتْ النائم غير واثق مما هو موشك على فعله... أخيرًا، توصّل الرجل إلى قرار. انحنى فوق السرير واحتضنه... قدر ما استطاع!

أحس بيتْ بهذا العناق على الرغم من أنه صار الآن غارقًا في أحلام أكثر عمقًا... أو، لعله تخيّل أنه أحسّ به. ولوهلة، شعر بأنّه حظي بالتفهم والصفح. كان ذلك كما لو أن دورة قد اكتملت، أو كما لو أن شيئًا كان ضائعًا قد وُجد أخيرًا.

... كما لو أن جزءًا مفقودًا منه قد عاد إليه!

68

كانت الرسالة في انتظار أماندا عندما عادت إلى بيتها. لكنها لم تفتحها على الفور.

عرفت من أرسلها إليها. كان ذلك واضحًا من خاتم سجن ويترو عليها. لكنها الآن غير مستعدة لمواجهة ما فيها. لقد سكن فرانك كارتر عقل بيتْ عشرين عامًا، وكان يعذّبه، ويلعب به. ستكون ملعونة إن قرأت كلامه المتشدّق في يوم موت بيتْ. بالطبع، لا يعني هذا أن كارتر يمكن أن يكون قد عرف بموته عندما كتب هذه الرسالة لكن هذا الرجل يبدو كما لو أنه يعرف كل شيء!

على الرغم من هذا... اللعنة عليه! لديها أشياء أفضل وأكثر أهمية تقوم بها الآن.

تركت الرسالة على طاولة الطعام، ثم سكبت لنفسها كأس نبيذ. رفعت الكأس وقالت بصوت خافت: في صحتك يا بيتْ! أتمنّى لك رحلة هادئة!

ثم -على الرغم من نفسها بدأت تبكي. كان هذا سخيفًا! لم تكن في يوم من الأيام شخصًا ميالًا إلى البكاء. وقد كانت تفخر دائمًا بأن لها شخصية مستقرّة غير متأثرة بالمشاعر. لكن هذا التحقيق غيّرها. ثم... ما من أحد هنا حتى يراها الآن. قرّرت أن ما من ضير في ترك نفسها تبكي. كان البكاء مريحًا. أدركت بعد برهة أنها لم تكن تبكي على بيتْ بقدر ما كانت تسمح لنفسها بترك الانفعالات التي تراكمت خلال الشهور القليلة الماضية تنسكب خارجة مع دموعها.

بيتْ... نعم! ولكن، نيل سبنسر أيضًا. توم وجيك كينيدي! كلّهم معًا.

كان ذلك كما لو أنها ظلّت حابسة أنفاسها عدة أسابيع، فكان نحيبها الآن تنفّسًا عميقًا هي في أشد الحاجة إليه.

شربت النبيذ. صبت لنفسها كأسًا أخرى.

بعد أن تحدّثت مع توم، وبعد أن عرفت ما صارت تعرفه الآن، تخيّلت أن بيت لا يريد لها أن تثمل في هذه اللحظة. لكنه كان سيفهمها أيضًا. الحقيقة أنها كانت قادرة على تخيّل نظرة التفهم التي سيمنحها إياها إن هو استطاع رؤيتها الآن ستكون مثل تلك النظرات التي كان يمنحها إياها من قبل. ستكون نظرة تقول لها: لقد كنت هناك. وأنا أفهم الأمر. لكنه ليس شيئًا يمكننا الحديث عنه، أليس كذلك؟

لا بأس... لو كان هنا لفهمها. لقد أخذت قضية الهامس آخر عشرين سنة من حياته. وبعد كل ما حدث، يمكنها الآن تخيّل أن الأمر نفسه كان يمكن أن يحدث لها لو لم تكن حذرة. ولكن، ربما كان ذلك أمرًا لا بأس فيه بل لعل ذلك ما ينبغي أن يكون. هناك قضايا تبقى متمسّكة بك، تغرس مخالبها عميقًا وتظل في مكانها فتكون مضطرًا إلى جرجرتها خلفك أينما ذهبت، مهما حاولت

التخلص منها. قبل هذه القضية، كانت تتصوّر دائمًا أنها منيعة أمام هذا الشيء. كانت تظن نفسها متسلّقة مثل لايونز، لا شخصًا يحمل أثقالًا تشده إلى الأسفل مثلما كان بيتْ. لكنها صارت الآن تعرف نفسها معرفة أحسن قليلًا. سيكون هذا شيئًا تحمله معها زمنًا طويلًا. اتضح لها الآن أية شرطية هي... ليست من النوع العقلاني، على الإطلاق!

إذًا، فليكن الأمر هكذا.

شربت النبيذ وصبّت كأسًا ثالثة.

إلا أن هناك إيجابيات تستطيع التشبّث بها... بالطبع. وعلى الرغم من كل شيء، فإن من المهم أن تفعل ذلك. لقد تم العثور على جيك كينيدي في الوقت المناسب. وصار فرانسيس كارتر في السجن. وستكون دائمًا المرأة التي ألقت القبض عليه. لقد أرهقت نفسها -حتى العظام- وفعلت كل ما استطاعت فعله. لم تتلكأ أبدًا. وعندما أتت الساعة، ملأت كل ثانية منها بالعمل الجاد.

وفي آخر المطاف، شدّت عزيمتها وفتحت الرسالة. كانت في ذلك الوقت قد صارت ثملة إلى حدٍّ يجعلها غير مبالية بما قد يقوله فرانك كارتر. أية أهمية له؟ فليكتب ذلك الوغد ما يريد كتابته. سترتد كلماته عنها ارتدادًا. وسيبقى لكي يتعفّن حيث هو. وأما هي فستظلّ هنا. ليس الأمر مثلما كان مع بيت. ليس لكارتر علاقة بها. وهو غير قادر على إيذائها.

صفحة واحدة... صفحة شبه خالية.

ثم أتت كلمات كارتر:

إذا كان بيتر قادرًا على السمع، فقولي له إنني أشكره!

69

كان فرانسيس جالسًا في زنزانته، منتظرًا. لقد أمضى هذين الأسبوعين في السجن في حالة من الترقّب؛ لكن العالم قد تغيّر فيه شيء اليوم. أدرك أن الوقت قد حان أخيرًا. مضى زمن على وقت إطفاء النور، لكنه لا يزال جالسًا بصبر على مقعده في تلك الظلمة؛ ولا يزال مرتديًا ملابسه كلّها. يداه مرتاحتان على فخذيه. راح يصغي إلى أصداء معدنيّة بعيدة، وإلى صفير السجناء الآخرين يخبو من حوله شيئًا فشيئًا. حدّق تحديقًا شبه أعمى في الجدار القرميدي الخشن قبالته.

ينتظر.

إنه رجل كبير. وهو ليس خائفًا.

لقد فعلوا كل ما في وسعهم فعله حتى يجعلونه يخاف... بالطبع! عندما أتوا به إلى السجن أول الأمر، كان تصرّف الحرّاس معه مهنيًا، لكنهم كانوا غير قادرين على إخفاء كرههم له أو غير راغبين في إخفائه. فبعد كل حساب، قتل فرانسيس صبيًا صغيرًا، وقتل واحدًا من الشرطة في نظرهم، قد يكون هذا أسوأ من قتل الصبي! فتشوه تفتيشًا جسديًا. وبما أنه محبوس الآن حبسًا احتياطيًا، فقد كان من المفترض عزله عن بقية السجناء المحكومين. إلا أنه كانت هناك عدّة ضربات ودقّات على بابه، ومعها تهديدات أتته همسًا من الممر الذي في الخارج. لم يفعل الحرّاس شيئًا لوقف ذلك ما عدا نداءات من وقت لآخر تطالب السجناء بالكف عن هذه التصرفات... بدا له الحراس ضجرين. وكان يظنّهم مستمتعين بهذا.

فليستمتعوا!

كان ينتظر. على الرغم من الدفء في الزنزانة، كان جلده مقشعرًا، وكان جسده يرتعش ارتعاشًا خفيفًا. لكن هذا لم يكن نتيجة الخوف.

لأنه... لأنه رجل كبير، ولأنه ليس خائفًا.

رأى أباه أول مرة منذ أسبوع، في مطعم السجن. حتى في أوقات الطعام، كانوا يجعلون فرانسيس يجلس بعيدًا عن بقية السجناء، فيأكل بمفرده على إحدى الطاولات ويقف حارس يراقبه وهو يتناول خليط الطعام المقدم له. كان فرانسيس يظن أنهم يعطونه أسوأ ما لديهم من طعام؛ لكن -إن كان الأمر كذلك- فإنه يستطيع السخرية منهم. لقد أكل في ما مضى طعامًا أسوأ من هذا، أسوأ كثيرًا. وقد استطاع تجاوز معاملة أكثر قسوة من معاملتهم. وضع في فمه ملعقة من هريس البطاطس البارد وقال لنفسه -للمرة المئة- إن هذا ليس إلا اختبارًا له. سوف يتحمّل كل ما يفعلونه به. وسوف يفوز بما...

أدار رأسه فرأى أباه!

دخل فرانك كارتر عبر باب المطعم كما لو أنه مالك السجن كله. كان خافضًا رأسه قليلًا؛ وكان أثر حضوره ظاهرًا في المكان على الفور. رجل كأنه جبل. كان أكثر الحراس أقصر منه قامة بمقدار الرأس؛ وقد ظلّوا على مسافة منه... مسافة احترام! كانت تحف به مجموعة من السجناء، وكلّهم في ملابس السجن البرتقالية. لكنّ أباه كان متميزًا بينهم، وكان واضحًا أنه زعيم المجموعة. لم يبد عليه أنه تقدم في السن. ففي نظر فرانسيس، كان أبوه قويًا، ضخمًا، خارقًا للطبيعة؛ وكان قادرًا -إن أراد أن يسير عبر جدران السجن ويتجاوزها من غير أن يصيبه خدش... بعض الغبار فحسب!

كما لو أنه قادر على فعل كل شيء.

لكز الحارس فرانسيس في ظهره قائلًا له: «أسرع، يا كارتر».

أكل فرانسيس ما بقي من هريس البطاطا قائلًا إن ذلك الرجل سيندم قريبًا على فعلته هذه. أبوه ملك في هذا المكان. وهذا يعني أنه واحدٌ من أفراد الأسرة المالكة. كان يأكل ويسترق نظرات خاطفة في اتجاه الطاولة حيث كان بَلاط أبيه. كان السجناء هناك يضحكون، لكن المسافة بعيدة فلم يستطع فرانسيس فهم ما كانوا يقولونه. إلا أن أباه لم يكن يضحك معهم. خيّل لفرانسيس أن بعض السجناء كانوا ينظرون إليه من حين لآخر، لكنّ أباه لم ينظر إليه أبدًا. لا... تناول فرانك كارتر طعامه بسرعة. ومن حين لآخر، كان يمسح لحيته بمنديل، لكنه كان ينظر أمامه وهو يمضغ طعامه كما لو أن ذهنه مشغول بأمر خطير.

«قلت لك أسرع».

خلال الأيام الماضية، رأى فرانسيس في عدة مناسبات فرانك كارتر؛ وقد كان هو نفسه في كل مرّة. وفي كل مرّة، كان فرانسيس مأخوذًا بحجم ذلك الرجل: يعلو من حوله دائمًا كأنه أب محاط بأطفاله. وفي كل مرة، كان يبدو غير منتبه إلى وجود فرانسيس. فخلافًا لمجموعة الرجال المتحلّقة من حوله، لم ينظر في اتجاهه أبدًا. إلا أن فرانسيس كان يحسّ بوجوده دائمًا. كان يستلقي في زنزانته وحيدًا في الليل فيحسّ فيحس أن لأبيه حضور صلب في مكان ما، خارج متناوله، خارج الباب المتين، وخارج الممرّات الحديدية. كان الترقّب يكبر باستمرار، ثم عرف اليوم أن اللحظة قد جاءت.

قال فرانسيس في نفسه: أنا رجل كبير.

وأنا لست خائفًا.

صمت السجن كلّه، كما لم يصمت من قبل. لا تزال هناك أصوات بعيدة، لكن زنزانته كانت هادئة جدًّا يستطيع سماع صوت تنفسه فيها.

ظلّ منتظرًا.

ثم انتظر.

انتظر إلى أن سمع أخيرًا صوت خطوات تقترب في الممر. كان صوت الخطوات حذرًا مستثارًا. نهض فرانسيس واقفًا. كان قلبه ينبض أملًا. صار الآن يصغي بانتباه أكبر. كان ذلك أكثر من شخص واحد. سمع صوت ضحكة خفيضًا تلته أصوات تطالبه بالهدوء. قرقعة مفاتيح. هذا منطقي يستطيع أبوه الوصول إلى كل ما يريده هنا.

لكن تلك الأصوات كان فيها أيضًا شيئًا يكاد يكون متهكمًا.

وأمام الزنزانة، همس شخص باسمه.

فرانسيسسس!

دار المفتاح في القفل.

ثم انفتح الباب.

دخل فرانك كارتر الزنزانة. ملأت كتلة جسده الضخمة الباب كله. لم يبق في الزنزانة ضوء إلا بالقدر الذي سمح لفرانسيس بتبيّن وجه أبيه، برؤية تعبير وجه. و... بعد ذلك...

عاد طفلًا من جديد.

وعاد مذعورًا.

كان مذعورًا لأنه يتذكّر جيدًا ذلك التعبير على وجه أبيه. إنه التعبير نفسه الذي يكون على وجهه كلّما أتى إلى غرفة فرانسيس ليلًا وأمره بالنهوض والنزول إلى الأسفل لأن هناك شيئًا يجب أن يراه. في ذلك الوقت، كان الكره الذي يراه في وجهه مقيّدًا بفعل الضرورة؛ وكان موجّهًا إلى أطفال آخرين بدلًا منه. وأما هنا... وأما الآن... أخيرًا... فما عادت هناك ضرورة لأية قيود.

قال فرانسيس في نفسه: أنقذوني!

لكن... ما من أحد هنا حتى ينقذه. ما من أحد هنا... مثلما لم يكن هناك أحد طيلة تلك السنين التي مضت. ما كان لديه أحد يناديه فيأتي إليه.

ما كان لديه أحد من قبل، أبدًا.

تقدّم الهامس بخطوات بطيئة. وبيدين مرتعشتين، أمسك فرانسيس بحافّة قميصه السفلى.

ثم رفع القميص فغطى به وجهه!

70

«هل أنت بخير، يا بابا؟».

«ماذا؟»

هززت رأسي. كنت جالسًا إلى جانب سرير جيك ممسكًا كتاب «قوة الثلاثة»، مفتوحًا على الصفحة الأخيرة. وكنت أحدّق في الفراغ. لقد أنهينا الكتاب قبل قليل. ثم شردت مع أفكاري. ضعت فيها!

قلت له: «أنا بخير».

كان واضحًا من وجه جيك أنه لم يصدقني وقد كان محقًّا، بالطبع. كنت بعيدًا جدًا عن أن أكون بخير. لكني لم أرد إخباره بأنني رأيت أبي للمرة الأخيرة في المستشفى ذلك اليوم. ربما أخبره في وقت ما. لكن هناك الكثير مما لا يعرفه بعد. ثم إنني كنت غير واثق من أن لدي الكلمات اللازمة لشرح أيٍّ من ذلك، أو لجعله يفهمه.

لم يتغير أي شيء من تلك الناحية.

«إنه هذا الكتاب، فحسب»... أغلقت الكتاب ومررت بيدي على غلافه متفكّرًا... «لم أقرأه منذ أن كنت طفلًا. أظنه أعاد إليّ بعض الذكريات. جعلني أحس كما لو أنني عدت طفلًا في مثل سنك».

«لا أصدّق أنك كنت طفلًا في مثل سنّي».

ضحكت وقلت: «يصعب تصديق هذا، أليس كذلك؟ هل نتعانق؟».

أزاح جيك غطاء سريره جانبًا، ثم نزل من السرير. وضعت الكتاب، فجلس على ركبتي. فصرخت: «انتبه!».

«آسف، يا بابا».

«لا بأس، إنني أذكرك فقط».

مر نحو أسبوعين منذ أن طعنني جورج سوندرز الذي صرت أعرف الآن أن اسمه فرانسيس كارتر. لا زلت غير عارف كم كنت قريبًا من الموت في ذلك اليوم. بل إنني لم أستطع تذكّر معظم ما جرى. كان معظم ما جرى في ذلك اليوم ضبابًا في رأسي كما لو أن الذعر الذي عشته قد حجب ذلك كلّه وصار يمنعني من استعادته. كان يومي الأول في المستشفى كذلك أيضًا: عادت حياتي

ببطء إلى الوضوح من جديد. لا تزال لدي ضمادات عند خاصرتي؛ وغير قادر على إرخاء ثقلي على إحدى قدميّ بشكل صحيح. لدي أيضًا مجموعة انطباعات لا تتجاوز كثيرًا ما يتذكّره المرء من حلم: جيك يناديني؛ والقنوط الذي أحسسته؛ وحاجتي إلى الوصول إليه.

وأيضا... حقيقة أنني كنت مستعدًا للموت من أجله.

عانقني جيك؛ عانقني برفق شديد. كان علي أن أبذل جهدًا حتى لا أتأوّه. كنت شاكرًا لأنه ليس في حاجة إلى حمله في البيت لصعود السلم أو لنزوله. فبعد ما حدث، صرت قلقًا من أن يصير خوفه أكثر من ذي قبل وأن يعود إلى سابق عهده. لكن الحقيقة هي أن تعامله مع أهوال ذلك اليوم كان أفضل كثيرًا مما توقّعت. لعله كان أفضل من تعاملي معها.

عانقته بأفضل ما استطعت. كان هذا كل ما أقدر على فعله. ثم عاد إلى سريره فنهضت ووقفت بالباب أنظر إليه لحظة. بدا لي هادئًا، دافئًا، آمنًا؛ وكانت رزمة الأشياء الخاصّة راقدة إلى جانب السرير. لم أخبره أنني نظرت فيها ذلك الصباح. ولم أخبره عما وجدته فيها، ولم أقل له شيئًا عن حقيقة الفتاة الصغيرة. كان ذلك أيضًا من الأشياء التي ليست لدي كلمات كافية من أجلها في هذه اللحظة، على الأقل.

«تصبح على خير، يا صاحبي. أحبك».

تثاءب جيك وقال: «أحبك أيضًا، يا بابا».

كان صعود السلم ونزوله لا يزال أمرًا صعبًا علي. أطفأت مصباح غرفته، ودخلت غرفتي حتى أنتظر ريثما يغفو. جلست على حافة السرير وفتحت اللابتوب. ذهبت إلى أحدث ملف ففتحته وقرأت ما فيه.

ريبيكا.

أعرف تمامًا رأيك في هذا لأنك كنت دائمًا شخصية عملية أكثر مني. أنت تريدين أن أتابع حياتي. أنت تريدين أن أكون سعيدًا...

وهكذا دواليك...!

مرّت لحظات قبل أن أفهم ما كتبته لأن يدي لم تمتد إلى هذا الملف منذ تلك الليلة الأخيرة في البيت الآمن. بدا لي أن ذلك كان قبل عمر كامل. إنني أتحدّث عن كارين وكيف أحسست بالذنب لأن لدي مشاعر تجاهها. وهذا أيضًا، بدا لي بعيدًا جدًا في الزمان. لقد أتت لرؤيتي في المستشفى. أخذت جيك بدلًا مني إلى المدرسة. وساعدتني في رعايته بينما كنت أستعيد عافيتي تدريجيًا. صار بيننا قرب متزايد. ما حدث قد جمعنا معًا، لكنه أبعدنا فجأة عن مسار كان أكثر توقّعًا... لم تحدث تلك القبلة بعد. لكنّي لا أزال أحسّها موجودة... تنتظر.

أنت تريدين أن أكون سعيدًا.

نعم.

حذفت كل شيء... عدا اسم ريبيكا.

من قبل، كانت نيتي متّجهة إلى الكتابة عن حياتي مع ريبيكا وعن الأسى الذي عشته بعدها. وكذلك عن الأثر الذي تركه غيابها. لا أزال راغبًا في فعل ذلك لشعوري بأنها ستكون جزءًا مهمًا من أي شيء أكتبه. لم تنته ريبيكا عندما انتهت حياتها لأن الأشياء -حتى من غير وجود الأشباح- لا تكون هكذا. لكني أدركت الآن أن هنالك المزيد والمزيد، وأردت أن أكتب عن ذلك كلّه. أردت أن أكتب حقيقة كل ما حدث.

مستر نايت.

الصبي الذي في الأرض.

الفراشات.

الفتاة الصغيرة ذات الفستان الغريب.

وبطبيعة الحال، الهامس.

كانت تلك مهمّة شاقّة لأن الأمور مختلطة كثيرًا، ولأن هناك أشياء كثيرة لا أعرفها... بل قد لا أعرفها أبدًا. لكن، ومن جديد، لم أكن واثقًا من أن هذا سيكون مشكلة في حدّ ذاته. يمكن أن تكون حقيقة الشيء موجودة في شعور المرء تجاهه بقدر ما هي موجودة في الوقائع.

نظرت إلى الشاشة.

ريبيكا.

كلمة واحدة فقط. لكن، حتى تلك الكلمة كانت غير صحيحة. لقد انتقلنا إلى هذا البيت، أنا وجيك، من أجل بداية جديدة. ومهما تكن ريبيكا جزءًا لا يتجزأ من القصة، فأنا أدرك الآن أن القصّة ليست عنها. تلك هي المسألة كلّها. ينبغي الآن أن يكون تركيزي منصبًا على شيء آخر.

حذفت اسمها. تردّدت. ثم كتبت: جيك.

لدي الكثير مما أريد إخبارك به. لكننا نجد كلام كل منا مع الآخر صعبًا، أليس كذلك؟

لذا، بدلًا من ذلك، علي أن أكتب لك.

وعند ذلك، سمعت جيك يهمس!

جلست ساكنًا تمامًا. أصغيت إلى الصمت الذي أعقب ذلك الهمس فبدا لي أنه يملأ البيت كلّه شؤمًا أكثر من أي وقت مضى. مرّت الثواني... مرت ثوانٍ كثيرة كانت كافية لأن أصدق أنني تخيلت ذلك الصوت.

لكن الهمس عاد من جديد.

في غرفته الواقعة إلى الناحية الأخرى من الممر، كان جيك يكلّم أحدًا ما بهدوء شديد.

أزحت اللابتوب جانبًا ووقفت بحذر شديد، ثم خرجت إلى الممرّ بأقصى ما استطعته من هدوء. غار قلبي قليلًا في صدري. خلال الأسبوعين الماضيين، لم أر أي شيء يشير إلى الفتاة الصغيرة أو إلى الصبي الذي في الأرض. على الرغم من أن ترك جيك على سجيته كان يسعدني، فقد ارتحت لأنه لم يعد إلى ذكرهما. لم أفكر في احتمال عودتهما من جديد.

وقفت في الممر، ورحت أصغي.

همس جيك: «حسنًا. ليلة طيبة». ثم... لا شيء بعد ذلك.

انتظرت قليلًا، لكن من الواضح أن الحديث قد انتهى. عبرت الممر بعد لحظات، ودخلت غرفته. كان الضوء الآتي من خلفي كافيًا لأن أرى جيك مستلقيًا في سريره بهدوء تام ولأن أرى أنه وحده في الغرفة.

اقتربت منه وهمست: «جيك».

«ماذا، يا بابا؟».

كان صوته شديد الخفوت.

«مع من كنت تتكلّم قبل لحظات؟».

لكنه لم يجبني، ولم يكن هناك غير الحركة الخفيفة للغطاء فوق صدره وصوت أنفاسه المنتظمة. لعله كان نصف نائم!... ولعله كان يكلّم نفسه.

غطيته جيدًا وهممت بالخروج من الغرفة عندما سمعته يتكلّم من جديد.

«كان أبوك يقرأ لك في ذلك الكتاب عندما كنت صغيرًا».

مرّت لحظة لم أقل فيها شيئًا. وقفت أنظر إلى جيك الراقد في سريره... ظهره في اتجاهي. الآن، كان الصمت رنينًا. أحسست بأن بالغرفة قد صارت أكثر برودة من ذي قبل. سرت برودة في جسدي.

قلت في نفسي: صحيح. لعلّه كان يقرأ لي!

لكن ما قاله جيك لم يكن سؤالًا. كيف عرف جيك بهذا؟ أنا نفسي لا أتذكّر حدوثه! لكنّي أخبرته بأن هذا الكتاب كان واحدًا من الكتب المفضّلة في طفولتي. سيكون أمرًا طبيعيًا إذا استنتج أن أبي كان يقرأه لي. ليس ضروريًا أن يكون لهذا أي معنى.

قلت: «كان أبي يقرأه لي»... نظرت في أرجاء الغرفة الخالية... «لماذا قلتَ ذلك؟».

لكن ابني كان قد بدأ يحلم.

شكر وتنويه

إنني مدين لعدد من الناس بفضل كبير. أولهم وكيلتي الرائعة، ساندرا ساويكا، ومعها ليا ميدلتون وكل من يعملون في مؤسسة مارجاك. كان جويل ريتشاردسون محرري في مكتب مايكل جوزيف؛ وكان صبره ونصائحه الدائمة مما لا أستطيع تقديره بثمن. أودّ أيضًا أن أشكر إيما هندرسون وسارة سكارليت وكاثرين وود ولوسي بيرسفورد لوكس وإليزابيث براندون وألكس إيلام على مساندتهم وعملهم الجادّ. أشكر أيضًا شان مورلي جونز على تصحيح ما ارتكبته من أغلاط، ولي موتلي على تصميم هذا الغلاف الفنّي الجميل. لقد غمرني كل واحد منكم بفضله، ولست أستطيع أن أفيكم حقّكم من الشكر.

إضافة إلى هذا، فقد اشتهرت «جمعية قصص الجرائم» بكرمها؛ وأنا ممتن دائمًا لما ألقاه من مساندة وصداقة من جانب هذا العدد الكبير من الكتاب المدهشين، ومن القراء والمدونين أيضًا. أنتم رائعون جميعًا. وأودّ أيضًا أن أوجّه شكري الكبير إلى «بلانكتس». أنتم تعرفون مكانتكم.

وأخيرًا أشكر لين وزاك على كل شيء، كل شيء على الإطلاق... لقد تحمّلوني. إنني أهديكما هذا الكتاب مع الكثير من الحبِّ.

عن المؤلف

ولد ألكس نورث في مدينة ليدز بإنجلترا، ويعيش فيها حاليًا مع زوجته وابنه. أُلهم نورث برواية الهامس من خلال ابنه الصغير، حين قال له يومًا ما أنه كان يلعب مع «الولد الذي في الأرض».

ألكس نورث، هو كاتب روايات بوليسية، وقد نشر سابقًا تحت اسم آخر، لم يكشف عنه، على الرغم من المديح الذي تلقته روايته هذه.

عن المترجم

الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملًا مترجمًا؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر»،

- هواردزِن: «ماركس في سوهو» - مسرحية،

- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد»،

- تشارلز تايلر: «المتخيّلات الاجتماعية الحديثة»،

- إيفان كليما: «حب وقمامة» - رواية،

- جورج أورويل: «1984»- رواية، - جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية»،

- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» - رواية،

- سينكليرلويس: «بابِت» - رواية،

- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي؛ موت في العائلة»- رواية،

- كارل أوفه كناوسغارد: «كفاحي؛ رجل عاشق» - رواية،

- لاسلو كراسناهوركاي: تانغو الخراب» - رواية،

- دونا تارت: «الحَسّون» - رواية،

- كاملة شمسي: «نار الدار» - رواية.

- فيليب روث: «حكاية أميركية»- رواية

Contents

عن المؤلف

عن المترجم

الحارث محمد النبهان

Notes

[←1]

() عنوان الكتاب «قوة الثلاثة». والمفارقة المخيفة هنا هي أن الشخص الثالث -أي والدة جيك- لم يعد موجودًا.

[←2]

() مبدأ أوكهام، أو مبدأ أوكام: مبدأ منسوب إلى الفيلسوف الإنكليزي ويليام أوكهام OCCAM الذي صاغه في القرن الثالث عشر ويمكن التعبير عن هذا المبدأ على الشكل التالي: إذا كانت لدينا فرضيتان متنافستان تعطيان التوقّعات ذاتها، فعلينا أن نأخذ بالفرضية الأكثر بساطة.

[←3]

() الاختلاف بين الكلمتين (صبي: boy) و(جثة: body) حرف واحد فقط.

[←4]

() لعبة بوهستيكس (Poohsticks): لعبة بسيطة للأطفال تتطلّب وجود جسر فوق مجرى مائي. يقف الأطفال على الجسر ويرمي كل منهم عصا صغيرة. يفوز من تسبق عصاه بقية العصي في الظهور من الجهة الأخرى من الجسر.